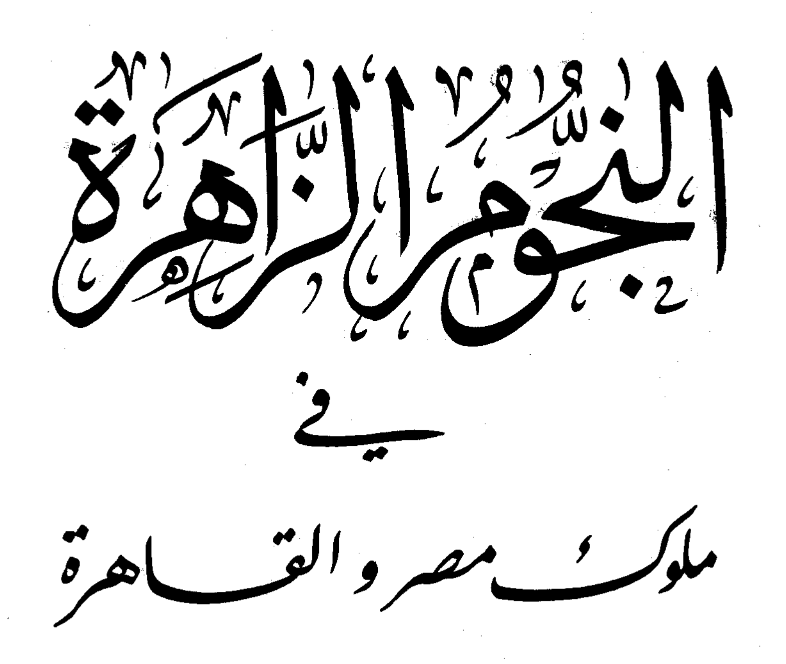


النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغْري بَرْدي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤

قدم له وعلق عليه

محمد حسين شمس الدين

الجزء الثامن

دار الكتب العلمية

بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م

يطلب من : دار الكتب العلمية بيروت . لبنان
ص.ب : ١١/٩٤٢٤ تلكس : Nasher 41245 Le
هاتف : ٣٦٦١٣٥ - ٨١٥٥٧٣

بسم اللهِ الرحمن الرحيم
وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحابته والمسلمين

ذكر سلطنة الملك الأشرف خليل[(١)] على مصر

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل آبن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الألْفِيّ الصالحيّ النَّجمي؛ جلس على تَخْت المُلك يوم وفاة أبيه في يوم الأحد سابع ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة. وكان والده قلاوون قد سَلْطَنه في حياته بعد موت أخيه الملك الصالح عليّ بن قلاوون في سنة سبع وثمانين وستمائة، والمُعْتَدُّ به جلوسه الآن على تخت الملك بعد موت أبيه. وجَدّد له الأمراء والجند الحَلَف في يوم الاثنين ثامن ذي القعدة المذكور. وطلَب من القاضي فتح الدين بن عبد الظاهر تقليدَه، فأخرجه إليه مكتوباً بغير عَلَامة الملك المنصور؛ وكان آبن عبد الظاهر قد قدّمه إليه[(٢)] ليعلِّم عليه فلم يَرْضَ، وتقدّم طلَبُ الأشرف وتكررّ، وآبن عبد الظاهر يُقدّمه إلى الملك المنصور، والمنصور يمتنع إلى أن قال له: «يا فتحَ الدين، أنا ما أولّي خليلاً على المسلمين!» ومعنى ذلك أنّ الملك المنصور قلاوون كان قد نَدِم على توليته السلطنة من بعده. فلمّا رأى الأشرف التقليد بلا علامة، قال: «يا فتحَ الدين، السلطان آمتنع أن يُعطيني، وقد أعطاني الله!» ورَمَى التقليد من يده وَتمَّ أمرُه[(٣)]؛ ورَتّب أمور الديار المصريّة، وكتَب بسلطنته إلى الأقطار، وأرسل الخلَع إلى النوّاب بالبلاد الشامية.

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٧٥٦/٣/١، وخطط المقريزي: ٢٣٨/٢، وبدائع الزهور: ٣٦٥/١/١، والجوهر الثمين: ١٠٥/٢، والحوادث الجامعة: ١٢١، وشذرات الذهب: ٤٢٢/٥، ودول الإسلام: ٣٨٤، وتاريخ ابن الفرات: ٩٨/٨ وما بعدها، وفوات الوفيات: ٤٠٦/١، والبداية والنهاية: ٣٥٤/١٣، وغيرها من كتب التاريخ الإسلامي العام.

(٢) الضمير عائد على المنصور قلاوون.

(٣) في السلوك: «ورمى إليه التقليد، فما زال عند ابن عبد الظاهر.»

وهو السلطان الثامن من ملوك الترك وأولادهم.

ثم خلَع على أرباب وظائفه بمصر؛ والذين خلَع عليهم من الأعيان: الأمير بدر الدين بَيْدَرَا المنصوريّ نائب السلطنة بالديار المصريّة؛ ووزيرُه ومدبِّر مملكته شمس الدين محمد بن السَّلْعُوس الدِّمَشْقِيّ، وهو في الحجاز الشريف؛ وعلى بقيّة أرباب وظائفه على العادة والنوّاب بالبلاد الشاميّة يوم ذاك. فكان نائبه بدمشق وما أُضيف إليها من الشام الأمير حُسام الدين لاجِين المنصوريّ؛ ونائب السلطنة بالممالك الحلبيّة وما أُضيف إليها الأمير شمس الدين قَرَا سُنْقُر المنصوريّ؛ ونائب الفتوحات الساحليّة والأعمال الطرابُلُسيّة والقِلاَع الإسماعيلية[1] الأمير سيف الدين بَلَبان السِّلَحْدَار المعروف بالطّبّاخي؛ ونائبه بالكَرَك والشوبَك وما أُضيف إلى ذلك الأمير ركن الدين بِيبَرْس الدَّوَادَار المنصوريّ، صاحب التاريخ المعروف «بتاريخ[2] بيبرس الدوادار»؛ وصاحب حماة والمَعَرَّة الملك المظفّر تقيّ الدين محمود آبن الملك المنصور محمد الأيُّوبيّ. والذين هم تحت طاعته من الملوك صاحب مكّة المشرّفة الشريف نجم الدين أبو نُمَيّ محمد بن إدريس بن عليّ بن قَتَادة الحَسَنِيّ، وصاحب اليَمَن الملك المظفّر شمس الدين يوسف بن عمر، فهؤلاء الذين أرسل إليهم بالخِلَع والتقليد. إنتهى.

ولمّا رَسَخَتْ قَدَمُ الملك الأشرف هذا في المُلك أخَذ وأعطى وأَمَر ونهَى، وفرّق الأموال وقبض على جماعة من حواشي والده، وصادرهم على ما يأتي ذكره.

ولمّا آستهلّتْ سنة تسعين وستّمائة أَخَذ الملك الأشرف في التجهُّز للسفر[3] للبلاد الشاميّة، وإتمام ما كان قَصَدَه والده من حِصار عَكّا، وأرسل إلى البلاد الشاميّة وجَمع العساكر وعَمِل آلات الحِصار، وجَمَع الصُّنّاع إلى أن تَمّ أمره خرج بعساكره من الديار المصريّة في ثالث شهر ربيع الأوّل من سنة تسعين المذكورة، وسار حتّى

(١) راجع الجزء السابع، ص ١٨٧، حاشية (٣)

(٢) هو كتاب «زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة» في أحد عشر مجلداً. وقد أرّخ فيه من مبدأ الخليقة حتى عام ٧٢٤هـ. (كشف الظنون: ٢/٩٥٢، ودائرة المعارف الإسلامية: ٨/٤٩٥).

(٣) في الأصل: «في تجهيزه إلى السفر».

نازل عَكّا في يوم الخميس رابع شهر ربيع الآخر، ويوافقه خامس نَيْسَان، فآجتمع عنده على عَكّا من الأمم ما لايُحصى كثرةً. وكان المُطَّوِّعة أكثر من الجند ومَنْ في الخدمة. ونصَب عليها المجانيق[١] الكبار الفرنجيّة خمسة عشر مَنْجَنيقاً، منها ما يَرْمِي بقِنطار دمشقي وأكبر، ومنها دونه. وأمّا المجانيق الشيطانيّة وغيرها فكثيرة، ونَقب عِدّة نقوب. وأنجد أهلَ عَكّا صاحبُ قُبْرُس بنفسه، وفي ليلة قدومه عليهم أشعلوا نِيراناً عظيمةً لم يُرَ مثلُها فرحاً به، وأقام عندهم قريب ثلاثة أيام، ثم عاد عندما شاهد آنحلالَ أمرهم وعِظَمَ ما دهَمهم. ولم يزل الحِصار عليها والجِدُّ في أمر قتالها إلى أن آنحلّت عزائم مَنْ بها وضَعُف أمرهم واختلفت كلمتهم. هذا والحِصار عمّال في كلّ يوم، وآسْتُشْهِد عليها جماعةٌ من المسلمين[٢].

فلمّا كان سَحَرُ يوم الجمعة سابع جُمادَى الأولى ركب السلطان والعساكر وزَحفوا عليها قبل طلوع الشمس، وضربوا الكُوسات فكان لها أصوات مَهُولة وحِسٌّ عظيم مُزعج، فحال ملاصقة العسكر لها وللأسوار هَرَب الفرنج ومُلِكت المدينة بالسيف، ولم تَمض ثلاث ساعات من النهار المذكور إلّا وقد آستولى المسلمون عليها ودخلوها؛ وطلَب الفرنج البحرَ فتبِعتْهم العساكر الإسلامية تقتل وتَأسِر فلم ينجُ منهم إلّا القليل؛ ونُهِب ما وُجِد من الأموال والذخائر والسلاح وعمِل الأَسْرُ

(١) المجانيق والمنجنيقات: جمع منجنيق، وهي من أسلحة الحصار. وقد عرفها المماليك وتقدمت صناعتها على أيديهم وهي آلات يقذف بها عن بعد الأحجار واللهب وحتى الزرنيخ والأفيون، والقصد من ذلك خنق العدو. وكانت بعض المنجنيقات الكبار تحمل على مائة عجلة. وكذلك كانت تجرها الأبقار بعد فصل أجزائها بعضها عن بعض ثم تركب عند الحصار. والمنجنيق اسم أعجمي، لأن الجيم والقاف لا يجتمعان في كلمة عربية. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٣٢).

(٢) ذكر منهم المقريزي في السلوك: «عز الدين أيبك العزّي نقيب العساكر، والأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي، وسيف الدين أقش الغتمي، وبدر الدين بيليك المسعودي، وشرف الدين قيران السكزي وأربعة من مقدمي الحلقة وجماعة من العسكر» ـ (السلوك: ٧٦٥/٣/١). وقد رافق المؤرخ أبو الفداء قرنيه المظفر صاحب حماة في الحملة على عكا، وأثبت في تاريخه «المختصر في أخبار البشر» ما شاهده من وقعة عكا (انظر السلوك: ٧٦٣/٣/١، حاشية: ٤). وفي زبدة الفكرة لبيبرس المنصوري وصف شاهد عيان آخر لموقعة عكا. والشاهدان يعطيان فكرة قيمة عن تفصيلات تلك الموقعة ووسائل الحرب المتبعة في ذلك الوقت. (انظر الملحق رقم «١» في نهاية هذا الجزء).

والقتل في جميع أهلها، وعصَى الدِّيويّة والإسبتار[١] وآستتر الأَرْمنُ في أربعة أبراج شواهق في وسط البلد فحُصِروا فيها.

فلمّا كان يوم السبت ثامن عشر الشهر، وهو ثاني يوم فتح المدينة، قصد جماعةٌ من الجند وغيرهم الدارَ والبرجَ الذي فيه الدِّيوِيّة فطلبوا الأمان فأمّنهم السلطان وسيّر لهم صَنْجَقاً، فأخذوه ورفعوه على بُرْجهم وفتحوا الباب، فطلَع إليهم جماعةٌ كثيرة من الجند وغيرهم. فلمّا صاروا عندهم تعرّض بعض الجند والعوامّ للنهب، ومدّوا أيديَهم إلى مَنْ عندهم من النساء والأصاغر، فغلّق الفرنج الأبواب ووضعوا فيهم السيف، فقتلوا جماعةً من المسلمين، وَرَمَوُا الصَّنْجق وتمسّكوا بالعِصْيان وعاد الحِصار عليهم. وفي اليوم المذكور نَزَل مَنْ كان ببرج الإسبتار الأرمن بالأمان فأمّنهم السلطان على أنفسهم وحريمهم على يد الأمير زَيْن الدين كَتْبُغَا المنصوريّ، وتمّ القتال على برج الدِّيوِيّة ومن عنده إلى يوم الأحد التاسع عشر من جُمادى الأُولى طلَب الدِّيوِيّة ومَنْ بقِيَ في الأبراج الأمان، فأمّنهم السلطان على أنفسهم وحريمِهم على أن يتوجّهوا حيث شاؤوا. فلما خرَجُوا قتلُوا منهم فوق الألفين وأسرَوُا مثلَهم، وساقوا إلى باب الدِّهليز النساءَ والصِّبيان، وكان من جملة حَنَق السلطان عليهم مع ما صدر منهم أن الأمير آقْبُغَا المنصوريّ أحد أمراء الشام كان طلع إليهم في جملة مَن طلع فأمسكوه وقتلوه، وعَرْقَبُوا ما عندهم من الخيول، وأذهبوا ما أمكنهم إذهابه، فتزايد الحَنَق عليهم. وأخذ الجندُ وغيرُهم من السَّبي والمكاسب ما لا يُحْصَى.

ولمّا علِم مَنْ بَقِي منهم ما جرى على إخوانهم تمسّكوا بالعِصْيان، وامتنعوا من قبول الأمان وقاتلوا أشدّ قتال، وآختطفوا خمسة نَفَر من المسلمين ورمَوْهم من أعلى البُرْج فسَلِم منهم نفرٌ واحد ومات الأربعة. ثم في يوم الثلاثاء ثامن عشرين جمادى المذكورة أُخذ البرج الذي تأخّر بعكا، وأُنزِل مَن فيه بالأمان، وكان قد غُلِّق من سائر جهاته. فلمّا نزلوا منه وحوّلوا معظم ما فيه سقط على جماعة من المسلمين المتفرّجين وممّن قصَد النّهب فهلكوا عن آخرهم. ثمّ بعد ذلك عزل السلطانُ النساء

(١) راجع الجزء السادس: ص ٣٣ ح ٢ ـ ٣ والجزء السابع ص ٣١٦ ح ١.

والصبيان ناحيةً وضرَب رِقاب الرجال أجمعين وكانوا خلائق كثيرة. والعجبُ أن الله سبحانه وتعالى قَدّر فتحَ عَكّا في مثل اليوم الذي أخذها الفرنج فيه، ومثل الساعة التي أخذوها فيها؛ فإنّ الفرنج كانوا آستولَوْا على عَكّا في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة [سنة سبع وثمانين وخمسمائة] في الساعة الثالثة من النهار، وأمّنوا مَنْ كان بها من المسلمين ثم قتلوهم غدْراً، وقَدّر الله تعالى أنّ المسلمين آسترجعوها منهم في هذه المرّة يوم الجمعة في الساعة الثالثة من النهار، ووافق السابع عشر من جُمَادى الأولى[١]، وأمنّهم السلطان ثمّ قتلهم كما فعل الفرنج بالمسلمين، فآنتقم الله تعالى من عاقبتهم.

وكان السلطان عند منازلته عكّا قد جهّز جماعة من الجند مقدّمهم الأمير علم الدين سَنْجَر الصَّوَابي الجَاشْنَكِير إلى صُور لحفظ الطّرق وتعرّف الأخبار، وأَمَره بمضايقة صُور. فبينما هو في ذلك لم يشعُر إلّا بمراكب المنهزِمين من عَكّا قد وافت المِيناء التي لصُور، فحال بينها وبين المِيناء؛ فطلَب أهلُ صور الأمان فأمنّهم على أنفسهم وأموالهم ويُسَلِّموا صور فأُجيبوا إلى ذلك، فتسلّمها. وصُور من أجلّ الأماكن ومن الحصون المَنيعة، ولم يفتحها السلطان صلاح الدين يوسف بن أَيّوب فيما فَتَح من الساحل، بل كان صلاح الدين كلمّا فتح مكاناً وأمنّهم أوصلهم إلى صُور هذه لحَصَانتها ومَنَعَتها، فألقى الله تعالى في قلوب أهلها الرُّعب حتّى سلمّوها من غير قتال ولا مُنازلة، ولا كان الملك الأشرف في نفسه شيء من أمرها البتّة. وعندما تَسلّمها جهّز إليها مَن أخربها وهدَم أسوارها وأبنيتَها، ونُقِل من رُخامها وأنقاضها شيءٌ كثير. ولمّا تيسر أخذ صور على هذه الصورة قَوِي عزم الملك الأشرف على أخذ غيرها.

ولمّا كان الملك الأشرف محاصِراً لعكّا آستدَعَى الأمير حُسام الدين لاجين المنصوريّ نائب الشام، وهو الذي تسلطن بعد ذلك حسب ما يأتي ذكره، والأميرَ ركن الدين بِيبَرْس المعروف بطُقْصُو في ليلة الاثنين ثالث عشر جمادى الأُولى إلى

---

(١) وليست هذه المصادفة أقلّ غرابة في التقويم المسيحي لأن انتصار الفرنج وقع عام ١١٩١م، أي قبل مائة سنة، ويوماً بيوم على وجه التقريب من هزيمتهم النهائية. (الحروب الصليبية كما رآها العرب: ٣٢٠).

المُخَيَّم وأمسكهما وقيّدهما، وجهّزهما في بكرة نهار الاثنين إلى قلعة صَفَد، ومنها إلى قلعة الجبل. وكان تقدّم قبل ذلك بستّة أيام مسكُ الأمير سَنْجَر المعروف بأبـي خُرْص وجهّزه إلى الديار المصريّة محتاطاً عليه. ثم آستقرّ الملك الأشرف بالأمير علم الدين سَنْجَر الشُّجاعي المنصوري في نيابة الشام عِوضاً عن الأمير لاجين المذكور. وعندما أمسك الأشرف هذين الأميرين الكبيرين حصل للناس قَلَقٌ شديد وخَشُوا من حدوث أمر يكون سبباً لتنفيس الخناق عن أهل عَكّا، فكفَى الله تعالى ذلك.

ثم أمسك الأشرفُ الأميرَ علم الدين أَيْدُغْدِي الإلدكزِيّ نائب صفد وما معها لأمرٍ نَقَمه عليه وصادَره، وجعل مكانه الأمير عَلاء الدين أيدِكين الصالحيّ العماديّ، وأضاف إليه مـع ولاية صَفَد عَكّا وما آستجد من الفتوحات الأشرفيّة. ثم لما فـرغ الأشرف من مصادرة أيدكين[١] المذكور ولّاه بَرَّ صَفَد عوضاً عن علم الدين سنجر الصّوابـيّ. ثم آستدعى الملك الأشرف الأميرَ بِيبَرس الدّوادار المنصوري الخطائي المؤرّخ نائب الكَرَك وعزَله[٢]، وولّى عوضَه الأمير آقوش الأشرفيّ.

ثم رحَل الملك الأشرف عن عكّا في بُكرة نهار الاثنين خامس جُمادى الآخرة، ودخل دمشق يوم الاثنين ثاني عشره بعد أن زُيّنت له دِمَشق غاية الزينة، وعُملت القِباب بالشوارع من قريب المُصَلّى إلى الباب الجديـد، وحصل من الاحتفال لقدومه ما لا يوصف. ودخَل وبين يديه الأَسْرَى من الفرنـج تحتهم الخُيول وفي أرجلهم القيود، ومنهم الحامل من سناجق الفرنـج المنكّسة، وفيهم من حمل رُمحاً عليه من رؤوس قَتْلى الفرنـج، فكان لقدومه يوم عظيم. وأقام الأشرف بدمشق

---

(١) هذا يخالف ما ذكره المؤلف قبل قليل.

(٢) سياق هذا الخبر هنا يشير إلى أن هذا العزل كان بمثابة عقوبة لبيبرس الدوادار، في حين أن المقريزي يشير إلى انتقال بيبرس من نيابة الكرك إلى إمرة بمصر (السلوك: ٧٦٨/٣/١) وكانت هذه النقلة بناءً على رغبة بيبرس نفسه، وقد أشار إلى ذلك في كتابه «زبدة الفكرة» بقوله: «ورسم السلطان لي بالمسير إلى الكرك، فسألته أن أكون في خدمته وأعود في ركابه وصحبته، واعتفيت من العود إلى الكرك فأجاب إلى الإعفاء من العود إليها، ورتّب الأمير جمال الدين أقوش الأشـرفي نائبـاً عن السلطنة فيهـا» ــ (السلوك: ٧٦٨/٣/١، حاشية: ٢).

إلى فجر نهار الأربعاء تاسع عشر شهر رجب. وعاد إلى الديار المصريّة فدخلها يوم الاثنين تاسع شعبان؛ فاحتفل أيضاً أهلُ مصر لملاقاته آحتفالاً عظيماً أضعاف آحتفال أهل دِمَشق؛ وعند دخوله إلى مصر أطلق رُسل صاحب عكّا الذين كانوا معوَّقين بالقاهرة.

ثم إنّ الأمير علم الدين سَنْجَر الشجاعِيّ نائب الشام فتح صَيْدا بعد حِصار كبير بالأمان في يوم السبت خامس عشر شهر رجب. ولمّا أُخذت هذه البلاد في هذه السنة أَمَر السلطان أن تُخرَّب قلعة جُبَيْل وأسوارُها بحيث يُلْحِقها بالأرض فخُرِّبت أصلاً؛ ثم أُخذت عَثْليث[1] بعد شهر.

وأمّا أهل أَنْطَرْطُوس لمّا بلغهم أخذُ هذه القِلاع عزموا على الهَرَب، فجرّد الأميرُ سيف الدين بَلَبَان الطّباخِي عسكراً، فلمّا أحاطوا بها ليلة الخميس خامس شعبان ركبوا البحر وهَرَبوا إلى جزيرة أَرْوَاد[2]، وهي بالقرب منها، فندب إليها السّعْدِيّ بما كان أحضره من المراكب والشواني فأخْلَوْها. وكان فتح هذه المدن الستّ في ستة شهور[3].

ثم رسم الملك الأشرف بالقبض على الأمير علم الدين سَنْجَر الدوادار، فقُبِض عليه في شهر رمضان، وجُهِّز إلى الديار المصريّة بعد أن أُحيط على جميع موجوده؛ ثم أَفْرج الملك الأشرف على جماعة من الأمراء ممّن كان قَبَض عليهم وحَبَسهم، وهم: الأمير لاجين المنصوريّ الذي تسلطن بعد ذلك، وبِيبَرْس طُقْصُو الناصريّ، وسُنْقُر الأشقر الصالحيّ، وبدر الدين بَيْسَري الشمسيّ، وسُنْقُر الطويل

---

(١) عثليث (عتليت): حصن بساحل الشام بين حيفا وقيسارية. وكان يعرف بالحصن الأحمر، ويسميه الفرنج حصن الحجاج. وقد زادت هيئة الفرسان الداوية في تحصينه في أواخر أيام الحروب الصليبية وجعلته المركز الرئيسي لقواتها بالشام. ولا تزال إلى الشمال الغربي من قرية عتليت في فلسطين بقايا ذلك الحصن من العصور الوسطى. (الموسوعة الفلسطينية: ١٨٨/٣).

(٢) أرواد: جزيرة تابعة لسوريا، تواجه طرطوس، على مسافة ثلاثة كيلومترات منها.

(٣) فات المؤلف أن يذكر استيلاء سنجر الشجاعي على بيروت في هذه المدة. وذكر المقريزي أن سنجر الشجاعي نائب الشام لما عاد إلى دمشق في ١٧ رمضان من هذه السنة، أي سنة ٦٩٠هـ، لم يبق في جميع الساحل من الفرنج أحد. (السلوك: ٧٦٩/٣/١).

المنصوريّ، وبدر الدين خِضْر بن جودي القَيْمُرِيّ. وفي شهر رمضان سنة تسعين وستمائة المذكورة أنعم السلطان الملك الأشرف على علم الدين سَنْجَر المنصوريّ المعروف بأَرْجَوَاش خُبْزاً وخَلَع عليه وأُعيد إلى ولاية قلعة دمشق. ثم طلب الملك الأشرف قاضي القُدْس بدر الدين محمد بن إبراهيم بن جماعة إلى الديار المصرية وولّاه قضاءها بعد عزل قاضي القضاة تقي الدين آبن بنت الأعز[١].

وآستمرّ الملك الأشرف بالديار المصريّة إلى أن تجهّز وخرج منها قاصداً البلاد الشامية في يوم السبت ثامن شهر ربيع الآخر من سنة إحدى وتسعين وستمائة، وسار حتّى دخل دِمَشق في يوم السبت سادس جُمادَى الأولى.

وفي ثامن جمادى الأولى أَحْضر السلطان الأموال وأنفق في جميع العساكر المصريّة والشاميّة.

ووصل الملك المظفر تقيّ الدين صاحب حَمَاة لتلقيّ الملك الأشرف فالتقاه فزاد السلطان في إكرامه، وآستعرض الجيوش عليه وأمر بتسفيرهم قدّام الملك المظفّر المذكور.

ثم توجّه الملك الأشرف من دِمَشق بجميع العساكر قاصداً حلب، فوصَلها في ثامن عشرين جُمادَى الأولى؛ ثم خرج منها ونزل على قلعة الروم[٢] بعساكره وحاصرها إلى أن آفتتحها بالسيف عَنوَةً في يوم السبت حادي عشر شهر رجب، وكتَبَ البشائر إلى الأقطار بأخذها. ثم عاد السلطان إلى دِمَشق وترك بقلعة الروم الشّجاعيّ وعساكر الشام ليُعَمِّروا ما آنهدم منها في الحِصار. وكان دخول السلطان إلى دمشق في يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان بعد أن عزَل الأميرَ قرا سُنْقُر

(١) أورد المقريزي شرحاً وافياً لأسباب عزل القاضي ابن بنت الأعز وعلاقته بالسلطان الأشرف خليل ووزيره ابن السلعوس. (انظر السلوك: ١/٣/٧٧١ ـ ٧٧٣).

(٢) قلعة الروم: قلعة من جند قنسرين، في البر الغربي الجنوبي من الفرات، في جهة الغرب الشمالي عن حلب على نحو خمس مراحل منها. وهي من القلاع الحصينة، ويمر بها نهر يعرف بمرزبان يصب في الفرات. وكان بها خليفة الأرمن، ولما فتحها الأشرف خليل سماها قلعة المسلمين. (صبح الأعشى: ٤/١٢٤، والتعريف بالمصطلح الشريف: ٢٣٢).

المنصوريّ عن نيابة حلب بالأمير بَلبَان الطبّاخي، وولّى عوضاً عن الطّباخي في الفتوحات طُغْرِيل الإيغاني.

ولمّا كان السلطان بدمشق عمِل عسكره النَّوْرُوز كعادتهم بالديار المصريّة، وعظُم ذلك على أهل دِمَشق لعدم عادتهم بذلك.

وفي يوم الجمعة ثامن عشرين رمضان قَبَض السلطان على الأمير شمس الدين سُنْقُر الأشقر، وعلى الأمير ركن الدين طُقْصُو، وهَرَب الأمير حُسام الدين لاجين المنصوريّ ونـادوا عليه بدِمَشق: مَنْ أحضره فله ألفُ دينار، ومَنْ أخفاه شُنِق. ثمّ ركب الملك الأشرف ومماليكه في طلب لاجين المذكور، وأصبح يوم العيـد والسلطان في البرية مُهَجّج، وكانوا عمِلوا السِّماط كجاري العادة في الأعياد، وأطلعوا المِنْبر إلى المَيْدان الأخضر، وطلَـع الخطيب مُوَفّق الدين فصلّى في المَيْدان بالعوامّ وعاد السلطان بعد صلاة العصر إلى دِمَشق، ولم يَقَـع للاجين على خَبر. ثم سيرّ الملك الأشرف طُقْصُو وسُنْقُر الأشقر تحت الحَوْطة إلى الديار المصريّة. وأمّا لاجين فإنّ العرب أمسكوه وأحضروه إلى الملك الأشرف فأرسله الملك الأشرف مُقَيّداً إلى مصر. وفي سادس شوّال ولّى السلطانُ الأميرَ عِزّ الدين أَيْبك الحَمَوِيّ نيابة دِمَشق عوضاً عن الشّجاعيّ.

ثم خرج الأشرف من دِمَشق قاصداً الديار المصريّة في ليلة الثلاثاء عاشر شوّال، وكان قد رسَم الأشرف لأهل الأسواق بدِمَشق وظاهرها أنّ كلّ صاحب حانوت يأخذ بيده شَمْعةً ويخرج إلى ظاهر البلد، وعند ركوب السلطان يُشعلها؛ فبات أكثرُ أهل البلد بظاهر دمشق لأجل الفُرْجة! فلمّا كان الثُّلث الأخير من الليل ركب السلطان وأُشْعَلت الناس الشموع، فكان أوّل الشمـع من باب النصر وآخر الوقيد عند مسجد القَدَم، لأنّ والي دمشق كان قد رتّبهم من أوّل الليل، فكانت ليلة عظيمة لم يُرَ مثلُها. وسافر السلطان حتّى دخل الديار المصريّة يوم الأربعاء ثاني ذي القعدة من باب النصر وخرج من باب زُوَيْلَة، وآحتفَل أهل مصر لدخوله آحتفالاً عظيماً، وكان يـوم دخوله يوماً مشهوداً.

ولمّا أن طلَع السلطان إلى قلعة الجبل أنعم على الأمير قَرَا سُنْقُر المنصوريّ المعزول عن نيابة حلب بإمْرة مائة فارس بديار مصر. ثم أفرج عن الأمير حسام الدين لاجين المنصوريّ وأعطاه أيضاً خُبْزَ[١] مائة فارس بديار مصر؛ وسببه أنّ السلطان عاقب سُنْقُر الأشقر وركن الدين طُقْصُو فاعترفوا أنّهم كانوا يريدون قتله، وأنّ لاجين لم يكن معهم ولا كان له آطّلاع على الباطن فخَنَقهم وأفرج عن لاجين بعد ما كان وضع الوَتَر في حَلْقه لخَنقه، فَضمنه خُشداشُه الأمير بدر الدين بَيْدَرَا المنصوريّ نائب السلطان، وعَلَم الدين سَنْجَر الشجاعيّ وغيرهما.

قلت وسُنْقُر الأشقر هو الذي كان تسلطن بدِمَشق في أوائل سلطنة الملك المنصور قلاوون، ووقع له معه تلك الأمور المذكورة في عدّة أماكن. وأمّا لاجين هذا فهو الذي تسلطن بعد ذلك وتلقّب بالملك المنصور حسب ما يأتي ذكره. وكلّما ذكرنا من حينئذ لاجين فهو المنصور ولا حاجة للتعريف به بعد ذلك.

ثم إنهم أخْرَجُوا الأمراء المخنَّقين وسلَّموهم إلى أهاليهم؛ وكان السلطان خنَق معهما ثلاثة أمراء أُخر فأُخرجوا الجميع ودُفنوا؛ ثم غرّق السلطان جماعة أُخرى، وقيل إنّ ذلك كان في مستهلّ سنة آثنتين وتسعين وستّمائة. وآستمرّ السلطان بمصر إلى أن تجهّز وخرج منها إلى الشام في جُمادى الأولى من سنة آثنتين وتسعين وستمائة المذكورة، وسار حتّى دخل دِمَشق في يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة؛ ونزل بالقصر الأَبْلَق[٢] من المَيْدان الأخضر.

ولمّا آستقر ركابه بدِمَشق شرَع في تجهيز العساكر إلى بلاد سِيس[٣] والغارة عليها، فوصل رُسُل صاحب سِيس بطلب الصلح ورِضا السلطان عليه، ومهما طلب منه من القِلاع والمال أعطاه، وشَفَع الأمراء في صاحب سِيس؛ وآتّفق الحال على أن يتسلَّمَ نوّاب السلطان من صاحب سِيس ثلاث قِلاع، وهي: بَهَسنا ومَرْعَش وتلّ حَمْدون ففرِح الناس بذلك، لأنه كان على المسلمين من بَهَسْنَا أذىً عظيم.

(١) أي إقطاع أمير برتبة أمير مائة.
(٢) راجع الجزء السابع، ص ٢٧٨، حاشية (٤)
(٣) راجع الجزء السابع، ص ١٣٩، حاشية (٣).

وأقام السلطان بدمشق إلى مستهلّ شهر رجب توجّه منها، وصحبته عسكر الشام والأمراء وبعض عساكر مصر. وأمّا الضعفاء من عسكر مصر فأعطاهم السلطان دستوراً بعَودتهم إلى الديار المصريّة. وسار السلطان حتّى وصل إلى حِمْص، ثم توجّه منها إلى سَلَمْية مظهراً أنّه متوجِّه إلى ضيافة الأمير حُسام الدين مُهَنّا بن عيسى بن مُهَنّا أمير آل فضل، وكان خروج السلطان من دِمَشق في ثاني شهر رجب؛ فلمّا كان بكرة يوم الأحد سابع شهر رجب وصل الأمير لاجين وصحبته مُهَنّا إلى دِمَشق وهو مقبوضٌ عليه، أمسكه السلطان لمّا آنقضت الضيافة وولّى عِوضَه شخصاً من أولاد عمّه، وهو الأمير محمد بن عليّ بن حُذَيْفَة. وفي بقيّة النهار وصل السلطان إلى دِمَشق، ورَسَم للأمير بَيْدَرا أن يأخذ بقيّة العساكر ويتوجّه إلى مصر، وأن يركب تحت الصناجق عِوضَ السلطان وبَقِي السلطان مع خواصّه بدمشق بعدهم ثلاثة أيام؛ ثم خرج من دِمَشق [في يوم السبت ثالث عشر رجب] وعاد إلى جهة الديار المصريّة في العَشْر الأخير من شهر رجب من سنة آثنتين وتسعين وستمائة.

ثم إن السلطان أَمَر الأمير عزّ الدين أَيْبَك الحَمَوِيّ الأفرم أمير جَانْدَار[1] نائب الشام أن يُسافر إلى الشوبك ويُخرِّب قلعتها، فكلّمه الأفرم في بقائها فآنتهره، وسافر من يومه، وتوجّه الأفرم إلى الشُّوبك وأخربها غير القلعة. وكان ذلك غاية ما يكون من الخطأ وسوء التدبير؛ وكان أخرب قبل ذلك أيضاً عِدّة أماكن بقلعة الجبل، وبقلعة دِمَشق أيضاً أخرب عِدّة قاعات ومباني هائلة. وأمّا قِلاع السواحل فأخرب غالبَها، وكان يقصد ذلك لمعنىً يَخْطُر بباله.

ثم في العشرين من ذي الحجّة نصَب السلطان ظاهر القاهرة خارج باب النصر القَبَق؛ وصفة ذلك أن يُنصَب صارٍ طويلٌ ويُعمَل على رأسه قرعةٌ من ذَهَب أو فضّة ويُجعل في القرعة طيرُ حَمَام، ثمّ يأتي الرامي بالنُّشّاب وهو سائقٌ فرسَه ويَرْمِي عليه، فمن أصاب القرعة وطيّر الحمامَ خُلِع عليه خلعة تليق بـه، ثم يأخـذ

---

(١) أمير جاندار: وظيفته أن يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ويدخل أمامهم إلى الديوان، ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السرّ. (صبح الأعشى: ٤/ ٢٠).

القرعة[١]. وكان ذلك بسبب طهور أخي الملك الأشرف؛ وهو الملك الناصر محمد بن قلاوون، وطهور آبن أخيه الأمير مظفَّر الدين موسى آبن الملك الصالح علاء الدين عليّ بن قلاوون، فاحتفل السلطان لطهورهما وعَمِل مُهِمّاً عظيماً. وكان الطهور في يوم الاثنين ثاني عشرين ذي الحجّة. وعندما طَهّروهم رَمُوا الأمراء الذهب لأجل النّقوط؛ فإن كان الأميرُ أميرَ مائة فارس رَمَى مائة دينار، وإن كان أميرَ خمسين فارساً رمى خمسين ديناراً، وقِسْ على ذلك سائر الأمراء؛ ورَمَى حتى مُقدّمو الحَلْقة والأجناد، فجُمِع من ذلك شيء كثير؛ وهو آخر فرح عَمِله الأشرف هذا.

ثم بعد فَرَاغ المهمّ بمدّة يسيرة، نزل السلطان الملك الأشرف المذكور من قلعة الجبل متوجِّهاً إلى الصيد في ثاني المحرم سنة ثلاث وتسعين وستمائة وصُحْبته وزيره الصاحب شمس الدين بن السَّلْعُوس[٢]، ونائب سلطنته الأمير بدر الدين بَيْدَرَا وجميع الأمراء، فلمّا وصل إلى الطّرّانة[٣] فارقه وزيرُه ابن السَّلْعُوس المذكور وتوجّه إلى الإسكندرية.

وأمّا السلطان فإنّه نزَل بالحمّامات[٤] لأجل الصَّيْد، وأقام إلى يوم السبت ثاني عشر المحرّم. فلمّا كان قرب العصر وهو بأرض تَرُوجَة[٥] حضَر إليه الأمير بدر الدين بَيْدَرَا نائب السلطنة ومعه جماعةٌ كثيرة من الأمراء؛ وكان السلطان بُكْرة النهار قد أمَره

(١) قارن بما جاء في خطط المقريزي: ١١١/٢ عن صفة لعبة القبق ببعض اختلاف عما ورد هنا.

(٢) هو شمس الدين محمد بن فخر الدين عثمان بن أبي الرجاء بن السلعوس الدمشقي. كان في مبدأ أمره تاجراً من أهل دمشق، ثم تعلق بالخدمة وانتمى إلى الصاحب تقي الدين توبة التكريتي ــ وزير دمشق في دولة المنصور قلاوون ــ فاستخدمه في بعض الجهات؛ وتنقل إلى أن ولي حسبة دمشق سنة ٦٨٧هـ. ثم ولي نظر الملك الأشرف بالشام، وتقدّم عنده، ومال الأشرف إليه، ونقله إلى ديوان الديار المصرية، وخلـع عليه خلـع الوزراء. ثم صودر في عهد أبيه وضرب وصرف ولزم بيته. فلما مات قلاوون استقدمه الأشرف خليل وفوّض إليه الوزارة سنة ٦٩٠هـ. توفي في صفر سنة ٦٩٣هـ بعد أن أنتن جسده من شدّة الضرب. (الجوهر الثمين: ١٠٩/٢، حاشية).

(٣) الطرّانة: هي اليوم قرية صغيرة واقعة على الشاطىء الغربي لفرع النيل الغربي ــ فرع رشيد ــ ضمن قرى مركز كوم حمادة بمديرية البحيرة. (محمد رمزي).

(٤) الحمامات: مكان غربي تروجة في جهة البحيرة. (بدائع الزهور: ٣٧٣/١/١).

(٥) تروجة: قرية تابعة لمديرية البحيرة. كانت موجودة إلى القرن التاسع الهجري، ثم درست مساكنها. (الجوهر الثمين: ١٠٨/٢، حاشية).

أن يأخذ العسكر والدِّهْلِيز[١] ويمشي عوضه تحت الصناجق وأن يتقدّمه، ويَبْقَى السلطان يتصيّد وحدَه بقيّة يومه ويعود العشيّة إلى الدِّهلِيز، فتوجّه بَيْدَرَا على ذلك؛ وأخذ السلطان الملك الأشرف يتصيّد ومعه شخص واحد يقال له شهاب الدين الأَشَلّ أميرُ شِكار[٢]، وبينما السلطان في ذلك أتاه هؤلاء: بَيْدَرَا ورفقته، فأنكر السلطان مجيئهم، وكان في وسط السلطان بندٌ حرير وليس معه نِمْجَة[٣] لأجل الصيد، وكان أوّل من آبتدره الأمير بَيْدَرَا فضربه بالسيف ضَرْبَةً قطع بها يدَه مع كَتِفه، فجاء الأمير حُسام الدين لاجين، وهو الذي تسلطن بعد ذلك بمدّة، وقال لبَيْدَرَا: يا نحس[٤]! مَنْ يُريد مُلْك مصر والشام تكون هذه ضربته! ثمّ ضربه على كَتِفه فحّلها، ووقع السلطان على الأرض، فجاء بعدهما الأمير بَهَادُر رأس نَوْبة،[٥]، وأخذ السيف ودسّه في دُبُره وأطلعه من حَلْقه، وبَقِي يجيء واحد من الأمراء بعد واحد ويُظْهِرون ما في أنفسهم منه؛ ثم تركوه في مكانه وآنضموا على الأمير بَيْدَرَا وحلَفوا له، وأخذوه تحت الصناجق وركبوا سائرين بين يديه طالبين القاهرة. وقيل في قتله وجهٌ آخر.

قال القُطْب اليُونِينِيّ: «ومما حكَى لي الأمير سيف الدين بن المِحفَّدار[٦] كيف كان قتل السلطان الملك الأشرف خليل قال: سألت الأمير شهاب الدين

---

(١) الدهليز: هو الخيمة السلطانية، ترافق السلطان في الصيد والتنزه. وله أيضاً خيمة مخصوصة ترافقه في الحرب تسمى الدهليز السلطاني.

(٢) أمير شكار: صاحب هذه الوظيفة يتحدّث على الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها وعلى سائر أمور الصيد. وشكار لفظ فارسي معناه الصيد. (صبح الأعشى: ٢٢/٤).

(٣) النمجة أو النمجاة: خنجر مقوّس شبه السيف القصير. واللفظ فارسي أصله «نيمجة». ويقال أيضاً: نمجا، ونمشا، ونمشاة، ونمشه. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٥٢).

(٤) في السلوك وتاريخ ابن الفرات: «يا بيدرا، من يريد...» وفي بدائع الزهور: «ويلك، الذي يريد السلطنة يضرب هذه الضربة!». وفي الجوهر الثمين: «يا توك...». وهذه الواقعة تقرب من واقعة قتل الظاهر بيبرس البندقداري للمظفر قطز.

(٥) رأس نوبة: لصاحب هذه الوظيفة الحكم على المماليك السلطانية والأخذ على أيديهم. وقد جرت العادة أن يكونوا أربعة أمراء: واحد مقدم ألف، وثلاثة طبلخاناه. (صبح الأعشى: ١٨/٤، ٦٠).

(٦) المحفّدار: مركب من لفظين: محفّة، وهي عبارة عن هودج، ودار ومعناه الممسك. والمحفدار هو الذي يتولى محفّة السلطان أو من يقوم بخدمتها. (صبح الأعشى: ٤٧٠/٥).

أحمد بن الأَشَلّ أمير شِكَار السلطان، كيف كان قتل السلطان الأشرف؟ فقال [آبن] الأَشَلّ: بعد رحيل الدِّهلِيز (يعني مدورة السلطان والعساكر) جاء إليه الخبُر أنّ بَترُوجة طيراً كثيراً، فقال السلطان: اِمش بنا نسبق الخاصَّكِيّة، فركبْنا وسِرْنَا، فرأينا طيراً كثيراً فرماه السلطان بالبُنْدُق، فأصرع شيئاً كثيراً، ثم إنّه آلتفت إليّ وقال: أنا جيعان، فهل معك شيء تُطْعِمُني؟ فقلت: والله ما معي سوى فَرُّوجة ورغيف خُبْز، قد آدّخرتُه لنفسي في صَوْلقِي(١)، فقال لي: ناوِلْني إيّاه، فأخذه وأكله جميعَه، ثم قال لي: أَمسكْ لي فَرَسي حتى أنزلَ وأُرِيق الماء، فقلت له: ما فيها حيلة! أنت راكبُ حِصاناً وأنا راكب حِجْرَة(٢) وما يتفقوا، فقال لي: اِنزل أنت وآركب خَلفِي وأركب أنا الحجْرَة التي لك، والحِجْرَة مع الحِصان تقف، قال: فنزلت وناولتُه لجِام الحِجْرَة، ثم إنّي ركِبتُ خلفَه، ثم إنّ السلطان نزل وقعَد يرُيق الماء، وشرع يُولِـغ بذَكَره ويُمازحني، ثم قام وركب حِصانه ومَسَك لي الحجرة، ثم إنّي ركبت. فبينما أنا وإيّاه نتحدث وإذا بُغبار عظيم قد ثار وهو قاصدٌ نحونا، فقال لي السلطان: سُق وآكشِف لي خَبَر هذا الغُبار، قال: فسُقتُ، وإذا الأمير بدر الدين بَيْدَرَا والأمراءُ معه، فسألتُهم عن سبب مجيئهم فلم يردّوا عليّ جواباً ولا آلتفتوا إلى كلامي، وساقوا على حالهم حتّى قربوا من السلطان، فكان أوّل من آبتدره بَيْدَرَا بالضَّرْبة قطع بها يدَه وتمّم الباقي قتلَه». إنتهى.

وأمّا أمرُ بَيْدَرَا فإنّه لمّا قَتَل السلطانَ بايع الأمراء بَيْدَرَا بالسلطنة ولقّبوه بالملك الأوحد(٣) وبات تلك الليلة، فإنّ قَتْل الأشرف كان بين الظُّهر والعصر. وأصبح ثاني يومه سار بَيْدَرَا بالعساكر إلى نحو الديار المصريّة؛ وبينما بيدَرَا سائر بعساكره وإذا بغُبار عظيم قد علا وملأ الجَوّ وقرُب منه، وإذا بطُلْب عظِيم فيه نحوُ ألف وخمسمائة فارس من الخاصّكِيّة الأشرفيّة، ومعهم الأميرُ زَيْن الدين كَتْبُغَا ــ وهو الذي تسلطن بعد ذلك بمدّة على ما يأتي ذكره ــ والأمير حُسام الدين الأستادار طالبين بيدراً بدم

(١) راجع الجزء السابع، ص ٢٧٨، حاشية ٢.
(٢) الحجرة والحجر: أنثى الخيل.
(٣) وقيل بالملك الرحيم.

أستاذهم السلطان الملك الأشرف خليل المذكور وأَخْذِ الثَّأر منه ومن أصحابه، وكان ذلك بالطَّرّانة في يوم الأحد أوّل النهار؛ فما كان غيرُ ساعة إلا واْلتَقَوْا، وكان بَيْدَرا لمّا رآهم صَفَّ مَنْ معه من أصحابه للقتال، فصدموه الأشرفيّة صَدْمةً صادقة وحملوا عليه حَمْلةً واحدة فرّقوا شَمْله، وهرَب أكثرُ مَنْ كان معه؛ فحينئذ أحاطوا بَبْيَدَرا وقبضوا عليه وحزُّوا رأسه، وقيل: إنهم قطعوا يده قبل أن يَحُزُّوا رأسه، كما قُطِعت يد أستاذهم الملك الأشرف بضربة السيف؛ ولمّا حزُّوا رأسه حملوه على رُمح وسيَّروه إلى القاهرة، فطافوا به ثم عادوا نحو القاهرة حتى وصلوا برَّ الجيزة، فلم يُمكّنهم الأميرُ علم الدين سَنْجَر الشُّجاعِيّ من التعدِيَة إلى بَرّ مصر، لأنّ السلطان الملك الأشرف كان قد تركه في القلعة عند سفره نائبَ السلطنة بها، فلم يلتفتوا إليه وأرادوا التعدية؛ فأمر الشجاعِيّ المراكبَ والشوانَي فعدّت إلى برّ القاهرة، وبقي العسكر والأمراء على جانب البحر مقيمين حتى مشتْ بينهم الرُّسُلُ على أن يُمكّنهم الشجاعيّ من العُبور حتّى يُقيموا عِوَضَ السلطان أخاه الملك الناصر محمد بن قلاوون وهو صغيرٌ، تسكيناً لمَا وَقَع وإخماداً للفتنة، فأجلسوه على تخت الملك بقلعة الجبل في رابع عشر المحرّم من سنة ثلاث وتسعين وستمائة المذكورة، وأن يكون نائب السلطنة الأمير زَيْن الدين كَتْبُغَا، والوزير الأمير علم الدين سَنْجَر الشجاعيّ وحُسام الدين أُستاذ الدار أَتَابك العساكر.

قلت: وساق الشيخ قُطْب الدين اليُونينِيّ[1] واقعةَ الملك الأشرف هذا وقتلَه وقتلَ بَيْدَرا بأطولَ من هذا؛ قال الشيخ قطب الدين:

«وحكَى لي الأمير سيف الدين بن المَحفَّدار أميرُ جاندار قال: كان السلطان الملك الأشرف قد أنْفَذَني في أوّل النهار إلى الأمير بدر الدين بَيْدَرا يأمره أن يأخذَ العساكرَ ويسير بهم، فلمّا جئتُ إليه وقلت له: السلطان يأمرك أن تَسير الساعة تحت الصناجق بالأمراء والعسكر، قال: فنَفَر فيّ بَيْدَرا، ثم قال: السمعَ والطاعةَ؛ قال: ورأيتُ في وجهه أثَر الغَيْظ والحَنَق وقال: ولـمَ يستعجلني! فظهر في وجهه شيء

(١) أي في كتابه: الذيل على مراة الزمان.

ما كنتُ أعهدُه منه؛ ثم إنّي تركتُه ومشيتُ حملتُ الزَّرْدَخاناه[١] والثَّقَل الذي لي وسِرت، فبينما أنا سائرٌ أنا ورفيقي الأميرُ صارمِ الدين الفَخْرِيّ ورُكن الدين أمير جَانْدَار عند المَسَاء، وإذا بنجّاب[٢] سائر، فسألتُ عن السلطان أين تركتَه؟ فقال: طوّل الله أعمارَكم فيه؛ فبينما نحن متحيِّرون في أمره، وإذا بالسناجق التي للسلطان قد لاحت وقربت والأمراءُ تحتها، والأمير بدر الدين بَيْدَرَا بينهم وهم مُحْدقون به؛ قال: فجئنا وسلَّمنا عليه، فقال له الأمير ركن الدين بِيبَرْس أمير جَانْدَار: يا خَوَنْد، هذا الذي فعلتَه كان بمَشُورة الأمراء؟ قال: نعم، إنَّما قتلتُه بمَشُورتهم وحضورهم، وها هم كلّهم حاضرون؛ وكان من جملة مَنْ هو حاضر الأمير حُسام الدين لاجين المنصوريّ، والأمير شمس الدين قَرَا سُنْقُر المنصوريّ، والأمير بدر الدين بَيْسَرِيّ، وأكثر الأمراء سائقون معه؛ قال: ثم إنَّ بَيْدَرَا شرع يُعَدِّد سَيِّئَات السلطان ومخازيَه ومناحِسَه وإهماله أمور المسلمين وٱستهزاءَه بالأمراء ومماليك أبيه ووزارته لابن السَّلْعُوس؛ قال: ثم إنّه سألنَا هل رأيتم الأمير زَيْن الدين كَتْبُغَا؟ فقلنا له: لا، فقال بعض الأمراء: يا خَوَنْد، هل كان عنده عِلمٌ بالقضيّة؟ فقال: نعم، وهو أوّل من أشار بهذا الأمر.

فلمّا كان ثاني يوم وإذا بالأميرين: زَيْن الدين كَتْبُغَا وحُسام الدين أستاذ الدار قد جاؤوا في طُلْب كبير فيه مماليك السلطان الملك الأشرف نحوٌ من أَلْفي فارس وفيهم جماعةٌ من العسكر والحَلْقة، فٱلتَقوْه بالطَّرّانة يوم الأحد أوّل النهار. ثم ساق قطب الدين في أمر الواقعة نحواً مماً ذكرناه من أمر بَيْدَرَا وغيره، إلى أن قال: وتفرّق جمع الأمير بَيْدَرَا. قال ٱبن المِحَفَّدار: فلمّا رأينا ما لنا بهم طاقة ٱلتجأنا إلى جبل هناك شماليّ، وٱختلطنا بذلك الطُّلْب الذي فيه كَتْبُغَا، ورأينا بعض أصحابنا، فقال: شُدُّوا بالعَجَلة مناديلكم في رقابكم إلى تحت آباطكم، فهي الإشارة بيننا وإلاّ قتلوكم أو شلحوكم؛ فعمِلنا مناديلنا في رقابنا إلى تحت آباطنا، وكان ذلك سببَ

---

(١) الزردخاناه: معناه بيت الزرد؛ ويشتمل على أنواع الدروع والزرد والسلاح. ويقال أيضاً: السلاح خاناه. ومعنى اللفظ في سياقه هنا: السلاح.

(٢) النجّاب: البريدي الذي يحمل الرسائل.

سلامتنا، فحصل لنا به نَفْع كثير من جهة الأمير زَيْن الدين كَتْبُغَا ومن السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وسَلِمت بذلك أنفسُنا وأثقالُنا وأموالُنا؛ ثم ظهر لهم أنّنا لم يكن لنا في باطن القضيّة عِلْم. قال: وسِرنا إلى قلعة الجبل. وذكَر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون حسب ما نذكره في ترجمته إن شاء الله تعالى فيما يأتي.

قال: ولمّا كان يوم خامس عشرين المحرّم أُحْضِر إلى قلعة الجبل أميران وهما سيف الدين بهادُر رأس نَوْبة وجمال الدين آقوش الموصليّ الحاجب، فحين حضروا آجتمعوا الأشرفيّة عليهم فضربوا رِقابهم وعلّقوا رأس بَهادُر على باب داره الملاصقة لمشهد الحسين بالقاهرة. وبهادُر هذا هو الذي حطّ السيف في دُبر الملك الأشرف بعد قتله وأخرجه من حَلْقه. ثم أخذوا جثّته وجثة آقوش وأحرقوهما في قَمِين جير.

وأمّا الأمير حسام الدين لاجين المنصوريّ، والأمير شمس الدين قَرَا سُنْقُر فإنّهما آختفيا ولم يَظهر لهما خبرٌ، ولا وقع لهما على أثَر. ثم أحضر المماليكُ الأشرفيّةُ سبعة أمراء، وهم: سيف الدين نُوغَيْه، وسيف الدين أَلِناق، وعلاء الدين أَلْطُنْبُغَا الجَمَدَار، وشمس الدين سَنْقر مملوك لاجين، وحُسام الدين طَرُنْطاي السّاقي، ومحمد خَوَاجا[1]، وسيف الدين أرُوس في يوم الاثنين خامس صفر إلى قلعة الجبل، فلمّا رآهم السلطان المَلك الناصر محمد أمر بقطع أيديهم أوّلاً، وبعد ذلك يُسَمّرُون على الجمال وأن تُعلَّق أيديهم في حُلوقهم ففعل ذلك، ورأسُ بَيْدَرا أيضاً على رُمح يطاف به معهم بمصر[2] والقاهرة، وبَقُوا على هذه الحالة إلى أن ماتوا، وكلّ مَنْ مات منهم سُلِّم إلى أهله، والجميع دفنوهم بالقرافة.

قلت: وقريب ممّا وقع لبَيْدَرا هذا وأصحابه أوائلُ ألفاظ المقالة الخامسةَ عشرةَ من «كتاب أطباق الذهب» للشيخ الإمام الربّاني شرف الدين عبد المؤمن الأصفهانيّ المعروف بشَوَرْوَة[3]، وهي قوله:

---

(١) في الأصل: «محمد جحا». وما أثبتناه عن السلوك.
(٢) أي مصر القديمة التي كانت تعرف بالفسطاط.
(٣) راجع الجزء السابع، ص ١٩٩، حاشية (١).

«من الناس من يستطيبُ رُكوبَ الأخطار، ووُرودَ التَّيار، ولحُوق العار والشَّنار، ويستحِبّ وَقْدَ النار، وعَقْد الزُّنار[١]، لأجل الدينار؛ ويَستلِذ سَفَ الرَّماد، ونَقْل السَّماد، وطيَّ البلاد، لأجل الأولاد؛ ويَصبِر على نَسْف الجبال، ونَتْف السِّبال[٢]، لشهوة المال؛ ويُبَدِّل الإيمان بالكفر، ويَحْفِر الجبال بالظُّفْر، للدنانير الصُّفْر؛ ويَلج ماضِغي الأُسُود، للدراهم السُّود؛ لا يكره صُداعاً، [إذا نال كُراعاً][٣]؛ ويلقى النوائب بقلب صابر، في هَوَى الشيخ أبي جابر[٤]؛ ويَأبَى العِزّ طبيعة، ويَرَى الذّلّ شريعة؛ وإن رُزِق لَعيِعَة[٥]، يراها صنيعة، يُؤمُّ راسُه، وتُرَضُّ أضراسُه؛ وإن أُعْطِيَ درهماً، يراه مَرْهماً.

ومن الناس من يختار العَفاف، ويَعلُف الإسفاف؛ يَدَعُ الطعام طَاوِيا، ويَذَرُ الشراب صادِيا، ويَرَى المال رائحاً غادِيا؛ يترك الدنيا لطُلّابها، ويَطْرَح الجِيفة لكلابها؛ لا يسترزق لئام الناس، ويقْنَع بالخبز الناس[٦]؛ يكره المَنّ والأذى، ويَعافُ الماء على القَذَى؛ إن أثْرَى جعل موجودَه معدوماً، وإن أقوى حَسِب قَفارَه مَأدُوماً؛ جَوْفٌ خال، وثوب بال، ومجدٌ عال؛ ووجهٌ مُصْفَرّ، عليه قُرّ؛ وثوبٌ أسمال، وراءه عزٌّ [و] جَمَال؛ وعَقِبٌ مشقوق، وذَيْلٌ مفتوق، يجرُّه فتى مغبوق. شعر: [البسيط]

لله تحت قِبابِ العِزِّ طائفةٌ أخفاهُمُ في رِداء الفَقْر إجلالا
همُ السلاطينُ في أطمار مَسْكَنَةٍ اِسْتَعْبَدُوا من ملوك الأرض أقْيالا
غُبْرٌ ملابسهم شُمٌّ معاطِسُهم جَرُّوا على فلَكَ الخَضْراءِ أذْيالا
هذي المناقبُ لا ثَوْبانِ من عَدَن خِيطَا قميصاً فصاراً بعدُ أسمالا
هذي المكارمُ لا قَعْبان من لَبَنٍ شِيبا بماءٍ فعادا بعدُ أبوالا

---

(١) عقد الزنّار: كان من علامات أهل الذمّة.
(٢) السبال: الشوارب، وطرف اللحية.
(٣) زيادة من طبعة دار الكتب عن أطباق الذهب.
(٤) أبو جابر: كنية الخبز. ويقال: جابر بن حبّة. وأبو جابر أيضاً: الجوع. وأم جابر: كناية عن السنبلة.
(٥) اللعيعة: خبز الجاورس. والجاورس هو الدُّخن أو الذرة البيضاء.
(٦) الخبز الناسّ: أي اليابس. من نسَّ اللحم والخبز أي يبس.

هم الذين جُبِلُوا برآء من التَّكَلُّف، يَحْسَبهُم الجاهلُ أغنياءَ من التَّعَفُّف».
اِنتهى ما ذكرناه من المقالة الخامسة عشرة وإن كنّا خرجنا عن المقصود من كون غالبها من غير ما نحن فيه، غير أنني لم أذكرها بتمامها هنا إلّا لغرابتها. اِنتهى.

ولمّا مات الملك الأشرف خليل هذا، وتمّ أمرُ أخيه الملك الناصر محمد في السلطنة، آستقرّ الأمير زَيْن الدين كَتْبُغَا المنصوريّ نائبَ السلطنة، وسَنْجَر الشُّجاعِيّ مدبِّرَ المملكة وأتَابَك العساكر؛ وبقيّة الأمور تأتي في أوّل سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون بأوضحَ من هذا.

ولمّا قُتِل الملك الأشرف خليل المذكور بَقِي مُلْقى إلى أن خَرَج والِي تَرُوجَة من بعد قتله بيومين، ومعه أهل تَرُوجة، وأخذوه وغسّلوه وكفّنوه وجعلوه في تابوتٍ في دار الوالي إلى أن سيّروا من القاهرة الأميرَ سعد الدين كوجَبَا الناصريّ إلى مَصْرعه، فأخذه في تابوت ووصل به إلى القاهرة سَحَر يوم الخميس ثاني عشرين صفر، فدفن في تُربة[1] والدته بجوار أخيه الملك الصالح عليّ بن قلاوون ــ رحمهما الله تعالى ــ ورثاه آبن حبيب[2] بقصيدة، أوّلها: [الكامل]

تَبـاً لأقـوامٍ بمـالـك رقّـهم فتكُـوا ومـا رَقُّـوا لحـالـة مُتْـرَف
وافـوه غَـدْراً ثم صـالـوا جملةً بالمَشْرَفيّ على المليـك الأشرف
وافى شهيداً نحو رَوْضات الرِّضا يختـال بين مُزَهّـر ومُزَخْـرف
ومضى يقـول لقـاتليـه تـربصـوا بيني وبينكم عِـرَاضُ المَـوْقـفِ

وقال النُّوَيْرِيُّ في تاريخه: كان مِلكاً مَهيباً شجاعاً مِقْداماً جَسُوراً جَوَاداً كريماً بالمال، أنفق على الجيش في هذه الثلاث سنين ثلاث نفقات: الأولى في أول جلوسه في السلطنة في مال طرنطاي والثانية عند توجهه إلى عَكّا، والثالثة عند توجُّهه إلى قلعة الروم. اِنتهى كلام النُّوَيْريّ باختصار.

---

(١) في بدائع الزهور وخطط المقريزي والانتصار أن دفنه كان بمدرسته (المدرسة الأشرفية) بالقاهرة بالقرب من مزار السيدة نفيسة. وقبره لا يزال موجوداً تحت قبة المدرسة المذكورة والمعروفة إلى اليوم بتربة الأشرف. (محمد رمزي).

(٢) هو طاهر بن الحسين بن عمر، المعروف بابن حبيب. كتب في ديوان الإنشاء بحلب، ثم انتقل إلى القاهرة فناب عن كاتب السرّ. توفي سنة ٨٠٨هـ. (الضوء اللامع: ٣/٤).

وقال الشيخ صلاح الدين خليل بن أَيْبَك الصَّفَدِيّ في تاريخه: «وكان قبل ولاية الملك الأشرف يُؤخذ عند باب الجابية بدِمَشق عن كلِّ حِمْل[1] خمسةُ دراهم مَكْساً، فأوّل ما تسلطن ورَدَت إلى دمشق مسامحةٌ بإسقاط هذا، وبين سطور المرسوم بقلم العَلَامة بخطه: لتسقُطْ عن رعايانا هذه الظُّلامة، ويُستجلَب لنا الدعاء من الخاصّة والعامّة». اِنتهى كلام الصفديّ.

وقال الحافظ أبو عبد الله الذَّهَبِيّ في تاريخه، بعد أن ساق من أحواله قطعةً جيّدة، فقال: «ولو طالت أيّامُه أو حياتُه لأخذ العراق وغيرها؛ فإنّه كان بطَلاً شجاعاً مِقْداماً مهيباً عالي الهمّة يملأ العين ويرجف القلبَ؛ رأيته مرّات، وكان ضَخْماً سَمِيناً كبير الوجه بديع الجمال مُستدير اللّحية، على وجهه رَوْنَقُ الحُسن وهيبةُ السلطنة؛ وكان إلى جوده وبَذْله الأموالَ في أغراضه المنتهى. وكان مَخُوف السطوةِ، شديد الوطأة، قويّ البطش؛ تخافه الملوك في أمصارها، والوحوش العادِيةُ في آجامها. أباد جماعةً من كبار الدولة. وكان منهمكاً في اللذات، لا يعبأ بالتحرّز لنفسه لفرط شجاعته، ولم أحسبه بلغ ثلاثين سنة، ولعل الله عزّ وجلّ قد عفا عنه وأوجب له الجنّة لكثرة جِهاده، وإنكائِه في الكُفّار». اِنتهى كلام الذهبي باختصار.

قلت: وكان الأشرف مُفْرِط الشجاعة والإقدام، وجمهور الناس على أنه أشجع ملوك الترك قديماً وحديثاً بلا مدافعة، ثم من بعده الملك الناصر فرج آبن الملك الظاهر برقوق، وشهرتهما في ذلك تُغْنِي عن الإطناب في ذكرهما.

وكانت مدّةُ مملكة الأشرف هذا على مصر ثلاثَ سنين وشهرين وخمسة أيام،

---

(١) في تاريخ ابن الفرات: «.. عن كل حمل جمل من القمح».
وكانت المكوس متعددة ومتنوعة في عهد سلاطين المماليك لتشمل كل شيء إلا الهواء الذي أخلي سبيله وحده؛ فقد كانت مقرّرة على البيوت، والحوانيت، والخانات، والحمامات، والأفران، والطواحين، والبساتين، والمراعي، ومصائد الأسماك، والمعاصر، والحجاج، والمسافرين، والمراكب، والصيد، والأنعام، والأفراح، والفواحش، وكسح الأوساخ، والهدايا. . . الخ. وكانت جائرة في معظمها، ولذا كان يعمد بعض السلاطين بين الحين والآخر إلى إلغاء بعضها أو تخفيفها. وإلى جانب تسميتها بالمكوس، عرفت بأسماء أخرى منها: الهلالي، والموجب، والحقوق السلطانية، والمعاملات الديوانية. (انظر نظم دولة سلاطين المماليك: ١/٧٣ ـ ٧٤).

لأنّ وفاة والده كانت في يوم السبت سادس ذي القعدة سنة تسع وثمانين وستمائة. وجلس الأشرف المذكور على تخت الملك في صَبِيحة دَفْن والده في يوم الاثنين ثامن ذي القعدة. وقتِل في يوم السبت ثاني عشر المحرّم سنة ثلاث وتسعين وستمائة. انتهى.

وقال الشيخ قُطْب الدين اليُونِينِيّ: ومات (يعني الملك الأشرف) شهيداً مظلوماً، فإنّ جميع مَنْ وافق على قتله كان قد أحسن إليه ومنّاه وأعطاه وخوّله، وأعطاهم ضَياعاً بالشام؛ ولم تتجدد في زمانه مَظْلَمة، ولا آستجدّ ضمان مكس، وكان يُحبُّ الشأمَ وأهله، وكذلك أهلُ الشأم كانوا يحبونه ـ رحمه الله تعالى وعفا عنه ـ.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الأشرف صلاح الدين خليل على مصر

وهي سنة تسعين ستمائة. على أنه حكم من الماضية من يوم الاثنين ثامن ذي القعدة إلى آخرها. اِنتهى.

فيها (أعني سنة تسعين وستمائة) تُوفّي الشيخ عِزّ الدين أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن طَرْخان الأنصاريّ السُّوَيديّ الطبيب المشهور؛ وهو من ولد سعد بن مُعاذ الأَوْسِيّ ـ رضي الله عنه ـ كان قد تفرّد في آخر عمره بمعرفة الطبّ، وكان له مشاركة جيّدة في العربيّة والتاريخ، وآجتمع بأكابر الأطبّاء وأفاضل الحكماء، مثل المُهَذّب عبد الرحيم بن عليّ الدَّخْوَار وغيره، وقرأ علم الأدب على جماعة من العلماء، وكان له نظمٌ جيّد. من ذلك قوله في خِضاب اللّحية: [مخلّع البسيط]

لَـوَ آنَّ تغييـر لَـون شَيْبـي يُعِيـد مـا فـات من شبـابـي
لـمَـا وَفَى لـي بمـا تُـلاقِـي رُوحِيَ من كُلْفـة الخِضـابِ

قلت: ويُعجبني قولُ الشيخ صَفِيّ الدين عبد العزيز الحِلّي في هذا المعنى:

[السريـع]

قالوا آخْضِبِ الشيبَ فقلت آقْصُروا فإنَّ قَصْد الصدق من شيمتي
فكيف أرضى بعد ذا أنَّني أوّل ما أكْذِب في لِحيَتِي

غيره في المعنى: [السريع]

يا خاضب اللّحية ما تَبْتَجِي تُعاند الرحمنَ في خِلقتهْ
أقبحُ شيءٍ قيل بين الورى أن يَكْذِبَ الإنسان في لحيَتهْ

ومن شعر عِزّ الدين صاحب الترجمة [مواليا]:

البدرُ والسعد ذا شبهكْ وذا نجمكْ والقَدُّ واللّحظ ذا رمحك وذا سهمكْ
والبغض والحُبّ ذا قِسْمي وذا قِسمكْ والمِسكُ والحسن ذا خَالَكْ وذا عمّكْ

وفيها تُوُفّي مِلِك التّتار أَرْغون بن أَبْغا بن هُولاكُو عظيم التّتار ومَلِكُهم، قيل: إنه آغتِيل بالسمّ، وقيل: إنّه مات حَتْف أنفه، وآتّهم التركُ اليهودَ بقتله فمالوا عليهم بالسيوف فقتلوهم[1] ونهبوا أموالهم؛ وآختلفت كلمة التّتار فيمَن يُقيمونه بعده في

(١) كانت هذه المحنة التي تعرّض لها اليهود نتيجة طبيعية لسياستهم العدائية للمسلمين وتنكيلهم بهم؛ وكان يقود تلك السياسة وزير أرغون اليهودي سعد الدولة بمباركة من الإيلخان نفسه الذي كان يميل إلى اليهود والمسيحيين بعكس السلطان السابق أحمد تكودار. وقد استغلّ سعد الدولة سلطاته الواسعة فعهد إلى اليهود بعظائم الأمور حتى صاروا يسيطرون على كل كبيرة وصغيرة، وارتفعوا إلى مرتبة الأمراء والسلاطين بعد أن كانوا أذلاء لا في العير ولا في النفير. وركب سعد الدولة في ذلك متن الشطط لدرجة أنه اقترح على السلطان أرغون أن يحوّل الكعبة إلى معبد للأصنام، بل إنه كان يبغي القضاء على الإسلام والمسلمين نهائياً بفكرة جهنمية أوحى بها إلى أرغون إذ أدخل في روعه أن النبوّة وصلت إليه بالوراثة عن جنكيز خان. وفي عز استبداد اليهود مرض أرغون، فخاف سعد الدولة وأتباعه من انتقام المسلمين فحاول استمالة الناس بتوزيع الهبات، كما حاول استقدام غازان بن أرغون، ولكن موت أرغون السريع فوّت عليه محاولته الأخيرة، فقبض عليه أعداؤه وقتلوه. وكان ذلك إيذاناً بالقضاء على اليهود وتعقبهم بالقتل والتعذيب أينما حلّوا، فجرت فيهم مذابح رهيبة مروعة في جميع المدن، وصودرت أموالهم، وقتل في بغداد وحدها ما يزيد على المائة من زعمائهم؛ ولم يبق بلد من بلاد العراق إلا وجرى فيه على اليهود من النهب مثل ما جرى في بغداد، حتى أسلم منهم جماعة ثم عادوا بعد ذلك. ويذكر بعض المؤرخين أن مدينة شيراز وحدها هي التي سلمت من تلك الغارات، رغم أن واليها في ذلك الوقت كان شمس الدولة اليهودي، غير أن المسلمين لم يتعرضوا له بسوء لأنه كان يعدل فيهم ويؤازرهم ويحترم أئمتهم وعلماءهم.

=

المُلك، فمالت طائفةٌ إلى بَيْدُو ولم يُوافقوا [على] كَيْخَتُو، فرحلَ كيختو[١] إلى الروم. وكان أَرْغُون هذا قد عظُم أمرُه عند التّتار بعد قتل عمّه أحمد [تكودار]، ورسخَت قدمُه في الملك، وكان شهماً شجاعاً مِقداماً، حسنَ الصورة، سفّاكاً للدماء، شديد الوطأة.

وفيها تُوُفّي الشيخ عفيف الدين أبو الربيع سليمان بن عليّ بن عبد الله بن عليّ بن يّس العابِدِي ثم الكوفيّ ثم التِّلْمِسانِيّ المعروف بالعفيف التِّلمِسانِيّ، الصوفيّ الشاعر المشهور؛ كان فاضلاً ويَدّعي العِرْفان، ويتكلّم في ذلك على آصطلاح القوم.

قال الشيخ قطب الدين: «ورأيت جماعةً يَنسبونه إلى رِقّة الدِّين؛ وتُوُفّي وقد جاوز الثمانين سنة من العمر؛ وكان حسَن العِشرة كريم الأخلاق له حُرْمة ووجاهة، وخدَم في عدّة جهات.

قلت: وقد تقدّم ذكر ولده الأديب الظريف شمس الدين محمد[٢] أنّه مات في حياة والده العفيف هذا. اِنتهى.

وكان العفيف المذكور من الشعراء المُجيدين وله ديوان شعر كبير. ومن شعره: [السريع]

= ويبدو أن اتهام اليهود بقتل أرغون كان ذريعة لكي يقدم الترك والمسلمون على الانتقام لأنفسهم من اليهود. فالواقع أنه لم يكن لليهود أي مصلحة في قتل أرغون الذي كان يمثل غطاءً مناسباً يتحركون تحته. ولقد كان أرغون يعتقد في السحر والشعوذة والنجوم مثل أغلب سلاطين المغول. وعندما مرض حاول هؤلاء المشعوذون ـ وأكثرهم من اليهود ـ أن يعدوا معجوناً يطيل عمره، ولكن هذا العمل أتى بنتيجة عكسية، إذ اشتدت عليه العلّة وأصيب بالفالج، وساءت حالته. وكان مرضه مرتعاً خصباً لترويج الإشاعات ونذيراً بما ينتظر سعد الدولة ومن ورائه اليهود من هلاك محقق.
(انظر مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني، ص ٦١ ـ ٦٨. والحوادث الجامعة لابن الفوطي: ص ٢٢٠ ـ ٢٢١).

(١) الواقع أن كيخاتو هذا هو الذي تولى السلطنة (الإيلخانية) بعد أرغون من سنة ٦٩٠هـ إلى سنة ٦٩٤هـ. أما بيدو (بايدوخان) فقد تسلطن سنة ٦٩٤هـ من جمادى الأولى إلى ذي القعدة من نفس السنة.

(٢) راجع حوادث سنة ٦٨٨هـ.

يشكـو إلى أردافـه خَصْـرُه لو تسمع الأمواجُ شَكْوَى الغَريقْ
يـا رِدْفَـه رِقّ على خَصْـرِهِ فـإنّه حُمِّـل مـا لا يُـطيقْ

وله: [الكامل]

إن كـان قتلِي في الهـوى يَتعُّيَن يـا قـاتلِي فبسيف جَفْنك أهـونُ
حسبِي وحسبُك أن تكـون مدامعي غُسْلي وفي ثـوب السَّقام أكَفَّنُ
عـجبـاً لـخـدِّك وردة في بـأنـه والبان فوق الغُصن مـا لا يُمكِنُ
أدنتْـه لي سِنَةُ الكَـرَى فلثَمْتُه حتى تَبَـدَّل بـالشَّقِيق السَّـوْسَنُ
ووردتُ كَـوْثَـرَ ثغـره فحسِبتُني في جَنّـةٍ مـن وَجْنيتـه أسْكُنُ
مـا راعني إلا بِـلالُ الخـال فَـوْ ق الخد في صُبْح الجبين يُؤَذِّنُ

قلت: وهذا مأخوذ من قول الحاجِري[١] من قصيدة: [الطويل]

أقام بلالُ الخالِ في صحن خدّه يُراقب من لألاء غُـرتّـه الفَجْـرا

ومنه أيضاً أخذ الشيخ جمال الدين[٢] محمد بن نُبـاتة المصـريّ قولـه: [البسيط]

وٱنظُر إلى الخال فوق الثغر دون لَمىً تَجِدْ بلالاً يُراعي الصبحَ في السَّحَرِ

قلت: وقد سَبق إلى هذا المعنى أميرُ المؤمنين عبد الله[٣] بن المعتزّ بقوله: [السريـع]

أسفَر ضَوءُ الصبـح من وجهِهِ فقـام خـال الخـدّ فيـه بـلالْ
كأنـمـا الـخـال عـلى خـده ساعة هجـرٍ في زمان الـوصـالْ

---

(١) راجع حوادث سنة ٦٣٢هـ.
(٢) انظر حوادث سنة ٧٦٨هـ.
(٣) تقدّمت وفاته في حوادث سنة ٢٩٦هـ.

قلت وقد آستوعبنا من ذكر العَفِيف هذا في ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» نبذةً كبيرة فلينظر هناك.

وفيها تُوفّي الشيخ الإمام العلّامة فقيه الشام تاج الدين أبو محمد عبد الرحمن بن إبراهيم بن سِبَاع بن ضِياء الفَزارِيّ البَدْرِيّ المصريّ الأصل الدمشقي الشافعيّ المعروف بالفِرْكاح. وُلد في شهر ربيع الأوّل سنة أربع وعشرين وستمائة.

قال الصّفَديّ: تفقّه في صغره على الشيخ عِزّ الدين[١] بن عبد السلام، والشيخ تقيّ الدين[٢] بن الصَّلاح، وبَرع في المذهب وهو شابّ، وجلَس للاشتغال وله بضع وعشرون سنة، ودرّس في سنة ثمانٍ وأربعين، وكتب في الفتاوَى وقد أكمل الثلاثين. ولمّا قدِم النَوَوي[٣] من بلده أحضروه ليشتغل عليه، فحَمل همّه وبَعث به إلى مُدرّس الرَّوَاحِيَّة[٤] ليَصِحّ له بها بيتٌ ويرتفقَ بمعلومها. وكانت الفتاوَى تأتيه من الأقطار. وإذا سافر لزيارة القُدْس يترامى أهل البِرّ على ضِيافته، وكان أكبر من الشيخ محيي الدين النَّوَوِيّ بسبع سنين، وهو أفقه نفساً وأذكى وأقوى مناظرةً من الشيخ محيي الدين بكثير، وقيل إنه كان يقول: أيش قال النَّوِوِيّ في مزبلته! (يعني عن الروضة)[٥]، قال: وكان الشيخ عزّ الدين بن عبد السلام يُسمّيه «الدُّوَيْك» لحسن بحثه. إنتهى كلام الصّفَديّ بآختصار.

---

(١) راجع وفيات سنة ٦٦٠هـ.

(٢) راجع وفيات سنة ٦٤٣هـ.

(٣) راجع وفيات سنة٦٧٦هـ.

(٤) المدرسة الرواحية: تقع شرقي مسجد ابن عروة بالجامع الأموي ولصيقه، شمالي جيرون وغربي الدولعية وقبلي الشريفية الحنبلية. بانيها زكي الدين أبو القاسم التاجر المعروف بابن رواحة. (الدارس في تاريخ المدارس: ١/ ١٩٩).

(٥) هو كتاب «روضة الطالبين وعمدة المفتين» في فقه الشافعية.

ومن شعره ما كتبه لزيْن الدين عبد الملك بن العجمي مُلْغِزاً في اسم بَيْدَرا:
[البسيط]

يـا سيّداً مـلأ الآفـاق قـاطبةً بكلِّ فـن من الألـغـاز مُبْتكَـرِ
ما آسمٌ مُسمّاه بَدْرٌ وهو مُشْتَمِلٌ عليه في اللفظ إن حققْتَ في النظرِ
وإن تكن مسقـطاً ثانيـه مُقْتَصِراً عليه في الحذف أضحَى واحدَ البدر

وله [أيضاً دو بيت]

ما أطيبَ ما كنتُ من الوجد لَقِيت إذ أصْبِح بـالحبيب صباً وأَبِيت
واليـوم صحا قلبي من سكـرتـه ما أعرِف في الغرام من أين أُتِيتْ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي مُسْنِد العالم فخر الدين عليّ بن البُخاريّ المقدسيّ في ربيـع الآخر، وله خمس وتسعون سنة. والمعمَّر شهاب الدين غازي بن أبـي الفضل الحَلاَويّ في صفر وفخر الدين عمر بن يحيـى الكرخيّ في شهر ربيـع الآخر، وله إحدى وتسعون سنة. والعلاّمة تاج الدين عبد الرحمن بن إبراهيم بن سِبَاع الفَزَاريّ الشافعيّ في جُمادَى الآخرة، وله ست وستون سنة. والشيـخ العَفيف التِّلْمِسَانِيّ الشاعر سليمان بن عليّ في رجب، وله ثمانون سنة. والمقرىء شهاب الدين محمد بن عبد الخالق بن مُزْهِر في رجب. والقاضي شمس الدين عبد الواسـع بن عبد الكافي الأَبْهَرِيّ في شوّال. والمسنِد نجم الدين يوسف بن يعقوب بن محمد بن المجاوِر في ذي القعدة. والمسند شمس الدين محمد بن [عبد] المؤمن بن أبـي الفتـح الصالحيّ في ذي الحجّة، وهو آخر من سمِـع من الكِنْدِيّ. والإمام شمس الدين أحمد بن عبد الله بن الزُّبَيْر الخابوري خطيب حلب في المحرّم.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربـع أذرع وثلاث أصابـع. مبلـغ الزيادة سبـع عشرة ذراعاً وسبـع أصابـع.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك الأشرف خليل على مصر

وهي سنة إحدى وتسعين وستمائة.

فيها في يوم الجمعة رابع عشرين صفر ظهر بقلعة الجبل حريقٌ عظيم في بعض خزائن الخاصّ[١]، وأتلف شيئاً عظيماً من الذخائر والنفائس والكتب وغيرها.

وفيها تُوفّي الصاحب تاج الدين أحمد ابن شرف الدين سعيد آبن شمس الدين محمد بن الأثير الحلبي الكاتب المنشىء. وأولاد ابن الأثير هؤلاء غير بني الأثير الموصليّين. وكان تاج الدين هذا بارعاً فاضلاً مُعَظّماً في الدُّوَل. باشر الإنشاء بدِمشق ثم بمصر للملك الظاهر بِيبَرْس، ثم للملك المنصور قلاوون، وكان له نظم ونثر ولكلامه رَوْنقٌ وطُلاوة. ومن عجيب ما آتّفق أنّ الأمير عز الدين أَيْدَمُر السِّنَانيّ النَّجِيبيّ الدَّوَادَار أنشد تاج الدين المذكور عند قدومه إلى القاهرة في الأيام الظاهرية أوّل آجتماعه به، ولم يكن يعلم اسمه ولا اسم أبيه، قول الشاعر: [البسيط]

كانت مساءلةُ الرُّكبانِ تُخبرني ... عن أحمدَ بنِ سعيدٍ أحسنَ الخَبَرِ
حتّى آلتقينا فلا والله ما سَمِعت ... أُذْني بأحسن ممّا قد رأى بَصَرِي

---

(١) لم نعثر فيما بين أيدينا من المصادر على «خزائن الخاص» بصيغة الجمع كخزائن تحتوي على الذخائر والنفائس والكتب كما أشار المؤلف. ونعرف من العصر المملوكي «خزانة الخاص» وتسمى أيضاً «ديوان الخاص» وهي تحتوي على ما هو خاص بمال السلطان، وقد أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون، أي بعد التاريخ المشار إليه هنا. (انظر صبح الأعشى: ٤٥٢/٣) وهناك خزانة عرفت في العصر الفاطمي باسم «الخزانة الظاهرة» وفي العصر المملوكي باسم «خزانة الخاص» وكانت تحتوي على أنواع القماش الفاخرة وما كان يحمل إليها من دار الطراز بتنيس ودمياط والإسكندرية، وفيها كان يفصل ما يؤمر به من لباس الخليفة وما يحتاج إليه من الخلع والتشاريف وغير ذلك. (صبح الأعشى: ٤٧٢/٣). ونرجح أن يكون المراد هنا «خزانة الكتب» التي كانت بقلعة الجبل، وكانت هذه الخزانة تتكون من أربعين حجرة، وهي من أجل الخزائن وأعظمها شأناً، وفيها من المصاحف الشريفة المكتوبة بالخطوط المنسوبة الفائقة مجموعة كبيرة، وفيها ما يزيد على مائة ألف مجلد في فنون متنوعة. وقد احترقت هذه المكتبة عام ٦٩١هـ فتلف ما بها من كتب الفقه والحديث والتاريخ وبعد ذلك نهبت. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١١٩).

فقال له تاج الدين: يا مولانا، أتعرِف أحمد بن سعيد؟ فقال: لا، فقال: المملوك أحمد بن سعيد. ولم يزل تاج الدين هذا يَترقّى إلى أن ولي كتابة السرّ بمصر بعد موت فتح الدين محمد بن عبد الظاهر الآتي ذكره. ولمّا ولي كتابة السرّ سافر مع السلطان إلى الديار المصريّة فأدركه أجلُه فمات بغزّة ودُفن هناك؛ وولي بعده كتابة السرّ آبنه عماد الدين إسماعيل مدّة إلى أن عُزل بشرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله العُمَريّ. وكان تاج الدين فاضلاً نبيلاً، وله يدٌ في النظم والنثر. ومن شعره القصيدة التي أوّلها: [الطويل]

أَتَتْني أياديك التي لو تصوّرتْ محاسنُها كانت من الأَنْجم الزُّهْر

وفيها توفي القاضي فتح الدين محمد آبن القاضي محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر بن نَشْوان بن عبد الظاهر الجُذَامِيّ الرَّوْحِيّ المصريّ المعروف بآبن عبد الظاهر صاحب ديوان الإنشاء ومُؤْتَمن المملكة بالديار المصريّة. مولده بالقاهرة في سنة ثمانٍ وثلاثين وستمائة، وسمع الحديث وتفقّه ومهَر في الإنشاء، وساد في الدولة المنصوريّة قلاوون برأيه وعقله وحُسن سياسته، وتقدّم على والده فكان والده من جملة الجماعة الذين يصرفهم أمره ونهيُه. وقد تقدّم ذكره في ترجمة الملك المنصور قلاوون والتعريف بحاله. ومن شعر فتح الدين المذكور لمّا توجّه إلى دمشق في صحبة السلطان وحصل له تَوَعُّك فكتب إلى والده يقول: [الكامل]

إن شئتَ تبصرني وتُبصر حالتي قابل إذا هبّ النسيمُ قَبُولاَ
تلقاه مثلي رِقّةً ونَحافةً ولأجلِ قلبك لا أقول عَلِيلا
فهو الرسول اليك مني ليتني كنتُ آتّخذتُ مع الرسول سبيلا

وله: [الخفيف]

ذُو قَوَامٍ يَجُور منه آعتدالٌ كم طَعِين به من العُشّاقِ
سلَب القُضْبَ لِينَهـا فهي غيظاً واقفاتٌ تشكوه بالأوراقِ

قلت: وأجاد شمس الدين محمد بن العَفِيف في هذا المعنى حيث قال: [مجزوء الرمل]

قَـدُّه حـاز آعـتـدالا فـله فَـتْـكٌ ونُـسْـكُ
سلَب الأغصـان لِـينـاً فـهي بـالأوراق تـشكـو

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي سيف الدين عبد الرحمن بن محفوظ الرَّسْعَنِيّ في المحرّم. وخطيب دِمَشق زَيْن الدين عمر بن مَكِّي الوكيل في ربيع الأول. والمقرىء رضيّ الدين جعفر بن القاسم [المعروف بـا] بن دَبُوقا الرَّبَعِيّ في رجب. والعدل علاء الدين عليّ بن أبي بكر بن أبي الفتح بن محفوظ [بن الحسن] بن صَصرًى الضرير في شعبان. والموقِّعان: سعد الدين [سعد الله] بن مَرْوَان الفَارِقيّ، وفتح الدين محمد بن محيي الدين عبد الله بن عبد الظاهر.

أمر النيل في هذه السنة:
الماء القديم سبع أذرع وستّ عشرة إصبعاً. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً سواء.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الأشرف خليل على مصر

وهي سنة آثنتين وتسعين وستمائة.

فيها حصل ببلاد غزّة والرّملة وقَاقُون والكرك زَلزلةٌ عظيمة، وكان معظم تأثيرها بالكَرَك بحيث آنهدم ثلاثة أبراج من قلعتها، وبُنيان كثيرٌ من دورها وأماكنها. وكانت الزلزلة المذكورة في صفر.

وفيها كانت وفاة الأمير الكبير شمس الدين سُنْقُر بن عبد الله العَلاَئِيّ، ثم الصالحيّ النَّجْمِيّ المعروف بالأشقر؛ كان من كبار الأمراء ممّن تملك الشام في أوائل سلطنة الملك المنصور قلاوون ودعا لنفسه وتلقّب «بالملك الكامل» وخُطب له على منابر الشام، وضُرب الدرهم والدينار بآسمه. وقد أوضحنا من أمره نُبذةً كبيرة

في عدّة مواضـع من ترجمة الملك المنصور قلاوون وغيره. ووَقَـع له مـع الملك المنصور أمورٌ أسفرت بعد سنين على أنّه دخل تحت طاعته، وصار من جملة أكابر أمرائه. وآستمرّ سُنْقُر على ذلك إلى أن مات الملك المنصور قلاوون وملَك بعده آبنُه الملك الأشرف خليل صاحب الترجمة؛ قبَض عليه في هذه السنة وخَنَقه وخنَق معه جماعةً من الأمراء لأمرٍ آقتضاه رأيهُ. والأمراء الذين قُتِلوا معه مثل: الأمير ركن الدين طُقْصُو الناصريّ، وجَرْمَك الناصريّ وبَلَبَان الهارونيّ؛ وكان معهم الأمير حُسام الدين لاجين المنصوريّ الذي تسلطن بعد ذلك، فوضـع السلطان الوتَر في رقبته لخَنْقه فانقطـع الوَتَر؛ فقال لاجين: يا خَوَنْد، أيش ذنبـي! ما لي ذنب إلّا أنّ طُقْصُو حَمَوِي وأنا أطَلِّق بنته، فَرقّوا له خُشْدَاشِيتُه لأمرٍ سبَق في علم الله وقبلوا الأرض وسألوا السلطان فيه، وضمِنه خُشْداشُه الأمير بدر الدين بَيْدَرَا نائب السلطنة، فأطلقه السلطان وأعاده إلى رتبته؛ وأُخِذ سُنْقُر الأشقر هذا ودُفن بالقرافة. وكان سنقر المذكور أميراً شجاعاً مِقْداماً كريماً حسَن السياسة مُهاباً جليلاً معظّماً في الدُّول؛ وخوطب بالسلطنة سنين عديدة إلى أن ضَعُف أمره ونزَل من قلعة صِهْيَوْن بالأمان، وقَدِم على الملك المنصور قلاوون فأكرمه قلاوون، ودام على ذلك إلى أن مات. وكان سُنْقر شجاعاً أشقر عَبْلَ البَدَن جَهْوَرِيّ الصوت مَليـح الشكل. رحمه الله تعالى.

وفيها تُوُفّي الشيخ الصالـح القُدْوة المعتقَد شيـخ الشام أبو إسحاق إبراهيم ابن الشيـخ السيد العارف أبـي محمد عبد الله الأُرْمَوِيّ بزاويته بجبل قاسِيون بعد الظهر وكانت جنازته مشهودة، رحمه الله.

وفيها تُوفّي الصاحب محيـي الدين عبد الله بن رشيد الدين عبد الـظاهر بن نَشْوَان بـن عبد الظاهر السَّعْدِيّ المُوقِّـع كاتب الإنشاء بالديار المصريّة. وقد تقدّم ذكر ولده القاضي فتـح الدين في السنة الماضية. كان محيـي الدين هذا من سادات الكتاب ورؤسائهم وفُضلائهم. ومولده في سنة عشرين وستمائة بالقاهرة، ومات يوم الأربعاء ثالث شهر رجب ودُفن بالقرافة بتربته التي أنشأها. وهو صاحب النظم الرائِق والنثر الفائق. ومن شعره قوله: [المجتث]

يا قاتلي بجُفونٍ قتيلُها ليس يُقبَرْ
إنْ صبَّروا عنك قلبي فهو القتيل المُصَبَّرْ

وله، وأجاد إلى الغاية: [الخفيف]

نَسَب الناس للحمامةِ حُزْناً وأراها في الشَّجْو ليستْ هنالكْ
خَضَبت كَفَّها وطوّقت الجِيـ ـدَ وغنّتْ وما الحزينُ كذلِكْ

وله مُضَمِّناً: [الطويل]

لقد قال كعبٌ في النبيِّ قصيدةً وقلنا عسى في مَدْحه نتشاركُ
فإن شمِلتنا بالجِوائِز رحمةٌ كرحمةِ كعب فهو كَعْبٌ مباركُ

وله: [الخفيف]

سَلَّفتْنا على العقول السُّلافَهْ فتقاضت ديونَها بلطَافَهْ
ضيَّفتنا بالنَّشْر والبِشْرِ واليُسْـ ـرِ ألا هكذا تكون الضِّيافهْ

وقد سُقنا من ترجمته في تاريخنا «المنهل الصافي» عدّةً أُخَر غير هؤلاء المقطَّعات.

وفيها تُوُفّي الأمير علم الدين سَنْجَر بن عبد الله الحلبي، الأمير الكبير أحدُ الموصوفين بالشجاعة والإقدام، وقد شَهِد عدّةَ حروب، وله مواقف مشهورة مع العدوّ. وكان أبيضَ الرأس واللّحية من أبناء الثمانين، وكان ولي نيابة دمشق في آخر سنة ثمانٍ وخمسين وستمائة. ولمّا تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْس لم يبايعه سَنْجَر هذا ودعا لنفسه وحلّف الأمراء وتسلطن بدمشق ولُقِّب «بالملك المجاهد»، فلم يتمّ له ذلك حسب ما تقدّم ذكره في أوّل ترجمة الملك الظاهر بيبرس، وقبَض الظاهر عليه وحبَسه مدّة سنين إلى أن مات. وتسلطن بعده ولدُه الملك السعيد فأفرج عنه وأَمَّره، فدام على ذلك إلى أن تسلطن الملك المنصور قلاوون، و[لما] خرج عليه الأمير سُنْقُر الأشقر المقدّم ذكره وتسلطن بدمشق، ندَب المنصورُ لحربه علَم الدين سَنْجَر هذا، وأضاف إليه العساكر المصريّة، فخرج إليه وقاتله وكَسَره

وأخرجه من دمشق، ثمّ عاد إلى الديار المصريّة، فأنعم عليه المنصور قلاوون بأشياء كثيرة، ثم خانه وقبض عليه وحبَسه إلى أن مات. فلمّا تسلطن ولده الملك الأشرف خليل أفرج عنه وأكرمه ورفَع منزلته. وكان سبب مسك قلاوون له أنّه لمّا كسَر سنقر الأشقر عظُم في أعيُن الناس ولهِج بعض الناس بتسميته «بالملك المجاهد» كما كان تلقّب أوّلاً لمّا آدّعى السلطنة، فبادره قلاوون وقبَض عليه. وكان سَنْجَر هذا من بقايا الأمراء الصالحيّة النَّجْميّة، رحمه الله تعالى.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي الشيخ الزاهد إبراهيم آبن العارف الشيخ عبد الله الأُرْمَوِيّ في المحرّم. وكمال الدين أحمد بن محمد النَّصِيبيّ الحَلبِيّ في المحرّم. والمقرىء جمال الدين إبراهيم بن داود الفاضليّ في أوّل جُمادَى الأولى. والإمام القُدوة تَقِيّ الدين إبراهيم بن عليّ بن الواسطي الحنبليّ في جُمَادَى الآخرة، وله تسعون سنة. والسيف عليّ ابن الرَّضِي عبد الرحمن المَقْدِسِيّ في شوّال. والمحدّث التقي عُبَيْد [بن محمد بن عبّاس] الإسْعِرْدِيّ. وأبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن تَرْجَم المصريّ راوي التِّرْمِذيّ.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ستّ أذرع وعشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وآثنتا عشرة إصبعاً. اِنتهت ترجمة الملك الأشرف خليل.

ذكر سلطنة الملك الناصر محمد[1] بن قلاوون الأولى على مصر

هو السلطان الملك الناصر أبو الفتوح ناصر الدين محمد ٱبن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الصالحيّ النَّجْميّ الأَلْفِيّ سلطان الديار المصريّة وٱبن سلطانها؛ مولده بالقاهرة في سنة أربع وثمانين وستمائة بقلعة الجبل ووالده الملك المنصور قلاوون يُحاصر حصن المَرْقَب؛ وجلس على تخت المُلك بعد قتل أخيه الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون في يوم الاثنين رابع عشر المحرّم، وقيل يوم الثلاثاء خامس عشر المحرّم، من سنة ثلاث وتسعين وستمائة، لأنّ الملك الأشرف قُتِل بتَرُوجة في يوم السبت ثاني عشر المحرّم وقُتِل قاتله الأمير بدر الدين بَيْدَرا في يوم الأحد ثالث عشر المحرّم، ثم ٱتّفقوا على سلطنة الملك الناصر محمد هذا عِوَضاً عن أخيه، فتمّ له ذلك. فتكون سلطنته في أحد اليومين المذكورين تخميناً لِمَا وقع في ذلك من الاختلاف بين المؤرخين. ٱنتهى.

والملك الناصر هذا هو السلطان التاسع من ملوك التُّرك بالديار المصريّة؛ ولما ٱستقر في السلطنة رتّبوا الأمير زَيْن الدين كَتْبُغا المنصوريّ نائب السلطنة بالديار المصريّة عِوضاً عن بَيْدَرا، والأمير علم الدين سَنْجَر الشجاعي وزيراً ومُدبِّراً للمملكة وأتَابَك العساكر؛ ثم قَبَضُوا على جماعة من قَتَلَة الملك الأشرف خليل حسب ما تقدّم ذكره، وتمّ ذلك ودام إلى العشرين من صفر. فبلغ الأمير زَيْنَ الدين كَتْبُغا

---

(١) ترجمته وأخباره في السلوك: ٧٩٣/٣/١، وخطط المقريزي: ٢٣٩/٢، وخطط علي مبارك: ٨٨/١ ــ ٩٨، وبدائع الزهور: ٣٧٨/١/١، والجوهر الثمين: ١١٤/٢، وتاريخ ابن الفرات: ١٧٢/٨ وما بعدها، وفوات الوفيات: ٣٥/٤، وشذرات الذهب: ١٣٤/٦، والدرر الكامنة: ١٦١/٤، وغيرها من كتب التاريخ الإسلامي العام وكتب التراجم.

أنّ الأمير علم الدين سَنْجَر الشجاعيّ يريد الوثوب عليه وقَبْضه وقتله. وكان الذي أخبره بذلك سيف الدين قُنْق[١] التّتاري، وأعلمه بما في باطن الشجاعيّ؛ والسبب في آطّلاعه على ما في باطن الشجاعيّ أنّ هذا قُنْق هاجر من بلاد التّتار في زمن الملك الظاهر بِيبَرْس، وأقام بمصر وأقطع في الحَلْقة فرزقه الله تعالى آثني عشر ولداً كلّهم ذكور، منهم: ستة أولاد في خدمة الملك الأشرف، وخمسة في خدمة الشجاعيّ، وواحد منهم صغير؛ وجميع أولاده شَبابٌ مِلاحٌ من أجمل الناس صورةً. وكان لقُنْق هذا منزلة عظيمة عند الشجاعيّ وكلمتُه مسموعة، وشفاعته مقبولة، وله آطّلاع على أمور الدولة بسبب أولاده؛ فعلم بما دبَّره الشجاعيّ، فحملته الجنسِيّة حتّى أعلم الأمير كَتْبُغا على ما في باطن الشجاعيّ؛ فآحترز كَتْبُغَا على نفسه وأعلم الأمراء بالخبر، وكان الأمراء كارهين الشجاعيّ. فلمّا كان يوم الخميس ثاني عشرين صفر رَكِب الأمير كَتْبُغَا إلى سوق الخيل[٢] فنزل إليه من القلعة أمير يقال له [علم الدين سنجر][٣] البُنْدُقْدارِيّ وقال له من قبل الشجاعيّ: أين حُسام الدين لاجين المنصوريّ؟ أحْضِرْه الساعة؛ فقال له كَتْبُغَا: ما هو عندي؛ وكان لاجين من يوم قُتِل الأشرف قد اختفى، والمماليك الأشرفيّة قد أعياهم أمرُه من كثرة التفتيش عليه، فقال له البُنْدُقْدَارِيّ: بلى، لاجين عندك، ثم مدّ يده إلى سيفه ليضربه به، فجذَب سيف الدين بَلَبَان الأزرق مملوك كَتْبُغَا سيفَه وعلا به البُنْدُقْدارِيّ من ورائه وضربه ضربة حلّ بها كتفه ويده، ثم إنّهم تكاثروا عليه وأنزلوه عن فرسه وذبحوه، وهم مماليك كَتبْغَا، وذلك في وسط سُوق الخيل؛ ومال غالب العسكر من الأمراء والمقدَّمين وأجنادِ الحلقة والتتارِ والأكراد إلى كَتْبُغَا وآنضمُّوا عليه، ومالت البُرْجِيّة[٤]

---

(١) في ابن الفرات: «قنقغ». وفي السلوك: «قنغر». وفي بعض الروايات: «قنقر».

(٢) سوق الخيل: كان موقعه تحت قلعة الجبل، في الجهة التي كانت تعرف بالرميلة، والآن بالمنشية بقسم الخليفة بالقاهرة. ومكانه اليوم المنطقة الواقعة بميدان محمد علي وصلاح الدين، ويدخل فيها الجزء الشمالي الغربي من حديقة المنشية. (محمد رمزي) ــ وانظر خطط المقريزي: ١/٣١٣و٢/٧١، ٢٠٤.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) المماليك البرجية: كان المماليك ينشأون عادة على خدمة أستاذهم والعمل على تأمين سلامة أولاده ورعاية مصالحهم؛ لذلك فإن المماليك الظاهرية بدأوا يناصبون السلطان قلاوون العداء. وإزاء شعوره بسوء نيتهم عزم على إنشاء عصبة من المماليك يكون إخلاصها وولاؤها له ولأولاده من بعده، فاختار =

وبعض الخاصّكيّة إلى سَنْجَر الشجاعيّ، لأنّ الشجاعيّ كان أنفق فيهم في الباطن في يوم واحد ثمانين ألف دينار، وآتّفق معهم أيضاً أنّ كلّ من جاء برأس أمير كان له إقطاعه؛ وكان الاتّفاق معهم أنّه في يوم الخميس وقت المَوْكِب لمّا يطلُع الأميرُ كَتْبُغَا إلى القلعة ويَمُدُّوا السِّماط يُمْسَك هو ومن اتّفق معه من الأمراء يقبِضون عليهم. فآستعجل البُنْدُقْدَارِيّ ونزل إلى سوق الخيل وفَعل ما ذكرناه.

ولمّا وقع ذلك تحقّق الأمراء صحّة ما نَقَل إليهم الأميرُ زَيْن الدين كَتْبُغَا عن الشجاعيّ، فآجتمع في الحال الأمراء عند كَتْبُغَا بسوق الخيل وركبت التّتار جميعهم وجماعة من الشَّهْرُزُورِيّة والأكراد وجماعة من الحَلْقة كراهِيَةً منهم في الشجاعيّ، وخرَج الشجاعيّ بمن معه إلى باب القلعة، فإنّ إقامته كانت بالقلعة، وأَمَر بضرب الكُوسات[(١)] فضُربت، وبقي يطلب أن يطلُع إليه أحدٌ من الأمراء والمقدَّمين فلم يُجبه أحد؛ وكان قد أخرج صُحبته الذهب في الصُّرَر وبقي كلّ من جاء إليه يُعطيه صُرّة؛ فلم يجيء إليه إلاّ أُناس قليلون ما لهم مرتبة. وشرَع كَتْبُغَا ومَن معه في حِصار القلعة وقطعوا عنها الماء وبَقُوا ذلك اليوم مُحاصرين. فلمّا كان ثاني يوم نزَلت البُرْجِيّة من القلعة على حَمِيّة وتلاقَوْا مع كَتْبُغَا وعساكره وصدموه صَدْمةً كسروه فيها كَسْرة شنيعة وهزموه إلى بئر البَيْضاء[(٢)]، وتوجّه كَتْبُغَا إلى جهة بلبيس؛ فلمّا سمعوا باقي الأمراء بذلك رَكِب الأمير بدر الدين بَيْسَرِيّ المنصوريّ والأمير بدر الدين

= أعضاءها من الجراكسة والروس واللاظ وأسكنهم في أبراج في قلعة الجبل، فسموا المماليك البرجية. ودأب قلاوون على زيادة عدد مماليكه حتى بلغ عددهم في نهاية عهده ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك. واتبع الأشرف خليل نهج أبيه بالإكثار من الجراكسة فاشترى في عهده القصير ألفي مملوك جميعهم من الجراكسة. وازداد عدد المماليك الجراكسة ونفوذهم، ودخلوا في صراع طويل مع المماليك الأتراك واستطاعوا أن يستولوا على الملك. وكان أول سلاطينهم الملك الظاهر برقوق ٧٨٤هـ. واستمرت السلطة في يدهم إلى أن أسقطهم العثمانيون سنة ٩٢٣هـ.

(١) الكوسات: صنوج من نحاس شبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص؛ ويتولى ذلك الكوسيّ. (صبح الأعشى: ٤/٩، وزبدة كشف الممالك: ١١٣).

(٢) بئر البيضاء: كانت هذه البئر واقعة بين بلدتي الخانكة وبلبيس على الطريق بين القاهرة وغزة. (صبح الأعشى: ٣٧٦/١٤) ومكانها اليوم عزبة أبي حبيب الواقعة في حوض البيضاء بأراضي ناحية الزوامل بمركز بلبيس. (محمد رمزي).

بَكْتَاش الفَخْرِيّ أمير سلاح وبقيّة العساكر المصريّة، وتوجهت الجميع إلى نُصْرة الأمير كَتْبُغَا وأصحابه، وقاتلوا المماليك البرجية حتّى كسروهم وردّوهم إلى أن أدخلوهم إلى قلعة الجبل؛ ثم جدّوا في حِصار القلعة ومَن فيها، وعاد الأمير كَتْبُغَا وقد قَوِي عَضُدُه بخُشْداشِيته والأمراء؛ ودام الحصار على القلعة إلى أن طلعت الستّ خَوَنْد(١) والدة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى أعلى السُّور وكلمتهم بأن قالت لهم: أيش هو غرضكم حتى إننا نفعله لكم؟ فقالوا: ما لنا غرض إلّا مسك الشجاعيّ وإخماد الفتنة، ونحن لو بَقِيت بنت عَمْياء من بنات أستاذنا الملك المنصور قلاوون كنّا مماليكها لا سيما [و]ولده الناصر محمد حاضرٌ وفيه كفاية. فلمّا علمت ذلك رجعْت واتّفقت مع الأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار، وغلقوا باب القُلّة من القلعة وهي التي عليها المعتمد، وبَقِي الشجاعي بداره بالقلعة محصوراً. فلمّا رآه أصحابه أنّه في أنحس حال شرعوا في النزول إلى عند الأمير كَتْبُغَا، فبَقِي جمع الشجاعيّ يَقِلّ وجَمْع كَتْبُغَا يكثُر إلى يوم السبت رابع عشرين صفر ضَجِر الشجاعيّ وطلب الأمان فلم يوافقوه الأمراء؛ وطلع وقتَ صلاة الظهر بعضُ الأمراء وجماعة من الخاصّكية وفيهم آقوش المنصوريّ إلى عند الشجاعيّ يطلبونه إلى عند السلطان وإلى والدته في صورة أنهم يريدون يستشيرونه فيما يعملون، فمشى معهم قليلاً وتكاثروا عليه المماليك وجاء آقوش من ورائه وضربه بالسيف ضَرْبةً قطع بها يده، ثم بادره بَضْربة ثانية أبرى بها رأسه عن جسده، وأخذوا رأسه في الحال ورفعوه على سُور القلعة(٢)، ثم عادوا ونزلوا به إلى كَتْبُغَا

(١) هي خوند أشلون، كما في بدائع الزهور. وفي السلوك: أشلون خاتون ابنة الأمير سكناي بن قراجين بن جنكاي نوين.

(٢) وروى ابن إياس أن الشجاعي «دخل على السلطان وقت الظهر (بعدما تفرق عنه جنوده وحوصر) فقال له السلطان: يا عمّي إيش آخر هذا الحال الذي أنتم فيه؟ فقال له الشجاعي: هذا كله لأجلك يا ابن أستاذي، فإنهم يقصدوا خلعك من السلطنة ويمسكوني أنا. فقال له السلطان: يا عمّي، أنا أعطيك نيابة حلب، واخرج روح عنهم واستريح من هذا الحال كله. . فلم يوافق الشجاعي على ذلك، وأغلظ على السلطان في القول، فقام إليه جماعة من المماليك الذين حول السلطان ومسكوه وقيّدوه، وأرسلوه إلى البرج. فبينما هو في أثناء الطريق خرج عليه جماعة من المماليك الأشرفية فقطعوا رأسه. وكان الذي قطع رأسه يسمى بهاء الدين آقوش». انتهى كلام ابن إياس ـ قارن أيضاً بالسلوك: ١/٣/٨٠١ ـ ٨٠٢.

ودقُّوا البشائر وفتحوا باب القُلّة، وأخذوا رأس الشجاعيّ وجعلوه على رمح وأعطَوه للمشاعليّة فجبَوْا[١] عليه مصر والقاهرة، فحصّل المشاعليّة مالاً كثيراً لبُغْض الناس قاطبة في الشجاعيّ؛ فقيل: إنهم كانوا يأخذون الرأس من المشاعليّةويدخلونه بيتهم فتضربه النسوة بالمداسات لِمَا في نفوسهم منه. وسبب ذلك ما كان آشتمل عليه من الظلم ومصادراته للعالم وتنوعه في الظلم والعسف حسب ما يأتي ذكره في الوَفيات بأوسعَ من هذا. وأغْلقت القاهرة خمسة أيام إلى أن طلع كَتْبُغَا إلى القلعة في يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر ودُقّت البشائر وفُتحت الأبواب وجُدِّدت الأيمان والعهود للملك الناصر محمد بن قلاوون وأن يكون الأمير كتبغا نائب السلطنة.

ولمّا تمّ ذلك قَبض كتبغا على جماعة من الخاصّكيّة والبُرْجيّةالمتفقين مع الشجاعيّ، ثم أفرج عن جماعة من الأمراء كان قُبِض عليهم في المُخيم، وهم: الأمير ركن الدين بِيبرس الجاشْنَكِير الذي تسلطن بعد ذلك على ما يأتي ذكره، والأمير سيف الدين بُرْلُغِي، والأمير القماميّ[٢] وسيف الدين قَبْجَق[٣] المنصوريّ، والأمير بدر الدين عبد الله [حامل الجتر][٤]، والأمير سيف الدين بُوري [السلاح دار] والأمير زين الدين عمر[٥] والأمير سيف الدين قُرْمُشِيّ، والأمير علاء الدين مُغْلَطاي المسعوديّ وغيرهم[٦]. وأخَذ الأمير زَيْن الدين كَتْبُغَا وأعطى في الملك وآنفرد بتدبير الأمر ومشى مع الملك الناصر محمد مَشْيَ المملوك مع أستاذه.

---

(١) المراد أنهم طافوا به مصر والقاهرة، وجبوا عليه مالاً كثيراً، لأن الناس كانوا يعطون حملة الرأس من المشاعلية شيئاً من الفضة مقابل أن يدخلوا بالرأس إلى دارهم فينهالوا عليه ضرباً بالنعال والقباقيب. وأشار ابن إياس إلى أن اليهود في حارة زويلة شاركوا بهذا الفعل.

(٢) في ابن إياس: «الأمير اللقماني، أمير آخور كبير».

(٣) في ابن إياس: «الأمير قفجق السلحدار».

(٤) زيادة عن بدائع الزهور.

(٥) في بدائع الزهور: «الأمير عمر شاه السلحدار، وهو صاحب القنطرة التي عند درب الشمسي».

(٦) وبهذا تكون قد وجهت ضربة قوية للمماليك البرجية من الجراكسة الذين أنزلوا من الأبراج والطباق بقلعة الجبل، فأسكنت طائفة منهم في مناظر الكبش بجوار الجامع الطولوني، وطائفة في دار الوزارة برحبة باب العيد من القاهرة، وطائفة في مناظر الميدان الصالحي بأرض اللوق، واعتقلت طائفة. (السلوك: ١/٨٠٢) وذكر ابن إياس أن كتبغا رسم لهم أن ينزلوا في القلعة، وأسكنهم في الأبراج التي في =

ثمّ بعث بتقليد نائب الشام على عادته، وهو الأمير أَيْبَك الحَمَوِيّ. ثم بعد ذلك نزل السلطان الملك الناصر محمد من قلعة الجبل في مَوْكِب هائل بأُبّهة السلطنة، وتوجّه إلى ظاهر القاهرة ثمّ عاد وشقّ القاهرة، ودخل من باب النصر وخرج من باب زُوَيْلة عائداً إلى القلعة، والأمراء مُشَاةٌ بين يديه حتّى الأمير كَتْبُغَا، وكان ذلك في يوم الأحد رابع عشرين شهر رجب.

ولمّا كان سابع عشرين شهر رمضان ظهر الأمير حُسام الدين لاجين المنصوريّ من آختفائه وآجتمع بالأمير كَتْبُغَا خفية، فتكلّم كَتْبُغَا في أمره مع الأمراء، فاتّفقوا على إظهار أمره لِمَا رأَوْا في ذلك من إصلاح الحال، فطيّب كَتْبُغَا خاطر الأمير حسام الدين لاجين ووعَده أن يتكلّم في أمره مع السلطان والمماليك الأشرفيّة. ولا زال كَتْبُغَا بالسلطان والحاشية حتى رضّاهم عليه وطيَّب قلوبهم إلى أن كان يوم عيد الفطر، ظهر حُسام الدين لاجين من دار كَتْبُغَا، وحضر السِّماط وقبّل الأرض بين يدي السلطان الملك الناصر محمد، فخلع عليه السلطان وطيب قلبه، ولم يعاتبه بما فعل مع أخيه الملك الأشرف خليل مراعاةً لخاطر كَتْبُغَا. ثم خلع عليه الأمير كَتْبُغَا أيضاً، وحُمِلت إليه الهدايا والتُّحَف من الأمراء وغيرهم؛ وكلّ ذلك لأجل خاطر كَتْبُغَا. وآصطلحت أيضاً معه المماليك الأشرفيّة على ما في نفوسهم منه من قتل استاذهم بأمر كَتْبُغَا لهم وإلحاحه عليهم في ذلك حتى قَبِلوا كلامه. وكانت مكافأة لاجين لكَتْبُغَا بعد هذا الإحسان كله بأن دبّر عليه حتّى أخذ الملك منه وتسلطن عِوضه على ما يأتي ذكره وبيانه إن شاء الله تعالى.

ثمّ خلَع السلطان على الصاحب تاج الدين محمد آبن الصاحب فخر الدين محمد آبن الصاحب بهاء الدين عليّ بن حِنّا بآستقراره في الوزارة بالديار المصريّة.

ثمّ آستهلت سنة أربع وتسعين وستمائة والخليفة الحاكم بأمر الله أبو العبّاس

= سور القاهرة، خلف البرقية، ورتّب لهم ما يكفيهم في كل يوم، وشرط عليهم ألا يخرجوا من الأبراج. (بدائع الزهور: ١/١/٣٨٤) وكان الأشرف خليل قبل ذلك قد تعلق بالمماليك البرجية وأحسن إليهم، وخرج عن التقاليد المعروفة إرضاءً لهم، إذ سمح لهم بالنزول من القلعة نهاراً على أن يبيتوا فيها ليلاً. (الدولة المملوكية لأنطوان ضومط: ٢٥٤).

أحمد. وسلطان مصر والشام الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومدَبِّر مملكته الأمير كَتْبُغَا المنصوريّ.

ولمّا كان عاشر المحرم ثار جماعة من المماليك الأشرفيّة خليل في الليل بمصر والقاهرة وعَمِلوا عملاً قبيحاً وفتحوا أسواق السلاح بالقاهرة بعد حريق باب السعادة[1]، وأخذوا خيل السلطان وخرَقُوا ناموس الملك، وذلك كلّه بسبب ظهور الأمير حسام الدين لاجين وعدم قتله؛ فإنـه كـان ممّـن باشر قتل أستاذهم الملك الأشرف خليل، فحماه الأمير كَتْبُغَا ورعاه؛ وأيضاً قد بلغهم خَلْـعُ أخي أستاذهم الملك الناصر محمد بن قلاوون من السلطنة وسلطنة كَتْبُغَـا فتزايـدت وحشتُهم وترادفت عليهم الأمور، فاتفقـوا ووثبـوا فلم يُنتـج أمرهم. فلمّا أصبـح الصباح قبَض عليهم الأمير كَتْبُغَا وقطَـع أيدي بعضهم وأرجلَهم وكَحّل البعض وقطَـع أَلْسِنة آخرين وصلب جماعةً منهم على بـاب زويلة؛ ثم فرّق بقيّـة المماليـك على الأمراء والمقدّمين، وكانوا فوق الثلاثمائة نفر وهرَب الباقون؛ فطلب الأمير زَيْن الدين كَتْبُغَا الخليفة والقضاة والأمراء وتكلّم معهم في عدم أهليّة الملك الناصر محمد للسلطنة لصغر سنّه، وأنّ الأمور لا بدّ لها من رجل كامل تخافه الجند والرعيّة وتقِف عند أوامره ونواهيه. كلّ ذلك كان بتدبير لاجين، فإنّه لمّا خرج من إخفائه علم أنّ المماليك الأشرفيّة لا بد لهم من أخذ ثار أستاذهم منه، وأيضـاً أنه علِم أنّ الملك الناصر محمد متى ترعرع وكَبِر لا يُبقيه لكونه كان ممّن قتل أخاه الملك الأشرف خليلاً؛ فلمّا تحقق ذلك أخذ يُحَسِّنُ للأمير كَتْبُغَا السلطنة وخَلْـعَ آبن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون وسلطَنته، وكَتْبُغَا يمتنـع من ذلك فلا زال به لاجين حتّى حذّره وأخافه عاقبة ذلك، وقال له: متى كَبِر الملك الناصر لا يُبقيك البتة، ولا يُبقي أحداً ممّن تَعَامل على قتل أخيه الملك الأشرف، وأنّ هؤلاء الأشرفيّة ما دام الملك الناصر محمد في المُلك شوكتُهم قائمةٌ، والمصلحة خَلْعُه وسلطنتك. فمال كَتْبُغَا إلى كلامه، غير أنّه أهمل الأمر وأخذ في تدبير ذلك على مَهَل. فلمّا وقَـع من الأشرفيّة ما وقـع وثَب وطَلب الخليفةَ والقضاة حسب ما ذكرناه. ولمّا حضر الخليفة

(١) أي باب سعادة، أحد أبواب القاهرة القديمة في سورها الغربي. (انظر خطط المقريزي: ١/٣٨٣).

والقضاة آتفق رأي الأمراء والجند على خَلْع السلطان الملَك الناصر محمد بن قلاوون من الملك وسلطنة كَتْبُغَا هذا عِوَضه؛ فوقع ذلك وخُلِع الملك الناصر محمد من السلطنة وتسلطن كتبغا وجلس على تخت المُلك في يوم خلع الملك الناصر، وهو يوم الخميس ثاني[1] عشر المحرّم سنة أربع وتسعين وستمائة بعد واقعة المماليك الأشرفيّة بيومين، وأدْخِل الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى الدور بالقلعة، وأَمَرَه كَتْبُغا بألّا يركب ولا يظهر. وكان عمرُه يوم خُلع نحو العشر سنين. وكانت مدّة سلطنته في هذه المرّة الأولى سنة واحدة إلا ثلاثة أيام أو أقلّ. ويأتي بقية ترجمته في سلطنته الثانية والثالثة إن شاء الله تعالى.

* * *

السنة الأولى[2] من سلطنة الملك الناصر محمد الأولى على مصر

ـ على أنّه لم يكن له من السلطنة فيها إلّا مجرّد الاسم فقط، وإنّما كان الأمر أوّلاً للأمير علم الدين سَنْجَر الشجاعي ثم للأمير كَتْبُغَا المنصوريّ، وهي سنة ثلاث وتسعين وستمائة، على أنّ الأشرف قُتِل في أوائلها في المحرّم حسب ما تقدّم ذكره.

فيها تُوُفّي الصاحب فخر الدين أبو العبّاس إبراهيم بن لُقْمان بن أحمد بن محمد الشّيْبانِيّ الإسعِرْدِيّ ثم المصريّ، رئيس المُوَقّعين بالديار المصريّة، ثم الوزير بها. ولي الوزارة مرّتين، وكان مشكورَ السِّيرة قليل الظُّلم كثير العدل والإحسان للرعيّة. وفي أيام وزارته سَعَى في إبطال مظالم كثيرة، وكان يتولى الوزارة بجامَكِيّة[3] الإنشاء، وعندما يعزلونه من الوزارة يُصبح يأخذ غلامُه الحِرْمِدَان[4] خلْفَه، ويروح يقعد في ديوان الإنشاء وكأنّه ما تغيّر عليه شيء؛ وكان أصله من

---

(١) في السلوك والجوهر الثمين: «يوم الأربعاء حادي عشر المحرّم».

(٢) المراد السنة التي حكم فيها، فإنه لم يحكم في هذه السلطنة الأولى إلا هذه السنة.

(٣) الجامكية: الراتب.

(٤) الحرمدان ــ أو الخرمدان ــ لفظ فارسي معناه المحفظة الخاصة التي يحمل فيها الفرد أوراقه الخاصة ونقوده. ويقال لحقيبة الحلّاق أيضاً حرمدان. (السلوك: ٦٩٧/٣/١، حاشية).

المعدِن من بلاد إسعرد، وتدّرب في الإنشاء بالصاحب بهاء الدين زُهَيْر[١] حتى برَع في الإنشاء وغيره.

قال الذهَبِيّ: رأيْته شيخاً بعمامة صغيرة وقد حدّث عن آبن رَواح وكتَب عنه البرزَالِيّ والطَّلَبة. اِنتهى. وكان آبن لُقمان المذكور فاضلاً ناظماً ناثراً مترسّلاً، ومات بالقاهرة في جُمادَى الآخرة ودُفن بالقرافة. ومن شعره: [الكامل]

كنْ كيف شئتَ فإنّني بك مُغْرَمُ ... راضٍ بما فعَل الهوى المتحكِّمُ
ولئن كتمتُ عن الوُشاة صَبابتي ... بكَ فالجوانح بالهوى تتكلّمُ
أشتاق مَن أهوى وأعجب أنّني ... أشتاق مَن هو في الفؤاد مخيِّمُ
يا من يَصُدّ عن المُحبّ تَدَلُّلاً ... وإذا بكى وَجْداً غداً يتبسَّمُ
أسكنتُكَ القلبَ الذي أحرقْتَه ... فحذارِ من نارٍ به تتضرَّمُ

وفيها قُتِل الأمير علم الدين سَنْجَر بن عبد الله الشُّجَاعِيّ المنصوريّ؛ كان من مماليك الملك المنصور قلاوون، وترقّى حتّى ولي شدّ[٢] الدواوين، ثم الوزارة بالديار المصريّة في أوائل دولة الناصر؛ وساءت سيرتُه وكثُر ظلُمه؛ ثم ولي نيابة دمشق فتلطّف بأهلها وقلّ شرُّه، ودام بها سنين إلى أن عُزِل بالأمير عزّ الدين أَيْبَك الحَموِيّ، وقَدِم إلى القاهرة. وكان مَوْكِبُه يُضاهي موكب السلطان من التجمُّل؛ ومع ظلمه كان له مَيْلٌ لأهل العلم وتعظيم الإسلام؛ وهو الذي كان مُشِدّ عمارة البيمارسْتان المنصوريّ ببين القصرين فتمّمه في مدّة يسيرة، ونَهض بهذا العمل العظيم وفرَغ منه في أيّام قليلة، وكان يستعمل فيه الصنّاع والفُعُول بالبُندق حتّى لا يفوتَه مَنْ هو بعيدٌ عنه في أعلى سقالةٍ كان. ويقال إنّه يوماً وقَع بعض الفُعُول من أعلى السقالة بجنبه فمات، فما آكترث سَنْجَر هذا ولا تغيّر من مكانه وأمر بدفنه. ثم عَمل الوزارة أيضاً في أوائل دولة الناصر محمد بن قلاوون أكثر من شهر حسب

(١) راجع وفيات سنة ٦٥٦هـ.

(٢) شدّ الدواوين: وصاحبها يسمى شادّ الدواوين. وكانت مهمته مرافقة الوزير والتفتيش على مالية الدواوين وعلى موظفيها. وعادته إمرة عشرة. والشدّ: ترادف كلمة تفتيش. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٩١، ١٩٣).

ما تقدّم ذكره، وحدّثْته نفسه بما فوق الوزارة، فكان في ذلك حَتْفُه وقتله حسب ما ذكرناه في أوّل ترجمة الملك الناصر هذا، وفَرِح أهل مصر بقتله فرحاً زائداً حتّى إنّه لمّا طافت المشاعليّة برأسه على بيوت الكُتّاب القِبْط بلَغتْ اللَّطْمة على وجهه بالمداس نصفاً، والبَوْلة عليه درهماً، وحصّلوا المشاعليّة جُمَلاً من ذلك.

قلت: وهذا غلط فاحش من المشاعليّة، قاتلهم الله! لو كان من الظلم ما كان هو خير من الأقباط النصارَى. ولمّا كان على نيابة دِمَشق وسّع مَيْدانها أيّام الملك الأشرف، فقال الأديب علاء الدين الوَدَاعِيّ في ذلك: [الكامل]

عَلِم الأمير بأنّ سلطان الورَى ... يأتي دِمَشق ويُطلِق الأموالا
فلأجل ذا قد زاد في مَيْدَانِها ... لتكون أوسعَ للجواد مجالا

قال الصلاح الصَّفَدِيّ: أخبرني من لفظه شهاب الدين[1] بن فضل الله قال: أخبرني والدي عن قاضي القضاة نجم الدين آبن الشيخ شمس الدين شيخ الجبل قال: كنت ليلة نائماً فآستيقظتُ وكأن مَن أنبهني وأنا أحفَظ كأنّما قد أُنشدت ذلك: [البسيط]

عند الشجاعيّ أنواعٌ منوّعةٌ ... من العذاب فلا ترحمْه بالله
لم تُغن عنه ذنوبٌ قد تحّملها ... من العباد ولا مالٌ ولا جاهْ

قال: ثم جاءنا الخبر بقتله بعد أيام قلائل فكانت قتلته في تلك الليلة التي أُنشدتُ فيها الشعر. اِنتهى.

قلت: وهذا من الغرائب. وقد ذكرنا من أحوال سَنْجَر هذا في تاريخنا المنهل الصافي في نبذة كبيرة كونه كتاب تراجم وليس للإطناب لهؤلاء هنا محلّ. اِنتهى.

وفيها تُوفّي قتيلاً الملك كَيْخَتُو[2] ملك التّتار قتله ابن أخيه بَيْدُو.

---

(١) هو شهاب الدين أحمد بن محيي الدين يحيى بن فضل الله العمري. توفي سنة ٧٤٩هـ. وهو صاحب مسالك الأبصار والتعريف بالمصطلح الشريف.

(٢) التاريخ الصحيح لقتل كيختو بن أبغا بن هولاكو هو يوم الخميس سادس جمادى الثانية سنة ٦٩٤هـ. والذي قتله هو ابن عمه بيدو بن طوغاي بن هولاكو، وليس ابن أخيه كما يذكر المؤلف. (انظر معجم زامباور: ٣٦٢، والسلوك: ١/٨٠٤ حاشية).

قلت: وهنا نكتة غريبة لم يَفْطن إليها أحد من مؤرّخي تلك الأيام، وهي أنّ سلطان الديار المصرية الملك الأشرف خليل بن قلاوون قتله نائبه الأمير بَيْدَرَا، وملِك التتار كَيْخَتُو هذا أيضاً قتله آبن أخيه بيـدو، وكلاهما في سنة واحدة، وذاك في الشرق وهذا في الغرب. اِنتهى.

وملك بعد كيختو بيدو المذكور الذي قتله.

قلت: وكذلك وقـع للأشرف خليل؛ فإن بيدراً ملَكَ بعده يوماً واحداً وتلقّب بالملك الأوحد. وعلى كلّ حال فإنّهما تشابها أيضاً. وكان بَيْدُو الذي ولِي أمر التّتار يَميل إلى دين النصرانية، وقيل إنه تنصّر[1]، لعنه الله، ووقـع له مـع الملك غازان أمورٌ يطول شرحها.

وفيها قتِل الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن أبـي الـرجاء التَّنُوخِيّ الدمشقيّ التاجر المعروف بآبن السَّلْعُوس[2]. قال الشيـخ صلاح الدين الصَّفَدِيّ: كان في شَبِيبته يسافر بالتجارة، وكان أشقرَ سميناً أبيضَ معتدل القامة فصيـح العِبارة حُلْوَ المنطق وافر الهيبة كامل الأدوات خليقاً للوزارة تامّ الخبرة زائد الإعجاب عظيم التِّيه، وكان جاراً للصاحب تقِيّ الدين البَيِّـع[2]، فصاحبه ورَأى فيه الكفاءة فأخَذ له حِسْبَة دمشق، ثم توّجه إلى مصر وتوكّل للملك الأشرف خليل في دولة أبيه، فجرى عليه نكبةٌ من السلطان فشفَـع فيه مخدومُه الأشرف خليل، وأطلقه من الاعتقال، وحـج فتملّك الأشرفُ في غَيْبتِه. وكان محبّاً له فكتَب إليه بين الأسطر: يا شُقَيْر، يا وجه الخَيْر، قدِّم السير. فلمّا قَدِم وزره. وكان إذا ركِب تمشي الأمراء الكِبار في خدمته. اِنتهى.

قلت: وكان في أيام وزارته يقِف الشجاعيّ المقدّم ذكره في خدمته، فلمّا قُتِل مخدومه الملك الأشرف وهو بالإسكندريّة قدِم القاهرة فطُلِب إلى القلعة فأنزله

---

(١) كان بوذياً، ولم يتنصّر. كما أنه أعاد منصب الوزارة إلى المسلمين بعد نكبة اليهود التي أشرنا إليها في الحاشية (١) ص ٢٤ من هذا الجزء.

(٢) راجع ص ١٤ من هذا الجزء، حاشية (٢).

الشجاعيّ من القلعة ماشياً، ثم سلّمه من الغد إلى عدّوه الأمير بهاء الدين قَراقُوش مشدّ الصُّحبة، قيل: إنّه ضربه ألفاً ومائة مِقْرَعة، ثم تداوله المسعوديّ وغيره وأخذ منه أموالاً كثيرة، ولا زال تحت العقوبة حتى مات في صفر. ولمّا تولّى الوزارة كتب إليه بعض أحبّائه من الشام يُحذّره من الشجاعيّ: [الوافر]

تنبّهْ يا وزيرَ الأرض واعلم بأنّك قد وطِئتَ على الأفاعِي
وكن بالله معتصماً فإنّي أخاف عليك من نَهْش الشُّجاعي

فبَلَغ الشجاعيّ، فلما جرى ما جرى طلب أقاربه وأصحابَه وصادرهم، فقيل له عن الناظم، فقال: لا أوذيه فإنّه نصحه فيّ وما انتصح. وقد أوضحنا أمره في المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي بأطول من هذا. اِنتهى.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي المقرىء شمس الدين محمد بن عبد العزيز الدِّمْياطيّ بدِمَشق في صفر. وقاضي القضاة شهاب الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن خليل الخُوَيِّي. والسلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون، فتكوا به في المحرّم. ونائبه بَيْدَرا قُتِل من الغد. ووزيره الصاحب شمس الدين محمد بن عثمان بن السَّلْعُوس هَلَك تحت العذاب.

أمرِ النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعاً وسبع أصابع. وثبت إلى سادس عشر توت[1].

(١) وقد غلت الأسعار في هذه السنة بسبب تقاصر مدّ النيل وعدم وفائه. (انظر السلوك: ١/٨٠٣).

ذكر سلطنة الملك العادل زَيْن الدّين كَتْبُغَا[1] على مصر

هو السلطان الملك العادل زَيْن الدين كَتْبُغَا بن عبد الله المنصوريّ التركيّ المُغْلِيّ سلطان الديار المصريّة؛ جلَس على تخت المُلك بعد أن خلع آبن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون في يوم الخميس ثاني عشر المحرّم سنة أربع وتسعين وستمّائة باتّفاق الأمراء على سلطنته. وهو السلطان العاشر من ملوك التُّرك بالديار المصريّة، وأصله من التّتار من سَبْي وقعة حِمْص[2] الأولى التي كانت في سنة تسع وخمسين وستمائة؛ فأخذه الملك المنصور قلاوون وأدّبه ثم أعتقه، وجعله من جُملة مماليكه، ورقاة حتّى صار من أكابر أمرائه؛ وآستمر على ذلك في الدولة الأشرفيّة خليل بن قلاوون إلى أن قُتِل، وتسلطن أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة ثلاث وتسعين وأقام الناصر في المُلك إلى سنة أربع وتسعين ووَقَع الاتفاق على خلعه وسلطنة كَتْبُغَا هذا، فتسلطن وتلقّب بالملك العادل، وسِنُّه يوم ذاك نحو الأربعين سنة، وقيل خمسين سنة. وقد تقدّم سبب خلع الملك الناصر محمد وسلطنة كَتْبغا هذا في آخر ترجمة الملك الناصر محمد فلا حاجة في الإعادة.

وقال الشيخ شمس الدين بن الجَزَرِيّ قال: حَكَى لي الشيخ أبو الكرم النَّصْرَانِيّ الكاتب، قال: لمّا فتَح هُولاكو حلب بالسيف ودِمَشْق بالأمان طلَب هولاكو نصِير الدّين الطُّوسيّ وكان في صحبته، وقال له: أُكتب أسماء مقدّمي

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٨٠٦/٣/١، وخطط المقريزي: ٢٣٩/٢، وخطط علي مبارك: ٨٩/١، وبدائع الزهور: ٣٨٦/١/١، والجوهر الثمين: ١١٨/٢، وتاريخ ابن الفرات: ١٩٣/٨، وفوات الوفيات: ٢١٨/٣، والدرر الكامنة: ٣٤٨/٣، وشذرات الذهب: ٥/٦.

(٢) راجع الجزء السابع، ص ١٠٦ ـ ١٠٧.

عسكري، وأَبْصِر أيّهم يملِك مصر، ويقعدُ على تخت المُلك بها حتّى أُقدِّمه؟ قال: فحسَب نَصِير الدِّين [أسماء] المقدّمين؛ فما ظهر له من الأسماء آسمُ مَنْ يمِلك الديار المصريّة غيرَ آسم كَتْبُغَا. وكان كتبغا[1] صِهْر هولاكو، فقدّمه على العساكر فتوجّه بهم كتبغا فآنكسر على عَيْن جالوت، فتعجّب هولاكو من هذه الواقعة وظنّ أنّ نصير الدين قد غَلِط في حسابه. وكان كَتْبُغَا هذا[2] من جملة مَن كان في عسكر هُولاكو من التّتار ممّن لا يُؤْبَه إليه من الأصاغر، وكَسَبَه قلاوون في الواقعة؛ فكان بين المدّة نحوٌ من خمس وثلاثين سنة، حتّى قدّر الله تعالى بما قدّر من سلطنة كتبغا هذا. اِنتهى.

ولمّا تمّ أمر كتبغا في الملك وتسلطن مَدَّ سِماطاً عظيماً وأحضر جميعَ الأمراء والمقدّمين والعسكر وأكلوا السِّماط، ثم تقدّموا وقبّلوا الأرض ثم قَبَّلوا يدَه وهنَّأوه بالسلطنة، وخَلَع على الأمير حُسام الدين لاجين وولاّه نيابة السلطنة بالديار المصريّة، وَوَلَّى عِز الدين الأَفْرم أمير جَانْدَار، والأمير سيف الدين بَهادُر حاجب الحُجّاب؛ ثم خلع على جميع الأمراء والمقدّمين ومَن له عادة بلُبْس الخلَع.

وفي يوم الخميس تاسع عشر المحرّم ركب جميع الأمراء والمقدّمين وجميع مَن خُلع عليه وأتَوْا إلى سوق الخيل وترجّلوا وقبّلوا الأرض، ثم كُتِب بسلطنة الملك العادل إلى البلاد الشاميّة وغيرها. وزُيِّنت مصر والقاهرة لسلطنته.

ولمّا كان يوم الأربعاء مستهّل شهر ربيع الأوّل ركِب السلطان الملك العادل كَتْبُغا بأبَّهة السلطنة وشِعارِ المُلك من قلعة الجبل ونزَل وسار إلى ظاهر القاهرة نحو قبّة النصر، وعاد من باب النصر وشقّ القاهرة حتّى خرج من باب زُوَيلة عائداً إلى قلعة الجبل، كما جرَت العادة بركوب الملوك.

ولم تطُل مدّة سلطنته حتى وقع الغلاء والفَنَاء بالديار المصرية وأعمالها؛ ثمّ آنتشر ذلك بالبلاد الشاميّة جميعِها في شوّال من هذه السنة، وآرتفع سِعْر القمح

---

(١) هذا غير كتبغا المنصوري صاحب الترجمة. وقد تقدمت وفاة كتبغا صهر هولاكو سنة ٦٥٨هـ.
(٢) المراد به صاحب الترجمة هنا.

حتّى بيع كلُّ إردب بمائة وعشرين درهماً بعد أن كان بخمسة وعشرين درهماً الإردب، وهذا في هذه السنة؛ وأما في السنة الآتية التي هي سنة خمس وتسعين وستمائة فوصل سِعْر القمح إلى مائة وستين درهماً الإردب. وأمّا الموت فإنّه فشا بالقاهرة وكثر، فأحصِي مَن مات بها وثَبت آسمه في ديوان [المواريث] في ذي الحجّة فبلغوا سبعة عشر ألفاً وخمسمائة. وهذا سوى مَن لم يرد آسمه في ديوان المواريث من الغرباء والفقراء ومن لم يُطلق من الديوان. ورحَل جماعة كثيرة من أهل مصر عنها إلى الأقطار من عِظَم الغلاء وتخلخل أمر الديار المصريّة[1].

وفي هذه السنة حجّ الأمير أنس ابن الملك العادل كَتْبُغا صاحب الترجمة، وحجّت معه والدته وأكثر حرم السلطان، وحَجّ بسببهم خَلْقٌ كثير من نساء الأمراء بتجمل زائد، وحصل بهم رِفْق كبير لأهل مكّة والمدينة والمجاورين، وشُكِرت سِيرة ولد السلطان أنس المذكور وبَذَل شيئاً كثيراً لصاحب مكّة.

ثم آستهلت سنة خمس وتسعين وستمائة وخليفةُ المسلمين الحاكم بأمر الله أبو العبّاس أحمد الهاشميّ البغداديّ العباسيّ. وسلطانُ الديار المصريّة والبلاد الشاميّة والشماليّة والفُراتيّة والساحليّة المَلِكُ العادل زَيْن الدين كَتْبُغَا المنصوريّ. ووزيرُه الصاحب فخر الدين عمر آبن الشيخ مجد الدين بن الخليليّ. ونائبُ السلطنة بالديار المصريّة الأميرُ حسام الدين لاجين المنصوريّ. وصاحبُ مكّة، شرّفها الله تعالى، الشريُف نجم الدين أبو نُمَيّ محمد الحَسَنِيّ المكيّ. وصاحب المدينة النبويّة، على ساكنها أفضلُ الصلاة والسلام، عِزُّ الدين جَمّاز بن شِيحة الحُسَيْنيّ. وصاحب اليمن مُمَهّد الدين عمر آبن الملك المظفّر شمس الدين يوسف آبن الملك المنصور عمر [بن عليّ] بن رَسُول. وصاحبُ حَمَاة بالبلاد الشاميّة الملك المظفّر تَقِيّ الدين محمود آبن الملك المنصور ناصر الدين محمد آبن الملك المظفر تَقِيّ الدين محمود [آبن الملك المنصور محمد ابن تقي الدين عمر] بن شاَهِنْشَاه بن أَيُّوب. وصاحبُ مارِدِين [الملك السعيد شمس الدين داود آبن] الملك المظفّر

(١) قارن بما ذكره المقريزي في «إغاثة الأمة» ص ٦٧ ــ ٧٦ عن أخبار الغلاء والمجاعة في سنوات ٦٩٤ ــ ٦٩٦هـ.

فخر الدين أَلْبِي أَرْسلان آبن الملك السعيد شمس الدين قَرَا أَرْسلان بن أُرْتُق الأَرْتُقِيّ. وصاحب الروم السلطان غِياث الدين مسعود آبن السلطان عِز الدين [كَيْكَاوُس] ابن السلطان غِياث الدين كَيْخُسْرُو بن سَلْجُوق السَّلْجُوقي. وملكُ التّتار غازان ويقال قازان، وكلاهما يصحّ معناه، وآسمه الحقيقي محمود بن أرغون بن أَبْغَا بن هُولاكو، وهو مُظْهِر الإسلام وشعائر الإيمان. ونائب دِمَشق الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الحَمَوِيّ المنصوريّ. وكان الموافق لأوّل هذه السنة عاشر بابه أحد شهور القِبْط المسمّى بالروميّ تشرين الأوّل.

وقال الشيخ قُطْب الدين اليُونِينِيّ: وفي العَشر الأوّل من المحرّم حَكَى جماعة كثيرة من أهل دِمَشق وآستفاض ذلك في دمشق وكثُر الحديث فيه عن قاضي جُبّة أعسال[1]، وهي قرية من قُرى دِمَشق، أنّه تكلمّ ثَوْر بقرية من قرى جُبّة أعسال، وملخّصها: أنّ الثور خرج مع صبيّ يشرب ماء من هناك فلمّا فَرغ حَمِد الله تعالى فتعجّب الصبي، وحَكَى لسيّده مالك الثور فشكّ في قوله؛ وحضر في اليوم الثاني بنفسه، فلمّا شرِب الثورُ حَمِد الله تعالى؛ ثم في اليوم الثالث حضَر جماعةٌ وسمعوه يحَمَد الله تعالى؛ فكلّمه بعضهم فقال الثور: «إنّ الله كان كتَب على الأمّة سبع سنين جَدْباً، ولكن بشفاعة النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أبدلها بالخِصْب، وذكر أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أمَره بتبليغ ذلك، وقال الثور: يا رسول الله ما علامة صدقي عندهم؟ قال: أن تموت عَقِب الإخبار. قال الحاكي لذلك: ثم تقدّم الثور على مكان عالٍ فسقط ميتاً، فأخَذ الناس من شَعْره للتّبرُّك، وكفّن ودُفِن. اِنتهى.

قلت: وهذه الحكاية غريبة الوقوع والحاكي لها ثقة حجّة، وقد قال: إنّه استفاض ذلك بدِمَشق. اِنتهى.

وأمّا أمر الديار المصريّة فإنه عظُم أمر الغلاء بها حتّى أكل بعضهم الميتات والكلاب، ومات خَلْقٌ كثير بالجوْع. والحكايات في ذلك كثيرة، وآنتشر الغلاء شرقاً وغرباً.

---

(١) في إغاثة الأمة: «جبّة عسّال» وفي معجم البلدان: «جبّة عسيل».

وبينما السلطان الملك العادل كَتْبُغا فيما هو فيه من أمر الغلاء ورَد عليه الخبر في صفر بأنّه قد وصل إلى الرَّحْبة عسكر كثير نحوُ عشرة آلاف بيت من عسكر بَيْدُو ملك التّتار طالبين الدخول في الإسلام خوفاً من السلطان غازان، ومقدّمهم أمير آسمه طَرْغاي، وهو زوج بنت هولاكو؛ فرسَم الملك العادل إلى الأمير علم الدين سَنْجَر [الدواداري] بأن يُسافرْ من دِمَشق إلى الرَّحْبة حتّى يتلقاهم، فخرج إليهم، ثم خرج بعده الأمير سُنْقُر الأعسر شاد دواوين دمشق، ثم ندَب الملكُ العادل أيضاً الأمير قراسُنْقُر المنصوريّ بالخروج من القاهرة، فخرج حتّى وصل إلى دمشق لتلقي المذكورِين، ورسَم له أن يُحضِر معه في عوده إلى مصر جماعةً من أعيانهم، فوصل قراسُنْقُر إلى دِمَشق وخرج لتلقّيهم، ثم عاد إلى دمشق في يوم الاثنين ثالث عشرين شهر ربيـع الأوّل، ومعه من أعيانهم مائةُ فارس وثلاثة عشر فارساً؛ وفرِح الناس بهم وبإسلامهم وأنزلوهم بالقصر الأبلق من المَيْدان.

وأمّا الأمير علم الدين سَنْجَر لدّواداري فبقي مع الباقين، وهم فوق عشرة آلاف ما بين رجل كبير وكهل وصغير وآمرأة ومعهم ماشية كثيرة ورَخْت[1] عظيم، وأقام قَراسُنْقُر بهم أيّاماً؛ ثم سافر بهم إلى جهة الديار المصرية، وقَدِموا القاهرة في آخر شهر ربيـع الآخر، فأكرمهم السلطان الملك العادل كَتْبُغا ورتّب لهم الرواتب[2].

ثمّ بدا للملك العادل كتبغا السفر إلى البلاد الشاميّة لأمرٍ مقدّر آقتضاه رأيُه،

---

(١) الرخت: فارسية لها معان كثيرة منها: متاع البيت من أثاث ورياش والمتاع الخاص من ثياب الأمراء والسلاطين وقماشهم؛ ومنها: طقم الحصان وعدة لجامه. ويقال: حصان مرخَت: أي مطهّم تطهيمة غالية. وكان الخدم المنوطون بحفظ الأثاث والعناية به في القصور المملوكية يعرفون بالرختوانية، ومفردها الرختوان. (تأصيل ما ورد في تاريـخ الجبرتي من الدخيل: ص ١١٣).

(٢) وهؤلاء عرفوا باسم الأويراتية. والأويراتية اسم جنس يطلق على عدة قبائل مغولية سكنت الجزء الأعلى من حوض نهر ينسي yenssei بأواسط آسيا، وهم أصل جنس الكـالموك Kalmuck (السلوك: ٧٠٨/٣/١ حاشية) أما السبب في لجوء هذه الفئة مـع طرغاي فهو أن ذلك الأمير التتري كان قد اشترك في المؤامرة التي دبرها بيدو لقتل كيخاتو، فلما قتل كيخاتو وصار الملك إلى غازان خاف طرغاي على نفسه واتفق ومن معه من كبراء الأويراتية على الذهاب إلى الشام واللوذ بالسلطان كتبغا. (المصدر السابق: ص ٨١٢) وقد أظهر كتبغا العناية الفائقة بأمر الأويراتية لأنهم كانوا من جنسه، وكان مراده أن يجعلهم عوناً له يتقوى بهم. (خطط علي مبارك: ٩٠/١).

وأخذ في تجهيز عساكره وتهيأ للسفر؛ وخرج بجميع عساكره وأمرائه وخاصّكيته في يوم السبت سابع عشر شوّال وسار حتّى دخَل دمشق، في يوم السبت خامس عشر ذي القعدة وخامس ساعة من النهار المذكور ودخل دمشق والأمير بدر الدين بيْسَري حامل الجتْر[١] على رأسه، ونائب سلطنته الأمير حسام الدين لاجين المنصوريّ ماشياً بين يديه، ووزيرُه الصاحب فخر الدين بن الخليليّ؛ وآحتَفل أهلُ دمشق لقدومه وزُيِّنت المدينة وفرِح الناس به.

ولمّا دخل الملك العادل إلى دمشق وأقام بها أيّاماً عَزَل عنها نائبها الأمير عِزّ الدين أيْبَك الحمويّ، وولّى عِوَضه في نيابة دمشق مملوكه الأمير سيف الدين أغزلو[٢] العادلي وعمره نحو من آثنتين وثلاثين سنة، وأنعم على الأمير عزّ الدين أيْبَك الحمويّ بخُبز أغزلو بمصر، وخرجا من عند السلطان وعليهما الخِلَع، هذا متولٍ وهذا منفصلٌ.

ثم سافر السلطان الملك العادل من دمشق في ثاني عشر ذي الحجّة بأكثر العسكر المصريّ وبقيّة جيش الشام إلى جهة قرية جُوسِيَة[٣]، وهي ضَيْعة آشتراها له الصاحب شهاب الدين الحنفيّ فتوجه إليها، ثم سافر منها في تاسع عشر ذي الحجّة إلى حِمْص ونَزَل عند البَحْرَة بالمَرج بعدما أقام في البريّة أيّاماً لأجل الصيد، وحضر إليه نوّابُ البلاد الحلبيّة جميعها؛ ثم عاد إلى دمشق ودخلها بمن معه من العساكر ضحى نهار الأربعاء ثاني المحرّم من سنة ست وتسعين وستمائة. وأقام بدِمَشق إلى يوم الجمعة رابع المحرّم ركب السلطان الملك العادل المذكور بخواصّه وأمرائه إلى الجامع لصلاة الجمعة فحضر وصلّى بالمقصورة؛ وأخذ من الناس قَصَصَهم حتى إنّه رأى شخصاً بيده قصّة فتقدّم إليه بنفسه خُطُوات وأخذها منه؛ ولمّا جلس الملك العادل للصلاة بالمقصورة جلَس عن يمينه الملك المظفّر تقيّ الدين محمود صاحب

---

(١) الجتر: المظلة؛ وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب تحمل على رأس الملك في العيدين. (صبح الأعشى: ٤/ ٧ ــ ٨).

(٢) ورد في السلوك باسم «غرلو» و «أغرلو» بالراء المهملة.

(٣) جوسية: من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق. (معجم البلدان).

حَمَاة، وتحته بدرُ الدِّين أمير سلاح، ثم من تحته نائب دمشق أغزلو العادلي؛ وعن يَسار السلطان الشيخ حسن بن الحريري وأخواه، ثم نائب السلطنة لاجين المنصوريّ، ثم تحته نائب دمشق الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الحمويّ (أعني الذي عُزِل عن نيابة دمشق)، ثم من تحته الأمير بدر الدين بَيْسَري، ثم قراسُنْقُر المنصوري، ثم الحاج بَهَادُر حاجب الحُجّاب[1]؛ ثم الأمراء على مراتبهم ميمنةً ومَيْسَرةً.

فلمّا آنقضت الصلاة خرج من الجامع والأمراءُ بين يديه والناس يبتهلون بالدعاء له، وأحبّه أهل دِمَشق وشُكرت سِيرتُه، وحمدت طريقته. ثم في يوم الخميس سابع عشر المحرّم أمسك السلطان الأميرَ أَسَنْدَمُر وقيّده وحبسه بالقلعة. وفي يوم الاثنين حادي عشرين المحرّم عزَل السلطانُ الأميرَ شمس الدين سُنْقُر الأعسر عن شدّ دواوين دمشق ورسَم له بالسفر صحبةَ السلطان إلى مصر، وولّى عوضَه فتح الدين [عمر بن محمد][2] بن صبرة.

ولمّا كان بكرة يوم الاثنين المذكور خرج السلطان الملك العادل من دمشق بعساكره وجيوشه نحوَ الديار المصريّة، وسار حتى نزل باللَّجُّون[3] بالقرب من وادي فَحْمَة في بُكرة يوم الاثنين ثامن عشرين المحرّم من سنة ست وتسعين، وكان الأمير حسام الدين لاجين المنصوريّ نائب السلطنة قد آتّفق مع الأمراء على الوثوب على السلطان الملك العادل كَتْبُغَا هذا والفَتْك به، فلم يقدر عليه لعِظَم شَوْكته؛ فدبَّر أمراً آخر وهو أنّه ابتدأ أوّلاً بالقبض على الأميرين: بتَخْاص وبَكْتُوت الأزرق العادليين، وكانا شهمين شجاعين عزيزين عند أستاذهما الملك العادل المذكور، فركب لاجين بمن وافقه من الأمراء على حين غفلة وقَبَض على الأميرين المذكورين وقتلهما في الحال،

---

(١) قال ابن إياس: «وكتبغا هو أول من أحدث وظيفة حاجب الحجاب وجعلها وظيفة كبيرة، ولم يكن قبل ذلك شيء يقال له حاجب الحجاب: فعظم أمرها من يومئذ». (بدائع الزهور: ١/١/٣٨٧). ووظيفة حاجب الحجاب في العصر المملوكي أن صاحبها ينصف بين الأمراء والجند، تارة بنفسه وتارة بمراجعة النائب. وإليه تقديم من يعرض ومن يرد، وعرض الجند وما ناسب ذلك. (صبح الأعشى: ١٩/٤ و ٤٩٩/٥).

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) اللَّجون: قرية فلسطينية في قضاء جنين.

وقصد مخيَّم السلطان فمنعه بعض مماليك السلطان قليلاً وعوّقوه عن الوصول إلى الملك العادل. وكان العادل لمّا بلغه هذا الأمرُ علم أنّه لا قِبَلَ له على قتال لاجين لعلمه بمن وافقه من الأمراء وغيرهم وخاف على نفسه، وركِب من خيل النَّوْبة(١) فرساً تُسَمَّى حمامة وساق لقلّة سعده ولزوال مُلكه راجعاً إلى الشام، ولو أقام بمخّيمه لم يقدر لاجين على قتاله وأخذه، فما شاء الله كان! وساق حتى وصل إلى دمشق يوم الأربعاء آخر المحرّم قُرْبَ العصر، ومعه أربعة أو خمسة من خواصّه. وكان وصل إلى دمشق يوم الأربعاء آخر المحرّم أوّل النهار أمير شِكار السلطان، وأخبرَ نائب الشام بصورة الحال وهو مجروح، فتهيأ نائب الشام الأمير أغزلو العادليّ وآستعدّ وأحضر أمراء الشام عند السلطان ورسَم بالاحتياط على نوّاب الأمير حسام الدين لاجين وعلى حواصله بدمشق، وندِم الملك العادل على ما فعله مع لاجين هذا من الخير والمدافعة عنه، من كونه كان أحد من أعانه على قتل الأشرف، وعلى أنهْ ولاّه نيابة السلطنة، وفي الجملة أنّه ندم حيث لا ينفعه الندم! وعلى رأي من قال: «أشبعتهم سبّاً وفازوا بالإبل» ومثله أيضاً قول القائل: [مخلعّ البسيط]

مَنْ راقب الناس مات غَمّـا   وفـاز بـاللذة الـجَسُـورُ

ثم إنّ الملك العادل طلب قاضي قضاة دمشق بدر الدين بن جَمَاعة فحضر بين يدي السلطان هو وقاضي القضاة حُسام الدين الحنفيّ، وحضرا عند الملك العادل تحليفَ الأمراء والمقدّمين وتجديد المواثيق منهم، ووعدهم وطّيب قلوبهم.

وأمّا الأمير حسام الدين لاجين فإنّه آستولى على دهليز السلطان والخزائن والحُرّاس والعساكر من غير ممانع، وتسلطن في الطريق ولقّب بالملك المنصور حسام الدين لاجين، وتوجّه إلى نحو الديار المصريّة وملَكها وتمّ أمره، وخُطِب له بمصر وأعمالها والقُدْس والساحل جميعه.

وأمّا الملك العادل فإنّه أقام بقلعة دِمَشق هذه الأيّام كلّها لا يخرج منها، وأَمّر جماعةً بدمشق، وأطلق بعض المُكوس بها، وقُرىء بذلك توقيعٌ يوم الجمعة سادس

(١) خيل النوبة: هي التي تربط قرب قصر السلطان ليركب منها حين يريد الركوب.

عشر صفر بعد صلاة الجمعة بالجامع. وبينما هو في ذلك ورَد الخبرُ على أهل دِمَشق بأنّ مدينة صَفَد زُيِّنت لسلطنة لاجين ودُقّ بها البشائر، وكذلك نـابُلُس والكَرَك. فلمّا بلـغ الملك العادلَ ذلك جهّز جماعة من عسكر دِمَشق مقدَّمهم الأمير طُقْصُبا الناصريّ بكشف هذا الأمر وتحقيق الخبر، فتوجّهوا يوم الخميس ثاني عشرين صفر فعلِموا بعد خروجهم في النهار المذكور بدخول الملك المنصور لاجين إلى مصر وسلطنته، فرجعوا وعلِموا عدم الفائدة في توجّههم. ثم في الغد من يوم الجمعة ثالث عشرين صفر ظهَر الأمر بدمشق وٱنكشف الحال وجُوهر الملك العادل كَتْبُغَا بذلك، وبلغه أنّه لمّا وصل العسكر إلى غزّة رَكِب الأمير حسام الدين لاجين في دَسْت السلطنة، وحمَل البَيْسَري على رأسه الجتْر وحلَفوا له، ونُعِت بالملك المنصور.

ثم في يوم السبت رابـع عشرين صفر وصل إلى دمشق الأمير كُجْكُن ومعه جماعة من الأمراء كانوا مجرّدين إلى الرَّحْبة، فلم يدخلوا دمشق بل توجّهوا إلى جهة مَيْدَان الحصا [قريباً من مسجد القدم](١)، وأعلن الأمير كُجْكُن أمرَ الملك المنصور لاجين، وعَلِم جيش دِمَشق بذلك، فخرج إليه طائفة بعد طائفة، وكان قبل ذلك قد توجّه أميران من أكابر أمراء دمشق إلى جهة الديار المصريّة. فلمّا تحقّق الملك العادل كَتْبُغَا بذلك وعَلِم ٱنحلال أمره وزوال دولته بالكليّة أذعن بالطاعة لأمراء دِمَشق، وقال لهم: الملك المنصور لاجين خُشْداشِي وأنا في خدمته وطاعته؛ وحضر الأمير سيف الدين جاغان الحُسامي إلى قلعة دمشق إلى عند الملك العادل كتبغا، فقال له كَتْبُغَا: أنا أجلس في مكان بالقلعة حتّى نُكاتب السلطان ونعتمد على ما يُرسم به. فلمّا رأى الأمراء منه ذلك تفرّقوا وتوجّهوا إلى باب المَيْدَان وحلَفوا للملك المنصور لاجين وأرسلوا البريد إلى القاهرة بذلك، ثم ٱحتفظوا بالقلعة وبالملك العادل كَتْبُغَا؛ ولبِس عسكرُ دمشق آلَة الحرب وسُيِّروا عامّة نهار السبت بظاهر دمشق وحول القلعة، والناسُ في هَرْج وٱختباط وأقوال مختلفة، وأبوابُ دمشق مغلّقة سوى باب النصر، وبابُ القلعة مغلّق فُتِح منه خَوْختُه(٢)، وٱجتمـع العامّة

---

(١) زيادة للتوضيح عن السلوك.

(٢) الخوخة: باب صغير وسط باب كبير (المعجم الوسيط).

والناس من باب القلعة إلى باب النصر وظاهر البلد حتّى سقَط منهم جماعة كثيرة في الخَنْدَق فسَلِم جماعة وهلَك دون العشرة، وأمسى الناس يوم السبت وقد أُعلن بآسم الملك المنصور لاجين لا يُخْفِي أحد ذلك، وشُرِع دقّ البشائر بالقلعة. ثم في سَحَر يوم الأحد ذَكَره المؤذّنون بجامع دِمَشق، وتَلَوْا قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَالِكَ ٱلْمُلْكِ...﴾ إلى آخرها. وأظهروا آسم المنصور والدعاء له، ثم ذكره قارىء المصحف بعد صلاة الصبح بمقصورة جامع دمشق، ودَقَّت البشائر على أبواب جميع أمراء دمشق دَقّاً مُزعجاً، وأظهروا الفرح والسرور وأُمِر بتزيين أسواق البلد جميعِها فزُيِّنت مدينةَ دمشق، وفُتحت دكاكين دمشق وأسواقُها وآشتغلوا بمعايشهم، وتعجّب الناس من تسليم الملك العادل كَتْبُغَا الأمرَ إلى الملك المنصور لاجين على هذا الوجه الهيِّن من غير قتال ولا حرْب مع ما كان معه من الأمراء والجند، ولو لم يكن معه إلّا مملوكه الأمير أغزلُو العادِليّ نائبُ الشام لكفاه ذلك. على أنّ الملك المنصور لاجين كان أرسل في الباطن عدّة مطالعاتٍ لأمراء دمشق وأهلها وآستمال غالب أهل دمشق، فما أحوجه الملك العادل كتبغا لشيء من ذلك بل سَلَّم له الأمرَ على هذا الوجه الذي ذكرناه. خِذْلانٌ من الله تعالى.

وأمّا الأمير سيف الدين أغزلو العادليّ مملوك الملك العادل كَتْبُغَا نائب الشام لمّا رأى ما وقع من أستاذه لم يسعه إلا الإذعان للملك المنصور وأظهر الفرح به وحلَف له. وقال: الملك المنصور لاجين ــ نصره الله ــ هو الذي كان عَيَّنني لنيابة دمشق، وأستاذي الملك العادل كتبغا آستصغرني فأنا نائبه. ثم سافر هو والأمير جاغان إلى نحو الديار المصريّة.

وأمّا لاجين فإنّه تسلطن يوم الجمعة عاشر صفر وركِب يوم الخميس سادس عشر صفر وشقّ القاهرة وتمّ أمرُه. وأمّا الملك العادل كَتْبُغَا هذا فإنّه آستمرّ بقلعة دمشق إلى أن عاد الأميرُ جاغان المنصوريّ الحُساميّ إلى دمشق في يوم الاثنين حادي عشر شهر ربيع الأوّل، وطلَع من الغد إلى قلعة دمشق ومعه الأمير الكبير حُسام الدين الظاهريّ أستاذ الدار في الدولة المنصوريّة والأشرفيّة، والأمير سيف الدين كُجْكُن، وحضر قاضي القضاة بدر الدين بن جَمَاعة قاضي دِمَشق ودخلوا

الجميع إلى الملك العادل كَتْبُغا، فتكلّم معهم كلاماً كثيراً بحيث إنّه طال المجلس كالعاتب عليهم، ثم إنّه حلَف يميناً طويلةً يقول في أوّلها: أقول وأنا كَتْبُغا المنصوريّ، ويكرِّر آسم الله تعالى في الحَلِف مرّةً بعد مرّة، أنّه يَرْضَى بالمكان الذي عيّنه له السلطان الملك المنصور حُسام الدين لاجين ولا يُكاتب ولا يُسارر، وأنّه تحت الطاعة، وأنه خلَع نفسه من المُلك وأشياء كثيرة من هذا النُّمُوذج؛ ثم خرجوا من عنده. وكان المكان الذي عيّنه له الملك المنصور لاجين قلعة صَرْخَد، ولم يعيّن المكان المذكور في اليمين.

ثم وَلّى الملك المنصور نيابة الشام للأمير قَبْجَقْ المنصوريّ وعَزَل أغِزْلُو العادليّ، فدخل قبجق إلى دمشق في يوم السبت سادس عشر شهر ربيع الأوّل؛ وتجهّز الملك العادل كتبغا وخرج من قلعة دمشق بأولاده وعياله ومماليكه وتوجّه إلى صَرْخد في ليلة الثلاثاء تاسع عشر شهر ربيع الأوّل المذكور، وجرَّدوا معه جماعةً من الجيش نحو مائتي فارس إلى أن أوصلوه إلى صَرْخد. فكانت مدّة سلطنة الملك العادل كَتْبُغَا هذا على مصر سنتين وثمانية وعشرين يوماً، وقيل سبعة عشر يوماً؛ وتسلطن من بعده الملك المنصور حُسام الدين لاجين حسب ما تقدّم ذكره.

ثم كتب له الملك المنصور حُسام الدين لاجين تقليداً بنيابة صَرْخد، فقَبِل الملك العادل ذلك، وباشر نيابة صرخد سنين إلى أن نقله السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في سلطنته الثانية من نيابة صَرْخَد إلى نيابة حَمَاة؛ وصار من جملة نوّاب السلطنة، وكُتب له عن السلطان كما يُكتب لأمثاله من النوّاب؛ وسافر في التجاريد في خدمة نوّاب دمشق وحضر الجِهاد؛ ولم يزل على نيابة حَمَاة حتى مات بها في ليلة الجمعة يوم عيد الأضحى وهو في سنّ الكهوليّة، ودُفِن بحَمَاة؛ ثم نُقِل منها ودُفِن بتربته التي أنشأها بسَفْح جبل قاسِيون دمشق غربيّ الرِّباط الناصري، وله عليها أوقاف.

وكان مَلِكاً خيِّراً ديِّناً عاقلاً عادلاً سليمَ الباطن شجاعاً متواضعاً؛ وكان يُحِبّ الفقهاء والعلماء والصلحاء ويُكرمهم إكراماً زائداً؛ وكان أسمر اللون قصيراً دقيقَ الصَّدْر قصيرَ العُنق؛ وكان له لحيةٌ صغيرة في حَنَكه. أُسِر صغيراً من عسكر هولاكو.

وكان لمّا ولِي سلطنة مصر والشام تشاءم الناس به، وهو أنّ النيل قد بلغ في تلك السنة ست عشرة ذراعاً ثم هَبَط من ليلته فشَرِقَت البلاد وأعقبه غلاءٌ عظيم حتى أكل الناسُ الميتة. وقد تقدّم ذكر ذلك في أوّل ترجمته. ومات الملك العادل كَتْبُغا المذكور بعد أن طال مرضُه وآسترخَى حتى لم يبقَ له حركة؛ وترك عِدّة أولاد. وتولّى نيابة حَمَاة بعده الأمير بتْخاص المنصوريّ نُقِل إليها من نيابة الشُّوبَك. وقد تقدّم التعريف بأحوال كَتْبُغَا هذا في أوائل ترجمته وفي غيرها فيما مرّ ذكره.

وأمرُ كتبغا هذا هو خَرْق العادة من كونه كان ولِي سلطنة مصر أكثر من سنتين وصار له شوكةٌ ومماليك وحاشية، ثم يُخلع ويصير من جملة نوّاب السلطان بالبلاد الشاميّة؛ فهذا شيءٌ لم يقع لغيره من الملوك. وأعجب من هذا أنّه لما قُتل الملك المنصور لاجين وتحيّر أمراء مصر فيمن يُولُّونه السلطنة من بعده لم يتعرضّ أحد لذكره ولا رُشّح للعود البَتّةَ حتى آحتاجوا الأمراء وبعثوا خلف الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكرك، وأتوا به وسلطنوه.

قلتُ: وما أظنّ أنّ القلوب نَفَرت منه إلا لِمَا رَأَوْه من دَنِيء همتّه عندما خلع من السلطنة وتسليمِه للأمر من غير قتال ولا ممانعة وكان يمكنه أن يدافع بكلّ ما تصل القُدْرة إليه ولو ذهبت رُوحه عزيزةً غيرَ ذليلة، وما أحسن قولَ عبد المطلب جَدّ نبيّنا محمد صلّى الله عليه وسلّم واسمه شيبة الحمد: [البسيط]

لنا نفوسٌ لنَيْل المجد عاشقةٌ ... وإن تسلّت أسَلْناها على الأسَلِ
لا ينزلُ المجدُ إلّا في منازلنا ... كالنوم ليس له مأْوًى سوى المُقَلِ

وقوَل عَنترة أيضاً: [الوافر]

أرومُ من المَعَالي منتهاها ... ولا أَرْضَى بمنزلة دنيّه
فإمّا أن أُشال على العوالي ... وإمّا أن تَوَسِّدني المنيّه

ويُعجبني المقالة الثامنةَ عشرةَ من تأليف العّلامة شرف الدين عبد المؤمن بن هبة الله الأصفهاني المعروف بشَوَرْوَة فإنّ أوائلها تُقارب ما نحن فيه، وهي:

رُتبة الشرف، لا تُنال بالتَّرَف؛ والسعادة أمرٌ لا يُدرك، إلا بعيش يُفْرك[١]، وطِيب يُترك؛ ونوم يُطرد، وصوم يُسْرَد؛ وسُرور عازب[٢]، وهمّ لازِب؛ ومَنْ عَشِقَ المعالي أَلِف الغَمّ، ومَن طلَب اللآليء رَكِبَ اليَمّ؛ ومَنْ قَنَص الحِيتان وَرَد النهر، ومن خَطَب الحَصَان نَقَد المَهْر؛ كلاّ أين أنت من المعالي! إنّ السَّحُوق[٣] جَبّار وأنت قاعد، والفَيْلَق جَرّار وأنت واحد؛ العقلُ يُناديك وأنت أصلـخ[٤]، ويُدنيك ويحولُ بينكما البَرْزَخ؛ لقد أُزِف الرحيل فآستنفِد جَهْدَك، وأَكْثَب[٥] الصيدُ فضمِّر فَهْدَك؛ فالحَذِر يترصد الانتهاز، والحازم يُهَيِّيء أسباب الجِهاز؛ تَجَرَّعْ مَرارة النوائب في أيّام معدودة، لحَلاَوة معهودة غير محدودة؛ وإنما هي مِحْنَةٌ بائدة، تتلوها فائدة؛ وكُرْبَةٌ نافدة، بعدها نعمة خالدة، [وغنيمة باردة][٦]؛ فلا تَكْرَهنّ صَبِراً أو صابا[٧]، يَغْسِل عنك أوصابا؛ ولا تَشْرَبنّ وِرْداً يُعقبك سَقَاما، ولا تَشُمَّن وَرْداً يُورِثُك زُكاما؛ [ما ألين الرَّيحان لولا وَخْزُ البُهْمَى[٨]، وما أطيبَ الماذِيّ[٩] لولا حُمَة[١٠] الحمّى]! فلا تَهولَنّك مراراتٌ ذاقها عُصْبة، إنما يريد الله ليهديهم بها؛ ولا تروقَنّك حلاوات نالها فرقة، إنما يريد الله ليعذّبهم بها. اِنتهى.

* * *

(١) أي يبغض ويزهد فيه.

(٢) العزب: البعيد؛ واللازب: المقيم لا يبرح.

(٣) السَّحوق: النخلة الطويلة. والجبار من النخل: ما طال وفات اليد.

(٤) الأصلـخ: الأصمّ.

(٥) أي اقترب.

(٦) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية عن أطباق الذهب.

(٧) الصاب: عصارة شجر مرّ. والأوصاب: الأوجاع والأمراض.

(٨) البُهمى: نبات.

(٩) الماذيّ: العسل الأبيض الرقيق.

(١٠) الحمة (بالتخفيف): اسم كل شيء يلسع أو يلدغ.

السنة الأولى من سلطنة الملك العادل كَتْبُغَا المنصوريّ على مصر

وهي سنة أربـع وتسعين وستمائة.

كان فيها الغلاء العظيم بسائر البلاد ولا سيّما مصر والشام؛ وكان بمصر مـع الغلاء وباء عظيم أيضاً؛ وقاسَى الناسُ شدائدَ في هذه السنة وآستسقى الناسُ بمصر من عِظَم الغلاء والفناء.

وفيها أَسَلم مَلِك التّتار غازان(١) وأسلم غالب جُنده وعساكره، على ما حَكَى الشيـخ علم الدين البِرْزاليّ.

وفيها تُوُفّي السلطان الملك المظفّر شمس الدين أبو المحاسن يوسف آبن السلطان الملك المنصور نور الدين عمر بن عليّ بن رَسُول التُّرْكُمَانِيّ(٢) الأصل

---

(١) تولى غازان عرش المغول في شهر ذي الحجة سنة ٦٩٤هـ. وكان قد اعتنق الإسلام قبـل ذلك بنحـو أربعـة شهـور عـلى يـد الإمـام الجليـل صـدر الـدين إبـراهيم بن حمـويـه في ٤ شعبـان من تلك السنة وهو لا يـزال يحارب بـايدو. ويعـود الفضل الأكبـر في إسلام غـازان إلى الأمير نـوروز بن أرغون. وبتحـوّل غـازان إلى الإسـلام تحـوّل معـه مـائـة ألف من أتبـاعـه. وكـان أول عمل قام به بعد إسلامه هو أن أعلن الإسلام ديناً رسمياً للدولة المغولية في إيران، كما غيّر المغول زيّهم ولبسوا العمامة كشارة ملموسة لهذا الانقلاب. ثم أصدر غازان أمره بتدمير الكنائس المسيحية واليهودية، وحطمت كذلك الهياكل والأصنام البوذية؛ وأجبر البوذيون على الدخول في الإسلام، ولم يعد المسيحيون ولا اليهود بقادرين على أن يظهروا للناس إلا في ثياب متميزة، فكانت علامة النصارى شدّ الزنّار في أوساطهم واليهود خرقة صفراء في عمائمهم. ولقد كان إسلام غازان وخلفائه من بعده نقطة تحول هامة في تاريخ إيران: إذ قضى على الهوّة السحيقة التي كانت تفصل بين الحاكمين المغول والمحكومين المسلمين، وأصبح المحكومون ينظرون إلى الحكام المغول كما كانوا ينظرون إلى أمرائهم المحليين؛ كما أتاح للمغول فترة هدوء واستقرار كفوا فيها أيديهم عن القتل والغارة وعادوا إلى الحالة الطبيعية فزاد تأثرهم بحضارة المغلوبين وجدّوا في إصلاح ما أحدثه آباؤهم من تخريب وتدمير وصاروا أكثر استعداداً للمساهمة بنصيبهم في إنهاض الحضارة الإسلامية من كبوتها. (مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين الهمذاني، ص ٧٠ ــ ٨٥) وانظر: الحوادث الجامعة: ص ٢٢٨ ــ ٢٣١، ودول الإسلام: ٣٩٠، والعلاقات السياسية بين المماليك والمغول: ١٣١ ــ ١٣٢.

(٢) في سبب نسبة آل رسول إلى التركمان ذكر الخزرجي في العقود اللؤلؤية أن جبلة بن الأيهم لما هلك في بلاد الروم انتقل ولده ومن انضم إليهم من قومهم إلى بلاد التركمان، فسكنوا هنالك مـع قبيلة من أشرف قبائل التركمان يقال لها «مجّك» فأقاموا بينهم، وتكلموا بلغتهم، وبعدوا عن العرب، فانقطعت أخبارهم عن كثير من الناس. ثم وردوا العراق، فنسبهم من يعرفهم إلى غسّان، ونسبهم من لا يعرفهم=

الغَسّانِيّ صاحب بلاد اليمن؛ مات في شهر رجب بقلعة تَعِزّ من بلاد اليمن، وقيل: آسم رَسُول محمد بن هارون بن أبي الفتح بن يوحي[1] بن رُسْتَم من ذرّيّة جَبَلَة بن الأَيْهَم، قيل: إنّ رَسُولاً جَدّ هؤلاء ملوك اليمن كان آنضم لبعض الخلفاء العباسيّة، فاختصه بالرسالة إلى الشام وغيرها فعرف برَسُول، وغَلَب عليه ذلك. ثم آنتقل من العراق إلى الشام ثم إلى مصر، وخَدَم هو وأولاده بعض بني أيُّوب، وهو مع ذلك له حاشية وخَدَمٌ. ولمّا أرسل السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب أخاه الملك المعظَّم توران شاه إلى اليمن أرسل الملك المنصور عمر والد صاحب الترجمة معه كالوزير له وآستحلفه على المناصحة، فسار معه إلى اليمن. فلمّا ملَك الملك المسعود أَقْسيس آبن الملك الكامل محمد بن أبي بكر بن أيُّوب اليمن بعد تُوران شاه قرّب عمر المذكور وزاد في تعظيمه وولّاه الحصون، ثم ولّاه مكة المشرفة ورتّب معه ثلاثمائة فارس، وحصَل بينه وبين صاحب مكة حسن بن قَتَادة وقعةٌ آنكسر فيها حسن ودخل المنصور مكة وآستولى عليها، وعمّر بها المسجد الذي آعتمرتْ منه عائشة أمّ المؤمنين رضي الله عنها في سنة تسع عشرة وستمائة، ثم عَمّر في ولايته لمكة أيضاً دار أبي بكر الصدّيق، رضي الله عنه في زقاق الحَجَر في سنة ثلاث وعشرين وستمائة، ثم آستنابه الملك المسعود على اليَمَن لمّا توجّه إلى الديار المصرية، وآستناب على صَنْعَاء أخاه بدر الدين حسن بن عليّ بن رَسُول. ولمّا عاد الملك المسعود إلى اليمن قَبَض على نور الدين هذا وعلى أخيه بدر الدين حسن المذكور وعلى أخيه فخر الدين وعلى شرف الدين موسى تَخوّفاً منهم لمَا ظهَر من نجابتهم في غَيْبته، وأرسلهم إلى الديار المصريّة محتفظاً بهم خلا نور الدين عمر (أعني الملك المنصور) فإنّه أطلقه من يومه لأنه كان يأنس إليه، ثم آستحلفه وجعله أتَابَك عسكره؛ ثم آستنابه الملك المسعود ثانياً لمّا توجّه إلى مصر، وقال له: إن متّ فأنت أولى بالمُلك من إخوتي لخدمتك لي، وإن عشتُ فأنت على حالك؛ وإياك أن تترك أحداً من أهلي يدخل اليمن، ولو جاءك الملك الكامل. ثم سار

= إلى التركمان. (طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب للسلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول: ص ٣١، المقدمة).

(١) في الأصل: «نوحي» وما أثبتناه عن طرفة الأصحاب، ص ٣١.

الملك المسعود إلى مكة فمات بها. فلما بلـغ الملكَ المنصورَ ذلك آستولى على ممالك اليَمَن بعد أمور وخطوب، وآستوسق له الأمرُ، فكانت مدّة مملكته باليمن نيِّفاً على عشرين سنة. ومات بها في ليلة السبت تاسـع ذي القعدة سنة سبـع وأربعين وستمائة، وملَكَ بعده آبنه الملك المظفَّر يوسف هذا، وهو ثاني سلطان من بني رَسول باليمن؛ وأقام الملك المظفَّر هذا في الملك نحواً من ستّ وأربعين سنة. وكان مَلِكاً عادلاً عفيفاً عن أموال الرعيّة، حسن السِّيرة كثير العدل؛ ومَلَك بعده ولده الأكبر الملك الأشرف ممّهد الدِّين عمر فلم يمكُث الأشرف بعد أبيه إلا سنة ومات؛ ومَلك أخوه الملك المؤيّد هِزَبْر الدِّين داود. ومات الملك المظفّر هذا مسموماً: سمته بعضُ جواريه؛ ومات وقد جاوز الثمانين؛ وخلّف من الأولاد: الملك الأشرف الذي ولي بعده، والمؤيّد داود والواثق [إبراهيم][1] والمسعود [حسن][1] والمنصور [أيوب][1]. اِنتهى.

وفيها تُوُفّي العلّامة جمال الدين أبو غانم محمد آبن الصاحب كمال الدين أبـي القاسم عمر بن أحمد بن هبة الله بن أحمد بن أبـي جَرَادة الحَلبِيّ الحنفيّ المعروف بآبن العَدِيم. مات بمدينة حَمَاة، وكان إماماً فاضلاً بارعاً من بيت عِلْم ورياسة.

وفيها قُتِل الأمير عساف آبن الأمير أحمد بن حَجِّيّ أمير العرب من آل مِرَى؛ وكان أبوه أكبرَ عُربان آل بَرْمك، وكان يدّعي أنه من نسل البرامكة من العبّاسة أخت هارون الرشيد. وقد ذكرنا ذلك في وفاة أبيه الأمير شهاب الدين أحمد.

وفيها تُوُفّي الأمير بدر الدين بَكْتُوت بن عبد الله الفارِسِيّ الأَتابكيّ؛ كان من خِيار الأمراء وأكابرهم وأحسنهم سِيرةً.

وفيها تُوُفّي شيـخ الحجاز وعالمُه الشيـخ مُحِبّ الدين أحمد بن عبد الله بن محمد بن أبـي بكر بن محمد بن إبراهيم الطَّبَرِيّ الملكيّ الشافعيّ فقيه الحرم بمكة

---

(١) زيادة عن طرفة الأصحاب: ص ١٠١. وقد أورد صاحب الطرفة (وهو ابن الملك المظفر المذكور) أسماء ثلاثة عشر ولداً للملك المظفر.

ـ شرفها الله تعالى ـ ومفتيه؛ ومولده في سنة أربع عشرة وستّمائة بمكّة. وكانت وفاته في ذي القعدة. وقال البِرْزاليّ: وُلد بمكّة في يوم الخميس السابع والعشرين من جُمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة.

قلت: ونشأ بمكّة وطلَب العلم وسمِع الكثير ورَحَل البلاد.

وقال جمال الدين الإسنائي: إنّه تفقّه بقُوص على الشيخ مجد الدين القُشَيْرِيّ. اِنتهى.

وذكَر نحو ذلك القُطب[1] الحَلبيّ في تاريخ مصر، وحدّث وخرّج لنفسه أحاديث عوالي.

قال أبو حَيّان[2]: إنّه وقع له وَهَمٌ فاحشٌ في القسم الأول وهو التُّساعِيّ، وهو إسقاط رجل من الإسناد حتى صار له الحديثُ تُساعِيًا في ظنّه. اِنتهى.

قلت: وقد آستوعبنا سماعاته ومصنّفاته ومشايخه في ترجمته من تاريخنا المنهل الصافي والمُسْتَوْفى بعد الوافي مستوفاةً في الكتاب المذكور. وكان له يدٌ في النظم، فمن ذلك قصيدته الحائية: [الخفيف]

ما لِطَرْفي عن الجَمال بَراحُ ولقلبي به غِدا ورَوَاحُ
كلُّ معنًى يلوح في كلّ حُسْنٍ لي إليه تقلُّبٌ وآرتياحُ

ومنها:

فيهمُ يُعْشق الجمال ويُهْوَى ويشوق الحِمَى وتُهْوَى المِلاحُ
وبهم يَعْذُبُ الغَرام ويَحْلُو ويَطيب الثناءُ والإمتداحُ
لا تَلُمْ يا خليُّ قَلْبيَ فيهمْ ما على مَنْ هَوَى المِلاحَ جُناحُ
وَيْحَ قلبي ووَيْحَ طَرْفي إلى كم يَكْتُمُ الحُبَّ والهَوَى فَضّاحُ
صاحِ عرِّج على العقيق وبلِّغ وقِبابٍ فيها الوجوه الصباحُ

(١) هو قطب الدين عبد الكريم بن عبد النور بن منير الحلبي المتوفى سنة ٧٣٥هـ.
(٢) هو أثير الدين محمد بن يوسف بن عليّ الجياني الأندلسي المتوفى سنة ٧٤٥هـ.

والقصيدة طويلة كلُّها على هذا المِنْوال.

وفيها تُوفّي سلطان إفريقيّة وآبن سلطانها وأخو سلطانها عُمَر بن أبـي زكريّا يحيـى بـن عبد الواحد بن عمر الهِنْتَاني[١] الملّقب بالمستنصر بالله والمؤيّد به؛ وولي سلطنة تُونُس بعد وفاة أخيه إبراهيم فيما أظنّ، وقَتَل الدعِيّ[٢] الذي غلب عليها، وملَك البلاد ودام في المُلك إلى أن مات في ذي الحّجة. وكان عَهِد لولده عبد الله بالمُلك، فلمّا آختصر أشار عليه الشيـخ أبو محمد المَرْجاني بأن يَخلعه لِصغر سنّه فخلعه، ووَلّى ولد الواثق محمد بن يحيـى بن محمد الملقّب بأبـي عصيدة الآتي ذكـر وفاته في سنة تسـع وسبعمائة. وكان المستنصر هذا مَلِكاً عادلاً حسن السيرة وفيه خِبرة ونهضة وكفاية ودِين وشجاعة وإقدام. رحمه الله تعالى.

الذين ذكر الذهبـيّ وفاتَهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي الزاهد القُدْوة أبو الرجال بن مِري بمَنِين[٣] في المحرّم. وعزّ الدين أبو بكر محفوظ بن معتوق التاجر آبن البُزُورِيّ[٤] في صفر. والإمام عِزّ الدين أحمد بن إبراهيم بن الفاروثيّ في ذي الحجة. وصاحب اليمن الملك المظفّر يوسف بن عمر في رجب؛ وكانت دولته بضعاً وأربعين سنة. وشيـخ الحجاز مُحِبّ الدين الطَّبَرِيّ. وأبو الفهم أحمد بن أحمد بن محمد بن عبد الرحمن الحُسَيْنِيّ النقيب في المحرّم. والعلاّمة تاج الدين

---

(١) الهنتاني: نسبة إلى هنتانة من قبائل البربر.

(٢) هو الدعيّ بن أبي عمارة، أحمد بن مرزوق. أصله من بجاية بأفريقية ولحق بصحراء سجلماسة فادعى أنه من آل البيت وأنه «الفاطمي المنتظر فأعرض عنه البدو، فرحل إلى أطراف طرابلس الغرب فالتقى بفتى اسمه «نصير» كان مولى للواثق الحفصي يحيى بن محمد، فأعلمه نصير بأنه قريب الشبه من الفضل بن الواثق ــ وكان الفضل قد مثل مـع أبيه، قتلهما إبراهيم بن يحيـى ــ وأراه أنه إذا تسمى بالفضل وادعى أنه ابن الواثق أفلح. فوافقه ابن أبي عمارة وأظهر أنه الفضل وأنه لم يقتل، فصدقه أهل تلك النواحي وبايعوه بالخلافة. واستولى على طرابلس، وزحف إلى قابس وعظم شأنه. ثم استولى على القيروان والمهدية وسفاقس، فخاف ابراهيم بن يحيـى ــ أمير المؤمنين بتونس ــ وفرّ إلى بجاية، فقصده الدعيّ ودخل تونس، وأرسل إلى بجاية جيشاً قتل إبراهيم بن يحيـى. وأقام الدعيّ بتونس سلطانـاً على المغرب مدة ثلاث سنوات إلى أن ظهر المستنصر وقتله سنة ٦٨٣هـ. (الأعلام: ١/٢٥٦).

(٣) منين: قرية في جبل سنير من أعمال الشام. (معجم البلدان).

(٤) نسبة إلى بيـع البزور.

أبو عبد الله محمد بن عبد السلام بن المطهر بن أبي عصرون التميمي مدرّس الشاميّة[١] الصغرى في ربيع الأول. ومحيي الدين عبد الرحيم بن عبد المنعم بن الدَّميري في المحرّم، وله تسعون سنة. والزاهد القُدْوة شرف الدين محمد بن عبد الملك اليُونينيّ المعروف بالأرزوني. والزاهد المقرىء شرف الدين محمود بن محمد التَّاذِفِيّ[٢] بقاسِيون في رجب. والعلامة زين الدين المُنَجَّا بن عثمان بن أسعد آبن المنجا الحنبليّ في شعبان، وله خمس وستون سنة. وقاضي القضاة شرف الدين الحسن بن عبد الله آبن الشيخ أبي عمر المَقْدِسِيّ الحنبليّ. وناصر الدين نصر الله بن محمد بن عيّاش الحدّاد في شوّال. والعدل كمال الدين عبد الله بن محمد بن قوام في ذي القعدة. وأبو الغنائم بن مَحاسن الكفراني. والمقرىء موفّق الدين محمد بن أبي العَلَاء [محمد بن عليّ] ببعلبك في ذي الحجة. والمقرىء أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الحليم سُحْنُون المالِكِيّ في شوّال بالإسكندريّة. والعلّامة الصاحب محيي الدين محمد بن يعقوب بن النحّاس الحَلَبيّ الحنفي في آخر السنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ذراع وأصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرةَ ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً. وكان الوفاء في سادس أيام النَّسيء.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك العادل كَتْبُغَا المنصوريّ على مصر

وهي سنة خمس وتسعين وستمائة.

فيها كان الغلاء العظيم بسائر البلاد، ولا سيّما مصر والشام؛ وكان بمصر مع الغلاء وباءٌ عظيم أيضاً، وقاسى الناس شدائدَ في هذه السنة والماضية.

---

(١) المدرسة الشامية الصغرى: أو المدرسة الشامية الجوانية، قبلي المارستان النوري بدمشق. من إنشاء ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شادي. (الدارس في تاريخ المدارس: ١/ ٢٢٧).

(٢) نسبة إلى «تاذف» من قرى حلب.

وفيها ولي قضاء الديار المصريّة الشيخ تقيّ الدين أبو الفتح محمد بن عليّ بن وهب بن دقيق العيد بعد وفاة قاضي القضاة تقيّ الدين عبد الرحمن ابن بنت الأعزّ.

وفيها تُوفّي الملك السعيد شمس الدين إيلغازي آبن الملك المظفّر [فخر الدين قرا أرسلان](١) آبن الملك السعيد صاحب مارِدين الأرْتُقِيّ، ودُفن بتربة جدّه أُرْتُق؛ وتولّى بعده سلطنة ماردين أخوه الملك المنصور نجم الدين غازي. وكان مدّة مملكة الملك السعيد هذا على مارِدين دون الثلاث سنين. وكان جَوَاداً عادلاً حسن السيرة، رحمه الله تعالى.

وفيها تُوُفّي الأمير بدر الدين بِيلِيك بن عبد الله المُحْسِنِيّ المعروف بأبي شامة بالقاهرة؛ وكان من أعيان الأمراء وأكابرهم، رحمه الله.

وفيها تُوفّي الأسعد بن السَّدِيد القِبْطِيّ الأسلميّ الكاتب مُسْتَوفي(٢) الديار المصريّة والبلاد الشامية والجيوش جميعها المعروف بالماعز الديواني المشهور؛ وكان معروفاً بالأمانة والخير، وكان نصرانيّاً ثم أسلم في دولة السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون.

قال الشيخ صلاح الدين الصفدي ـ رحمه الله ـ: حَكَى لي القاضي شهاب الدين محمود رحمه الله قال: لمّا مَرِض المذكور توجّهنا إليه نعوده فوجدناه ضعيفاً إلى الغاية، وقد وضعوا عنده أنواعاً من الحُليّ والمصاغ المجوهر والعقود وفيها العنبر الفائق وأنواعٌ من الطِّيب. ثم إنّه قال: اِرفعوا هذا عنّي، وأَسَرّ إلى خادم كلاماً؛ فمضَى وأتى بحُقّ ففتحه وأقبل يَشُمُّه وقُمنا من عنده ثم إنه مات، فسألنا ذلك

(١) زيادة عن السلوك وابن الفرات.

(٢) هو مستوفي الدولة؛ وكان عمله ضبط كليات المال في كافة المملكة في الشام ومصر. وكان يعاونه عدد من المستوفين، منهم الكبار مثل: مستوفي أصل، ومستوفي مباشرة. وكان عمله كعمل مستوفي الصحبة الذي كان يوصف بأنه قطب ديوان المال، وربما اندمجت الوظيفتان. وهؤلاء الكتاب كانوا يهيمنون على عامة الدواوين. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣١٠ ـ ٣١١).

الخادم فيما بعد: ما كان في ذلك الحُقّ؟ قال: شَعْرة من آست الراهب الفلانيّ الذي كان له كذا كذا سنة ما لَمَس الماء ولا قربه. قال: فأنشدت: [البسيط]

ما يَقْبِضُ الموتُ نفساً من نفوسهمُ إلاّ وفي يده من نَتْنِها عُودُ[1]

وفيها تُوفِّي الأمير عزّ الدين أَيْبَك بن عبد الله الأَفْرَم الكبير أمير جانْدار الملك الظاهر والملك السعيد والملك المنصور قلاوون. فلمّا تسلطن الملك الأشرف خليل ابن قلاوون حَبَسه؛ وبعد قتل الأشرف خليل أخرجه أخوه الملك الناصر محمد بن قلاوون وأعاده إلى مكانته؛ ثم آستقرّ في أيام الملك العادل كَتْبُغَا على حاله إلى أن مات بالقاهرة في يوم السبت سابع شهر ربيع الأوّل.

قال القطب اليُونينيّ: حَكَى لي الأمير سيف الدين بن المَحَفَّدار قال: أوصى الأفرمُ عند موته أنه إذا تُوفِّي يأخذون خيله يُلْبسونها أفخر ما لها من العُدّة، وكذلك جميع مماليكه وغِلمانه يُلْبِسونهم عُدّة الحرب، وأن تَضْرِب نَوْبة الطبلخاناه خَلْفَ جنازته، كما كان يطلع إلى الغَزَاة، وألاّ يقُلبَ له سنجق ولا يُكْسَر له رمحٌ، ففعلوا أولاده ما أمر به ما خلا الطبلخاناه، فإنّ نائب السلطنة حُسام الدين لاجين منعهم من ذلك؛ وكانت جنازته حَفِلةً حضَرها السلطان ومنْ دونه. وكان دَيِّناً من وسائط الأخيار وأرباب المعروف. وكان يقال: إنه يدخل عليه من أملاكه وضماناته وإقطاعاته كلّ يوم ألفُ دينار خارج عن الغلال.

قلت: وهذا مستفاض بين الناس. وقصّة أولاده لمّا آحتاجوا مع كثرة هذا المال إلى السؤال مشهورة. يقال إنه كان له ثُمْنُ الديار المصرية، وهو صاحب الرِّباط والجسر[2] على بركة الحبش خارج القاهرة.

قال الشيخ صلاح الدين الصَّفَدِيّ: «كنت بالقاهرة وقد وقف أولاده وشكا عليهم أرباب الديون إلى السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، فقال السلطان:

---

(١) الشعر للمتنبي من قصيدته المشهورة التي مطلعها: «عيدٌ بأية حال عدت يا عيدُ».

(٢) رباط الأفرم، وجسر الأفرم. (انظر خطط المقريزي: ١٦٥/٢، ٤٣٠) وعن بركة الحبش انظر نفس المصدر: ١٥٢/٢.

يا بَشْتَك[١]، هؤلاء أولاد الأفرم الكبير صاحب الأملاك والأموال، أبصر كيف حالهم! وما سببه إلا أنّ أباهم وكَلَهم على أملاكهم فما بَقيت، وأنا لأجل ذلك لا أدّخر لأولادي مِلْكاً ولا مالاً». اِنتهى كلام الصَّفَدِي.

قلت: والعجيب أنه كان قليلَ الظلم كثير الخير؛ وغالب ما حصله من نوع المتاجر والمزروعات والمستأجرات، ومع هذا آحتاج أولاده وذريته إلى السؤال.

وفيها تُوفِّي قاضي القضاة بالديار المصريّة ورئيسها تقيّ الدين أبو القاسم عبد الرحمن آبن قاضي القضاة تاج الدين أبي محمد عبد الوهاب آبن القاضي الأعز أبي القاسم خلف [بن محمود] بن بدر العَلاَمِيّ الشافعي المصري المعروف بابن بنت الأعز. مات يوم الخميس سادس عشر جُمادَى الأولى ودُفن عند والده بالقرافة في تربتهم وهو في الكهولية. وكان فقيهاً بارعاً شاعراً خيّراً ديّناً متواضعاً كريماً؛ تفقّه على والده وعلى آبن عبد السلام؛ وتولّى الوزارة والقضاء ومشيخة الشيوخ، وأضيف اليه تدريس الصلاحيّة[٢] والشريفية[٣] بالقاهرة والمشهد الحسيني[٤] وخطابة الجامع الأزهر، وآمتُحِن محنةً شديدةً في أوّل الدولة الأشرفية وعُمِل على إتلافه بالكليّة، وذلك بسعاية الوزير آبن السَّلْعُوس الدِّمشقيّ. وقد آستوعبنا أمره في المنهل الصافي، ثم أُعيد إلى القضاء بعد وفاة الأشرف، فلم تطل أيامه ومات.

ولمّا حج القاضي تقيّ الدين هذا وزار قبر النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنشد عند الحجرة [النبوية] قصيدته التي مطلعها: [الكامل]

النـاس بين مُرَجِّزٍ ومُقَصِّدِ ... ومطوِّل في مدحه ومُجَوِّدِ

ومُخبِّرٍ عمّن روَى ومعبِّرٍ ... عمّا رآه من العلا والسُّؤدَدِ

---

(١) هو الأمير سيف الدين بشتك بن عبد الله الناصري أحد مماليك الناصر محمد بن قلاوون. ــ وانظر وفيات سنة ٧٤٢هـ.

(٢) راجع الجزء السادس، ص ٥٤، حاشية (٥).

(٣) المدرسة الشريفية بالقاهرة؛ كانت بدرب كركامة على رأس حارة الجودرية. أنشأها الشريف فخر الدين أبو نصر إسماعيل ابن حصن الدولة أحد أمراء مصر في الدولة الأيوبية (خطط المقريزي: ٢/٣٧٣) وهي التي تعرف اليوم بجامع بيبرس الخياط بأول شارع الجودرية بقسم الدرب الأحمر بالقاهرة. (محمد رمزي).

(٤) المقصود مدرسة صلاح الدين التي كانت بجوار المشهد الحسيني. (محمد رمزي).

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام الأديب البارع المُفْتَنُّ سِراج الدين أبو حفص عمر بن محمد بن الحسين المصريّ المعروف بالسِّراج الورّاق الشاعر المشهور. مولده في العشر الأخير من شوّال سنة خمس عشرة وستمائة، ومات في جُمادَى الأولى من هذه السنة ودُفِن بالقرافة. وكان إماماً فاضلاً أديباً مُكْثِراً متصرِّفاً في فنون البلاغة، وهو شاعر مصر في زمانه بلا مُدافعة. ومن شعره: [البسيط]

في خدِّه ضلّ عِلم الناس وآختلفوا ... ألِلشقائق أم لِلوَرْد نسبتُهُ
فذاك بالخال يقضِي للشقيق وذا ... دليلُه أنّ ماء الورد رِيقتُهُ

وله: [مخلعّ البسيط]

كم قَطَع الجُود من لسانٍ ... قلّد من نَظْمه النحورَا
فهأنا شاعرٌ سِراجٌ ... فاَقْطَعْ لساني أَزِدْك نُورا

وله: [البسيط]

لا تَحْجُبِ الطَّيْفَ إنّي عنه محجوبُ ... لم يَبْقَ مني لفَرْط السقم مطلوبُ
ولا تثِقْ بأنيني إنّ مَوْعِده ... بأن أَعِيش للُقْيَا الطَّيْفِ مكذوبُ
هذا وخَدُّك مخضوبٌ يُشاكِلُهُ ... دَمْعٌ يفيضُ علَى خديَّ مخضوبُ
وليس للوَرْد في التشبيه رُتبتُهُ ... وإنّما ذاك من معناه تَقْريبُ
وما عِذارُك رَيْحاناً كما زَعُموا ... فات الرياحينَ ذاك الحسنُ والطِّيبُ
تأَوّد الغُصن مُهْتزاً فأنبأَنا ... أنّ الذي فيك خُلْقٌ فيه مكسوبُ
يا قاسيَ القلبِ لو أعداه رِقّتَهُ ... جسمٌ من الماء بالألحاظ مشروبُ
أرحتَ سمعِي وفي حُبِّيك من عَذَلِي ... إذ أنت حِب إلى العُذّال محبوبُ

وكان السِّراج أشقرَ أزرق العين. وفي ذلك يقول عن نفسه: [الرجز]

ومَنْ رآني والحِمارُ مَرْكَبِي ... وزُرقَتِي للروم عِرْقٌ قد ضَرَبْ
قال وقد أبصر وجهي مُقْبلاً ... لا فارسَ الخيل ولا وجهَ العَرَبْ

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وأربع أصابع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإصبع. وكان الوفاء في رابع عشرين توت.

ذكر سلطنة الملك المنصور لاجين[١] على مصر

هو السلطان الملك المنصور حُسام الدين لاجين بن عبد الله المنصوريّ سلطان الديار المصرية؛ تسلطن بعد خَلْع الملك العادل كَتْبُغَا المنصوريّ كما تقدّم ذكره في يوم الجمعة عاشر صفر من سنة ست وتسعين وستمائة. وأصل لاجين هذا مملوك للملك المنصور قلاوون آشتراه وربّاه وأعتقه ورقّاه إلى أن جعله من جملة مماليكه؛ فلمّا تسلطن أمّره وجعله نائباً بقلعة دمشق. فلما خرَج الأمير سيف الدين سنقر الأشقر عن طاعة الملك المنصور قلاوون وتسلطن بدمشق وتلقّب بالملك الكامل ومَلك قلعة دمشق قَبَض على لاجين هذا وحبَسه مدّةً إلى أن آنكسر سنقر الأشقر وملَك الأمير علم الدين سَنْجَر الحلبيّ دمشق أخرجه من مَحْبِسه؛ ودام لاجين بدمشق إلى أن ورد مرسومُ الملك المنصور قلاوون بآستقرار لاجين هذا في نيابة دمشق دَفْعة واحدةً؛ فوليها ودام بها إحدى عَشْرة سنة إلى أن عَزَله الملك الأشرف خليل بن قلاوون بالشُّجاعِيّ؛ ثم قَبَض عليه ثم أطلقه بعد أشهر، ثم قَبَض عليه ثانياً مع جماعة أمراء، وهم: الأمير سُنْقُر الأشقر المقدّم ذكره الذي كان تسلطن بدِمَشق وتلقّب بالملك الكامل، والأمير ركن الدين طُقْصُو الناصريّ حمو لاجين هذا، والأمير سيف الدين جَرْمَك الناصريّ، والأمير بَلَبان الهارونيّ وغيرهم، فخَنَقُوا الجميع وما بقي غير لاجين هذا، فقدّموه ووضَعوا الوَتَر في حَلْقه وجُذِب الوترُ فآنقطع؛ وكان الملك الأشرف حاضراً؛ فقال لاجين: يا خَوَنْد، أيش لي ذنب!

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ١/٣/٨٢٠، وخطط المقريزي: ٢/٢٣٩، وخطط علي مبارك: ١/٩٠، وبدائع الزهور: ١/١/٣٩٤، والجوهر الثمين: ٢/١٢٢، وتاريخ ابن الفرات: ٨/٢٣٢، وشذرات الذهب: ٥/٤٤٠، وغيرها من كتب التاريخ الإسلامي العام وكتب التراجم.

ما لي ذنب إلا أنّ صِهْري طُقْصو ها هو قد هلَك، وأنا أُطلِّق آبنته؛ فرقّ له خُشْداشِيتُهُ وقبّلوا الأرض وسألوا السلطان فيه، وضَمِنوه فأطلقه وخَلَع عليه وأعطاه إمْرة مائة فارس بالديار المصرية وجعَله سِلاَحْ دَار.

قلت: (يعني جعله أمير سلاح) فإنّ أمير سلاح هو الذي يناول السلطان السلاح وغيره. قلت: لله دَرُّ المتنبي حيث يقول: [الكامل]

لا تَخْدَعنّك من عـدُوِّك دَمْعةٌ   وارحَم شبابك من عدُو تَـرْحَمُ
لا يَسْلَم الشرفُ الرفيعُ من الأذى   حتى يُـراقَ على جوانبـه الـدمُ

وذلك أنّ لاجين لمّا خرج من الحبس وصار من جملة الأمراء خاف على نفسه، وآتّفق مع الأمير بَيْدَرَا نائب السلطنة وغيره على قتل الأشرف حتى تمّ لهم ذلك حسب ما تقدّم ذكره في ترجمة الملك الأشرف. ثمّ آختفى لاجين أشهراً إلى أن أصلح أمرَه الأميرُ كَتْبُغا وأخرجه وخَلَع عليه الملك الناصر محمد بن قلاوون كما تقدّم وجعله على عادته. كلُّ ذلك بسِفَارة الأمير كَتْبُغَا. ثم لمّا تسلطن كتبغا جعله نائبَ سلطنته بل قسِيم مملكته؛ واستمرّ لاجين على ذلك حتى سافر الملك العادل كتبغا إلى البلاد الشاميّة وأصلَح أمورها وعاد إلى نحو الديار المصريّة، وسار حتى نزَل بمنزلة اللُّجُون، اِتّفق لاجين هذا مع جماعة من أكابر الأمراء على قتل الملك العادل كتبغا ووثبوا عليه بالمنزلة المذكورة، وقتلوا الأميرين: بتخاص وبَكْتُوت الأزرق العادليين، وكانا من أكابر مماليك الملك العادل كتبغا وأمرائه، وآختبط العسكر وبلَغ الملك العادل كتبغا ذلك ففاز بنفسه، وركب في خمسة من خواصّه وتوجّه إلى دمشق.

وقد حكَيْنا ذلك كلّه في ترجمة كتبغا. فاستولى عند ذلك لاجين على الخزائن والدهليز وبَرْك[1] السلطنة، وساق الجميع أمامه إلى مدينة غزّة. وبايعوه الأمراء بالسلطنة بعد شروط آشترطوها الأمراء عليه حسب ما يأتي ذكرها في محلّه. وسار

(١) البرك: لفظ فارسي معناه الثوب المصنوع من وبر الجمال، ثم أصبح في كتب المؤرخين المسلمين لفظاً اصطلاحياً يطلق على أمتعة المسافر أو مهمات الجيش. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٦٢).

الجميع إلى نحو الديار المصريّة حتى دخلوها وملَكوا القلعة بغير مُدافع، وجلَس لاجين هذا على كرسيّ المملكة في يوم الجمعة المقدّم ذكره.

وتم أمره وخَلَع على الأمراء بعدّة وظائف، وهم: الأمير شمس الدين قَرَا سُنْقُر المنصوريّ بنيابة السلطنة بالديار المصريّة عِوضاً عن نفسه، وخلع على الأمير قَبْجَق المنصوريّ بنيابة الشام عوضاً عن الأمير أغزلو العادلي، وعلَى عدّة أمراء أُخَر. ثم ركب الملك المنصور لاجين بعد ذلك من قلعة الجبل في يوم الاثنين العشرين من صفر بأبّهة السلطنة وعليه الخِلْعة الخليفتيّة، وخرَج إلى ظاهر القاهرة إلى جهة قُبّة النصر، ثم عاد من باب النصر وشقّ القاهرة إلى أن خرج من باب زُوَيْلة، والأمراء والعساكر بين يديه؛ وحمَل الأمير بدر الدين بَيَسْري الجَتْر على رأسه وطلع إلى القلعة. وخَلَع أيضاً على الأمراء وأرباب الوظائف على العادة. وآستمرّ في السلطنة وحسنت سِيرتُه، وباشر الأمور بنفسه وأحبّه الناس لولا مملوكه مَنْكُوتَمر، فإنّه كان صبياً مذموم السيرة.

ولمّا كان يوم الثلاثاء منتصف ذي القعدة من سنة ست وتسعين وستمائة قبَض السلطان الملك المنصور لاجين على الأمير شمس الدين قَرَا سُنْقُر المنصوريّ نائب السلطنة وحبَسه، ووَلّى مملوكه مَنْكُوتَمُر المذكور نيابة السلطنة عِوضَه، فعظُم ذلك على أكابر الأمراء في الباطن.

ثم بعد أيام ركب السلطان الملك المنصور لاجين ولَعِب الكرة بالمَيْدان[1] فتقنطر به الفرسُ فوقع من عليه وتهشّم جميعُ بَدَنه وانكسرت يده وبعض أضلاعه ووهَن عظمه وضعُفت حركته، وبقي يُعلِّم عنه مملوكُه ونائبه سيف الدين مَنْكُوتَمُر وأيِس من نفسه. كلّ ذلك والأمراء راضون بما يفعله مَنْكُوتَمُر لأجل خاطره إلى أن منّ الله تعالى عليه بالعافية وركب؛ ولمّا ركب زُيِّنت له القاهرة ومصر والبلاد الشاميّة لعافيته، وفَرِح الناس بعافيته فَرَحاً شديداً، خصوصاً الحرافيش[2]. فإنّه لِمّا رِكب بعد عافيته قال له واحد من الحرافشة: يا قضيب الذهب، بالله أرني يدك،

(١) راجع الجزء السابع، ص ١٦٥، حاشية (٣).

(٢) سبق الكلام عليهم في الجزء السابع، انظر فهارس المصطلحات.

فرفع إليه يده وهو ماسك المِقْرعة وضرب بها رقبة الحِصان الذي تحته. وكان ركوبُه في حادي عشرين صفر من سنة سبع وتسعين وستمائة. ولمّا كان لَعِبَ الكرة وكَبَا به فرسه ووقَع وآنكسرت يده قال فيه الأديب شمس الدين محمد [المعروف بآبن البيّاعة](١): [البسيط]

حَوَيتَ بَطَشاً وإحساناً ومعرفةً ... وليس يحمِل هذا كلَّه الفَرَسُ

ولمّا تعافَى الملك المنصور لاجين قال فيه شمس الدين المذكور نَثْراً وهو: «أسفر ثَغْرُ صباحه عن محيًّا القمر الزاهر، وبَطْش الأسد الكاسر، وجُود البحر الزاخر؛ فيا له يوماً نال به الإسلام على شرفه شرفاً، وأخذ كلّ مسلم من السرور العامّ طَرَفاً؛ فملئت كلّ النفوس سروراً، وزِيدت قلوبُ المؤمنين وأبصارُهم ثباتاً ونُوراً». ثم أنشد أبياتاً منها: [البسيط]

فمصرُ والشام كلُّ الخير عَمهما ... وكُلُّ قُطْرٍ عَلَت فيه التَّباشِيرُ
فالكون مبتهِجٌ والخَلْقُ مبْتَسِمٌ ... والخيرُ متّصلٌ والدِّين مجبورُ

ومنها:

وكيف لا وعدُوُّ الدِّين مُنْكسِرٌ ... بالله والملكُ المنصورُ منصورُ
والشركُ قد ماتَ رُعباً حيث صاحَ به ... التوحيد هذا حسام الدين مشهورُ

ثم بعد ذلك بمدّة قَبض السلطان على الأمير بدر الدين بَيْسَري، وآحتاط على جميع موجوده في سادس شهر ربيع الآخر.

ثم جهّز السلطان الملك المنصور العساكَر إلى البلاد الشاميّة لَغزْو سِيس وغيرها، وعليهم الأمير علم الدين سَنْجَر الدَّوادَاري وغيره من الأمراء؛ وسارت العساكر من الديار المصرية إلى البلاد الشامية، وفَتَحت تَلّ حَمْدون وتَلّ باشِر وقلعة مَرْعَش؛ وجاء الأمير علم الدين سنجر الدَّوَادَاري حَجَرٌ في رجله عطّله عن الركوب

(١) زيادة عن طبعة دار الكتب المصرية.

في أيّام الحِصار. وآستُشْهِد الأميرُ علم الدين سَنْجَر المعروف بطُقْصُبا، وجُرِح جماعة كثيرة من العسكر والأمراء.

ثم إنّ الملك المنصور قَبض على الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الحَمَويّ المعزول عن نيابة دمشق قبل تاريخه بمدّة سنين وعلى الأمير سُنْقُر شاه الظاهري لأمر بلَغه عنهما.

ثم في أواخر صفر أَخْرَج السلطان الملك المنصور لاجين الملكَ الناصرَ محمد بن قلاوون من الديار المصريّة إلى الكَرَك ليُقيم بها، وفي خدمته الأمير جمال الدين آقوش أُستاذ دار الملك المنصور، فنزَل الملك الناصر محمد بحواشيه من قلعة الجبل، وسافر حتى وصل إلى الكَرَك[١].

ثم بدا للسلطان الملك المنصور هذا أن يعمل الرُّوك[٢] بالديار المصريّة وهو

(١) ذكر المقريزي أن السلطان لاجين استدعى قاضي القضاة زين الدين علي بن مخلوف المالكي وصيّ الناصر محمد بن قلاوون وقال له: الملك الناصر ابن أستاذي، وأنا قائم في السلطنة كالنائب عنه إلى أن يحسن القيام بأمرها، والرأي أن يتوجه إلى الكرك. ثم قال السلطان للملك الناصر: «لو علمت أنهم يخلّوك سلطاناً والله تركت الملك لك، لكنهم لا يخَلّونه لك. وأنا مملوكك ومملوك والدك، أحفظ لك الملك؛ وأنت الآن تروح إلى الكرك إلى أن تترعرع وترتجل وتتخرج وتجرب الأمور، وتعود إلى ملكك، بشرط أن تعطيني دمشق وأكون بها مثل صاحب حماة فيها». فقال له الناصر: «فاحلف لي أن تبقي على نفسي وأنا أروح» فحلف كل منهما على ما أراده الآخر. (السلوك: ٨٣٢/٣/١).

(٢) الروك في كتب المؤرخين مصدر الفعل الثلاثي «راك» ومعناه في الأصل مسح أرض الزراعة في بلد من البلاد لتقدير الخراج المستحق عليها لبيت المال. وكان الخراج ـ أي ضريبة الأرض ـ في مصر وغيرها من البلاد الإسلامية، المصدر الرئيسي لدخل الدولة منذ صدر الإسلام، ومنه تصرف أعطيات الجند ورواتب الولاة وموظفي دواوين الدولة، فما زاد عن ذلك من مال الخراج أودع بيت المال، ويسمى هذا النظام المالي بنظام الأعطية. وكانت مصر الإسلامية تدفع خراجاً سنوياً كبقية البلاد الإسلامية الخراجية، وكان خراجها مقسماً إلى أربعة وعشرين قيراطاً توزع أجزاؤها على القرى توزيعاً متناسباً مع طاقتها. وكانت جباية الخراج سواء في مجموعها الكلي أو في الأجزاء الموزعة على القرى عرضة للتعديل؛ فإذا زادت عمارة البلاد وتوفر زرعها زيدت الجباية، وإن قلّ أهلها وأجدبت أرضها وخربت نقصت. ويظهر أن ذلك هو على الأقلّ أحد أسباب تكرار مسح أرض مصر، إذ مسحت في العصور الإسلامية ثلاث مرات. المرة الأولى حوالي سنة ٩٧هـ على يد ابن رفاعة عامل الخراج بمصر في خلافة الوليد وأخيه سليمان بن عبد الملك الأموي؛ والمرة الثانية كانت حوالي سنة ١١٠هـ على يد ابن الحبحاب في خلافة هشام بن عبد الملك؛ والمرة الثالثة كانت حوالي سنة ٢٥٣هـ على يد ابن مدبر في خلافة المعتز بالله =

الروك الحساميّ. فلمّا كان يوم سادس جُمادى الأولى من سنة سبع وتسعين وستمائة آبتدأ عمل الروك والشروع فيه في إقطاعات الأمراء وأخباز الحَلْقة والأجناد وجميع عساكر الديار المصريّة، وآستمرّوا في عَمَله إلى يوم الاثنين ثامن شهر رجب من سنة سبع وتسعين وستمائة، وفُرِّقت المِثالات[١] على الأمراء والمقدَّمين. وفي اليوم

= العباسي. وإلى جانب ذلك النظام المالي الأول كان الخليفة يقطع من يريد قطيعة أو إقطاعاً من الأرض في أي بلد من بلاد الدولة ويقرر على مقطعها شيئاً يقوم به لبيت المال في كل سنة، وقد سمي ذلك النظام مقاطعة، إلا أنه كان قليلاً.

وقد سار الفاطميون في مصر على نهج العباسيين في إقطاع الأراضي أحياناً، وكان يسمى ما يكتب في الإقطاعات عندهم بالسجلات. ثم حل نظام الإقطاع في مصر الأيوبية محل نظام الأعطية وبقيت النسبة الخراجية القديمة في تقسيم الأراضي المصرية جارية في هذا النظام الجديد وهي أربعة وعشرون قيراطاً: يكون للسلطان منها أربعة قراريط وللأجناد عشرة قراريط وللأمراء عشرة قراريط. وقد حدث أول روك لأراضي مصر في ذلك العصر المتأخر في عهد السلطان حسام الدين لاجين، وهو أول روك بعد الروك الثالث المتقدم، وتلاه الروك الناصري. ويظهر أن سبب هذا الروك الحسامي أنهم كانوا يأخذون كثيراً من إقطاعات الأجناد فلا يصل إلى الأجناد منها شيء، ويصير ذلك الإقطاع في دواوين الأمراء، ولم يعد الجندي يحصل من إقطاعه إلا على مردود ضئيل بحيث طغى على إقطاعه قطاع الطرق المحترفون الذين لم يكونوا سوى عملاء للأمراء الكبار بحيث كانوا يجتمعون بهم بعد كل عملية سلب. وازدادت الحمايات على الأراضي والقرى والطواحين والمعاصر والحوانيت والأفران والمساكن؛ بالإضافة إلى تكرار انخفاض مستوى فيضان النيل الذي أدى إلى تعطيل الزراعة وبالتالي إلى انخفاض إنتاجية الإقطاعات بحيث أصبح أجودها لا يدر عشرين ألف درهم بعد أن كان يزيد على الثلاثين ألف درهم. ومن أسباب الروك الحسامي أيضاً إعادة النظر على ما يكون طرأ على الأراضي من إصلاح أو إهمال، وتحسين وسائل الريّ، لتتمكن الإدارة المسؤولة من تحديد قيمة الخراج الصحيحة، بالإضافة إلى تفحص حال المقطعين الصحية، فمن كان قادراً على الخدمة العسكرية ينعم عليه بإقطاع، ومن كان عاجزاً يجعل بطالاً ويعطى جامكية. ولكن الروك الحسامي لم يحقق الغاية المتوخاة، فالأخطاء التي ارتكبها السلطان لاجين ونائبه منكوتمر لم يغفرها لهما الأمراء والأجناد، فدفعا حياتهما ثمناً لها.

(انظر التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٦٤ والسلوك: ٨٤١/٣/١ حاشية، وكلاهما ينقل عن Demombynes في كتابه: La syrie à l'époque des Mamlouks والأمير عمر طوسون في كتابه: مالية مصر) وانظر خطط المقريزي: ٨٧/١ ــ ٨٨، والدولة المملوكية لأنطوان ضومط: ١٢٣ ــ ١٤٠، والنظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى لإبراهيم علي الطرخان: ٢١٨ وما بعدها، والمماليك للسيد الباز العريني: ١٧٧ وما بعدها، وصبح الأعشى: ١٢٣/١٣، ١٣١.

(١) المثال: هو أول ما كان يكتب من الأوراق الرسمية إيذاناً بإعطاء أحد المماليك إقطاعاً من الإقطاعات الخالية. وكان المثال يخرج من ديوان الجيش ويقدمه ناظر هذا الديوان إلى السلطان أثناء جلوسه بدار العدل، فإذا شمله السلطان بالموافقة أرسله ناظر ديوان النظر لتسجيله وحفظه، ويكتب بذلك مربعة فيها =

العاشر شَرَع نائب السلطنة الأمير سيف الدين مَنْكُوتَمُر في تفرقة المِثالات على الحَلْقة والبحريّة[١] ومماليك السلطان وغير ذلك، فكان كلّ مَنْ وقَع له مِثال لا سبيلَ له إلى المراجعة فيه، فمن الجند من سَعِد ومنهم من شَقِي؛ وأُفرد للخاصّ[٢] أعمال الجِيزيّة بتمامها وكمالها، ونواحي الصَّفْقة الإِتْفِيحيّة[٣] وثَغْر دِمْياط والإسكندرية ونواحي مُعَيَّنة من البلاد القبليّة والبحريّة؛ وعُيِّن لمَنْكُوتَمُر من النواحي ما آختاره لنفسه وأصحابه؛ وكان الحُكْم في التعيين لدواوين مَنْكُوتَمُر، والاختيار لهم في التفرقة. وكان الذي باشر هذا الرُّوك وعَمَله من الأمراء الأمير بدر الدين بيلِيك الفَارِسيّ الحاجب والأمير بهاء الدين قَراقوش الطُّواشِيّ الظاهِريّ.

وقال الشيخ صلاح الدين الصفديّ: وكان مدّة عَمَل الرُّوك ثمانية أشهر إلا أيّاماً قلائل. ثم تقنطر السلطان الملك المنصور لاجين عن فرسه في لعب الكُرة. اِنتهى كلام الصَّفَدِيّ.

وقال القطب اليونينيّ: حَكَى بعض كُتّاب الجيش بالديار المصريّة في سنة سبعمائة قال لي: أخدمُ في ديوان الجيش بالديار المصريّة أربعين سنة، قال: والديار المصريّة أربعة وعشرون قيراطاً، منها: أربعة قراريط للسلطان ولِما يُطْلِقه وللكُلَف والرواتب وغير ذلك، ومنها عشرة للأمراء والإطلاقات والزيادات، ومنها عشرة قراريط للحَلْقة. قال: وذكروا للسلطان ولمَنْكُوتمر أنهم يكْفُون الأمراء والجند بأحدَ

= اسم المعين على الإقطاع ورتبته وغير ذلك من التفصيلات اللازمة. ثم ترسل المربعة (أي ورقة مربعة الشكل، وكانت تسمى المربعات الجيشية) إلى ديوان الإنشاء فيكتب كاتب السر بمقتضاها منشور الإقطاع. (صبح الأعشى: ١٣/١٥٣ ــ ١٥٥).

(١) البحرية: طائفة من الأجناد السلطانية. وكان عملهم المبيت بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر كالحرس. وأول من رتب هذه الطائفة وسماها بهذا الاسم هو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب. (صبح الأعشى: ٤/١٦).

(٢) أي لخاصّ السلطان. وكان السلطان محمد بن قلاوون قد أحدث ديواناً خاصاً سُمِّي ديوان الخاص ــ وظيفته النظر في خاص أموال السلطان والتحدث في جهاته ومضافاته؛ وأعظم بلاده وأغناها كانت الإسكندرية. (صبح الأعشى: ٣/٤٥٢، وزبدة كشف الممالك: ١٠٧ ــ ١٠٩).

(٣) الإتفيحية أو الإطفيحية، وهي بلاد القسم الواقع شرقي النيل من بلاد مديرية الجيزة. وكانت قاعدتها بلدة إطفيح.

عَشر قيراطاً، يستخدم عليها حَلْقة بمقدار الجيش، فشرَعوا في ذلك وطلبونا وطلَبوا الكُتاب الجِيادَ في هذه الصِّناعة، فكَفَيْنا الأمراءَ والجندَ بعشرة قراريط، وزِدْنا الذين تَضَرَّرُوا قيراطاً فبقي تسعةٌ، فاتفق قتلُ السلطان ومَنْكُوتَمُر. وكان في قلوب الأمراء من ذلك همٌّ عظيم، فأَنْعَم على كلّ أمير ببلد وبلدَين من تلك التسعة قراريط، وبقي الجيش ضعيفاً ليس له قوّة. وكانت التسعة قراريط التي بَقِيت خيراً من الأحَدَ عَشر قيراطاً المُقطَعة.

قلت: يعني أن هذا خارج عن الأربعة قراريط التي هي برَسم السلطان خاصّة. اِنتهى.

وقيل في الرُّوك وجهٌ آخر؛ قال: لمّا كان في ذي الحجّة سنة سبع وتسعين وستّمائة قصَد السلطان الملك المنصور حُسام الدين لاجين المنصوريّ أن يَرُوك البلاد المصريّة وينظُر في أمور عساكر مصر، فتقدّم التاج[1] الطويل مُسْتَوفِي الدولة بجمع الدواوين لعَمَل أوراق بعبرة[2] إقطاع الأمراء والجند وقانون البلاد، وندَب الأمير بهاء الدين قراقوش الظّاهرِيّ والأمير بدر الدين بيلِيك الفَارِسِيّ الحاجب، فجمع سائر الكُتّاب لذلك؛ وأخَذوا في عَمَله فلم يُحْكموا العَمَل، وذَلك أنّهم عَمَدوا إلى الإقطاعات الثقيلة المتحصّلة من إقطاعات الأمراء والجند، وأبدلوها بإقطاعاتٍ دونها في العبرة والمتحصّل، وأصلَحوا ما كان من الإقطاعات ضعيفاً، وأفْرِد للعسكر بأجمعه أربعةَ عشرَ قيراطاً، وللسلطان أربعةُ قراريط، وأرْصِد لمِنْ عساه يتضرّر من الأمراء والجند ويشكو قِلّة المتحصّل قيراطان، فتّم بذلك عشرون قيراطاً. وقُتِل الملك المنصور لاجين ولم يستخدم أحداً وأُوقف برسم عسكر أخر يستجدّ أربعة قراريط. وأفْرد لخاصّ السلطان الجِيزيّةُ والإتفِيحيّة ومَنْفَلُوط وهوّ والكوم الأحمر ومَرْج بني هُمَيْم وحَرَجة سَمَطا، وأتفو (أدفو) بأعمال قُوص وإسكندريّة ودِمْياط، وأفْرِد لمَنْكُوتَمُر مملوكه نائب السلطنة من الجهات ما لم يكِن لنائب قبله،

(١) هو تاج الدين عبد الرحمن الطويل مستوفي الدولة. وكان من مسالمة القبط (أي من الذين دخلوا في الإسلام حديثاً) وممن يشار إليه في معرفة صناعة الكتابة. (السلوك: ١/٣/٨٤٢).
(٢) العبرة: مقدار المساحة والمتحصّل.

وهو عبرة نيّف عن مائة ألف دينار. فلمّا فَرَغت الأوراق على ما ذكرنا جَلس السلطان الملك المنصور لاجين لتفرقة المِثالات على الأمراء والمقَدّمين فأخذوها وهم غيرُ راضين بذلك؛ وتبيّن للسلطان من وجوه الأمراء الكراهة، فأراد زيادةَ العبرة في الإقطاعات فمَنعه نائبُه مَنْكُوتَمُر من ذلك وحذّره فتح هذا الباب، فإنّه يخشى أن يعجز السلطان عن سدّه، وتكفّل له مَنْكُوتَمُر بإتمام العَرْض فيما قد عُمِل برسم السلطان، ولمن كان له تعلّق في هذا العمل من الأمراء وغيرهم أن يرفعوا شِكايتهم إلى النائب؛ وتصدّى مَنْكُوتَمُر لتفرقة إقطاعات أجناد الحَلْقة، فجَلس في شُبّاك النيابة بالقلعة ووقفَ الحُجاب بين يديه، وأَعْطى لكلّ تَقْدِمة مِثالاتها فتناولوها على كُرْه منهم، وخافوا أن يكلّموا منكوتَمُر لسوء خُلُقه وسُرعة بَطْشه؛ وتمادَى الحال على ذلك عِدّة أيام. وكانت أجناد الحَلْقة قد تناقصت أحوالهم عن أيام الملك المنصور قلاوون، فإنهم كانوا على أنّ أقل عبرة الإقطاعات وأضعف متحصّلاتها عشرة آلاف درهم وما فوق ذلك إلى ثلاثين ألف درهم وهي أعلاها، فرجع الأمر في هذا الرُّوك إلى أن آستقرّ أكثرُ الإقطاعات عشرين ألفاً إلى ما دونها؛ فقلّ لذلك رِزْق الأجناد؛ فإنّه صار مَن كان متحصّله عشرين ألفاً رجَع إلى عشرة آلاف، ومن كان عبرة إقطاعه عشرة آلاف بَقِيت خمسة آلاف، فشقّ ذلك على الجند ولم يَرْضوه إلاّ أنهم خَشُوا التنكيل من مَنْكُوتَمُر؛ وكانت فيهم بقيّة من أهل القوّة والشجاعة، فتقدّموا إلى النائب منكوتمر وأَلْقَوْا مِثالاتهم، وقالوا: إنّا لا نَعْتَد قطّ بمثل هذه الإقطاعات، ونحن إمّا أن نَخْدُم الأمراء وإلاّ بطّلنا، فعظُم قولهم على النائب وأغضبه، وأمر الحُجاب بضربهم وساقهم إلى السجن؛ فشفَع فيهم الأمراء فلم يقبل شفاعتهم، وأقبل منكوتَمُر على مَنْ حَضَر من الأمراء والمقدّمين وغيرهم فأوسعهم سَباً وملأهم تقريعاً وتعنيفاً حتّى وغَّرَ صدورهم وغيّر نيّاتِهم فآنصرفوا، وقد عولوا على عمل الفتنة؛ وبلَغ السلطانَ ذلك فعنّف منكوتَمُر ولامه وأخرج الأجناد من السجن بعد أيام. وكان عَمَل هذا الرُّوك وتفرقتُه من أكبر الأسباب وأعظمهما في فَتْك الأمراء بالسلطان الملك المنصور لاجين وقتله وقتل نائبه منكُوتَمُر المذكور. على ما سيأتي ذكره.

وكان هذا الرُّوك أيضاً سبباً كبيراً في إضعاف الجند بديار مصر وإتلافهم، فإنه

لم يُعمَل فيه عمل طائل ولا حَصَل لأحد منهم زيادة يرضاها، وإنما توفّر من البلاد جزءٌ كبير. فلمّا قُتِل الملك المنصور لاجين تقسّمها الأمراء زيادةً على ما كان بيدهم. اِنتهى.

ثم إنّ السلطان الملك المنصور لاجين جهّز الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير والأمير سيف الدين حمْدان [بن[1] صُلْغَاي] إلى البلاد الشاميّة، وعلى أيديهم مراسيم شريفة بخروج العساكر الشامية، وخروج نائب الشام الأمير قَبْجَق المنصوريّ بجميع أمراء دِمَشق حتى حواشي الأمير أَرْجُوَاش نائب قلعة دمشق، فوصلوا إلى دِمشق وأَلَحوُّا في خروج العسكر ونوهوا بأنّ التّتار قاصدون البلاد، فخرج نائبُ الشام بعساكر دمشق في ليلة الخميس رابع عشر المحرّم من سنة ثمانٍ وتسعين وستمائة. ووقَع لقَبْجَق نائب الشام المذكور في هذه السَّفْرة أمورٌ أوجبتْ عِصْيانَه وخروجَه من البلاد الحلبيّة بمْن معه من الأمراء ومماليكه إلى غازان ملك التّتار. وكان الذي توجّه معه من أكابر الأمراء: بَكْتَمُر السِّلاح دار وأَلْبَكِي وبيغار وغيرهم في جَمْع كثير، وكان خروجهم في ليلة الثلاثاء ثامن شهر ربيع الآخر. وسبب خروج قَبْجَق عن الطاعة وتوجُّهِه أنه كان وَرَد عليه مرسومُ السلطان بالقَبْض على هؤلاء الأمراء المذكورين وغيرِهم، ففطِن الأمراء بذلك فهَرب منهم مَن هرَب وبقِي هؤلاء، فجاؤوا إلى قَبْجَق وهو نازل على حمص، فطَلبوا منه أماناً فأمّنهم وحَلَف لهم، وبعث قَبْجَق إلى السلطان يطلب منه أماناً لهم فأبطأ عليه الأمان، ثم خشّن عليه بعضُ أكابر أمراء دمشق في القول بسببهم فعَلِم قبجق أنّ ذلك الكلام من قِبَل السلطان فغضب، وخرج على حَمِيّة وتبِعه الأمير عز الدين بن صَبْرَا، والملك الأوحد[2] وجماعة من مشايخ الأمراء يسترضونه فلم يرجع؛ وَركب هو وَمن معه من حواشيه ومن الأمراء المذكورين وسار حتى وصل مَارِدين، وآلتقى مع مقدم التّتار فخَدمهم مقدّم التتار، وأخذهم وتوجّه بأطلاب التتار وعساكره إلى أن وصلوا إلى

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الملك الأوحد شادي بن الزاهر مجير الدين داود بن أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الأيوبي. وكان من جملة أمراء الطبلخاناه بدمشق. (السلوك: ٨٠٩/٣/١).

غازان ملك التتار وهو نازل بأرض السِّيب من أعمال واسط. فلمّا قَدِم قَبْجَق ومَن معه على غازان سُرّ بهم وأكرمهم ووَعدَهم ومناهم وأعطى لكلّ أمير عشرة آلاف دينار، ولكل مملوك مائة دينار، وللمماليك الصِّغار مع الرِّكبدارية[١] خمسين ديناراً، وكلّ دينار من هذه الدنانير صرفه بآثني عشر درهماً؛ ثم أَقْطع الأمير قَبْجَق المذكور مدينة هَمَذَانَ وأعمالها، فلم يقبل قَبْجَق واعتذر أن ليس له قصد إلا أن يكون في صحبة السلطان الملك غازان ليرى وجهه في كلّ وقت! فأجابه غازان إلى ما سأله وأعجبه ذلك منه. وكان لمّا خرج قَبْجَق من حمص إلى جهة التتار، وبلَغ أمراءَ دمشق ذلك خرج في طَلَبه الأمير كُجْكُن والأمير أَيْدُغِدي شُقَيْر بمماليكهم ومعهم أيضاً جماعةٌ من عسكر الشام، فوجدوه قد قطع الفُرَات ولَحِقوا بعض ثَقَله. وعند وصول قَبْجَق ومن معه إلى غازان بلغه قتلُ السلطان الملك المنصور لاجين بالديار المصرية. وكان خبر قتل السلطان أيضاً بلـغ الأميرَ كُجْكُن والأمير أَيْدُغْدِيّ لمّا خرجوا في أثر قَبْجَق فآنحلّت عزائمهم عن اللّحوق بقَبْجَق ورجعوا عنه وإلا كانوا لحِقوه وقاتلوه.

وأمّا أمر السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين صاحب الترجمة فإنه لمّا أُخَذ في قَبْض من آستوحش منهم من الأمراء وغيرهم، وزاد في ذلك بإشارة مملوكه مَنْكُوتَمُر، استوحش الناس منه ونفرتْ قلوبُهم وأجمعوا على عَمَل فتنة. ثم فوّض لمملوكه مَنْكُوتَمُر جميعَ أمور المملكة فاستبدّ مَنْكُوتَمُر بوظائف الملك ومهماته. وآنتهى حال أستاذه الملك المنصور معه إلى أن صار إذا رسم الملك المنصور لاجين مرسوماً أو كَتب لأحد توقيعاً وليس هو بإشارة منكُوتَمُر يأخذه منكُوتمر من يد المُعْطَى له ويمزِّقه في الملأ، ويردّه ويمنـع أستاذه منه؛ فعند ذلك آستثقل الأمراء وطْأَةَ منكوتَمُر وعلِموا أن أستاذه الملك المنصور لا يسمـع فيه كلامَ متكلِّم، فعمِلوا على قتل أستاذه الملك المنصور لاجين.

قلت: الولد الخبيث يكون سَبباً لاستجلاب اللّعنة لوالده! اِنتهى.

وقال الأمير بِيبَرْس الدَّوادَار في تاريخه: وكان سبب قتل لاجين أمور، منها:

(١) الركبدارية أو الركابدارية: هم الذين يحملون الغاشية بين يدي السلطان في المواكب والحفلات، وهم تابعون للركابخاناه. (صبح الأعشى: ٤/٧، ١٢).

أنّه لمّا أراد أن يتسلطن جاءه جماعةٌ من الأمراء وآشترطوا عليه شروطاً فالتزمها لاجين، منها أنه يكون كأحدهم ولا ينفرد برأي عنهم، ولا يسلِّط يد أحد من مماليكه فيهم. وكان الأعيان الحاضرون في هذه المَشُورة، والمتفقون على هذه الصورة: الأمير بدر الدين بَيْسَري الشمسيّ، والأمير قَرَا سُنْقُر المنصوريّ، والأمير سيف الدين قَبْجَق، والأمير الحاج بَهادُر أمير حاجب الحُجّاب، والأمير كُرْت، والأمير حسام الدين لاجين السلاح دار الرومي الأستادار، والأمير بدر الدين بَكْتَاش الفخريّ أمير سلاح، والأمير عِزّ الدين أَيْبك الخازندار، والأمير جمال الدين آقوش الموصلي، والأمير مُبارز الدين أمير شِكار، والأمير بَكْتَمُر السِّلاح دار، والأمير سيف الدين سَلّار، والأمير طُغْجي، والأمير كُرْجي، والأمير طُقْطَاي، والأمير برلطاي وغيرهم. ولمّا حلَف لهم الملك المنصور لاجين على ما شرَطوا قال الأمير سيف الدين قَبْجَق: نخشى أنّك إذا جلست في المَنْصِب تَنْسَى هذا التقرير وتُقَدِّم الصغير من مماليكك على الكبير، وتُفَوِّض لمملوكك مَنْكُوتَمُر في التحكم والتدبير، فتنصّل لاجين من ذلك، وكرّر لاجين الحَلِف أنّه لا يفعل، فعند ذلك حَلَفوا له. ورحلوا نحو الديار المصريّة (يعني أنّ ذلك كان بعد هروب الملك العادل كَتْبُغا وعند دخول لاجين إلى غزّة) فوقّع هذه الشروطَ كلَّها بمدينة غَزّة. اِنتهى.

قال بِيبَرْس: فلمّا تسلطن رتّب الأمير شمس الدين قَرَا سُنْقُر المنصوريّ نائباً، والأميرَ الحَاجّ بَهادُر حاجباً على عادته، والأمير سَلّار أستاداراً، والأمير بكَتْمُرُ السِّلَاحْ دار أمير آخور، وآستقرّ بالصاحب فخر الدين بن الخليلي في الوزارة، ورتّب الأمير قَبْجَق نائب الشام؛ ثم بعد مدّة أفرج عن الأمير بُرْلُغِي فأعطاه إقطاعاً بدمشق؛ ثم أفرج عن الأمير بِيبَرْس الجَاشْنَكِير وجماعة من الأمراء، وأعطى بِيبَرْس الجاشْنَكِير إمرة بالقاهرة.

قلت: وبِيبَرْس هذا هو الذي تسلطن فيما بعد حسب ما يأتي ذكره.

ثم برزَ مرسومُه بآستقرار الملك العادل كَتْبُغَا في نيابة صَرْخَد، وكَتَب له بها منشوراً. اِنتهى كلام بِيبْرَس بآختصار، لأنه خرج في سياق الكلام إلى غير ما نحن بصدده.

وقال غيره: ولمّا تسلطن لاجين وثبتت قدمُه ورسَخت نَسِيَ الشروط وقَبَض على أكابر خُشْداشِيتَه من أعيان أمراء مصر وأماثلهم، مثلَ: الأمير قَرَا سُنْقُر والبَيْسَري وبَكْتَمُر السِّلاح دار وغيرهم، ووَلّى مملوكَه مَنْكُوتَمُر نيابة السلطنة بل صار مَنْكُوتَمُر هو المتصرِّف في الممالك. فعند ذلك نفرَت قلوب الأمراء والجند من الملك المنصور لاجين ودبّروا عليه، وآستوحش هو أيضاً منهم وآحترز على نفسه، وقلّل من الركوب ولزِم القُعاد بقلعة الجبل متخوِّفاً؛ وكان كُرْجِي خصِيصاً به، وهو أحد مَن كان أعانه على السلطنة، فقدّمه لاجين لمّا تسلطن على المماليك السلطانية، فكان يتحدّث في أشغالهم ويُدْخِل للسلطان مَن أراد، لا يحجبُه عنه حاجب؛ فحسَده مَنْكُوتَمُر مـع ما هو فيه من الحَلّ والعَقْد في المملكة؛ وسعى في إبعاد كُرْجِي عن السلطان الملك المنصور لاجين. فلمّا ورد البريد يُخبر بأمر القِلاع التي فتحها عسكر السلطان ببلاد الأرْمن حَسّن منكوتمر إلى السلطان أن يُرسل كُرْجِي المذكور إليها نائباً لِيُقيم فيها، فوافقه السلطان على ذلك، وكلّم كُرْجِي فاستعفى كرجي من ذلك فأعفاه السلطان بعد أمور فكَمَنَ كُرْجِي في نفسه. ثم أخذ مـع هذا منكُوتمر يغُلظ على المماليك السلطانية وعلى الأمراء الكِبار في الكلام، فعظُم ذلك عليهم وتشاكَوْا فيما بينهم من منكُوتمر، وقالوا: هذا متى طالت مدّته أَخَذَنا واحداً بعد واحد، وأستاذُه مرتبطٌ به، ولا يمكن الوثوب عليه أيّام أستاذه؛ فلم يجدوا بُدّاً من قتل أستاذه الملك المنصور لاجين قبله، ثم يقتلونه بعده، وآتفقوا على ذلك.

قال الشيـخ مجد الدين الحرميّ وكيل بيت المال: كان الملك المنصور لاجين متزوّجاً ببنت الملك الظاهر بِيبَرْس، وكانت ديّنة عفيفة، فحكَتْ أنها رأت في المنام، ليلة الخميس قبل قَتْل السلطان بليلة واحدة، كأنّ السلطان جالسٌ في المكان الذي قُتِل فيه، وكأنّ عِدّة غِربان سُودٍ على أعلى المكان، وقد نزل منهم غُراب فضَرب عِمامة السلطان فرماها عن رأسه، وهو يقول: كرج كرج؛ فلمّا ذكَرت ذلك للسلطان، قالت له: أقم الليلة عندنا؛ فقال السلطان: ما ثَمّ إلاّ ما قدّره الله! وخرَج من عندها إلى القصر بعد أن ركِب في أوّل النهار على العادة، وكان صائماً وهو يوم الخميس عاشر شهر ربيـع الآخر سنة ثمانٍ وتسعين وستمائة، فأفطر بالقصر.

ثم دخل إلى القصر الجُوَّانِي بعد العشاء الآخرة وأخذ في لعب الشِّطْرَنْج وعنده خواصّه وهم: قاضي القضاة حسام الدين الحنفي، والأمير عبد الله، وبُرَيْد البدوِيّ، وإمامه محب الدين بن العسال؛ فأوّل من دخل عليه كُرْجِي، وكان نُوغَيْه السِّلاح دار من جملة المتّفقين، وهو في نَوْبته عند السلطان. وكان كُرْجِي مقدّم البُرْجِيّة والسلطان مُكِبٌّ على لعب الشِّطْرَنْج، فأوهم كُرْجِي أنّه يُصلح الشمعة فرمَى الفوطة على النِّيمجاة[1] ثم قال السلطان لكُرْجِي: رحتَ بَيَّتَّ البُرْجِيّة وغلقْت عليهم؟ والبُرْجِيّة هم الآن مماليك الأطباق[2]، فقال كُرْجِي: نعم يا خَوَنْد. وقد كان أوقف كُرْجِي أكثرهم في دِهليز القصر، فشَكره السلطان وأثنى عليه مَن حضر فقال السلطان [لقاضي القضاة][3]: لولا الأمير سيف الدين كُرْجِي ما وصلت أنا إلى السلطنة. فقبّل كُرْجِي الأرض، وقال: يا خَوَنْد، ما تُصَلِّي العشاء؟ فقال السلطان: نعم؛ وقام حتّى يصلِّي فضربه كُرْجِي بالسيف على كَتِفه، فطلب السلطان النِّيمجاة فلم يَجدها، فقام من هول الضربة ومَسَك كُرْجي ورماه تحته؛ وأخذ نُوغَيْه السِّلاح دار النِّيمجاة وضرب بها رجل السلطان فقطعها، فانقلب السلطان على قفاه يخور في دمه. اِنتهى ما ذكره وكيل بيت المال.

وقال القاضي حُسام الدين الحَنِفيّ: كنت عند السلطان فما شَعَرتُ إلّا وستة أو سبعة أسياف نازلةٌ على السلطان، وهو مكِبٌّ على لَعب الشِّطْرَنْج، فقتلوه ثم تركوه وأنا عنده، وغلّقوا علينا الباب؛ وكان سيف الدين طُغْجِي قد قصدَ بقيّة البُرْجيّة المتّفقين معه ومع كُرْجِي في الدَّرْكاه[4]، فقال لهم: قضيتُم الشغل؟ فقالوا: نعم. ثم إنهم توجّهوا جميعاً إلى دار سيف الدين مَنْكُوتمر وهو بدار النِّيابة من قلعة الجبل، فدقُّوا عليه الباب وقالوا له: السلطان يطلُبك، فأنكر حالهم وقال لهم: قتلتم

(١) النيمجاه: خنجر مقوّس شبه السيف الصغير.

(٢) الأطباق والطباق: مساكن المماليك التي أنشئت لهم خصيصاً بقلعة الجبل. وكانت تشبه الثكنات العسكرية.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) الدركاه: لفظ فارسي معناه الساحة، أو الفناء أو الحوش، المؤدي إلى بناء كبير مثل قصر السلطان أو قلعة الجبل. ويجمع على دركاوات. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ص ١٣٥).

السلطان؟ فقال له كُرْجِي: نعم يا مأبون، وقد جئناك نقتلك، فقال: أنا ما أُسَلِّم نفسي إليكم، إنما أنا في جيرة الأمير سيف الدين طُغْجِي، فأجاره طُغْجِي، وحلَف له أنه لا يؤذيه ولا يُمكن أحداً من أذيّته؛ ففتح داره فتسلّموه وراحوا به إلى الجُب(١) فأنزلوه إلى عند الأمراء المحبوسين. فلمّا دخل إلى الجُبّ قام إليه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر وتلقاه متهكّماً عليه، ثم قام إليه الأمير عز الدين أَيْبَك الحَمَوي وشتمه، وأراد قتله، لأنّ مَنْكُوتَمُر هذا كان هو السبب في مسك هؤلاء الأمراء، وإقلاب الدولة من حرصه على أنّ الأمر يُفْضي إليه ويتسلطن بعد أستاذه. فأقام منكوتمر نحو ساعة في الجُبّ، وراح الأمير طُغْجِي إلى داره حتى يقضي شُغْلاً له، فآغتنم كُرْجِي غَيْبَته وأخذ معه جماعةً وتوجّه إلى باب الحبس وأطلع منكوتمر صورةَ أنهم يُريدون تقييده كما جرت العادة في أمر المُحْتَبَسِين، فآمتنع من الطلوع فألحَوّا عليه وأطلعوه وذبحوه على باب الجُبّ، ونهبوا داره وأمواله.

ثم آتّفقوا كما هم في الليل على سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون وعَوْده إلى مُلكه كونه آبن أستاذهم، وأن يكون سيف الدين طُغْجِي نائب السلطنة، ومهما عملوه يكون باتّفاق الأمراء، وحلفوا على هذا الأمر. كلّ ذلك في تلك الليلة قبل أن يطلعُ الفجر.

وأصبح نهار الجمعةَ حلّفوا الأمراء والمقدّمين والعسكر جميعه للملك الناصر محمد بن قلاوون ونائب السلطنة طُغْجِي. وسيّروا في الحال خَلْف الملك الناصر محمد يطلبونه من الكَرَك؛ وركب الأمير طُغْجِي يوم السبت في المَوْكِب وآلتفّ عليه العسكر وطلَع إلى قلعة الجبل، وحضر الأمراء الموكِب ومُدّ السِّماط كما جرَت العادة به من غير هَرْج ولا غَوْغاء وكأنّه لم يَجْرِ شيء، وسكنت الفتنة، وفَرِح غالب الناس بزوال الدولة لأجل مَنْكُوتَمُر.

ودام ذلك إلى أن كان يوم الاثنين رابع عشر شهر ربيع الآخر من سنة ثمانٍ وتسعين المذكورة، وصل الأمير بدر الدين بَكْتاش أمير سلاح عائداً من الشام من

(١) راجع الجزء السادس، ص ٢٥٠، حاشية (٢).

فتوح سِيس، وصحبته العساكر المتوجِّهة معه، وكان قد راح إليه جماعةٌ من أمراء مصر لتلقيه إلى بِلبيس وأعلموه بصورة الحال، وقالوا له [بأن] الذي وَقع من قتل الملك المنصور ليس هو عن رضاهم ولا عَلموا به، وأَغْرَوْه على قتل طُغْجِي وٱتَّفقوا معه على ذلك؛ وكانوا الأمراء المذكورون قد أشاروا قبل خروجهم على طُغْجِي أن يخرج يلتقي الأمير بَكْتاش أمير سلاح، فركب طُغْجِي بُكرة يوم الاثنين وتوجَّه نحوه حتى ٱلتقاه وتعانقا وتكارشا. ثم قال أمير سلاح لطُغْجِي: كان لنا عادة من السلطان إذا قَدمنا من السفر يتلقانا، وما أعلم ذنبي الآن ما هو، كونه ما يلقاني اليوم! فقال له طُغْجِي: وما علِمت بما جرى على السلطان؟ السلطان قُتِل! فقال أمير سلاح: ومَن قتله؟ قال له بعض الأمراء [وهو الأمير سيف الدين كُرْت أمير حاجب: قتله][1] سيف الدين طُغْجِي وكُرجِي، فأنكر عليه وقال: كلمّا قام للمسلمين مَلِك تقتلونه! تقدّم عني لا تلتصِق بي، وساق عنه أمير سلاح؛ فتيقّن طُغْجِي أنّه مقتول، فحرّك فرسَه وساق فانقضّ عليه بعض الأمراء وقَبض عليه بِشَعْر دَبُوقته[2]، ثم علاه بالسيف، وساعده على قتله جماعة من الأمراء، فقتل وقُتِل معه ثلاثة نَفَرٍ، ومرُّوا سائقين إلى تحت القلعة. وكان كُرْجِي قد قَعَد في القلعة لأجل حفظها، فبلغه قتلُ رفيقة طُغْجِي، فألبس البُرْجِيّة السلاح وركب في مقدار ألفَيْ[3] فارس حتى يدفع عن نفسه، فركبت جميع أجناد الحَلْقة والأمراء والمقدَّمين في خدمة أمير سلاح إلى الرابعة من النهار، ثم حَمَلوا العساكر على جماعة كُرْجِي فهزموهم، وساق كرجِي وحده، وٱعتقد أنّ أصحابه يتوجّهون حيث توجّه، فلم يتبعه غيرُ تبعه ونُوغَيْه الكرمونيّ أمير سلاح دار الذي كان أعانه على قَتْل الملك المنصور لاجين. فلمّا أبعدوا والقوم في أثرهم لحقه بعض خُشْدَاشِيَتِه وضربه بالسيف حلّ كَتِفَه، ثم ساعده بعض الأمراء حتى قتِل، وقُتِل معه نُوغَيْه الكرمونيّ السِّلاح دار الذي كان أعانه على قَتْل لاجين المقدّم ذكره، وٱثنا عشر نَفَراً من مماليكهما وأصحابهما؛ وبطَلَت الغَوْغاء وسكَنت الفتنة في الحال.

---

(١) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) راجع ص ٣٣١ من الجزء السابع، حاشية (١).

(٣) في السلوك: «خمسمائة فارس».

وآستقرّ الأمر أيضاً على تولية السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون كما كان دَبّره طُغْجِي وكُرْجِي. وسيرّوا بطلبه وحَثُوا الطلب في قدومه من الكَرَك إلى الديار المصريّة؛ وبقِي يُدبّر الأمور ويُعلِّم على الكتب المُسَيَّرة إلى البلاد ثمانية أمراء إلى أن حضَر السلطان، وهم: الأمير سيف الدين سَلّار، والأمير سيف الدين كُرْت، والأمير ركن الدين بِيبَرْس الجَاشْنَكِير، والأمير عِزّ الدين أَيْبك الخازَندار، والأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير، والأمير حسام الدين لاجين أستاذ الدار، والأمير سيف الدين بَكْتَمُر أمير جانْدار، والأمير جمال الدين عبد الله [السِّلاح دار][1] وجميعهم منصوريّة قلاوونيّة، وغالبهم قد أُخْرج من السجن بعد قتل لاجين. يأتي ذلك كلّه في ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية عند عوده إلى السلطنة إن شاء الله تعالى.

وأمّا السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين فإنّه أخِذ بعد قتله وغُسِّل وكُفِّن بتربته بالقرافة الصغرى بالقُرْب من سَفْح المقطّم؛ ودُفِن مملوكه مَنْكُوتَمُر تحت رجليه. وقُتِل الملك المنصور لاجين وهو في عشر الخمسين أو جاوزها بقليل. وقد تقدّم التعريف به في عدّة تراجم ممّا تقدّم؛ ونذكر هنا أيضاً من أحواله ما يتّضح التعريف به ثانياً.

كان لاجين مَلِكاً شجاعاً مِقداماً عارفاً عاقلاً حَشِيماً وَقُوراً معظّماً في الدُّوَل. طالت أيّامه في نيابة دمشق أيّام أستاذه في السعادة؛ وهو الذي أبطل الثّلج[2] الذي

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) كان الثلج ينقل من بلاد الشام إلى قلعة الجبل بالقاهرة بطريقين: بطريق البحر، إذ تنقله المراكب إلى دمياط ثم ينقل في النيل إلى ساحل بولاق ومنه على البغال السلطانية إلى الشرابخاناه في القلعة. وكان في أيام الظاهر بيبرس ثلاثة مراكب موكلة بهذا العمل على مدار السنة. وتوقف نقل الثلج في البحر أيام المنصور لاجين، ثم استؤنف في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون الثالثة، وبلغ عدد المراكب الناقلة للثلج في أيام ابن فضل الله العمري (ت ٧٤٩هـ) ثمانية مراكب. أما الثلج المنقول بطريق البر فكانت تنقله الهجن التي تنطلق من دمشق إلى الصنمين، ثم بانياس، ثم أربد، ثم بيسان، ثم جينين، ثم قاقون، ثم لدّ، ثم غزة، ثم العريش، ثم الورّادة، ثم المطيلب، ثم قطيا، ثم القصير، ثم الصالحية، ثم بلبيس، ثم منها إلى قلعة الجبل بالقاهرة. (انظر التعريف بالمصطلح الشريف: ٢٥٦ ــ ٢٥٨، وصبح الأعشى: ١٤/٤٤٣).

كان يُنقَل في البحر من الشام إلى مصر؛ وقال: أنا كنت نائب الشام وأعلم ما يُقاسي الناسُ في وَسْقه من المشقّة. وكان ـ رحمه الله ـ تامّ القامة أشقَر في لحيته طولٌ يسيرٌ وخِفّةٌ، ووجه رقيق مُعَرَّق، وعليه هيبة ووقار، وفي قَدِّه رَشاقةٌ. وكان ذكيّا نبيهاً شجاعاً حَذُوراً.

ولمّا قُتل الملك الأشرفُ خليل بن قلاوون هرَب هو وقَراسُنْقُر، فإنهما كانا أعانا الأمير بَيْدَرا على قتله حسب ما ذكرناه ترجمة الملك الأشرف المذكور، بل كان لاجين هذا هو الذي تمّم قتله؛ ولمّا هرب جاء هو وقَراسُنْقُر إلى جامع أحمد بن طُولون وطلعا إلى الْمِئْذَنة واستترا فيها. وقال لاجين: لئن نجّانا الله من هذه الشدّة وصرتُ شيئاً عَمَّرْت هذا الجامع.

قلت: وكذا فَعَل رحمه الله تعالى، فإنه لمّا تسلطن أمر بتجديد جامع أحمد آبن طولون المذكور ورتّب في شدّ عمارته وعمارة أوقافه الأميرَ علم الدين أبا موسى سنَجر بن عبد الله الصالحيّ النَّجْمِيّ الدّواداري المعروف بالبُرنُلي، وكان من أكابر أمراء الألوف بالديار المصريّة، وفوّض السلطان الملك المنصورُ لاجين أمر الجامع المذكور وأوقافه إليه فعمّره وعمّر وقفه وأوقف عليه عدّة قُرىً، وقرّر فيه دروس الفقه والحديث والتفسير والطّبّ وغير ذلك، وجَعَل من جملة ذلك وقفاً يختص بالدِّيَكة التي تكون في سَطْح الجامع المذكور في مكان مخصوص بها، وزَعَم أن الدِّيَكة تُعِين الموقّتين وتُوقظ المؤذِّنين في السَّحَر، وضمّن ذلك كتاب الوقف؛ فلمّا قرىء كتاب الوقف على السلطان وما شرطه أعجبه جميعُه، فلما آنتهى إلى ذكر الدِّيَكة أنكر السلطان ذلك، وقال: أَبْطِلوا هذا لئلاّ يضحك الناس علينا، وأمضى ما عدا ذلك من الشروط. والجامع المذكور عامر بالأوقاف المذكورة إلى يومنا هذا، ولولاه لكان دَثَر وخَرِب، فإنّ غالب ما كان أوقفه صاحبه أحمد بن طولون خَرِب وذهب أثرُه، فجدّده لاجين هذا وأوقف عليه هذه الأوقاف الجمّة، فعُمِّر وبقي إلى الآن. انتهى.

وكان المنصور لاجين فَهِماً كريمَ الأخلاق متواضعاً. يُحْكَى أن القاضي شهاب الدين محمود كان يكتب بين يديه فوقع من الحِبْر على ثيابه، فأعلمه

السلطان بذلك؛ فنظم في الحال بيتين وهما: [السريع]

ثيابُ مملوكك يا سيِّدي قد بيّضتْ حالي بتسويدها
مَا وَقع الجِبْر عليها بَلَى وُقِّع لي منك بتجديدها

فأمر له المنصور بتفصيلتين وخمسمائة درهم. فقال الشهاب محمود: يا خَوَنْد، مماليكك الجماعة رِفاقي يبقَى ذلك في قلوبهم، فأمر لكلٍّ منهم بمثل ذلك، وصارت راتباً لهم في كلّ سنة.

وقال الشيخ صلاح الدين خليل بن أُيْبَك الصَّفَدِيّ في تاريخه: حَكَى لي الشيخ فتح الدين ابن سَيِّد الناس: لمّا دخل عليه لم يَدَعْه يبُوس الأرض، وقال: أهل العلم منزّهون عن هذا وأجلسه عنده، وأظنّه قال: على المقعد، ورتّبه مُوَقِّعاً فباشر ذلك أيّاماً، وآستعفى فأعفاه وجعل المعلوم له راتباً فتناوله إلى أن مات. ولمّا تسلطن مدحه القاضي شهاب الدين محمود بقصيدة أوّلها: [البسيط]

أطاعك الدهرُ فَأْمُر فهو ممتثِلُ وآحكم فأنت الذي تزْهَى بك الدُّوَلُ

ولمّا تسلطن الملك المنصور لاجين تفاءل الناس وآستبشروا بسلطنته، وجاء في تلك السنة غَيْثٌ عظيم بعدما كان تأخّر؛ فقال في ذلك الشيخ علاء الدين الوَدَاعِيّ: [السريع]

يا أيها العالم بُشْراكُمُ بدولة المنصور ربّ الفَخَارْ
فالله قد بارك فيها [لكم] فأمطر الليلُ وأضحى النهارْ

وكانت مدّة سلطنة المنصور لاجين على الديار المصريّة سنتين وثلاثة شهور.

قال الأديب صلاح الدين الصَّفَدي: وكان ديِّناً متقشِّفاً كثير الصوم قليل الأذى. قطع أكثر المكوس، وقال: إن عشتُ ما تركت مكْساً واحداً.

قلت: كان فيه كلُّ الخِصال الحسنة، لولا توليته مملوكه منكُوتمر الأمور ومحبته له، وهو السبب في هلاكه حسب ما تقدّم. وتسلطن من بعده ابن أستاذه الملك الناصر محمد بن قلاوون: طُلِب من الكَرَك وأُعِيد إلى السلطنة. إنتهت ترجمة

الملك المنصور لاجين. رحمه الله تعالى.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك المنصور لاجين على مصر

وهي سنة ستّ وتسعين وستمائة. على أنّ الملك العادل كَتْبُغَا حكَم منها المحرّم وأياماً من صفر.

فيها كان خلع الملك العادل كَتْبُغَا المنصوريّ من السلطنة وتوليتُه نيابة صَرْخَد، وسلطنة الملك المنصور لاجين هذا من بعده حسب ما تقدّم ذكره.

وفيها في ذي القعدة مسَك الملك المنصورُ لاجين الأمير شمس الدين قَرَا سُنْقُر المنصوريّ نائب السلطنة بديار مصر وحبَسه، وولّى عِوضَه مملوكه مَنْكُوتَمر.

وفيها ولِي قضاء دمشق قاضي القضاة إمام الدين القزوِينِي(١) عوضاً عن القاضي بدر الدين بن جَمَاعة؛ وآستمرّ آبن جماعة المذكور على خطابة جامع دمشق.

وفيها تولّى سلطنة اليمن الملك المؤيَد هِزَبْر الدين داود آبن الملك المظفّر شمس الدين يوسف آبن الملك المنصور نور الدين عمر بن عليّ بن رسول، بعد موت أخيه الأشرف.

وفيها توفّي الشيخ الإمام العلامة مفتي المسلمين محيي الدين أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن هبة الله بن طارق بن سالم بن النّحاس الحَلَبي الأسديّ الحنفيّ في ليلة سلخ المحرم ببستانه بالمزَّة ودُفِن بتربته بالمِزّة، وحضَر جنازته نائبُ الشام ومَن دونه؛ وكان إماماً مُفْتَناً في علوم؛ وتولّى عدة تداريس ووظائف دينّية، ووزَرَ بالشام للملك المنصور قلاوون؛ وحسُنت سيرتهُ ثم عُزل ولازم الاشغال والإقراء وآنتفع به عامّة أهل دمشق، ومات ولم يُخَلِّف بعده مثلُه.

وفيها تُوفّي الملك الأشرف ممهّد الدين عمر آبن الملك المظفر يوسف آبن

(١) هو إمام الدين عمر بن عبد الرحمن بن عمر القزويني الشافعي المتوفى سنة ٦٩٩هـ.

الملك المنصور نور الدين عمر بن عليّ بن رَسُول ملك اليمن، وتولّى بعده أخوه هِزَبْر الدين داود المقدّم ذكره، وكانت مدّة مُلكه دون السنتين.

وفيها تُوفّي القاضي تاج الدين عبد القادر آبن القاضي عزّ الدين محمد السِّنْجاريّ الحنفي قاضي قضاة الحنفيّة بحلب في يوم الخميس ثامن عشرين شعبان؛ كان إماماً فقيهاً عالماً مُفْتِياً. وَلِي القضاء بعدة بلاد وحُمِدت سيرتُه.

وفيها تُوُفّي الأمير عِزّ الدين أَزْدَمُر بن عبد الله العَلاَئِيّ في ذي القعدة بدمشق؛ وكان أميراً كبيراً معظّماً إلا أنّه شَرِسُ الأخلاق قليلُ الفَهْم رَسَم له الملك الظاهر بِيبرس أنّه لا يركب بسيف [فبقي أكثر من عشرين سنة لا يركب بسيف][1]؛ وهو أخو الأمير علاء الدين طَيْبَرْس الوَزِيريّ.

وفيها تُوُفّي شيخ الحَرَم وفقيه الحجاز رضيّ الدين محمد بن أبي بكر عبد الله بن خليل بن إبراهيم القَسْطَلاّنِيّ المكيّ المعروف بآبن خليل. مولده سنة ثلاث وثلاثين وستمائة؛ وكان فقيهاً عالماً مُفْتَنّاً مُفْتِياً، وله عبادة وصلاح وحسن أخلاق. مات بمكّة بعد خروج الحاج بشهر، ودُفن بالمَعْلاة بالقرب من سُفْيان الثَّوْرِيّ. ومن شعره رحمه الله: [الخفيف]

أيّها النازح المقيم بقلبي في أمانٍ أنّى حَلَلْتَ ورَحْبِ
جمع الله بيننا عن قريبٍ فهو أقصَى مناايَ منك وحَسْبِي

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي القاضي تاج الدين عبد الخالق بن عبد السلام بن سعيد ببعلبكّ في المحرّم، وله ثلاث وتسعون سنة. وقاضي القضاة عِزّ الدين عمر بن عبد الله بن عمر بن عَوَض الحنبليّ بالقاهرة. والحافظ الزاهد جمال الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهريّ بمصر. والمحدث ضياء الدين عيسى بن يحيى السَّبْتِيّ بالقاهرة في رجب. والزاهد شمس الدين محمد بن حامد المَقْدِسِيّ في ذي الحجّة. وأبو العباس أحمد بن عبد الكريم في صفر.

---

(١) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم كان قليلاً جدّاً. مبلـغ الزيادة خمس عشرة ذراعاً وثماني عشرة إصبعاً. ثم نقص ولم يُوَفِّ في تلك السنة.

* * *

السنة الثانية من سلطنة الملك المنصور لاجين على مصر

وهي سنة سبـع وتسعين وستمائة.

فيها مَسَك الملك المنصور لاجين الأمير بدر الدين بَيْسَري الشمسيّ وحبَسه وآحتاط على موجوده.

وفيها أخذت العساكر المصريّةَ تلّ حَمْدون وقلعتها بعد حِصار، ومَرْعَش وغيرَهما، ودقت البشائر بمصر أياماً بسبب ذلك.

وفيها قَدِم الملك المسعود نجم الدين خَضِر آبن السلطان الملك الظاهر ركن الدين بِيبَرْس البُنْدُقْـدَارِيّ من بلاد الأَشْكُرِي[1] إلى مصر، فتلقّاه السلطان الملك المنصور لاجين في الموكِب وأكرمه. وطلب الملك المسعود الحج فأُذِن له بذلك. وكان الملك الأشرف خليل بن قلاوون أرسله إلى هناك. وسكن الملك المسعود بالقاهرة إلى أن مات بها حسب ما يأتي ذكره. وكان خَضِر هذا من أحسن الناس شكلاً، ولما خَتنه أبوه قال فيه القاضي محيـي الدين عبد الله بن عبد الظاهر يُهَنِّىء والده الملك الظاهر ركن الدين بيبَرْس: [مجزوء الرجز]

هـنـأتُ بـالـعـيـد ومـا	عـلى الـهـنـاء أقـتـصـر
بـل إنّـهـا بـشـارةٌ	لـهـا الـوجـودُ مـفـتـقِـرْ
بـفـرْحـةٍ قـد جـمـعَـت	مـا بين مُوسى والخَضِـرْ
قـد هـيّـأت لـوِرْدِكـم	مـاءَ الـحـيـاة الـمُنَـهـمِـرْ

قلت: وأحسن من هذا قولُ من قال في مَلِيـح حَلِيق: [الرمل]

---

(١) راجع الجزء السابع، ص ٥٥، حاشية (٤).

مَـرَّتِ المُـوسَى على عـارضـه فـكـأنَّ الـمـاءَ بـالآس غُـمِـرْ
مَجْمَـع البحـرين أضحى خَـدُّهُ إذ تـلاقى فيـه مـوسى والخَضِـرْ

وفيها تُوُفي الشيخ الصالح الزاهد بقيّة المشايخ بدر الدين حسن آبن الشيخ الكبير القدوة العارف نور الدين أبي الحسن علي بن منصور الحريريّ في يوم السبت عاشر شهر ربيع الآخر بزاويته بقرية بُسْر[١] من أعمال زُرْع؛ وكان هو المتعيّن بعد أبيه في الزاوية وعلى الطائفة الحرِيرية المنسوبين إلى والده؛ ومات وقد جاوز الثمانين.

وفيها توفّي قاضي القضاة صدر الدين إبراهيم بن أحمد بن عُقْبة البصْرَاويّ الفقيه الحنفي المدرّس، أحد أعيان فقهاء الحنفية؛ ولي قضاء حلب ثم عُزِل ثم أعيد فمات قبل دخوله حلب؛ وكان عالماً مُفْتَناً وله اليد الطُّولى في الجبر والمقابلة والفرائض وغير ذلك.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوفّي الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر الفارسيّ الأَبْجي[٢] في رمضان. وعائشة آبنة المجد عيسى بن الموّفق المَقْدسيّ في شعبان ولها ست وثمانون سنة. وقاضي حماة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل في شوّال. وشهاب الدين أحمد بن عبد الرحمن النابلسيّ الحنبليّ العابر[٣]. والشيخ كمال الدين عبد الرحمن بن عبد اللطيف البغداديّ بن المكبّر في ذي الحجة، وله ثمان وتسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وعشر أصابع. وكان الوفاء آخر أيام النسيء.

---

(١) بُسْر: قرية من أعمال حوران من أراضي دمشق، إلى جنب زُرَّة التي تسميها العامة زُرع. (معجم البلدان).

(٢) نسبة إلى الأبج من بلاد العجم.

(٣) لعل الصواب: «المعبّر» لأنه كان له علم بتعبير الرؤيا، وله فيه مؤلف.

ذكر سلطنة الملك الناصر محمد[1] بن قلاوون الثانية على مصر

السلطان الملك الناصر ناصر الدين أبو المعالي محمد آبن السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون؛ تقدّم ذكر مولده في ترجمته الأولى من هذا الكتاب. أُعِيد إلى السلطنة بعد قتل الملك المنصور لاجين؛ فإنه كان لما خُلِع من المُلْك بالملك العادل كَتْبُغَا المنصوريّ أقام عند والدته بالدور[2] من قلعة الجبل إلى أن أخرجه الملك المنصور لاجين لمّا تسلطن إلى الكَرَك، فأقام الملك الناصر بالكَرَك إلى أن قُتِل الملك المنصور لاجين حسب ما ذكرناه. أجمع رأي الأمراء على سلطنته ثانياً، وخرج إليه الطلب من الديار المصرية صبيحة الحادي عشر من شهر ربيع الآخر سنة ثمانٍ وتسعين وستمائة، وهو ثاني يوم قتل لاجين، وسار الطلب إليه؛ فلمّا قتِل طغجي وكُرْجِي في يوم الاثنين رابع عشره آستحثوا الأمراء في طلبه، وتكرّر سفر القُصّاد له من الديار المصرية إلى الكرك، حتى إذا حضر إلى الديار المصرية في ليلة السبت رابع جُمادَى الأولى من السنة، وبات تلك الليلة بالإسطبل السلطانيّ، ودام به إلى أن طَلَع إلى القلعة في بُكْرة يوم الاثنين سادس جُمادَى الأولى المذكور. وحضر الخليفةُ الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد والقضاةُ، وأُعيد إلى السلطنة وجلس على تخت المُلك. وكان الذي توجّه من القاهرة بطَلَبه الأمير الحاجّ آل ملك، والأمير سَنْجر الجاولِي. فلمّا قَدِما إلى الكَرَك كان الملك الناصر بالغور يتصيّد فتوجّها إليه، ودخل آقوش نائب الكَرَك إلى أمّ السلطان وبَشَّرها، فخافت أن تكون مَكيدةً من لاجين فتوقّفت في المسير، فما زال بها حتى أجابت.

---

(١) انظر مصادر ترجمته وأخباره في الصفحة ٣٥ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٢) أي الدور السلطانية. ويقال: الآدر السلطانية.

ووصل الأميران إلى الملك الناصر بالغور وقبّلا الأرض بين يديه وأعلماه بالخبر، فرحّب بهما وعاد إلى البلد وتهيّأ، وأخذ في تجهيز أمره، والبريدُ يترادف بآستحثاثه إلى أن قَدِم القاهرة، فخرج الأمراءُ وجميعُ الناس قاطبةً للقائه، وكادت القاهرة ومصر ألّا يتأخر بهما أحدٌ فرحاً بقدومه. وكان خروجهم في يوم السبت، وأظهر الناس لعَوْده إلى المُلك من السرور ما لا يُوصف ولا يُحدّ، وزُيِّنت القاهرة ومصر بأفخر زينة، وأبطل الناس معايشَهم وضجّوا له بالدعاء والشكر لله على عَوْده إلى المُلك، وأسمعوا حواشيَ الملك العادل كَتْبُغَا والملك المنصور لاجين من المكروه والآستهزاء ما لا مَزِيد عليه؛ وآستمروا في الفَرَح والسرور إلى يوم الاثنين، وهو يوم جلوسه على تخت المُلك.

وجلس على تخت الملك في هذه المرّة الثانية وعمرُه يومئذ نحوُ أربع عشرة سنة. ثم جُدّد للملك الناصر العهدُ وخَلَع على الأمير سيف الدين سَلار بنيابة السلطنة، وعلى الأمير حسام الدين لاجين بالأستادارية على عادته، واستمر الأمير آقوش الأفرم الصغير بنيابة دمشق على عادته، وخُلِع عليه وسُفِّر بعد أيام. وفي معنى سلطنة الملك الناصر محمد يقول الشيخ علاء الدين الوَدَاعيّ الدِّمشقيّ: [السريع]

الملك النـاصـرُ قـد أقبلتْ دولـتُـه مـشـرقَـة الـشـمسِ
عـاد إلـى كـرسيِّـه مـثلَمـا عـاد سليمـانُ إلى الكـرسي

وفي تاسع جُمادَى الأولى فُرِّقت الخِلَع على جميع مَنْ له عادة بالخِلَع من أعيان الدولة. وفي ثاني عشره لَبِس الناس الخِلَع وركب السلطان الملك الناصر بالخِلْعة الخليفتية وأبَّهة السلطنة وشعار المُلك، ونزل من قلعة الجبل إلى سُوق الخيل ثم عاد إلى القلعة؛ وترجّل في خدمته جميع الأمراء والأكابر وقبّلوا الأرض بين يديه. وآستقرّت سلطنته وتمّ أمره، وكُتِبت البشائر بذلك إلى الأقطار، وسُرّ الناس بعَوْده إلى المُلك سروراً زائداً بسائر الممالك.

وبعد أيام ورد الخبر عن غازان ملك التتار أنه قد عَزَم على قصد البلاد الشامية لمّا قدِم عليه الأمير قَبْجَق المنصوريّ نائب الشام ورفقتُه. ثم رأى غازان أن يجهّز

سلامش بن أباجو[١] من خمسة وعشرين ألفاً من الفُرْسان إلى بلاد الروم، على أنه يأخذ بلاد الروم، ويتوجّه بعد ذلك بسائر عساكره إلى الشام من جهة بلاد سِيس ويجيء غازان من ديار بكر، وينزلون على الفُرات ويُغيرون على البِيرة والرَّحْبة وقلعة الروم، ويكون آجتماعهم على مدينة حلب، فإن آلتقاهم أحدٌ من العساكر المصرية والشامية آلْتقوه وإلاّ دخلوا بلاد الشام؛ فآتّفق أنّ سلامش لما توجّه من عند قازان ودخل إلى الرّوم أطمعته نفسه بالملك[٢]، ومَلَك الروم وخَلَع طاعة غازان؛ وآستخدم الجُند، وأنفق عليهم وخَلَع على أكابر الأمراء ببلاد الروم؛ وكانوا أولاد قَرَمان قد أطاعوه، ونزلوا إلى خدمته، وهم فوق عشرة آلاف فارس. وهذا الخبر أرسله سلامش المذكور إلى مصر، وأرسل في ضمن ذلك يطلب من المصريين النَّجدة والمساعدة على غازان.

قلت: غازان وقازان كلاهما آسم لملك التتار. اِنتهى. وكان وصول رسول سلامش بهذا الخبر إلى مصر في شعبان من السنة.

وأما قازان فإنه وصل إلى بغداد؛ وكانوا متولّين بغداد من قبله شكَوْا إليه من أهل السِّيب[٣] والعُرْبان أنهم يَنْهَبُون التّجار القادمين من البحر، وأنّهم قد قطعوا السابلَة فسار قازان بنفسه إليهم ونهبهم، وأقام بأرض دَقُوقا[٤] مُشَتياً. ولمّا بلغه خبرُ سلامش آنثنى عزمُه عن قصد الشام وشرع في تجهيز العساكر مع ثلاثة مقدّمين، ومعهم خمسةٌ وثلاثون ألفَ فارسٍ: منها خمسة عشر مع الأمير سُوتاي وعشرةٌ مع هندوجاغان وعشرة مع بُولاي وهو المشار إليه من المقدّمين مع العساكر وسفّرهم

---

(١) في السلوك: «سلامش بن أفال بن بيجو».

(٢) كان سلامش يرى أنه أحق بالملك من غازان لأنه أقرب في النسب إلى جنكيزخان؛ وعلى هذا كوّن جيشاً بلغ عدده عشرة آلاف جندي وانضم إليه ابن قرمان أمير التركمان بعشرة آلاف فارس. وكتب سلامش إلى المنصور لاجين قبل وفاته يطلب نجدته ومساعدته على قتال غازان. ولما وصل غازان إلى بغداد علم بخروج سلامش ومسيره إلى بلاد الشام مما اضطر غازان إلى تغيير خطته وعدوله عن غزو الشام مؤقتاً ليخضع سلامش في بلاد الروم. (العلاقات السياسية بين المماليك والمغول: ١٤٢ ــ ١٤٣).

(٣) السِّيب: نهر بالبصرة من جهة واسط عليه قرى عدّة.

(٤) دقوقا: مدينة بين إربل وبغداد. وذكرها ياقوت باسم «دقوقاء». قال: وتكتب أيضاً بألف ممدودة ومقصورة.

إلى الروم لقتال سلامش. ثم رحل قازان إلى جهة تِبْرِيز[١] ومعه الأمير قَبْجَق المنصوريّ نائب الشام وبَكْتَمُر السلاح دار والْألبَكِيّ [وبزلار][٢]، هؤلاء هم الذين خرجوا من دَمِشق مُغاضبِين للملك المنصور لاجين. وسار التتار الذين أرسلهم غازان حتى وصلوا إلى الروم في أواخر شهر رجب وآلتَقْوا مع سلامش، وكان سلامش قد عَصَى عليه أهلُ سِيواس وهو يحاصرهم، فتركهم سلامش وتجهز، وجهز عساكره لملتقى التتار؛ وكان قد جمع فوق ستين ألفَ فارس. فلمّا قارب التتارَ فرّ من عسكر سلامش التتارُ والروم ولحقوا ابولاي مقدّم عساكر غازان.

وأمّا التُّركمان فإنهم تركوه وصَعِدُوا إلى الجبال على عادتهم، وبقي سلامش في جمع قليل دون خمسمائة فارس، فتوجه بهم من سِيواس إلى جهة سِيس، وسار منها فوصل إلى بَهَسْنا في أواخر شهر رجب. وكان السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون قد بَرَز مرسومه إلى نائب الشام بأن يُجَرِّد خمسة أمراء من حِمْص وخمسة من حَمَاة وخمسة من حلب لتكملة خمسة عشر أميراً ويبعثهم نجدةً إلى سلامش.

فلمّا وصل الخبر بقدوم سلامش إلى بَهَسْنَا منهزماً توقّف العسكر عن المسير، ثم وصل سلامش إلى دِمَشق. وسلامش هذا هو من أولاد عمّ غازان؛ وهو سلامش بن أباجو بن هولاكو. وكان وصوله إلى دمشق في يوم الخميس ثاني عشر شعبان، فتلقّاه نائب الشام وآحتفل لملاقاته آحتفالاً عظيماً وأكرمه، وقدّم في خدمته نائب بهسنا الأمير بدر الدين بَكْتَاش الزردكاش؛ ثم سار سلامش من دمشق إلى جهة الديار المصرية إلى أن وصلها، فأكرمه السلطان غاية الإكرام، وأقام بمصر أياماً قليلة ثم عاد إلى حلب، بعد أن آتفق معه أكابر دولة الملك الناصر محمد على أمرٍ يفعلونه إذا قَدِم غازان إلى البلاد الشامية؛ ثم بعد خروجه جهز السلطان خلفه أربعة آلاف فارس من العسكر المصري نجدةً له لقتال التتار، وأيضاً كالمقدّمة للسلطان، وعلى كلّ ألف فارس أميرُ مائة ومقدّم ألف فارس، وهم: الأمير جمال الدين آقوش

(١) تبريز: أشهر مدن أذربيجان. وكانت عاصمة الإيلخانيين من أبناء هولاكو.

(٢) زيادة عن السلوك.

قتّال السَّبُع، والمبارز أمير شِكار، والأمير جمال الدين عبد الله، والأمير سيف الدين [بلبان][1] الحَبشِيّ، وهو المقدّم على الجميع؛ وساروا الجميع إلى بلاد حلب، وتهيّأ السلطان للسفر، وتجهّزت أمراؤه وعساكره. وخرج من الديار المصرية بأمرائه وعساكره في يوم الخميس سادس عشرين ذي الحجّة الموافق لسادس عشرين توت أحد شهور القِبْط.

هذا والعساكر الشامية في التهيؤ لقتال التتار، وقد دخلهم من الرعب والخوف أمرٌ لا مَزِيد عليه؛ وسار السلطان بعساكره إلى البلاد الشامية بعد أن تقدّمه أيضاً جماعةٌ من أكابر أمراء الديار المصرية غير أولئك، كالجاليش[2] على العادة، وهم: الأمير قُطْلُوبَك والأمير سيف الدين كزناي[3] وهو من كبار الأمراء: كان حما المَلِكين الصالح والأشرف أولاد قلاوون، وجماعة أمراء أُخَر؛ ودخلوا هؤلاء الأمراء قبل السلطان إلى الشام بأيام، فآطمأنّ خواطرُ أهل دِمَشق بهم.

وسافر السلطان بالعساكر على مَهَل، وأقام بغزّة وعَسْقَلان أياماً كثيرةً؛ ثم دخل إلى دمشق يوم الجمعة ثامن شهر ربيع الأوّل سنة تسع وتسعين وستمائة؛ وآحتفَلَ أهلُ دمشق لدخوله آحتفالاً عظيماً، ودخل السلطان بتجمّل عظيم زائدٍ عن الوصف حتى لعلّه زاد على الملوك الذين كانوا قبله؛ ونزل بقلعة دمشق بعد أن أقام بغزّة وغيرها نحو الشهرين في الطريق إلى أن ترادفت عليه الأخبار بقرب التتار إلى البلاد الشامية، فقدم دمشق؛ وتعين حضوره إليها ليجتمع بعساكره السابقة له؛ وأقام السلطانُ بدمشق وجهّز عساكرها إلى جهة البلاد الحلبيّة أمامه، ثم خَرَج هو بأمرائه وعساكره بعدهم في يوم الأحد السابع عشر من شهر ربيع الأوّل من سنة تسع وتسعين المذكورة في وسَط النهار، وسار من دَمَشق إلى حِمْص؛ وآبتهلَ الناسُ له

---

(١) في الأصل: «سيف الدين حبش» والزيادة والتصحيح عن السلوك.

(٢) الجاليش في الفارسية بمعنى الحرب والمعركة. والجاليش في الكتب العربية علم كبير في أعلاه خصلة من شعر الخيل. واستعمل لفظ الجاليش بمعنى طليعة الجند، وهو المعنى المشار إليه هنا. ويستعمل الجاليش بمعنى مقدمة القلب. (تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل: ص ٥٧، وصبح الأعشى: ١٣/٣٧و٤/٨، والسلوك: ٦٩٢/٣/١).

(٣) في الأصل: «نكبيه». وفي طبعة دار الكتب: «نكيه» وما أثبتناه عن السلوك.

بالدعاء، وعظُم خوفُ الناس وصِياحُهم وبكاؤهم على الإسلام وأهله. ووصل السلطان إلى حِمْص وأقام لابس السلاح ثلاثة أيام بلياليها إلى أن حصل المَلَل والضَّجَر، وغلت الأسعار بالعسكر وقلّت العلوفات.

وبلـغ السلطانَ أنّ التتار قد نزلوا بالقُرْب من سَلَمْيَة وأنّهم يريدون الرجوعَ إلى بلادهم لما بَلَغهم من كثرة الجيوش وآجتماعهم على قتالهم ـ وكان هذا الخبر مكيدةً من التتار ـ فركب السلطان بعساكره من حِمْص بُكرةَ يوم الأربعاء وقت الصبـح السابـع والعشرين من شهر ربيـع الأول، وساقُوا الخيل إلى أن وصلوا إليهم، وهم بالقرب من سلمية بمكان يسمى وادي الخازندار؛ فركب التتار للقائهم وكانوا تهيؤوا لذلك؛ وكان الملتقى في ذلك المكان في الساعة الخامسة من نهار الأربعاء المذكور وتصادما، وقد كَلّت خيول السلطان وعساكرُه من السَّوْق؛ وآلتحم القتال بين الفريقين، وحَمَلت ميسرةُ المسلمين عليهم فكسرَتْهم أقبـحَ كسرة، وقتلوا منهم جماعة كثيرةً نحو خمسة آلاف أو أكثر؛ ولم يُقتل من المسلمين إلاّ اليسيُر.

ثم حَمَلت القَلْب أيضاً حملةً هائلةً وصدمت العدّو أعظمَ صدمة، وثَبَت كل من الفريقين ثباتاً عظيماً؛ ثم حصل تخاذلٌ في عسكر الإسلام بعضهم في بعض ـ بلاء من الله تعالى ـ فانهزمت ميمنةُ السلطان بعد أن كان لاح لهم النصر! فلا قوّة إلا بالله. ولمّا آنهزمت الميمنةُ آنهزم أيضاً مَنْ كان وراء السناجق السلطانيّة من غير قتال، وألقى الله تعالى الهزيمةَ عليهم فآنهزم جميـع عساكر الإسلام بعد النصر[١]؛ وساق السلطان في طائفة يسيرة من أمرائه ومدبِّري مملكته إلى نحو بَعْلَبك وتركوا

---

(١) تذكر المصادر تفصيلات هامة عن سير المعركة بعد الضربة التي وجهتها ميسرة جيش المسلمين لميمنة جيش التتار، منها أنه على أثر ذلك ارتفعت الروح المعنوية للمسلمين، وكاد غازان أن يولي الأدبار، ولكنه استدعى إليه الأمير قبجق نائب دمشق السابق وشاوره في الأمر فشجعه قبجق على الاستمرار في المعركة ـ وقيل إن هدف قبجق من ذلك هو أن يدفع غازان إلى الهزيمة ـ ثم تجمعت فلول المغول حول غازان من جديد وهاجم قلب الجيش الإسلامي فتقهقر ولم يثبت له، وولى سلار وبكتمر الجوكندار وسائر الأمراء البرجية. وحاول الملك الناصر الهرب، ولكن الأمير حسام الدين لاجين كان يمنعه ويقول له: «ما هي كسرة، لكنّ المسلمين تأخروا» ولم يبق مـع السلطان من المماليك غير اثني عشر مملوكاً. (انظر السلوك: ٨٨٧/٣/١، والعلاقات السياسية بين المماليك والمغول: ١٤٨).

جميع الأثقال ملقاةً؛ فبقيت العُدَدُ والسلاح والغنائم والأثقال ملأت تلك الأراضي حتى بَقِيت الرماح في الطرق كأنها القَصَب لا ينظر إليها أحد، وَرَمى الجند خُوَذَهم عن رؤوسهم وجواشِنَهم وسلاحهم تخفيفاً عن الخيل لتُنجيهم بأنفسهم، وقصدوا الجميع دمشق. وكان أكثر من وصل إلى دمشق من المنهزمين من طريق بعلبك. ولمّا بلغ أهلَ دمشق وغيرها كسرةُ السلطان عَظُم الضجيجُ والبكاء، وخرجت المخدّرات حاسراتٍ لا يعرِفْنَ أين يذهبْنَ والأطفالُ بأيديهنّ، وصار كلّ واحد في شغل عن صاحبه إلى أن ورد عليهم الخبرُ أنّ ملك التتار قازان مُسْلِمٌ وأن غالب جيشه على ملّة الإسلام، وأنّهم لم يتبعوا المنهزمين، وبعد آنفصال الوقعة لم يقتلوا أحداً ممّن وجدوه، وإنما يأخذون سلاحه ومركوبه ويُطلقونه، فسَكَن بذلك رَوْعُ أهل دِمَشْق قليلاً.

ثم صار من وصل إلى دمشق أخذ أهلَه وحواصله بحيث الإمكان وتوجه إلى جهة مصر، وبقي من بقي بدمشق في خَمْدة وحَيْرة لا يدرون ما عاقبة أمرهم؛ فطائفة تغلّب عليهم الخوف، وطائفة يترجوْن حَقن الدماء، وطائفة يترجّوْن أكثَر من ذلك من عَدْل وحُسْن سيرة؛ وآجتمعوا في يوم الأحد بمشهد عليّ [من الجامع الأموي][1] وآشتوروا في أمر الخروج إلى ملك التتار غازان وأخذهم أماناً لأهل البلد، فحضر من الفقهاء قاضي القضاة بدر الدين بن جَمَاعة، وهو يومئذ خطيب جامع أهل دمشق، والشيخ زَيْن الدين الفارقيّ، والشيخ تقيّ الدين بن تَيْمِيّة، وقاضي قضاة دمشق نجم الدين ابن صَصْرًى، والصاحب فخر الدين بن الشيرجي، والقاضي عزّ الدين بن الزكيّ، والشيخ وجيه الدين بن المُنَجّا، والشيخ عز الدين بن القَلاَنِسيّ، وآبن عمّه شرف الدين، وأمين الدين بن شُقَيْر الحرانيّ، والشريف زين الدين بن عَدْنان، والصاحب شهاب الدين الحَنَفيّ، والقاضي شمس الدين بن الحَريريّ، والشيخ محمد بن قوام النابُلُسيّ، وجلال الدين أخو القاضي إمام الدين القَزْوينيّ ــ وقد خَرَج أخوه إمام الدين قبل ذلك مع جماعة جافلاً إلى مصر ــ وجلال الدين

(١) زيادة عن آلسلوك.

آبن القاضي حسام الدين الحنفيّ، وجماعة كثيرة من العدول والفقهاء والقراء[١].

وأمّا السلطان الملك الناصر وعساكره فإنه سار هو بخواصّه بعد الوقعة إلى جهة الكُسْوة[٢]. وأمّا العساكر المصرية والشامية فلا يمكن أن يُعَبَّر عن حالهم: فإنه كان أكبر الأمراء يُرى، وهو وحدَه وقد عَجَز عن الهَرَب ليس معه مَنْ يقوم بخدمته، وهو مُسْرِعٌ في السَّيْر خائف متوجِّه إلى جهة الكُسْوة لا يَلْوِي على أحد، قد دخل قلوبهم الرُّعب والخوف، تشتُمهم العامة وتُوَبِّخهم بسبب الهزيمة من التتار، وكونهم كانوا قبل ذلك يحكمون في الناس ويتعاظمون عليهم، وقد صار أحدُهم الآن أضعفَ من الهزيل؛ وأمعنوا العامّة في ذلك وهم لا يلتفتون إلى قولهم، ولا ينتقمون من أحد منهم.

قلتُ: وكذا وقـع في زماننا هذا في وقعة تيمورلنك وأعظم؛ فإنّ هؤلاء قاتلوا وكَسَروا مَيْمَنة التّتار، إلاّ أصحابنا فإنّهم سَلَّموا البلاد والعِباد من غير قتال! حسب ما يأتي ذكره في محلّه من ترجمة السلطان الملك الناصر فَرَج بن بَرْقُوق. اِنتهى.

قال: وعجز أكثر الأمراء والجند عن التوجّه إلى جهة مصر خلف السلطان بسبب ضعف فرسه، فصار الجنديّ يُغَير زيّـه حتى يُقيم بدمشق خِيفةً من توبيخ العامّة له، حتى [أن] بعضهم حَلَق شعره وصار بغير دَبُوقة[٣].

قال الشيـخ قطب الدين اليُونِينِيّ: مـع أنّ الله تعالى لَطَف بهم لطفاً عظيماً، إذ لم يَسُقْ عَدوّهم خَلفهم ولا تبعهم إلا حول المعركة وما قاربها؛ وكان ذلك لُطْفاً من الله تعالى بهم.

---

(١) والتقى هؤلاء الأعيان والفقهاء بالسلطان غازان وهو بالنبك ـ قرية بين حمص ودمشق ـ فنزلوا عن دوابهم، ومنهم من قبّل الأرض له. فوقف غازان بفرسه لهم، ونزل جماعة من التتار عن خيولهم، ووقف الترجمان وتكلم بينهم وبين غازان، فسألوا الأمان لأهل دمشق، وقدّموا له مآكل كانت معهم، فلم يلتفت إليها، وقال: «قد بعثت إليكم الأمان»، وصرفهم؛ فعادوا إلى المدينة بعد العصر من يوم الجمعة سابـع شهر ربيـع الآخر. (السلوك للمقريزي: ١/٣/٨٨٩).

(٢) الكسوة: قرية هي أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر. (معجم البلدان).

(٣) الدبوقة: جديلة الشعر.

وبَقِي الأمر على ذلك إلى آخر يوم الخميس سادس شهر ربيع الآخر، فوصل أربعة من التتار ومعهم الشريف القُمِّيّ وتكلّموا مع أهل دمشق، فلم يَنْبَرِم أمر[١]. ثم قَدِم من الغد آخَرُ ومعه فَرمان (يعني مرسوماً من غازان بالأمان) وقُرِىء بالمدرسة البَادَرائية[٢].

ثم وقع بعد ذلك أمور يطول شرحها من أن قازان أرسل إلى أهل دمشق وعرّفهم أنه يحب العدل والإحسان للرّعية وإنصاف المظلوم من الظالم، وأشياء من هذا النمط، فحصل للناس بذلك سكونٌ وطمأنينة.

ثم دخل الأمير قَبْجَق المنصوريّ الذي كان نائب دمشق قبل تاريخه، وهَرَب من الملك المنصور لاجين إلى غازان، ومعه رفقته الأمير بَكْتَمُر السِّلاح دار وغيره إلى دمشق، وكلّموا الأمير أَرجَواش المنصوريّ خُشْدَاشَهم نائب قلعة دمشق في تسليمها إلى غازان؛ وقالوا له: دَمُ المسلمين في عنقك إن لم تُسلِّمها؛ فأجابهم: دم المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتُم من دمشق وتوجّهتم إلى غازان وحسّنتم له المجيء إلى دمشق وغيرها، ثم وبخهم ولم يُسَلِّم قلعة دمشق، وتهيأ للقتال والحِصار؛ وآستمر على حفظ القلعة. ثم ترادفت قصّاد غازان إلى أَرْجَواش هذا، وطال الكلام بينهم في تسليم القلعة؛ فثّبته الله تعالى ومَنَع ذلك بالكلّية.

ومَلَك قازان دِمَشق وخُطِب له بها في يوم الجمعة رابع عشر شهر ربيع

---

(١) الخبر في السلوك أكثر وضوحاً، بعد إضافات، أضافها المحقق عن النويري. قال: «وكان قد وصل إلى دمشق في يوم الخميس سادس الشهر أربعة من التتار من جهة غازان ومعهم الشريف القميّ؛ وكان القميّ قد توجه قبل توجه الجماعة (أي جماعة الفقهاء والأعيان) هو وثلاثة من أهل دمشق إلى غازان، فعاد وبيده أمان لأهل دمشق. ثم قدم في يوم الجمعة سابعه بعد صلاة الجمعة الأمير إسماعيل التتري بجماعة من التتر، ودخل المدينة يوم السبت ليقرأ الفرمان بالجامع، فاجتمع الناس، وقرأ بعض العجم الواصلين مع الأمير إسماعيل الفرمان بتأمين الكافة، وعاد إسماعيل إلى منزله بعدما صلى العصر».
ـ وانظر نص فرمان غازان لتأمين أهل دمشق في ملاحق هذا الجزء.

(٢) المدرسة البادرائية بدمشق، داخل باب الفراديس والسلامة شمالي جيرون وشرقي الناصرية الجوانية. وكانت قبل ذلك داراً تعرف بأسامة. أنشأها الشيخ نجم الدين عبد الله بن أبي الوفاء محمد البادرائي المتوفى سنة ٦٥٥هـ. (الدارس: ١/١٥٤).

الآخر. وصورة الدعاء لغازان أن قال الخطيب: «مولانا السلطان الأعظم سلطان الإسلام والمسلمين مظفّر الدنيا والدين محمود غازان».

وصلّى الأمير قَبْجَق المنصوريّ وجماعةٌ من المُغْل بالمقصورة من جامع دِمَشق؛ ثم أخذ التّتار في نَهْب قُرَى دمشق والفساد بها، ثم بجبل الصالحية وغيرها، وفعلوا تلك الأفعال القبيحة، ثم قرّروا على البلد تقارير تضاعفت غير مرّة، وحَصَل على أهل دمشق الذُّلُّ والهَوَانُ وطال ذلك عليهم، وكان متولي الطلب من أهل دمشق الصفيُّ السِّنْجارِيّ، وعلاءُ الدين أستادار قَبْجَق، وآبنا الشيخ الحَريريّ الجِنّ والبِن؛ وعَمِل الشيخ كمال الدين الزَّمْلَكَانِيّ في ذلك قوله: [البسيط]

لهَفْي على جِلَّقٍ يا شرّ ما لَقِيَتْ ... من كلِّ عِلْجٍ له في كُفْره فَنُّ
بالطِّمِّ والرِّمِّ[1] جاؤوا لا عَدِيدَ لهم ... فالجِنُّ بعضهمُ والجِنّ والبِنُّ

وللشيخ عز الدين عبد الغني الجَوْزِيّ في المعنى: [الطويل]

بلُيَنا بقَوْمٍ كالكلابِ أخِسَّةٍ ... علينا بغَارات المخاوف قد شنُّوا
هُمُ الجِنُّ حقاً ليس في ذاك ريبةٌ ... ومع ذا فقد والاهُمُ الجِنّ والبِنُّ

ولابن قاضي شُهْبة: [الطويل]

رَمَتْنا صروفُ الدهر حقاً بسبعةٍ ... فما أحدٌ منا من السبع سالمُ
غَلاَءٌ وغازانٌ وغزوٌ وغارةٌ ... وغَدْرٌ وإغْبانٌ وغَمٌ ملازمُ

وفي المعنى يقول أيضاً الشيخ علاء الدين الوَدَاعيّ وأجاد: [الطويل]

أتى الشام مع غازان شَيْخٌ مُسَلِّكٌ ... على يده تاب الوَرَى وتزهَّدُوا
فخَلَوْا عن الأموال والأهل جُملةً ... فما منهمُ إلا فقيرٌ مُجرَّدُ

ودامت هذه الشدّة على أهل دمشق والحصار عَمّال في كلّ يوم على قلعة دمَشق حتى عجزوا عن أخذها من يد أرْجَواش المذكور.

---

(١) أي بالعديد الكثير.

قلت: على أنّ أرجواش كان عنده سلامة باطن إلى الغاية. يأتي ذكر بعض أحواله في الوَفيات من سنين الملك الناصر محمد بن قلاوون. اِنتهى.

قال: وتَمّ جَبْيُ المال، وأخَذَه غازان وسافر[1] من دِمَشْق في يوم الجمعة ثاني عشر جُمادى الأولى بعد أن ولّى الأمير قَبجَق المنصوريّ نيابة الشام[2] على عادته أوّلًا، وقرَّر بدمشق جماعةً أخَر يطول الشرح في ذكرهم. وأقام الأمير قُطْلُو شاه مقدّم عساكر التتار بعد غازان بدمشق بجماعة كثيرة من التتار لأخْذ ما بقي من الأموال ولحصار قلعة دمشق، ودام على ذلك حتى سافر من دمشق ببقيّة التتار في يوم الثلاثاء ثالث عشرين جُمادَى الأولى، وخرج الأمير قَبْجَق نائب الشام لتوديعه، ثم عاد يوم الخميس خامس عشرينه، وآنقطع أمرُ المُغْل من دمشق بعد أن قاسى أهلها شدائد وذهبت أموالهم.

قال آبن المُنَجّا: إنّ الذي حُمل إلى خزانة قازان خاصة نفسه ثلاثةُ آلاف ألف وستمائة ألف سوى ما مُحِق عليهم من التّراسيم والبَراطيل والاستخراج لغيره من الأمراء والوزراء وغير ذلك، بحيث إن الصَّفيّ السِّنْجاريّ آستَخرَجَ لنفسه أكثر من ثمانين ألف درهم، وللأمير إسماعيل مائتي ألف درهم، وللوزير نحو أربعمائة ألف، وقس على هذا. وآستمرّ بدمشق ورَسَم أن يُنادَى في دمشق بأنّ أهل القُرَى والحواضر يخرجون إلى أماكنهم: رسَمَ بذلك سلطان الشام حاجّ الحرمين سيفُ الدين قَبْجَق. وصار قبجق يركب بالعِصَابة[3]، والشاويشية[4] بين يديه، وآجتمع الناس عليه. كلّ ذلك والقتالُ والمباينةُ واقعةٌ بين الأمير أرْجَوَاش نائب قلعة

---

(١) وقبل رحيله عن دمشق وجّه إلى أهلها الرسالة التالية: «إنا قد تركنا نوابنا بالشام في ستين ألف مقاتل؛ وفي عزمنا العود في زمن الخريف والدخول إلى البلاد المصرية وفتحها» ـ (انظر البداية والنهاية: ١٤/١٠).

(٢) انظر نص المرسوم الذي أصدره غازان بتقليد الأمير قبجق بلاد الشام كلها في ملاحق هذا الجزء.

(٣) العصابة: هي الأعلام، وهي عبارة عن عدة رايات. وكانت مما يستعمل في مواكب السلطان. (صبح الأعشى: ٤/٨).

(٤) راجع الجزء السابع، ص ١١، حاشية (١).

دمشق وبين قَبْجَق المذكور ونوّاب قازان، والرسل تمشي بينهم في الصلح، وأرْجَوَاش يأَبى تسليم القلعة له، فلله درّ هذا الرجل! ما كان أثبتَ جَنانه مع تَغَفُّل كان فيه حسب ما يأتي ذكره.

هذا وقبجق غير مُسْتَبِد بأمر الشام بل غالب الأمر بها لنّواب قازان مثل بُولاي وغيره. ثم سافر بُولاي من دمشق بمن كان بقي معه من التتار في عشية يوم السبت الرابع من شهر رجب، ومعه قَبْجَق، وقد أشيع أن قَبْجَق يريد الانفصال عن التتار. وبعد خروجهما آستبد أرْجَوَاش نائب قلعة دمشق بتدبير أمور البلد. وفي يوم الجمعة سابع عشر شهر رجب أعيدت الخطبة بدمشق إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون، وللخليفة الحاكم بأمر الله على العادة، ففرِح الناس بذلك. وكان أسقط آسمُ الملك الناصر محمد من الخطبة بدمشق من سابع شهر ربيع الآخر، فالمدة مائة يوم. ثم نَادى أرْجَوَاش بُكْرَةَ يوم السبت بالزينة في البلد فزُيِّنت.

وأما الملك الناصر محمد بن قلاوون فإنّ عوده إلى الديار المصرية كان يوم الأربعاء ثاني عشر شهر ربيع الآخر وتبعته العساكر المصرية والشامية متفرقين، وأكثرُهم عراةً مشاةً ضعفاء، وذاك الذي أوجب تأخُّرهم عن الدخول مع السلطان إلى مصر، وأقاموا بعد ذلك أشهراً حتى آستقام أمرهم؛ ولولا حصولُ البَركة بالديار المصرية وعِظَمُها ما وَسِعتْ مثلَ هذه الخلائق والجيوش التي دخلوها في جَفْلة التتار وبعدها؛ فمنَّ الله تعالى بالخيل والعُدَد والرزق، إلا أنّ جميع الأسعار غَلَت لا سيما السِّلاح وآلات الجنديّة من القُماش والبَرك وحوائج الخيل وغير ذلك حتى زادت عن الحدّ. وممّا زاد سعْرُ العمائم، فإنّ الجند كان على رؤوسهم في المصافّ الخُوَذُ، فلمّا آنكسروا رَمُوا الخُوَذَ تخفيفاً ووضعوا على رؤوسهم المناديل، فآحتاجوا لمّا حضروا إلى مصر إلى شراء العمائم، مع أن الملك الناصر أنفق في الجيش بعد عوده، وآستخدم جَمْعاً كثيراً من الجند خوفاً من قدوم غازان إلى الديار المصرية.

وتهيّأ السلطان إلى لقاء غازان ثانياً، وجهّز العساكر وقام بكُلَفهم أتمّ قيام على صغر سِنّه. فلمّا ورد عليه الخبر بعدم مجيء قازان إلى الديار المصريّة تجهّز وخرج بعساكره وأمرائه من الديار المصرية إلى جهة البلاد الشامية إلى ملتقى غازان ثانياً،

بعد أن خَلَع على الأمير آقوش الأفرم الصغير بنيابة الشام على عادته، وعلى الأمير قَرَا سُنْقُر المنصوريّ بنيابة حماة وحلب؛ وكان خروج السلطان من مصر بعساكره في تاسع شهر رجب من سنة تسع وتسعين وستمائة. وسار حتى نزل بمنزلة الصالحية فبلغه عودُ قازان بعساكره إلى بلاده، فكلّم الأمراءُ السلطان في عدم سفره ورجوعه إلى مصر فأبى عن رجوع العسكر، وسمع لهم في عدم سفره، وأقام بمنزلة الصالحية.

وسافر الأمير سَلّار المنصوريّ نائب السلطنة بالديار المصرية، والأمير ركن الدين بِيبَرْس الجاشْنَكِير بالعساكر إلى الشام. ولما سار سلار وبِيبَرْس الجاشْنَكِير إلى جهة الشام تلاقَوْا في الطريق مع الأمير سيف الدين قَبْجَق والأمير يَكتَمُر السلاح دار والألْبَكِي وهم قاصدون السلطان، فعَتَب الأمراءُ قَبْجَق ورفقته عَتْباً هَيِّنا على عبور قازان إلى البلاد الشامية، فآعتذروا أن ذلك كان خوفاً من الملك المنصور لاجين وحَنقاً من مملوكه منكوتمر، وأنّهم لمّا بلغهم قتلُ الملك المنصور لاجين كانوا قد تكلّموا مع قازان في دخول الشام، ولا بقي يُمكنهم الرجوعُ عمّا قالوه، ولا سبيل إلى الهروب من عنده، فقَبِلوا عذرهم وبعثوهم إلى الملك الناصر. فقدِمُوا عليه بالصالحيّة وقبّلوا الأرض بين يديه، فعَتَبهم أيضاً على ما وقع منهم، فذكروا له العُذْر السابق ذكرُه، فقَبِله منهم وخَلَع عليهم؛ وعاد السلطان إلى القاهرة وصحبتُه خواصّه والأمير قَبْجَق ورفقته، فطلع القلعة في يوم الخميس رابع عشر شعبان.

ودخل الأمراءُ إلى دمشق ومعهم الأمير آقوش الأفرم الصغير نائب الشام وغالب أمراء دمشق، وفي العسكر أيضاً الأمير قَرَا سُنْقُر المنصوريّ متولّي نيابة حماة وحلب؛ ودخل الجميع دمشق بتجمُّل زائدٍ، ودخلوها على دَفَعات كلّ أمير بِطُلْبه على حِدَة؛ وسُرّ الناس بهم غايةَ السرور، وعلموا أن في عسكر الإسلام القوّة والمَنَعَة ولله الحمد. وكان آخر مَنْ دخل إلى الشام الأميرَ سَلّار نائبَ السلطنة، وغالبُ الأمراء في خدمته، حتى الملك العادل زَيْن الدين كَتْبُغَا المنصوريّ نائب صرْخد؛ ونزل جميع الجيش بالمَرْج. وخَلَع على الأمير أَرْجواش المنصوريّ نائب قلعة دمشق باستمراره على عادته، وشكروا له الأمراءُ ما فعله من حفظ القلعة، ودخلوا الأمراء إلى دمشق

وقلعةُ دمشق مُغلقة وعليها الستائر والطَّوارِف[١]، فكلَّموه الأمراء في ترك ذلك.

فلما كان يوم السبت مستهلّ شهر رمضان أزال أَرْجواش الطوارف والستائر من على القلعة؛ فأقام العسكر بدمشق أياماً حتى أصلحوا أمرها، ثم عاد الأمير سلّار إلى نحو الديار المصرية بجميع أمراء مصر وعساكره في يوم السبت ثامن شهر رمضان، وتفرّق باقي الجيش كل واحد إلى محلّ ولايته؛ ودخل سلّار إلى مصر بمَنْ معه في ثالث شوّال بعد أن آحتفل الناس لملاقاتهم؛ وخرج أمراء مصر إلى بلبيس، وخَلَع السلطان على جميع مَنْ قَدِم من الأمراء رفقةَ سَلّار، وكانت خِلْعةُ سلّار أعظمَ من الجميع. ودام السلطان بقيّة سنته بالديار المصرية.

فلمّا آستهلّت سنة سبعمائة كثُرت الأراجيف بالشام ومصر بحركة قازان؛ وكان قازان قد تسمى محموداً، وصار يقال له السلطان محمود غازان. ثم وصلتْ في أول المحرّم من سنة سبعمائة الأخبار والقُصّاد من الشرق وأخبروا أنّ قازان قد جَمَع جموعاً كثيرة وقد نَادى في جميع بلاده الغَزَاة إلى مصر، وأنه قاصدُ الشام؛ فجَفَل أهلُ الشام من دمشق وتفرّقوا في السواحل وقصدوا الحصون وتشتّتَ غالب أهل الشام إلى البلاد من الفُرات إلى غَزّة؛ فعند ذلك تجهز الملك الناصر وجهّز عساكره وتهيّأ وخرج بجميع عساكره وأمرائه من القاهرة إلى مسجد التِّبْن[٢] في يوم السبت ثالث عشر صفر، وسافر حتى قارب دمشق أقام بمنزلته[٣] إلى سَلخ شهر ربيع الآخر، وتوجّه هو وعساكره عائدين إلى جهة الديار المصرية، بعد أن لاقوا شدّة ومشقّة عظيمةً من كثرة الأمطار والثلوج والأوحال وعدم المأكول، بحيث إنه آنقطعت الطريق من البرد والمطر وعدم جَلْب المأكول لهم ولدوابّهم، حتى إنهم لم يقدروا

---

(١) الطوارف: جمع طارفة. والطارفة من الخباء: ما رفعتَ من جوانبه ونواحيه للنظر إلى الخارج.

(٢) مسجد التبن: هذا المسجد يعرف اليوم بزاوية الشيخ محمد التبري جنوبي سراي القبة بضواحي القاهرة. (محمد رمزي). راجع أيضاً الجزء السابع، ص ١٩٦، حاشية (٣).

(٣) هي منزلة الناصر محمد بن قلاوون التي كان ينزل بها إذا ما أراد السفر من القاهرة إلى دمشق أو أراد العودة منها، وهي المسماة «بدّ عرش». (النجوم: ١٣١/٨، حاشية: ٢، طبعة دار الكتب المصرية). وانظر السلوك: ٨٢٢/٣/١ حاشية (٤).

على الوصول إلى دِمَشق؛ وكان طلوع السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى قلعة الجبل يوم الاثنين حادي عشر جُمادَى الأولى.

وقبل عَوْد السلطان إلى مصر كان جهّز السلطانُ الأميرَ بكَتْمُر السلاح دار والأميرَ بهاء الدين يَعْقُوباً إلى دمشق أمامه، فدخلوا دمشق. ثم أُشيع بدمشق عَوْد السلطان إلى القاهرة، فجَفَل غالب أهل دمشق منها، ونائب الشام لم يمنعهم بل يُحَسِّن لهم ذلك. وقيل إنّ والي دمشق بقي يُجَفِّل الناس بنفسه، وصار يمرّ بالأسواق، ويقول: في أي شيء أنتم قعود! ولما كان يوم السبت تاسع جُمادَى الأولى نادت المناداة بدمَشق: مَنْ قعد فدمُه في رقبته، ومن لم يقدر على السفر فليطْلُع إلى القلعة، فسافر في ذلك اليوم معظم الناس.

وَأمّا قازان فإنه وصل إلى حلب ووصل عساكره إلى قُرُون حماة وإلى بلاد سرْمِين، وسيّر معظَم جيشه إلى بلاد أنطاكيَة وغيرها، فنهبوا من الدوابّ والأغنام والأبقار ما جاوز حَدّ الكثرة، وسَبَوْا عالماً كثيراً من الرجال والنساء والصبيان. ثم أرسل الله تعالى على غازان وعساكره الأمطار والثلوج بحيث إنه أمطر عليهم واحداً وأربعين يوماً، وقت مطر ووقت ثلج، فهَلَك منهم عالمٌ كثير؛ ورجع غازان بعساكره إلى بلادهم أقبحَ من المكسورين، وقد تَلِفَتْ خيولهم وهَلَك أكثرُها، وعجزهم الله تعالى وخَذَلهم، وردّهم خائبين عما كانوا عزموا عليه. ﴿وَرَدَّ اللهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً وَكَفَى اللهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ القِتَالَ﴾[١]. ووصل الخبر برجوعهم في جُمادَى الآخرة، وقد خلت دمشق وجميعُ بلاد الشام من سكُانها.

ثم في شهر رجب من السنة وصل إلى القاهرة وزير ملك[٢] الغرب بسبب الحج، وآجتمع بالسلطان وبالأمير سَلار نائب السلطنة وبالأمير ركن الدين بِيبَرْس الجاشْنَكير فقابلوه بالإكرام وأنعموا عليه واحترموه؛ فلمّا كان في بعض الأيام جلس الوزير المغربيُّ المذكورُ بباب القلعة عند بيبرس الجاشْنَكِير وسَلّار، فحضر بعض

---

(١) سورة الأحزاب، الآية: ٢٥.

(٢) المقصود ملك المغرب، أو ملك مراكش؛ وهو في تلك السنة أبو فارس المتوكل. (السلوك: ٩١٠/٣/١، حاشية ٣).

كُتّاب النصارى، فقام إليه المغربـيّ يتوهّم أنه مسلم ثم ظهر له أنه نَصْرانيّ فقامت قيامته[١]؛ وقام من وقته ودخل إلى السلطان بحضرة الأمير سَلّار وبيبرس مُدَبِّري مملكة الناصر محمد، وتحدّث معهم في أمر النصارى واليهود، وأنهم عندهم في بلادهم في غاية الذُّل والهَوَان، وأنهم لا يُمكنونهم من ركوب الخيل، ولا من آستخدامهم في الجهات السلطانية والديوانية، وأنكر على نصارى ديار مصر ويهودها كونهم يَلْبَسُون أفخر الثياب ويركبون البغال والخيل، وأنهم يستخدمونهم في أجلّ الجهات ويُحَكِّمـونهم في رقاب المسلمين؛ ثم إنه ذكر [أن][٢] عهد ذمّتهم قد انقضى من الهجرة النبويّة، وذَكَر كلاماً كثيراً من هذا النوع، فأثّر كلامُه عند القلوب النَّيِّرة من أهل الدولة، وحَصَل له قَبُولٌ من الخاصّ والعام بسبب هذا الكلام؛ وقام بنُصرته الأميرُ ركن الدين الدين بيبرس الجَاشْنَكِير وجماعةٌ كثيرة من الأمراء وافقوه على ذلك، ورأوا أنّ في هذا الأمر مصلحةً كبيرةً لإظهار شعائر الإسلام. فلمّا كان شهر رجب جمعوا النصارى واليهود ورسموا لهم ألّا يُسْتَخْدَمُوا في الجهات السلطانيّة ولا عند الأمراء، وأن يغيِّروا عمائمهم فيلبس النصارى عمائم زرقاً وزنانيرهم مشدودةً في أوساطهم؛ وأنّ اليهود يَلْبَسُون عمائم صُفْراً، فسَعُوا المِلّتان عند جميـع أمراء الدولة وأعيانها، وساعدهم أعيانُ القِبْط وبذلوا الأموال الكثيرة الخارجة عن الحدّ للسلطان والأمراء على أن يُعْفَوْا من ذلك، فلم يَقْبَل منهم شيئاً. وشدّد عليهم الأميرُ بِيبَرْس الجَاشْنَكِير الأستادار ــ رحمه الله ــ غاية التشديد، فإنه هو الذي كان القائم

---

(١) عبارة المقريزي: «وبينما هو تحت القلعة إذا برجل راكب فرساً وحوله عدة من الناس مشاة في ركابه يتضرعون له ويسألونه ويقبّلون رجليه، وهو معرض عنهم لا يعبأ بهم، بل ينهرهم ويصيح في غلمانه بطردهم؛ فقيل للمغربي إن هذا الراكب نصراني، فشقّ عليه. . . إلخ». وقد أورد المقريزي هذا الخبر بعد أن قدّم له بعنوان: وقعة أهل الذمة. قال: وهي أنهم كان قد تزايد ترفهم بالقاهرة ومصر، وتفننوا في ركوب الخيل المسوّمة والبغلات الرائعة بالحليّ والجواهر، ولبسوا الثياب السريّة، وولوا الأعمال الجليلة. (السلوك: ٩٠٩/٣/١ ــ ٩١٠). وفي حاشية ص ٩١١ من نفس المصدر نصّ للنويري يبيّن فيه الشروط التي ألزم بها أهل الذمة بعد تلك الحادثة. وفيما كان يكتب عن الخلفاء والسلاطين في إلزام أهل الذمة ما يلزمهم بشريطة عقد الذمة وأخذهم بذلك انظر: صبح الأعشى: ٣٦٥/١٣ ــ ٣٨٧، ومآثر الإنافة: ٢٢٨/٣ ــ ٢٣٥.

(٢) زيادة عن صبح الأعشى.

في هذا الأمر، عفا الله تعالى عنه وأسكنه الجنة بما فعله، فإنه رفع الإسلام بهذه الفَعْلة وخَفَض أهل المِلّتَين بعد أن وُعِد بأموال جَمّة فلم يفعل.

قلت: رَحِم الله ذلك الزمانَ وأهله ما كان أعلى هممهم، وأشبع نفوسهم! وما أحسن قول المتنبيّ: [البسيط]

أتى الزمان بَنوه في شبيبته ... فسرّهم وأتيناه على الهَرَم

ثم رسم السلطان الملك الناصر محمد بغَلْق الكنائس بمصر والقاهرة، فضُرِب على كل باب منها دُفوفٌ ومساميرُ، وأصبح يوم الثاني والعشرين من شهر رجب المبارك من سنة سبعمائة، وقد لبِسوا اليهود عمائمَ صُفْراً، والنصارى عمائم زُرْقاً، وإذا ركب أحد منهم بهيمة يَكُفُّ إحدى رجليه؛ وبُطلوا من الخدم السلطانية وكذلك من عند الأمراء؛ وأسلم لذلك جماعةٌ كثيرة من النصارى، منهم: أمين الملك [عبد الله بن الغنّام][1] مُسْتَوْفي الصُّحْبة[2] وغيره. ثم رسم السلطان أن يُكْتَب بذلك في جميع بلاده من دُنْقلة[3] إلى الفُرات.

فأمّا أهل الإسكندرية لما وصل إليهم المرسوم سارعوا إلى خَرَاب كنيستين عندهم، وذكروا أنهما مستجدّتان في عهد الإسلام؛ ثم داروا إلى دُورهم فما وجدوه أعْلَى على مَنْ جاوَرَها من دُور المسلمين هدموه، وكلّ مَنْ كان جاوَر مسلماً في حانوت أنزلوا مصطبة حانوته بحيث يكون المسلم أرفع منه، وفعلوا أشياء كثيرةً من هذا، وأقاموا شعار الإسلام كما ينبغي على العادة القديمة؛ وَوَقع ذلك بسائر الأقطار لا سيما أهل دمشق، فإنهم أيضاً أمعنوا في ذلك. وعَمِلت الشعراء في هذا المعنى عِدّة مقاطيع شعر، ومما قاله الشيخ شمس الدين الطيبيّ: [البسيط]

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) مستوفي الصحبة: هو صاحب ديوان الاستيفاء، وهو الديوان الذي تحرر فيه جميع الإقطاعات وما يطرأ عليها من زيادة أو نقصان. ومستوفي الصحبة يتحدث في جميع المملكة ــ مصر والشام ــ ويكتب مراسيم يعلم عليها السلطان. وديوانه هو أرفع دواوين الأموال. (صبح الأعشى: ٤/ ٢٩ و ١١/ ٩٤، ٣٢٥).

(٣) دنقلة: قرية في السودان المصري تقع على شاطىء النيل الشرقي. وتعرف اليوم باسم دنقلة العجوز. (محمد رمزي).

تَعَجَّبُوا للنصارى واليهـود معاً والسامريين[١] لمّا عُمِّمُوا الخِرَقا
كـأنّمـا بـات بـالأصبـاغ مُنْسَهِـلاً نَسْرُ السماء فأضحى فوقهم ذَرِقـا

ومما قاله الشيخ علاء الدين كاتب آبن وَدَاعة المعروف بالوداعِيّ في المعنى وأجاد: [الطويل]

لقـد ألزمـوا الكُفّار شـاشاتِ ذِلّـة تـزيـدُهُم من لعنـة الله تَشْـويشـا
فقلت لهم مـا ألبسوكم عمَـائمـاً ولكنّهم قـد ألبسوكم بَـرَاطيشـا[٢]

وفيها في تاسع ذي القعدة وصل إلى القاهرة من حلب الأمير أَنَس يُخبِر بحركة التتار، وأنّ التتار قد أرسلوا أمامهم رُسُلًا، وأنّ رسلهم قد قاربت الفُرات؛ ثم وصلت الرسل المذكورة بعد ذلك بمدة إلى الديار المصرية في ليلة الاثنين خامس عشر ذي الحجّة، وأعيانُ القُصّاد ثلاثةُ نَفَر: قاضي الموصل وخطيبها كمال الدين بن بهاء الدين بن كمال الدين بن يونس الشافعي، وآخرُ عَجَمِيّ وآخرُ تركيّ. ولما كان عصرُ يوم الثلاثاء جمعوا الأمراء والمقدّمين إلى القلعة وعُمِلت الخدمة ولَبِسوا المماليك أفخر الثياب والملابس؛ وبعد العِشَاء الأخيرة أوقدوا الشموع نحواً من ألف شمعة، ثم أظهروا زينةً عظيمة بالقصر، ثم أحضروا الرسل، وحضر القاضي بجملتهم وعلى رأسه طَرْحَة، فقام وخَطب خطبةً بليغةً وجيزةً وذكر آياتٍ كثيرة في معنى الصلح وآتّفاق الكلمة ورغّب فيه؛ ثم إنه دعا للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، ومِنْ بعده للسلطان محمود غازان، ودعا للمسلمين والأمراء وأدّى الرسالة. ومضمونها: إنّما قصدهم الصلح؛ ودفعوا إليهم كتاباً مختوماً من السلطان غازان، فأُخِذَ منهم الكتابُ ولم يَقْرؤوه تلك الليلة، وأُعِيد الرسل إلى مكانهم. فلمّا كان ليلة الخميس فُتِح الكتاب وقُرِىء على السلطان وهومكتوب بالمغلي وكُتِم الأمر. فلما كان يومُ الخميس ثامن عشر ذي الحجّة حضر جميعُ الأمراء والمقدّمين وأكثرُ العسكر وأُخْرِج إليهم الكتابُ وقُرِيء عليهم، وهومكتوب بخط غليظ في نصف قطْع البغداديّ، ومضمونه:

(١) كانت عمائم السامريين حمراء.
(٢) البراطيش: جمع برطوش، وهو اسم للنعل الخلق. واللفظ عامي. (معجم متن اللغة).

«بسم الله الرحمن الرحيم، ونُنْهِي بعد السلام إليه أنّ الله عزّ وجلّ جعلَنا وإياكم أهلَ مِلّة واحدة، وشرفنا بدينِ الإسلام وأيّـدنا، وندَبنـا لإقامة مناره وسَدّدنَا؛ وكان بيننا وبينكم ما كان بقضاء الله وقدَره، وما كان ذلك إلّا بما كَسَبَت أيديكم، وما الله بظلّام للعبيد[١]. وسببُ ذلك أنَّ بعض عساكركم أغاروا على مَارِدِين وبلادها في شهر رمضَان المعظَّم قدْرُه، الذي لم تزل الأمم يُعظِّمونه في سائر الأقطار، وفيه تُغَلّ الشياطينُ وتُغلق أبواب النيران، فطَرَقُوا البلاد على حين غفلةٍ من أهلها، وقتلوا وسبوا وفَسَقُوا وهَتكُوا محارمَ الله بُسرعةٍ من غير مُهْلة؛ وأكلوا الحرام وآرتكبوا الآثام، وفعلوا ما لم تَفْعله عُبَّاد الأصنام؛ فأتَونا أهلُ مارِدِين صارخين مُسارعين ملهوفين مستغيثين بالأطفال والحريم، وقد آستولى عليهم الشّقاءُ بعد النعيم؛ فلاذُوا بجنابنا وتعلقّوا بأسبابنا، ووقفوا موقف المستجير الخائف ببابنا؛ فهزّتْنا نَخْـوةُ الكرام، وحركَتْنا حميّة الإسلام، فركبنا على الفَوْر بمن كان معنا ولم يَسَعْنا بعد هذا المُقام؛ ودخلنا البلاد وقدّمنا النِّية، وعاهدنا الله تعالى على ما يُرضيه عند بلوغ الأمنية؛ وعلمنا أنّ الله تعالى لا يَرْضَى لعباده الكفر بأن يَسْعَوْا في الأرض فساداً [والله لا يُحِبُّ الفَسَاد][٢]، وأنه يَغضَب لِهتْك الحريم وسَبْـي الأولاد؛ فما كان إلّا أن لقيناكم بنية صادقة، وقلوب على الحمِيّة للدين موافقة؛ فمزّقناكم كلَّ ممزَّق، والذي ساقَنَا إليكم، هو الذي نصرنا عليكم؛ وما كان مَثَلُكم إلا كمَثَل قرية كانت آمنة مطمئنة ـ الآية ـ فولّيتمُ الأدبار، وآعتصمتم من سيوفنا بالفِرَار، فعَفَوْنا عنكم بعد آقتدار، ورَفَعنا عنكم حُكْمَ السيف البتّار؛ وتقدمنا إلى جيوشنا ألّا يَسْعَوْا في الأرض كما سَعَيْتُم، وأَن يَنْشُروا من العَفْو والعَفَاف ما طَوَيْتُم ولو قدرتُم ما عَفَوْتم ولا عففتُم؛ ولم نُقَلِّدكم مِنَّةً بذلك، بل حُكْم الإسلام في قتال البُغَاة كذلك؛ وكان جميع ما جَرَى في سالف القِدَم، ومن قَبْل كونه جَرَى به في اللّوح القلم؛ ثم لمّا رأينا الرعيّة تضرّروا بمُقامنا في الشام، لمشاركتنا لهم في الشراب والطعام؛ وما حصل في قلوب الرعيّة من الرُّعب، عند معاينة جيوشنا التي هي كمطُبّقات السُّحب؛ فأردنا أن

(١) لهذا الكتاب صورة في صبح الأعشى: ٨/ ٧٠، والسلوك: ١٠١٦/٣/١ ملحق رقم (١٤). والنصّ هنا يختلف كثيراً عما ورد في المصدرين المذكورين.

(٢) زيادة عن طبعة دار الكتب المصرية. والنصّ فيها مقابل على نص «تاريخ سلاطين المماليك».

نُسَكِّن تَخَوُّفَهم بعَوْدتنا من أرضهم بالنصر والتأييد، والعلوّ والمزيد؛ فتركنا عندهم بعضَ جيوشنا بحيث تتونّس بهم، وتعود في أمرها إليهم؛ ويحرسونهم من تَعَدِّي بعضهم على بعض، بحيث إنّكم ضاقت بكم الأرض؛ إلى أن يستقرّ جأشُكم، وتبصروا رُشْدكم؛ وتُسيروا إلى الشام من يحفظه من أعدائكم المتقدمين، وأكرادكم المتمرِّدين؛ وتقدّمنا إلى مُقَدَّمي طوامين[١] جيوشنا أنّهم متى سمعوا بقدوم أحدٍ منكم إلى الشام، أن يعودوا إلينا بسلام؛ فعادوا إلينا بالنصر المبين، والحمد لله رب العالمين.

والآن فإنّا وإياكم لم نزل على كلمة الإسلام مجتمعين، وما بيننا ما يُفَرِّق كلمتنا إلا ما كان من فعلكم بأهل مارِدِين؛ وقد أخذنا منكم القِصَاص، وهو جزاءُ كلّ عاص؛ فنرجع الآن في إصلاح الرعايا، ونجتهد نحنُ وإيّاكم على العدل في سائر القضايا؛ فقد آنضرّت بيننا وبينكم حال البلاد وسكانها، ومنعها الخوف من القَرار في أوطانها؛ وتعذّر سفر التجار، وتوقّف حال المعايش لانقطاع البضائع والأسفار؛ ونحن نعلم أنّنا نُسأل عن ذلك ونُحاسب عليه، وأنّ الله عزّ وجلّ لا يَخْفَى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأنّ جميع ما كان وما يكون في كتاب لَا يُغَادِرُ صغيرة وَلَا كَبِيرَةً إلّا أَحْصَاهَا. وأنت تعلم أيّها الملك الجليل، أنّني وأنت مُطالَبون بالحقير والجليل؛ وأننا مسؤولون عمّا جناه، أقل مَن وليناه، وأنّ مصيرنا إلى الله؛ وأنا معتقدون الإسلام قولاً وعملاً [ونيّة، عاملون بفرُوضه في كلّ وصيّة][٢]. وقد حمّلْنا قاضي القضاة علّامة الوقت حجّة الإسلام بقيّة السلف كمال الدين موسى بن محمد أبا عبدالله، أعزّه الله تعالى، مشافهةً يُعيدها على سَمْع الملك والعمدة عليها، فإذا عاد من الملك الجواب فليسيِّر لنا هديّة الديار المصرية، لنعلم بإرسالها أنْ قد حصل منكم في إجابتنا للصلح صدق النيّة؛ ونُهدي إليكم من بلادنا ما يليق أنْ نُهديه إليكم، والسلام الطّيب مناً عليكم. إن شاء الله تعالى».

فلمّا سمِع الملك الناصر الكتاب آستشار الأمراءَ في ذلك؛ وبعد أيام طلبوا

(١) الطوامين ــ أو التوامين ــ جمع تومان أو طومان، وهو الفرقة التي يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل.
(٢) زيادة عن طبعة دار الكتب المصرية.

قاضي المَوْصِل (أعني الرسول) المقدّم ذكره من عند قازان، وقالوا له: أنت من أكابر العلماء وخِيار المسلمين، وتعلم ما يجِب عليك من حقوق الإسلام والنصيحة للدِّين؛ فنحن ما نتقاتل إلا لقيام الدِّين؛ فإن كان هذا الأمر قد فعلوه حِيلةً ودهاء فنحن نَحلف لك أنّ ما يطّلع على هذا القول أحدٌ من خَلْق الله تعالى، ورغّبوه غاية الرغبة؛ فحلَف لهم بما يعتقده أنّه ما يعلم من قازان وخواصّه غيرَ الصلح وحَقْن الدماء ورواج التجار ومجيئهم وإصلاح الرعية. ثم إنّه قال لهم: والمصلحة أنّكم تتفقون وتَبْقَوْن على ما أنتم عليه من الاهتمام بعدوّكم، وأنتم فلكم عادة في كلّ سنة تَخرجون إلى أطراف بلادكم لأجل حفظها فتخرجون على عادتكم؛ فإنْ كان هذا الأمر خديعةً فيظهر لكم فتكونون مستيقظين؛ وإن كان الأمر صحيحاً فتكونون قريبين منهم فينتظم الصلح وتُحقن الدماء فيما بينكم. فلمّا سمعوا كلامه رأوْه ما فيه غرض وهو مصلحة، فشرعوا ليعيِّنوا مَن يروح في الرسالة، فعيّنوا جماعةً، منهم الأمير شمس الدين [محمد][1] بن التِّيتيّ، والخطيب شمس الدين الجَوْزِيّ خطيب جامع آبن طولون، فتشفّع آبن الجوزيّ حتى تركوه، وعيّنوا القاضي عماد الدين بن السُّكّريّ خطيب جامع الحاكم[2]، وهو ناظر دار العدل[3] بالديار المصرية، وشخصاً أمير آخور من البرجيّة. ثم إنّ السلطان أخَذ في تجهير أمرهم إلى ما يأتي ذكره.

ثم آستقرّ السلطان في سنة إحدى وسبعمائة بالأمير عزّ الدين أَيْبَك البغداديّ المنصوريّ، أحد الأمراء البرجية في الوزارة عِوضاً عن شمس الدين سُنْقر الأعسر، وجلس في قلعة الجبل بخِلْعة الوزارة، وطلَع إليه جميع أرباب الدولة وأعيان الناس. وأَيْبَك هذا هو الرابع من الوزراء الأمراء الأتراك بالديار المصرية، الذين كان تُضْرب على أبوابهم الطبلخاناه على قاعدة الوزراء بالعراق زمن الخلفاء؛ فأوّلهم

(١) زيادة عن السلوك.
(٢) جامع الحاكم: منسوب إلى الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله الذي أتمَّ بناءه سنة ٤٠٣هـ. والذي شرع في بنائه كان الخليفة العزيز بالله نزار بن المعز الفاطمي في سنة ٣٨٠هـ. (انظر خطط المقريزي: ٢/٢٧٧).
(٣) راجع الجزء السابع، ص ١٣٦، حاشية (١).

الأمير علم الدين سَنْجر الشُّجاعيّ المنصوريّ؛ ثم ولِي بعده الأمير بدر الدين بَيْدرا؛ ولمّا ولِي بيدرا نيابة السلطنة أُعيد الشجاعي، وبعده آبن السَّلْعُوس وليس هما من العدد، ثم الخليليّ، وليس هو من العدد، ثم بعد الخليـلي ولِي الأمير سُنْقر الأعسر الوزر، وهو الثالث. ثم بعده أيبك هذا وهو الرابـع. وكان الوزير يوم ذاك في رتبة النيابة بالديار المصرية، ونيابة السلطنة كانت يوم ذاك دون السلطنة. اِنتهى.

وفي يوم الأحد تاسـع عشر المحرم من سنة إحدى وسبعمائة، رسَم السلطان لجميـع الأمراء والمقدّمين بمصر والقاهرة أن يخرجوا صُحبة السلطان إلى الصيد نحو العبّاسة، وأن يستصحبوا معهم عليق عشرة أيام؛ وسافر السلطان بأكثر العسكر والجميـع بعُدّتهم في بُكْرة يوم الاثنين في العشرين من المحرّم. ونزل إلى بركة الحجّاج وتَبِعه جميـع الأمراء والمقدّمين والعساكر، وبعد سفره سيّروا طلبوا القضاة الأربعة فتوجّهوا إليه، وآجتمعوا بالسلطان في بركة الحجاج وعادوا إلى القاهرة، ثم شَرعوا في تجهيز رُسل قازان؛ وتقدّم دِهليز السلطان إلى الصالحيّة، ودخَل السلطان والأمراء إلى البريّة[1] بسبب الصيد. فلمّا كان يوم الاثنين عشيّة النهار وصل السلطان والأمراء إلى الصالحيّة، فخلَـع على جميـع الأمراء والمقدّمين، وكان عدّة ما خُلِـع أربعمائة وعشرين خِلْعة، وكان الرسل قد سفّروهم من القاهرة وأنزلوهم بالصالحية، حتى إنهم يجتمعـون بالسلطان عنـد حضوره من الصيـد. فلما حضـر الأمراء قدّام السلطان بالخِلـع السنية وتلك الهيئة الجميلة الحسنة أَذْهل عقولَ الرسل مما رأوْا من حسن زِيّ عسكر الديار المصرية بخلاف زِيّ التتار؛ وأحضروا الرسلَ في الليل إلى الدهليز إلى بين يَدَي السلطان، وقد أوقدوا شموعاً كثيرة ومشاعلَ عديدة وفوانيسَ وأشياء كثيرة من ذلك تتجاوز عن الحد بحيث إنّ البريّة بقِيت حمراء تتلهّب نوراً وناراً، فتحدّثوا معهم ساعة، ثم أعطوهم جواب الكتاب، وخلعوا عليهم خِلَـع السفر وأعطَوْا لكّل واحد من الرسل عشرة آلاف درهم وقماشاً وغير ذلك. ونسخة الكتاب المسيّر إليهم صورته:

---

(١) المقصود بالبرية هنا أرض الصحراء الشرقية وما يجاورها من البرك في المنطقة المتاخمة لبلاد مركزي الزقازيق وفاقوس بمديرية الشرقية بمصر، حيث توجد مناطق صيد الوحوش والحيوانات البرية والطيور. (محمد رمزي).

«بسم[1] الله الرحمن الرحيم: عَلِمنا ما أشار الملك إليه، وعوّل في قوله [وفعله][2] عليه؛ فأمّا قول الملك: قد جمعتنا وإياكم كلمةُ الإسلام! وإنه لم يَطْرُق بلادنا ولا قصدها إلاّ لِما سبق به القضاء المحتوم، فهذا الأمر غير مجهول [بل] هو عندنا معلوم؛ وأنَّ السبب في ذلك غارة بعض جيوشنا على مارِدين، وأنهم قتَلوا وسبوا وهتكوا الحريم وفعَلوا فِعل من لا له دين؛ فالملك يعلم أن غارتنا ما برحت في بلادكم، مستمرّةً من عَهْد آبائكم وأجدادكم؛ وأنّ مَنْ فعلَ ما فُعِل من الفساد، لم يكن برأينا ولا من أمرائنا ولا الأجناد، بل من الأطراف الطامعة ممّن لا يُؤْبَه إليه، ولا يُعَوّل في فِعَل ولا قَوْل عليه؛ وأنّ معظم جيشنا كان في تلك الغارة إذا لم يَجِدُوا ما يشترُونه للقوت صاموا لئلاّ يأكلوا ما فيه شُبْهة أو حرام، وأنهم أكثَر ليلهم سجَّدٌ ونهارَهم صيام.

وأمّا قَوْل الملك ٱبن الملك الذي هو من أعظم القان فيقول قولاً يَقـع عليه الردّ من قريب، ويزعمُ أنّ جميـع ما هو عليه من عِلْمنا سَاعةً واحدة يَغِيب؛ ولو يعلَم أنّه لو تقلّب في مضجَعه من جانِب إلى جانِب، أو خرج من منزله راجِلاً أو راكِباً، كان عندنا عِلْمٌ من ذلك في الوقت القريب؛ [ويتحقق أنّ أقرب بطائنه إليه، هو العين لنا عليه، وإنْ كثُر ذلك لديه،]. ونحن تحقّقْنا أنّ الملك بقِي عامين يجمـع الجموع، وينتَصِر بالتابـع والمتبوع؛ وحشَد وجمَـع من كلّ بلد وٱعتضَد بالنصارى والكُرْج والأرمن، وٱستنجد بكلّ مَن ركِب فرساً من فصيـح وألكن؛ وطلب من المسوّمات خيولاً وركاب، وكثر سواداً وعدّد أطلاب؛ ثم إنّه لمّا رأى أنه ليس له بجيشنا قِبَل في المجال، عاد إلى قول الزُّور والمِحال، والخديعة والاحتيال؛ وتظاهر بدِين الإسلام، وٱشتهر به في الخاص والعام؛ والباطنُ بخلاف ذلك، حتّى ظَنّ جيوشُنا وأبطالُنا أنّ الأمر كذلك؛ فلمّا [ٱلتقينا معه] كان معظم جيشنا يمتَنـع من قتاله، ويبعد عن نِزاله؛ ويقول: لا يجوز لنا قتال المسلمين، ولا يَحِلّ قتل من

---

(١) قارن نص هذا الكتاب بما جاء في صبح الأعشى: ٢٦٥/٧، والسلوك: ١٠١٨/٣/١ ملحق (١٤). والنصّ فيهما يختلف عما ورد هنا كثيراً.

(٢) هذه الزيادة والزيادة الأخرى في هذه الرسالة أضفناها عن طبعة دار الكتب المصرية.

يتظاهر بهذا الدين!؛ فلهذا حصَل منهم الفَشَل، وبتأخّرهم عن قتالكم حصَل ما حصَل؛ وأنت تعلَمُ أنّ الدائرة كانت عليك. وليس يُرى من أصحابك ألاّ من هو نادمٌ أو باكِي، أو فاقدُ عزيزٍ عنده أو شاكي؛ والحرب سِجال يوم لك، ويوم عليك؛ وليس ذلك ممّا تُعاب به الجيوش ولا تُقهَر، وهذا بقضاء الله وقَدَره المقدّر.

وأمّا قول الملك إنّه لما آلتقى بجيشنا مزّقهم كلَّ مُمزّق، فمثلُ هذا القول ما كان يليق بالملك أن يقوله أو يتكلّمَ به، وهو يعلَم وإنْ كان ما رأى بل يسأل كبراء دولته وأمراء عساكره عن وقائـع جيوشنا ومراتـع سيوفنا من رقاب آبائه وأجداده، وهي إلى الآن تقطر من دمائهم؛ وإن كنتَ نُصِرتَ مرّة فقد كُسرتْ آباؤك مِراراً، وإنْ كان جيشك قد داس أرضنا مرّة فبلادكم لغارتنا مُقام ولجيوشنا قرار؛ وكما تَدِين تُدان.

وأمّا قول الملك: إنّه ومن معه آعتقدوا الإسلام قَوْلاً وفِعلاً وعملاً ونيّة، فهذا الذي فعلته ما فَعله من هو متوجِّه إلى هذه البَنِيّة، أعني الكعبة المضّية، فإنّ الذي جرى بظاهر دِمَشق وجبل الصالحية ليس بخفي عنك ولا مكتوم، وليس هذا هو فعل المسلمين، ولا مَن هو متمسّك بهذا الدين؛ فأين وكيف وما الحُجّة! وحَرَمُ البيت المقـدس تُشرب فيـه الخمور، وتُهتـك الستور، وتُفتضّ البكـور؛ ويُقتـل فيـه المجاورون، ويُستأسر خطباؤه [والمؤذِّنون]؛ ثم على رأس خليل الرحمن، تُعلّق الصُّلبان، وتُهتك النسوان، ويدخل فيه الكافر سكران؛ فإن كان هذا عن علمك ورضاك، فواخيبتَك في دنياك وأخراك؛ ويا ويلك في مبدئك ومَعادك، وعن قليل يُؤذن بخراب عمرك وبلادك، وهلاك جيشك وأجنادك؛ وإن كنتَ لم تعلم بذلك فقد أعلمناك، فاستدرِك ما فات فليس مطلوباً به سواك؛ وإن كنتَ كما زعمتَ أنّك على دين الإسلام، وأنتَ في قولك صادقٌ في الكلام، وفي عِقْدك صحيـح النظام؛ فآقتُل الطَّوَامين الذين فعلوا هذه الفعال، وأوقـع بهم أعظم النِّكال؛ لنعلم أنك على بيضاء المَحجّة، وكان فعلك وقولك أبلـغَ حجّة؛ ولمّا وصلت جيـوشنا إلى القـاهرة المحروسة وتحقّقوا أنّكم تظاهرتـم بكلمـة الإخلاص وخَدَعْتم باليمين والإيمان، وآنتصرتم على قتالهم بعَبَدة الصُّلبان؛ آجتمعوا وتأهّبوا وخرجـوا بعَزَمات محمديّة، وقلوب بدريّة، وهمم عليّة، عند الله مرضيّة؛ وجدّوا السير في البلاد، ليَتَشفَّوْا منكم

غليل الصدور والأكباد؛ فما وَسِع جيشَكم إلا الفِرار، وما كان لهم على اللّقاء صبر ولاقَرار؛ فآندفعتْ عساكرنا المنصورة مثل أمواج البحر الزّخار إلى الشام، يقصدون دخول بلادكم ليظفَروا بنَيْل المرام؛ فخشينا على رعيتكم تهلك، وأنتم تهربون ولا تجدون إلى النجاة مَسلك؛ فأمرناهم بالمُقام، ولزوم الأهبة والاهتمام؛ ليقضِي الله أمراً كان مفعولاً.

وأمّا ما تحمّله قاضي القضاة من المشافهة، فإنّا سمعناه ووعيناه وتحققّنا تَضْمِنته مشافهة؛ ونحن نعلم علمه ونُسُكَه ودينه وفضله المشهور، وزُهده في دار الغرور؛ ولكن قاضي القضاة غريب عنكم بعيد منكم، لم يطّلع على بواطن قضاياكم وأموركم، ولا يكاد يظهَر له خفيّ مستوركم؛ فإن كنتم تريدون الصلح والإصلاح، وبواطنكم كظواهركم متتابعة في الصلاح؛ وأنت أيها الملك طالب الصلح على التحقيق، وليس في قولك مَيْن ولا يشوبه تنميق؛ نقلّدك [سيف] البغي، ومن سَلَّ سيف البغي قُتِل به، ولا يحيق المكر السيِّيء إلا بأهله؛ فيُرسَل إلينا من خواص دولتك رجلٌ يكون منكم ممن إذا قطع بأمرٍ وقفتُم عنده، أو فصل حكماً آنتهيتم إليه، أو جزَم أمراً عوّلتم عليه؛ يكون له في أوّل دولتكم حُكمٌ وتمكين، وهو فيما يُعَول عليه ثقةٌ أمين؛ لنتكلّم معه فيما فيه الصلاح لذات البَيْن، وإن لم يكن كذلك عاد بخفّي حُنين.

وأمّا ما طلَبه الملك من الهديّة من الديار المصريّة فليس نبخل عليه، ومقداره عندنا أجلّ مقدار وجميع ما يُهدَى إليه دون قدره، وإنّما الواجب أن يُهدي أوّلاً مَن آستهدَى؛ لتُقابَل هديته بأضعافها، ونتحقّقَ صدق نيّته، وإخلاص سريرته؛ ونفعلَ ما يكون فيه رضا الله عزّ وجلّ ورضا رسوله في الدنيا والآخرة، لعلّ صَفْقَتَنا رابحة في معادنا غير خاسرة. والله تعالى الموفّق للصواب». اِنتهى.

ثم سافر القصّاد المذكورون، وعاد السلطان من الصيّد في ثالث صفر إلى بركة الحجّاج وآلتقى أميرَ الحاج وهو الأمير سيف الدين بَكْتَمُر الجُوكَنْدار أمير جاندار، وصحبته رَكْب الحاجّ والمحمل السلطانيّ، فنزَل عنده السلطان وخلَع عليه؛ ثم ركب وتوجّه حتى صعِد قلعة الجبل عصر النهار، ودخل عَقِيبَ دخوله

المحملُ والحجاج؛ وشكر الحاجّ من حسن سيرة بَكْتَمُر المذكور مع سرعة مجيئه بخلاف العادة؛ فإن العادة كانت يوم ذاك دخول المحمل في سابع صفر، وقبل ذلك وبعد ذلك. وعمل بَكْتَمُر في هذه السَّفْرة من الخيرات والبّر والخِلَع على أمراء الحجاز وغيرهم شيئاً كثيراً؛ قيل: إنّ جملة ما أنفقه في هذه السفرة خمسةٌ وثمانون ألف دينار مصرية، تقبل الله تعالى منه.

ثمّ في صفر هذا وصلَ الخبر إلى السلطان بأن قازان على عَزْم الركوب وقَصْد الشام، وأنّ مقدّم عساكره الأمير بُولَاي قد قارب الفُرَات، وأنّ الذي أرسله من الرسل خديعة. فعند ذلك شرَع السلطان في تجهيز العساكر، وتهيأ للخروج إلى البلاد الشامية؛ ثم في أثناء ذلك ورَد على السلطان قاصدُ الأمير كَتْبُغا المنصوريّ نائب صَرْخَد ــ وكَتْبُغا هذا هو الملك العادل المخلوع بالملك المنصور لاجين المقدّم ذكرهما ــ وأخبرَ أنه وقَع بين حَمَاة وحِمْص وحصن الأكراد بَرَد وفيه شيء على صورة بني آدم من الذكور والإناث، وصُوَر قرود وغير ذلك، فتعجب السلطان وغيره من ذلك.

ثمّ في ليلة الجمعة ثامن عشر جُمادى الأولى [سنة إحدى وسبعمائة][١] في وقت السحر تُوُفّي الخليفة أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد بن عليّ الهاشميّ العباسيّ بمسكنه بالكَبْش ظاهر القاهرة ومصر المُطّل على بركة الفيل، وخُطب له في ذلك اليوم بجوامع القاهرة ومصر، فإنهم أخفَوْا موته إلى بعد صلاة الجمعة؛ فلمّا آنقضت الصلاة سُيِّر الأمير سلّار نائب السلطنة خَلْف جماعة الصوفية ومشايخ الزوايا والرُّبُط والقضاة والعلماء والأعيان من الأمراء وغيرهم للصلاة عليه؛ وتولّى غُسله وتكفينه الشيخ كَرِيم الدين [عبد الكريم الأَبُلّي][١] شيخ الشيوخ بخانقاه سعيد السعداء[٢]، ورئيس المغسّلين بين يديه، وهو عمر بن

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) خانقاه سعيد السعداء: الخانقاه هي الدار التي يختلي فيها الصوفية للعبادة. وهذه الخانقاه كانت في أول أمرها داراً تعرف بدار سعيد السعداء، وهو الأستاذ قنبر (كما جاء في المقريزي ــ وذكر ابن ميسَّر أن اسمه بيان) أحد الأستاذين المحنكين خدام القصر الفاطمي وعتيق الخليفة المستنصر. وبعد مقتل سعيد السعداء انتقلت هذه الدار إلى الوزير شاور السعدي ثم إلى ابنه الكامل. ولما تملك صلاح الدين جعلها =

عبد العزيز الطوخيّ، وحُمِل من الكبش إلى جامع أحمد بن طولون؛ ونزَل نائب السلطنة الأمير سلّار، والأمير ركن الدين بِيبرس الجاشْنَكِير الأستادار، وجميع الأمراء من القلعة إلى الكَبْش، وحضروا تغسيله ومشَوْا أمام جنازته إلى الجامع المذكور؛ وتقدّم للصلاة عليه الشيخ كريم الدين المذكور، وحُمِل إلى تربته[1] بجوار السيدة نفيسة ودُفِن بها، بعد أن أوصَى بولاية العهد إلى ولده أبي الربيع سليمان، وتقدير عمره فوق العشرين سنة. وكان السلطان طَلبه في أوّل نهار الجمعة قبل الإشاعة بموت والده، وأشهد عليه أنه ولّى الملك الناصر محمد بن قلاوون جميعَ ما وّلاه والده وفوّضه إليه، ثم عاد إلى الكَبش. فلمّا فرغَت الصلاةُ على الخليفة رُدّ ولدُه المذكور وأولاد أخيه من جامع آبن طُولُون إلى دورهم، ونزَل من القلعة خمسة خدّام من خدّام السلطان، وقعدوا على باب الكَبْش صفة الترسيم[2] عليهم؛ وسيّر السلطان يستشير قاضي القضاة تقيّ الدين آبنَ دقيق العيد الشافعيّ في أمر سليمان المذكور: هل يصلُح للخلافة أم لا؟ فقال: نعم يصلُح؛ وأثنى عليه. وبَقِي الأمر موقوفاً إلى يوم الخميس رابع عشرين جُمادى الأولى المذكور. فلمّا كان بُكْرة النهار المذكور طلب سليمان إلى القلعة فطلَع هو وأولاد أخيه[3] بسبب المُبَايعة فأمضى السلطانُ ما عَهِد إليه والدُه المذكور بعد فُصولٍ وأمور يطُول شرحها بينه وبين أولاد أخيه وجلَس السلطان وخَلع على أبي الربيع سليمان هذا خِلعة الخلافة، ونُعِت بالمستكفي، وهي جُبّة سوداء وطرحة سوداء، وخلَع على أولاد أخيه خِلَع الأمراء الأكابر خِلعاً ملوّنة. وبعد ذلك بايعه السلطان والأمراء

= برسم الفقراء الصوفية. (انظر خطط المقريزي: ٤١٥/٢، وأخبار مصر لابن ميسّر: ص ١٤٤، وصبح الأعشى: ٣٦٤/٣) راجع أيضاً ص ٥٠ من الجزء الرابع من هذا المطبوع.

(١) وتعرف هذه التربة بتربة الخلفاء العباسيين. والحاكم هو أول من دفن من الخلفاء العباسيين بمصر هناك، ثم استمر مدفنهم فيها من بعده. (تاريخ الخلفاء للسيوطي: ٤٨٣).

(٢) الترسيم: هو وضع الشخص ــ أو أملاكه ــ تحت المراقبة. (انظر السلوك: ٧٤٠/٣/١).

(٣) هو أبو عبد الله محمد بن الحاكم. وكان الحاكم قد عهد بالخلافة إلى ابنه محمد هذا ولقبه المستمسك بالله، وجعل أبا الربيع سليمان من بعده، ومات المستمسك في حياة أبيه، فاشتد حزنه عليه، وعهد لإبراهيم بن محمد المستمسك بالخلافة من بعده. فلما مات الحاكم لم يقدّم بعده إلا أبو الربيع وترك إبراهيم. (السلوك: ٩١٩/٣/١ ــ ٩٢٠).

والقضاة والمقدّمون وأعيان الدولة، ومدّوا السِّماط على العادة؛ ثم رَسم له السلطان بنزوله إلى الكَبْش وأَجْرَى راتَبه الذي كان مقرّراً لوالده وزيادة؛ ونزلوا إلى الكَبش وأقاموا به إلى يوم الخميس مسْتهل جمادى الآخرة [إذ] حضَر من عند السلطان المَهْمِنْدار(١) ومعه جماعة وصحبتُهم جِمالٌ كثيرة، فنَقَلُوا الخليفة وأولاد أخيه ونساءهم وجميعَ من يَلُوذ بهم إلى قلعة الجبل، وأنزلوهم بالقلعة في دَارَيْن: الواحدة تسمّى بالصالحية، والأخرى بالظاهريّة، وأجْرَوا عليهم الرواتب المقرّرة لهم؛ وكان في يوم الجمعة ثاني يوم المُبَايعة خُطِب بمصر والقاهرة للمستكفي هذا، ورُسم بضرب آسمه على سكّة الدينار والدرهم. اِنتهى.

وكان السلطان قبل ذلك أمَر بخروج تجريدة إلى الوجه القبلي لكثرة فساد العُرْبان وتعدّى شرّهم في قطْع الطريق إلى أن فَرضُوا على التّجّار وأرباب المعايش بأسْيُوط ومَنْفلوط فرائض جبَوْها شِبه الجالِيَة(٢)، واستخفوا بالوُلَاة ومَنعوا الخراجَ وتسمَّوْا بأسماء الأمراء، وجعلوا لهم كَبيريْن: أحدهما سمّوه سلّار، والآخر بيبرس، ولبِسوا الأسلحة وأخرَجُوا أهل السجون بأيديهم؛ فأحضر السلطان الأمراءَ والقضاة وآستفتَوْهم في قتالهم، فأفَتْوهم بجواز ذلك؛ فآتّفق الأمراء على الخروج لقتالهم، وأخِذَت الطُّرُقُ عليهم لئلا يمتنعُوا بالجبال والمنافِذ، فيفوت الغَرَض فيهم؛ واستَدْعَوا الأميرَ ناصر الدين ناصر الدين محمد بن الشيخي متولّي الجيزة وندبُوه لمنع الناس بأسرهم من السفر إلى الصعيد في البر والبحر، ومَنْ ظَهر أنه سافر كانت أرواحُ الوُلَاة قبالة [ذلك](٣)

---

(١) المهمندار: هو الذي يقوم بلقاء الرسل والعربان الواردين على السلطان وينزلهم دار الضيافة ويتحدث في القيام بأمرهم؛ وهو مركب من لفظين فارسيين: أحدهما «مهمن» بفتح الميم ومعناه الضيف، والثاني «دار» ومعناه الممسك. (صبح الأعشى: ٤٥٩/٥).

(٢) الجالية هنا ما يفرضه المنتصر على بلد منهزم من المال والمحاصيل. والجالية في اللغة: الغرباء الذين أجلوا عن أوطانهم. والجالية أيضاً: أهل الذمة؛ قيل لهم ذلك لأن الخليفة عمر بن الخطاب أجلاهم عن شبه جزيرة العرب، ثم لزم هذا الاسم كل من لزمته الجزية من أهل الذمة والمجوس وإن لم يجلوا عن أوطانهم. ويقال: استعمل فلان على الجالية، إذا ولي أخذ الجزية منهم. والعامة تطلق الجالية على نفس الجزية. وقد استعمل اللفظ حديثاً بمعنى جماعة من الناس تعيش في وطن جديد غير وطنهم الأصلي. (انظر صبح الأعشى: ٤٦٢/٣، والسلوك: ٩٢٠/٣/١، ومحيط المحيط والمعجم الوسيط).

(٣) زيادة عن السلوك.

وما ملَك؛ وأشاع الأمراء أنهم يريدون السفر إلى الشام وتجهزوا، وكُتِبت أوراق الأمراء المسافرين وهم عشرون مقدّماً بمضافيهم، وعُينوا أربعة أقسام: قسم يتوجّه في البرّ الغربيّ، وقسم يتوجه في البر الشرقيّ، وقسم يركب النيل، وقسم يَمضي في الطريق السالكة. وتوجه الأمير شمس الدين سُنْقُر الأعسر، وكان قد قَدِم من الشام، إلى الواح[١] في خمسة أمراء، وقرّروا أن يتأخر مع السلطان أربعةُ أمراء من المقدمِّين، ورَسم إلى كلّ مَنْ تعيّن من الأمراء لجهةٍ أن يَضع السيف في الكبير والصغير والجليل والحقير، ولا يُبْقُوا شيخاً ولا صبياً ويحتاطُوا على سائر الأموال.

وسار الأمير سلّار نائب السلطنة في رابع جُمادَى الآخرة ومعه جماعة من الأمراء في البر الغربيّ، وسار الأمير بيبرس الجاشْنَكِير بِمَنْ معه من الحاجر[٢] في البرّ الغربي أيضاً من طريق الواحات، وسار الأمير بَكْتَاش أمير سلاح بمن معه في البّر الشرقيّ، وسار الأمير قتّال السبع وبيبرس الدوادار وبَلَبان الغلمشي وغيره من الشرقية إلى السُّوَيْس والطور[٣]، وسار الأمير قَبْجَق المنصوريّ نائب الشام بمن كان معه إلى عَقبة السيل[٤]، وسار طُقْصُبا والي قُوص بعرب الطاعة، وأخذ عليهم المفازات؛ وقد عُمِّيتْ أخبار الديار المصرية على أهل الصعيد لمَنْع المسافرين إليها فطرقوا الأمراء البلاد على حين غفلة من أهلها، ووضعوا السيف من الجِيزة بالبّر الغربيّ والإطْفِيحِية من الشرقيّ، فلم يتركوا أحداً إلّا قتلوه، ووّسطوا نحو عشرة آلاف رجل، وما منهم إلا من أخذوا ماله وسَبوا حريمه؛ فكان إذا ادّعى أحد منهم أنه حَضَرِيّ، قيل له: قل «دقيق»، فإن قال: دقيق ــ بالكاف لغات العرب ــ قُتِل وإن قال:

---

(١) الواح: ويقال لها الواحات، وهي عبارة عن قطع متفرقة من الأراضي الزراعية في الصحراء الغربية الممتدة غربي وادي النيل بمصر. (محمد رمزي). وانظر صبح الأعشى: ٤٤٦/٣ ــ طبعة دار الكتب العلمية ــ والانتصار: ١١/٥.

(٢) الحاجر: المقصود به هنا الطريق الواقعة على الجانب الغربي لوادي النيل، في الحد الفاصل بين الأراضي الزراعية والصحراء بالوجه القبلي والفيوم وإقليم البحيرة. (محمد رمزي).

(٣) الطور: هي اليوم قرية صغيرة على الشاطىء الغربي لشبه جزيرة سيناء في الجهة الجنوبية الشرقية من خليج السويس. (محمد رمزي).

(٤) عقبة السيل: المقصود بها بلدة العقبة الصغيرة، وهي من أعمال برقة، وموقعها غربي مريوط. (الانتصار: ١٢٦/٥).

بالقاف المعهودة أطلِق. ووقَع الرعب في قلوب العربان حتى طبّق عليهم الأمراء وأخذوهم من كلّ جهة فرّوا إليها، وأخرجوهم من مخابئهم حتى قتلوا مَنْ بجانبي النيل إلى قُوص؛ وجافت الأرض بالقتلَى؛ وآختفى كثير منهم بمغاور الجبال فأوقدَتْ عليهم النِّيرانُ حتى هلكوا بأجمعهم، وأسِر منهم نحو ألف وستمائة لهم فِلاحات وزُروع، وحصِّل من أموالهم شيء عظيم جدّاً تفرّقته الأيدي؛ وأحضِر منه إلى الديوان السلطانيّ ستة عشرة ألف رأس من الغنم، وذلك من جملة ثمانين ألف رأس ما بين ضأن وماعِز، ومن السلاح نحو مائتين وستين حملاً من السيوف والسلاح والرماح، ومن الأموال على بِغال محملة مائتين وثمانين بغلاً، ونحو أربعة آلاف فَرَس، وآثنين وثلاثين ألف جمَل، وثمانية آلاف رأس من البَقَر، غير ما أرْصِد في المعاصر؛ وصار لكثرة ماحُصِّل للأجناد والغلمان والفقراء الذين آتْبعوا العسكر يُباع الكبش السمين من ثلاثة دراهم إلى دِرهم، والمَعِز بدرهم الرأس، والجَزّة الصوف بنصف درهم، والكِساء بخمسة دراهم، والرّطل السمن بربع درهم، ولم يوجد من يشتري الغلال لكثرتها؛ فإنّ البلاد طُرِقت وأهلها آمنون، وقد كَسروا الخراج سنتين.

ثم عاد العسكر في سادس عشر شهر رجب من سنة إحدى وسبعمائة، وقد خَلت بلاد الصعيد من أهلها بحيث صار الرجل يمشي فلا يجِد في طريقه أحداً، وينزِل القرية فلا يَرى إلا النساء والصبيان؛ ثم أفرَج السلطان عن المأسورين وأعادهم إلى بلادهم لحفظ البلاد.

وعند عَوْد الأمراء المذكورين من بلاد الصعيد ورَد الخبر من حَلَب أن تَكْفُور مُتملك سِيس منَع الحمل وخَرج عن الطاعة وآنتمى لغازان، فرسِمَ بخروج العساكر لمحاربته؛ وخرَج الأمير بدر الدين بَكْتَاش الفَخْريّ أمير سلاح، والأمير عزّ الدين أَيْبَك الخازِنْدار بمُضَافِيهما من الأمراء وغيرهم في شهر رمضان، فسارُوا إلى حَمَاة فتوجه معهم نائبها الملك العادل زين الدين كَتْبُغا المنصوريّ في خامس عشرين شوّال. وتوجهّوا إلى بلاد سِيس وأحرقوا الزروع وآنتهبوا ما قدَروا عليه، وحاصروا مدينة سِيس وغَنِموا من سَفْح قلعتها شيئاً كثيراً من جُفّال الأرمن؛ وعادوا من الدرْبند إلى مَرْج أَنْطاكِيَة. ثم قدِموا في تاسع عشر ذي القعدة.

ثم ورَد الخبر على السلطان من طرابُلس بأنّ الفرنج أنشأوا جزيرة تُجَاه طرابُلس تعرف بجزيرة أَرْوَاد[١]، وعمروها بالعُدَد والآلات، وكثُر فيها جمعهم، وصاروا يركبُون البحر ويأخذون المراكب. فرسم السلطان للوزير بعِمارة أربعة شوانٍ حربيّة في محرّم سنة اثنتين وسبعمائة ففعل ذلك، ونُجّزت عمارة الشواني وجُهّزت بالمقاتلة وآلات الحرب مع الأمير جمال الدين آقوش القارىء العَلائيّ وإلى البَهْنَسا؛ واجتمع الناس لمشاهدة لَعِب الشواني في يوم السبت ثاني عشر المحرّم، ونزَل السلطان والأمراء لمشاهدة ذلك، واجتمع من العالم ما لا يُحصِيه إلّا الله تعالى حتّى بلَغ كراء المركب التي تحمل عشرة أنفس إلى مائة درهم؛ وامتلأ البّر من بولاق إلى الصّناعة[٢] حتّى لم يوجَد موضعُ قَدَم؛ ووقَف العسكر على برّ بستان[٣] الخشّاب وركب الأمراء الحراريق[٤] إلى الروضة[٥]، وبرزَت الشواني تجاه المِقْياس[٦] تلعبَ كأنّها في الحرب، فلَعِب الشينيّ الأوّل والثاني والثالث، وأعجب الناس إعجاباً زائداً لكثرة ما كان فيها من المُقَاتلة والنفوط وآلات الحرب، وتقدّم الرابع وفيه الأمير آقوش فما هو إلّا أنّه خرج من الصناعة بمصر وتوسّط في النيل إذا بالريح حرّكتْه فمال به مَيْلةً واحدة انقلب وصار أعلاه أسفله، فصرَخ الناس صرخةً واحدة كادت تسقط منها الحَبَالَى، وتكدّر ما كانوا فيه من الصّفْو فتلاحق الناس بالشِّيني وأخرجوا ما سقَط منه في الماء، فلم يَعدَم منه سوى الأمير آقوش وسَلِم الجميع، فتكدّر السلطان والأمراء بسببه، وعاد السلطان بأمرائه إلى القلعة وانفضّ

(١) هي جزيرة رودس المعروفة. وهي غير جزيرة أرواد الوارد ذكرها في ص ٩ من هذا الجزء، والفرنج المقصودون هنا هم هيئة الفرسان الإسبتارية؛ وكانوا بعد خروجهم من عكا مع بقية الصليبيين سنة ١٢٩١م قد أقاموا بضع سنوات بجزيرة قبرص، ثم استولوا على جزيرة رودس وانتقلوا إليها نهائياً سنة ١٣٩٩م/٧٠٩هـ.

(٢) راجع الجزء الرابع، ص ٩٩، حاشية (٤).

(٣) راجع الجزء الرابع، ص ٤٤، والجزء السابع، ص ٣٨٨.

(٤) الحراقة: نوع من السفن الحربية الخفيفة، كانت تستخدم لحمل الأسلحة النارية، كالنار الإغريقية. وكان في مصر نوع آخر من الحراريق أو الحراقات (وهو المقصود هنا) يستخدم في النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة في الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ١٠٤).

(٥) راجع الجزء السادس، ص ٣٢٠، حاشية (٣).

(٦) هو مقياس النيل بجزيرة الروضة ـ راجع الجزء الخامس، ص ١٠٨، حاشية (٢).

الجمع. وبعد ثلاثة أيام أخرِج الشِّينِيّ فإذا امرأة الريّس وآبنها وهي تُرضِعه في قَيْد الحياة، فاشتدّ عجبُ الناس من سلامتها طول هذه الأيام! قاله المقريزي وغيره، والعُهْدة عليهم في هذا النقل. ثم شرع العمل في إعادة الشِّيني الذي غَرِق حتى نُجِّز، وندَب السلطان الأميرَ سيف الدين كَهَرْدَاش الزرّاق المنصوريّ إلى السفر فيه عوضاً عن آقوش الذي غَرِق، رحمه الله تعالى، وتوجّه الجميع إلى طرابُلُس ثم إلى جزيرة أَرْوَاد المذكورة، وهي بالقرب من أَنْطَرْطُوس، فأخربوها وسَبْوا وغَنِموا، وكان الأَسْرَى منها مائتين وثمانين نَفراً؛ وقَدِم الخبرُ بذلك إلى السلطان فسّر وسُرّ الناس قاطبةً ودُقّت البشائر لذلك أياماً؛ وآتّفق في ذلك اليوم أيضاً حضورُ الأمير بَكْتاش الفخريّ أمير سلاح من غزو سِيس.

ثم بعد ذلك بأيام ورد الخبر من حلب بأنّ قازان على عزْم الحركة إلى الشام، فوقـع الاتّفاق على خروج العساكر من الديار المصرية إلى الشام، وعيّـن من الأمراء الأميرُ بيبرس الجاشْنَكير، وطُغْرِيل الإيغانيّ، وكَرَاي المنصوريّ، وحسام الـدين لاجين أستادار بمضافيهم وثلاثةُ آلاف من الأجناد، وساروا من مصر في ثامن عشر شهر رجب؛ وتواترت الأخبارُ بنزول قازان على الفُرَات، ووصل عسكره إلى الرحبة، وبعث أمامه قُطْلُوشاه من أصحابه على عساكـر عظيمة إلى الشام تبلـغ ثمانين ألفاً، وكتب إلى الأمير عِزّ الدين [أَيْبَك] الأفرم نائب الشام يُرغِّبه في طاعته[١].

ودخل الأمير بيبرس الجاشْنَكِير بمن معه إلى دِمَشْق في نصف شعبان، ولَبِث يَستَحِثّ السلطان على الخروج. وأقبل الناس من حلب وحَمَاة إلى دمشق جافلين من التّتار، فآستعدّ أهلُ دمشق للفِرَار ولم يبقَ إلاّ خروجُهم، فُنودِي بدمشق: من خرج منها حَلّ ماله ودمه. وخرج الأميرُ بَهادُر آص والأمير قُطْلُوبك المنصوريّ، وأَنَس الجَمَدار في عسكر إلى حَمَاة، ولَحِق بهم عساكر طرابُلُس وحِمْص، فاجتمعوا على حماة عند نائبها الملك العادل كَتْبُغا المنصوريّ؛ وبَلـغ التتارَ ذلك فبعثوا طائفةً كثيرة إلى القَرْيَتَيْن[٢] فأوقعوا بالتُّرْكُمان، فتوجّه إليهم أَسَنْدَمُر كُرْجِي نائب طرابُلُس

---

(١) أصدر غازان قبل عوده إلى الشرق من الرحبة فرماناً إلى أهل الشام. انظر ملاحق هذا الجزء.

(٢) القريتان: اسم قرية كبيرة من أعمال حمص في طريق البرية بينها وبين سخنة وأرك. (معجم البلدان).

وبَهادُر آص وكُجْكُن وغُرْلُوَا العادلي وتَمُر الساقي وأَنَص الجَمَدار ومحمد بن قَرَا سُنْقُر في ألف وخمسمائة فارس، فطرقوهم بمنزلة عُرْض[١] في حادي عشر شعبان على غفلة، فآفترقوا عليهم أربع فِرَق، وقاتلوهم قتالاً شديداً من نصف النهار إلى العصر حتّى كسروهم وأفْنَوْهم ــ وكانوا التّتار، فيما يقال، أربعة آلاف ــ وآستنقذوا التُّركمانَ وحريمهم وأولادهم من أيدي التتار، وهم نحو ستة آلاف أسير، ولم يفقد من العسكر الإسلامي إلا الأمير أَنَص الجَمَدَار المنصوريّ ومحمد بن بَاشْقِرْد الناصريّ وستة وخمسون من الأجناد؛ وعاد من آنهزم من التتار إلى قُطْلُوشاه، وأَسَر العسكر المصريُّ مائة وثمانين من التتار، وكُتِب إلى السلطان بذلك ودُقّت البشائر [بدمشق][٢]. وكان السلطان الملك الناصر محمد قد خرج بعساكره وأمرائه من الديار المصريّة إلى جهة البلاد الشاميّة في ثالث شعبان، وخرج بعده الخليفة المُستكْفِي بالله، وآستناب السلطانُ بديار مصر الأميرَ عِزّ الدين أَيْبَك البغدادِيّ.

وجدّ قُطْلُوشاه مقدّم التتار بالعساكر في المَسِير حتّى نزل قُرون حماة في ثالث عشر شعبان، فآندفعت العساكر المصريّة التي كانت بحماة بين يديه إلى دمشق، وركب نائب حماة الأميرُ كَتْبُغَا الذي كان تسلطن وتلقّب بالملك العادل في مِحَفّة لضعفه؛ وآجتمع الجميع بدمشق وآختلف رأيُهم في الخروج إلى لقاء العدّو أو آنتظار قدوم السلطان؛ ثم خَشُوا من مفاجأة العدّو فنادَوْا بالرحيل؛ ورِكبوا في أوّل شهر رمضان من دِمَشق، فاضطربت دمشق بأهلها، وأخذوا في الرحيل منها على وجوههم، واشتروا الحِمار بستمائة درهم والجَمل بألف درهم، وترك كثيرٌ منهم حريمَه وأولاده ونجا بنفسه إلى القلعة؛ فلم يأتِ اللّيل إلا وبوادِرُ التتار في سائر نواحي المدينة. وسار العسكر مُخفاً، وبات الناس بدمشق في الجامع يَضِجُّون بالدعاء إلى الله تعالى؛ فلمّا أصبحوا رَحَل التتار عن دِمَشق بعد أن نزلوا بالغُوطة.

(١) عُرْض: بلدة في برية الشام، بين تدمر والرصافة. (معجم البلدان).
(٢) زيادة عن السلوك.

وبَلَغ الأمراءَ قدومُ السلطان فتوجّهوا إليه من مَرْج[١] راهط فَلقوه على عقبة الشُّحُورَا[٢] في يوم السبت ثاني عشر رمضان وقبّلوا [له] الأرض. ثم ورد عند لقائهم به الخبرُ بوصول التتار في خمسين الفاً مع قُطْلُوشاه نائب غازان، فَلِبس العسكر بأجمعه السلاح، واّتفقوا على قتال التتار بشَقْحَب تحت جبل غباغب[٣]؛ وكان قُطْلُوشاه قد وقف على أعلى النهر، فصفَّت العساكر الإسلامية: فوقف السلطان في القلب وبجانبه الخليفةُ، والأميرُ سَلّار النائب، والأمير بِيبرس الجاشْنَكِير، وعزّ الدين أَيْبَك الخازندار، وبَكْتَمُر الجُوكَنْدار، وآقوش الأفرم نائب الشام، والأميرُ بُرُلْغي، والأمير أَيْبَك الحَمَوي، وبَكْتَمُر الأَبُو بكريّ، وقُطْلُوبَك، ونُوغاي السلاحدار، ومُبارِز الدين أمير شِكار، ويعقوبا الشَّهْرزوريّ، ومبارز الدين أَوْلَيَا بن قَرَمان؛ ووقف في الجناح الأيمن الأميرُ قَبْجَق بعساكر حَمَاة والعُرْبان وجماعة كثيرة من الأمراء؛ ووقف في الميسرة الأمير بدر الدين بَكْتاش الفخريّ أمير سلاح، والأمير قَرَا سُنْقُر نائب حلب بعساكرها، والأمير بَتْخاص نائب صَفَد بعساكرها؛ والأمير طُغْرِيل الإيغاني، وبَكْتَمُر السلاح دار وبِيبَرْس الدّوادار بمضافيهم.

ومشى السلطان على التتار والخليفة بجانبه ومعهما القرّاء يتلون القرآن ويحثُّون على الجهاد ويُشوِّقون إلى الجنة، وصار الخليفة يقول: «يا مجاهدون؛ لا تنظروا لسلطانكم. قاتلوا عن دين نبيّكم صلّى الله عليه وسلّم وعن حريمكم!» والناس في بكاء شديد، ومنهم مَن سَقَط عن فرسه إلى الأرض! وتواصَى بيبرس وسلّار على الثبات في الجهاد. وكل ذلك والسلطان والخليفة يكرُّ في العساكر يميناً وشمالاً. ثم عاد السلطان والخليفة إلى مواقفهما، ووقف خلفه الغِلْمان والأحمال والعساكر صفاً واحداً، وقال لهم: من خرج من الأجناد عن المصاف فاقتلوه ولكم سَلَبُه[٤].

فلمّا تَم الترتيب زَحفَتْ كراديس[٥] التتار كقطع الليل، وكان ذلك وقت الظهر

(١) مرج راهط: موضع في الغوطة من دمشق في شرقيه بعد مرج عذراء. (معجم البلدان).

(٢) عقبة الشحورا: ممر في الطريق بين دمشق والكسوة.

(٣) غباغب: قرية في أول عمل حوران من نواحي دمشق، بينهما ستة فراسخ. (معجم البلدان).

(٤) في السلوك: «ولكم سلاحه وفرسه».

(٥) الكراديس: جمع كردوس أو كردوسة؛ وهي الفرقة الحربية الراكبة (الفرسان)، والقطعة العظيمة من =

من يوم السبت ثاني رمضان المذكور. وأقبل قُطْلُوشاه بمن معه من الطَّوَامِين، وحَملوا على الميمنة فثبتَتْ لهم الميمنة وقاتلوهم أشدّ قتال حتى قُتِل من أعيان الميمنة الأميرُ حُسام الدين لاجين الأستادار، وأَوْلِيَا بن قَرَمان، والأمير سُنْقُر الكافوري، والأمير أَيْدَمُر الشَّمْسيّ القَشَّاش، والأمير آقوش الشمسيّ الحاجب، وحُسام الدين علي بن باخل ونحو الألف فارس، كلّ ذلك وهم في مقابلة العدّو والقتالُ عمّال بينهم. فلما وقَع ذلك أدركتهم الأمراء من القلبِ ومن الميسرة، وصاح سَلّار: «هلك والله أهلُ الإسلام!» وصرخ في بيبرس الجَاشْنكير وفي البرجيّة فَأتَوْه دَفْعةً واحدة، فأخذهم وصدَم بهم العدّو وقصد مقدّم التتار قُطْلُوشاه، وتقدّم عن الميمنة حتّى أخذت الميمنة راحةً، وأبلى سلّار في ذلك اليوم هو وبيبرس الجَاشْنَكِير بلاءً حسناً، وسلّموا نفوسهم إلى الموت. فلمّا رأى باقي الأمراء منهم ذلك أَلْقَوْا نفوسهم إلى الموت، وآقتحموا القتال؛ وكانت لسَلّار والجاشْنِكير في ذلك اليوم اليدُ البيضاء على المسلمين ــ رحمهما الله تعالى ــ وآستمرّوا في القتال إلى أن كشفوا التّتار عن المسلمين. وكان جُوبان وقُرْمُجي [وهما][1] من طوامين التتار قد ساقا تقويةً لبُولاي وهو خلف المسلمين؛ فلمّا عاينوا الكَسْرة على قُطْلُو شاه أَتَوْهُ نجدةً ووقفوا في وجه سَلّار وبيبرس، فخرج من عسكر السلطان[أَسَنْدَمُر][1] والأميرُ قُطْلُوبك والأمير قَبْجَق والمماليك السلطانية وأردفوا سَلّار وبيبرس، وقاتلوا أشدّ قتال حتى أزاحوهم عن مواقفهم، فمالت التتارُ على الأمير بُرُلْغي في موقفه، فتوجّهوا الجماعة المذكورون إلى بُرُلْغِي، وآستمرّ القتال بينهم[2].

وأمّا سلّار فإنّه قصد قُطْلُوشاه مقدّم التتار وصدَمه بمن معه، وتقاتلا وثبت كلٌّ منهما.

وكانت الميمنة لمّا قُتل الأمراء منها آنهزم من كان معهم، ومرّت التتارُ خلفهم فجَفَل الناس وظنُّوا أنّها كَسْرة؛ وأقبل السواد الأعظمُ على الخزائن السلطانية

= الخيل. ولفظ «الكردوس» منحوت من: كَرَد، وكرس، وكبس؛ وكلها تدّل على التجمّع والطرد. (معجم متن اللغة).

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) عبارة السلوك: «فمال التتر على برلغي حتى مزّقوه».

فكسروها ونهبوا ما فيها من الأموال؛ وجَفَل النساءُ والأطفال، وكانوا قد خرجوا من دمشق عند خروج الأمراء منها، وكشَف النساء عن وجوههن وأسبلْنَ الشعور. وضجّ ذلك الجمع العظيم بالدعاء، وقد كادت العقول أن تطيش وتذهب عند مشاهدة الهزيمة! وآستمرّ القتال بين التتار والمسلمين إلى أن وقف كلٌّ من الطائفتين عن القتال.

ومال قُطْلُوشاه بمن معه إلى جبل قريب منه، وصَعِد عليه وفي نفسه أنّه آنتصر، وأنّ بُولاي في أثر المنهزمين من المسلمين؛ فلمّا صَعِد الجبل رأى السهلَ والوَعْرَ كلّه عساكر، والميسرة السلطانية ثابتة وأعلامها تَخْفق، فبُهِت قُطْلُوشاه وتحيرّ وآستمرّ بموضعه حتّى كمل معه جمعه وأتاه من كان خلف المنهزمين من الميمنة السلطانية ومعهم عِدّةٌ من المسلمين قد أسروهم، منهم: الأميرُ عِزّ الدين أَيْدَمُر نقيب المماليك السلطانيّة، فأحضره قُطْلُوشاه وسأله: «من أين أنت؟» فقال: «من أمراء مصر»، وأخبره بقدوم السلطان؛ وكان قُطْلُوشاه ليس له علم بقدوم السلطان بعساكر مصر إلا ذلك الوقت؛ فعند ذلك جمع قُطْلُوشاه أصحابه وشاوَرهم فيما يفعل، وإذا بكُوسات السلطان والبُوقات قد زَحَفت وأزعجت الأرض وأرجفت القلوب بِحسها، فلم يثبت بُولاي وخرج من تجاه قُطْلُوشاه في نحو العشرين ألفاً من التتار، ونزل من الجبل بعد المغرب ومرّ هارباً.

وبات السلطان وسائرُ عساكره على ظهور الخيل والطُّبُول تضرب، وتلاحق بهم من كان آنهزم شيئاً بعد شيء، وهم يقصِدون ضَرْب الطبول السلطانية والكُوسات؛ وأحاط عسكر السلطان بالجبل الذي بات عليه التتار، وصار بِيبَرْس وسلّار وقَبْجَق والأمراء والأكابر في طول الليل دائرِين على الأمراء والأجناد يُوصونهم ويرتّبونهم ويُؤكِّدون عليهم في التيقُّظ، ووقف كلُّ أمير في مصافّه مع أصحابه، والحِمْل والأثقال قد وقف على بُعد، وثبتوا على ذلك حتى آرتفعت الشمس.

وشَرَع قُطْلُوشاه في ترتيب من معه، ونزلوا مُشاةً وفُرْساناً وقاتلوا العساكر. فبرزَت المماليك السلطانيّة بمقدّميها إلى قُطْلُوشاه وجُوبان، وعمِلوا في قتالهم عملاً عظيماً، فصاروا تارةً يرمونهم بالسهام وتارةً يواجهونهم بالرماح، وآشتغل الأمراء أيضاً

بقتال من في جهتهم، [وصاروا](١) يتناوبون في القتال أميراً بعد أمير. وألَحّت المماليك السلطانية في القتال وأظهروا في ذلك اليوم من الشجاعة والفروسية ما لا يُوصف حتّى إنّ بعضهم قُتِل تحته الثلاثة من الخيل. وما زال الأمراء على ذلك حتّى آنتصف نهار الأحد، صَعِد قُطْلُوشاه الجبل وقد قُتِل من عسكره نحو ثمانين رجلاً، وجُرِح الكثير وآشتدّ عطشُهم.

وآتّفق أنّ بعض من كان أَسرَه التتار هَرَب ونزل إلى السلطان، وعرّفه أنّ التتار قد أجمعوا على النزول في السَّحَر لمصادمة العساكر السلطانية، وأنّهم في شدّة من العطش؛ فآقتضى الرأي أن يفرج لهم عند نزولهم ويَرْكبَ الجيشُ أقفيتهم.

فلمّا باتوا على ذلك وأصبحوا نهار الاثنين، ركِب التتار في الرابعة من النهار ونزلوا من الجبل فلم يتعرّض لهم أحدٌ وساروا إلى النهر فآقتحموه؛ فعند ذلك ركبهم بلاءُ الله من المسلمين وأيدّهم الله تعالى بنصره حتى حصدوا رؤوسَ التتار عن أبدانهم ووضعوا فيهم السيف ومرّوا في أثرهم قَتْلاً وأسراً إلى وقت العصر. وعادوا إلى السلطان وعرّفوه بهذا النصر العظيم، فكُتِبت البشائر في البطائق، وسُرِّحت الطيور بهذا النصر العظيم إلى غَزة. وكُتِب إلى غزّة بمنع المنهزمين من عساكر السلطان من الدخول إلى مصر، وتَتَبُّع من نَهَب الخزائن السلطانية والاحتفاظ بمن يُمسك منهم، وعَيَّن السلطان الأميرَ بدرَ الدين بَكْتُوت الفَتّاح للمسير بالبِشارة إلى مصر ثم كُتِب بهذا الفتح العظيم إلى سائر الأقطار.

[ثم ركب السلطان في يوم الاثنين من مكان الواقعة](١) وبات ليلته [بالكسوة](١) وأصبح يوم الثلاثاء وقد خرج إليه أهلُ دمشق، فسار إليها [ومعه الخليفة](١) في عالمٍ عظيم من الفُرْسان والأعيان والعامّة والنساء والصبيان لا يُحصيهم إلّا الله تعالى، وهم يَضِجُّون بالدعاء والهناء والشكر لله سبحانه وتعالى على هذه المِنّة! وتساقطت عَبَراتُ الناس فرَحاً، ودُقت البشائر بسائر الممالك؛ وكان هذا اليوم يوماً لم يُشاهد مثلُه. وسار السلطان حتى نزل بالقصر الأبلق، وقد زُيِّنت المدينة.

(١) زيادة عن السلوك.

وآستمرّت الأمراء وبَقِيت العساكر في طلب التتار إلى القَرْيَتَيْن، وقد كلّت خيول التتار وضعُفت نفوسهم وألْقَوْا أسلحتهم وآستسلموا للقتل، والعساكرُ تقتلهم بغير مدافعة، حتى إن أراذل العامة والغلمان قتلوا منهم خَلْقاً كثيراً وغَنِموا عِدّة غنائم، وقَتَل الواحدُ من العسكر العشرين من التتار فما فوقها؛ ثم أدْرَكت عُرْبان البلاد التتارَ وأخذوا في كَيْدهم: [فيجيء منهم الاثنان والثلاثة إلى العدة الكثير من التتار][1] كأنّهم يَهدونهم إلى طريق قريبة مفازة، فيوصّلونهم إلى البريّة ويتركونهم بها فيموتوا عطشاً؛ ومنهم من دار بهم وأوصلوهم إلى غُوطة دمشق، فخرجت إليهم عامّة دمشق فقتلوا منهم خَلْقاً كثيراً.

ثم تَتَبّعت الحكّام النَّهَبَة وعاقبوا منهم جماعة كثيرةً حتّى تحصل أكثرُ ما نُهِب من الخزائن ولم يُفقَد منه إلّا القليل.

ثم خلع السلطان على الأمراء جميعهم؛ ثم حضَر الأمير بُرْلُغِي، وقد كان آنهزم، فلم يَأْذَن له السلطان في الدخول عليه، وقال: بأي وجه تدخُل عليّ أو تنظرُ في وجهي! فما زال به الأمراء حتى رَضِي عنه. ثم قُبِض على رجل من أمراء حلب كان قد آنتمى إلى التتار وصار يدُلُّهم على الطُّرُقات، فسُمِّر على جمل وشُهِّر بدمشق وضواحيها. وآستمرّ الناس في شهر رمضان كلّه في مسرّات تتجدد، ثم صلّى السلطان صلاة عِيد الفطر، وخرج في ثالث شوّال من دمشق يريد الديار المصريّة.

وأمّا التتار فإنّه لمّا قُتِل أكثرهم ودخل قُطْلُوشاه الفُرات في قليل من أصحابه. ووصل خبرُ كَسْرته إلى هَمَذان، ووقعت الصَّرَخات في بلادهم، وخرج أهل تِبرِيز وغيرها إلى لقائهم وآستعلام خبر من فُقِد منهم حتّى عَلِموا ذلك، فقامت النِّياحة في مدينة تِبْرِيز شهرين على القَتْلَى.

ثم بلـغ الخبرُ غازان فآغتمّ غَمّاً عظيماً وخرج من منخريه دمٌ كثير حتى أشفَى على الموت وآحتجب عن حواشيه[2]، فإنه لم يصل إليه من عساكره من كلّ عشرة

(١) الزيادة عن السلوك.

(٢) في السلوك: «واحتجب حتى عن الخواتين».

واحد ممن كان آنتخبهم من خِيار جيشه. ثم بعد ذلك بمدّة جلس غازان وأوقف قُطْلُوشاه مقدّم عساكره وجُوبان وسُوتاي ومن كان معهم من الأمراء، وأنكر على قُطْلُوشاه وأَمَر بقتله، فما زالوا به حتى عفا عنه وأبعده من قدامه حتى صار على مسافة بعيدة بحيث يراه، وقام إليه، [وقد مسكه الحُجاب][1]، سائرُ من حضر ـ وهم خَلْق كثير جدّاً ـ وصار كلٌّ منهم يبصُق في وجهه حتى بَصَق الجميع! ثم أبعده عنه إلى كِيلان[2]، ثم ضَرَب بُولاي عِدّة عِصيٍّ وأهانه. وفي الجملة فإنّه حصل على غازان بهذه الكَسْرة من القَهْر والهمّ ما لا مزيد عليه، ولله الحمد.

وسار السلطان الملك الناصر بعساكره وأمرائه حتى وصل إلى القاهرة، ودخلها في يوم ثالث عشرين شوّال حسب ما يأتي ذكره. وكان نائب[3] الغَيْبَة رَسَم بزينة القاهرة من باب النصر إلى باب السلسلة من القلعة، وكَتَب بإحضار سائر مغاني[4] العرب بأعمال الديار المصرية كلّها. وتفاخر الناس في الزينة ونصبوا القِلاع[5]، وآقتسمت أستادارية الأمراء شوارع القاهرة إلى القلعة، وزيّنوا ما يخصّ كلّ واحد منهم وعَمِلوا به قلعةً بحيث نُودِي: من آستعمل صانعاً في غير صنعة القِلاع كانت عليه جناية[6] للسلطان. وتحسّن سِعْر الخشب والقَصَب وآلات النِّجارة، وتفاخروا في تزيين القِلاع المذكورة، وأقبل أهلُ الرِّيف إلى القاهرة للفُرْجة على قدوم السلطان وعلى الزينة، فإنّ الناس كانوا أخرجوا الحُليّ والجواهر واللآلىء وأنواع الحرير فزيّنوا بها. ولم ينسلخ شهر رمضان حتّى تهيّأ أمرُ القِلاع؛ وعَمِل ناصر الدين محمد بن الشَّيْخِيّ والي القاهرة قلعة بباب النصر فيها سائرُ أنواع الجِدّ والهزل

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) كيلان أو جيلان: اسم لبلاد كثيرة من وراء طبرستان. والنسبة إليها جيلاني وجيلي. واللفظ كيلان هو ما تقول به العجم. (معجم البلدان).

(٣) وهو بكتوت الفتّاح، كما في السلوك. ونائب الغيبة: هو نائب السلطان وقت غيبته عن القاهرة، وله حرية التصرّف في الحكم، وترتيبه بعد النائب الكافل. (صبح الأعشى: ١٧/٤).

(٤) يريد المغنين والمغنيات.

(٥) القلاع: هي قلاع خشبية تزين بها الطرقات احتفالاً بمقدم السلطان؛ وقد تقدم شرحها (انظر الفهارس). وفيما سيأتي مزيد من التوضيح.

(٦) الجناية: معناها في الاصطلاح التاريخي ما يفرضه السلطان من الضرائب والغرامات التأديبية على رعيته. (انظر السلوك: ٤٨٨/٢/١ والحاشية رقم: ١ من نفس الصفحة).

ونصَب عِدّةَ أحواض ملأها بالسُّكّر واللَّيمون وأوقف مماليكه بشربات حتّى يَسْقُوا العسكر.

قلت: لو فعَل هذا في زماننا والي القاهرة لكان حصَل عليه الإنكارُ بسبب إضاعة المال، وقيل له: لِمَ لا حملتَ إلينا ما صرفَته؟ فإنّه كان أنفع وخيراً من هذا الفُشار(١)، وإنما كانت نفوس أوْلئك غنِيّة وهممهم عليّة؛ وما كان جُلُّ قصدهم إلا إظهارَ النِّعمة والتفاخر في الحشم والأَسْمِطة والإنعامات حتى يُشاع عنهم ذلك ويُذْكَر إلى الأبد، فرَحِم الله تلك الأيامَ وأهلَها!.

وقدِم السلطان إلى القاهرة في يوم الثلاثاء ثالث عشرين شوّال، وقد خرج الناس إلى لقائه وللفُرْجة عليه؛ وبلَـغ كِراءُ البيت الذي يمرّ عليه السلطان من خمسين درهماً إلى مائة درهم. فلمّا وصل السلطان إلى باب النصر ترجّل الأمراء كلّهم، وأوّل من ترجّل منهم الأمير بدر الدين بَكْتاش الفَخْرِيّ أمير سلاح وأخذ يَحْمل سلاح السلطان، فأمره السلطان أن يركب لكِبَر سِنّه ويحمل السلاح خلفه فآمتنـع ومشَى. وحمل الأمير مبارِز الدين سوار الرومي أمير شِكار القُبةَ(٢) والطير على رأس السلطان، وحَمَل الأمير بَكْتَمُر أميرُ جَانْدار العصا(٣)، والأميرُ سَنْجَر [الجُمَقْدَار](٤) الدَّبُوس؛ ومشَى كلُّ أمير في منزلته، وفَرَش كلٌّ منهم الشُّقَق من قلعته إلى قلعة غيره التي أنشأوها بالشوارع. وكان السلطان إذا تجاوز قلعة فَرَشت القلعة المجاورة لها الشُّقَق، حتى يمشي عليها بفرسه مَشْياً هيِّناً من غير هَرْج بسكون ووقار لأجل مَشْي الأمراء بين يديه. وكان السلطان كلّما رأى قلعة أمير أمسك عن المشي ووقف حتّى يُعَايِنَها ويعرفَ ما آشتملت عليه هو والأمراء حتى يُجبر خاطر فاعلها بذلك.

---

(١) الفُشار: الهذيان والكذب؛ وهو عامي ليس من كلام العرب، وأصله سرياني. والعامة تقول: فَشَر بمعنى خاب. (معجم متن اللغة).

(٢) المراد بالقبة والطير هنا: المظلة؛ وكانت من رسوم الفاطميين بمصر. وقد عرَّفها القلقشندي على النحو التالي: «المظلة، ويعبّر عنها بالجتر، وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة، مطلية بالذهب، وهي من بقايا الدولة الفاطمية». (انظر صبح الأعشى: ٤/٧).

(٣) المراد بالعصا هنا الصولجان.

(٤) زيادة عن السلوك.

هذا والأمراء من التتار بين يديه مقيّدون، ورؤوسُ من قُتِل منهم معلَّقةٌ في رقابهم، وألفُ رأس على ألف رُمْح، وعدّةُ الأَسْرَى ألفٌ وستمائة، وفي أعناقهم أيضاً ألفٌ وستمائة رأس، وطبولُهم قدّامهم مخرّقة.

وكانت القِلاع التي نُصِبت أوّلها قلعة الأمير ناصِر الدين آبن الشَّيْخي والي القاهرة بباب النصر، ويليها قلعةُ الأمير علاء الدين مُغْلَطاي أميرُ مجلس، ويليها قلعة آبن أَيْتَمُش السَّعْدِيّ، ثم يليها قلعة الأمير سَنْجَر الجاولي، وبعده قلعة الأمير طُغْريل الإيغانيّ ثم قلعة بَهادُر اليُوسُفِيّ، ثم قلعة سَوْدِي، ثم قلعة بِيلِيك الخَطِيري، ثم قلعة بُرُلْغِي، ثم قلعة مبارِز الدين أمير شِكار، ثم قلعة أَيْبَك الخازِنْدار، ثم قلعة سُنْقُر الأعسر، ثم قلعة بِيبَرْس الدَّوَادَار، ثم قلعة سُنْقُر الكامِليّ، ثم قلعة موسى آبن الملك الصالح، ثم قلعة الأمير آل ملك، ثم قلعة علم الدين الصوابي، ثم قلعة الأمير جمال الدين الطَّشلاَقِيّ، ثم قلعة الأمير [سيف الدين][1] آدم، ثم قلعة الأمير سَلّار [النائِب][1]، ثم قلعة الأمير بِيبَرْس الجاشْنَكِير، ثم قلعة بكْتَاش أمير سلاح، ثم قلعة الطَّواشِي مُرْشِد الخازِنْدار ــ وكانت قلعته على باب المدرسة المنصورية ــ ثم بعده قلعة بَكْتَمُر أمير جانْدار، ثم قلعة أَيْبَك البغدادِيّ نائب الغَيْبَة، ثم قلعة آبن أمير سلاح، ثم قلعة بَكْتُوت الفَتّاح، ثم قلعة تباكر[2] الطغْريليّ، ثم قلعة قُلّي السلاح دار، ثم قلعة لاجين زِيرباج الجاشْنَكِير، ثم قلعة طَيْبَرْس الخازِنْداري نقيب الجيش، ثم قلعة بَلَبان طُرْنا، ثم قلعة سُنْقُر العلائي، ثم قلعة بهاء الدين يعقوبا، ثم قلعة الأبو بكري، ثم قلعة بهادُر العزّي، ثم قلعة كَوْكَاي، ثم قلعة قرا لاجين، ثم قلعة كَرَاي المنصوريّ، ثم قلعة جمال الدين آقوش قتال السبع، وقلعته كانت على باب زَوِيلة؛ وكان عِدّتها سبعين قلعة.

وعندما وصل السلطان إلى باب البِيمَارِسْتان المنصوري ببين القصرين نزل ودخل وزار قبر والده الملك المنصور قلاوون وقرأ القُرّاء أمامه ثم ركب إلى باب زويلة ووقف حتّى أَرْكَبَ الأمير بدرَ الدين بكتاش الفخريّ أمير سلاح. ثم سار

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) في الأصل: «شاكر». وفي طبعة دار الكتب المصرية عن عقد الجمان: «تاكز». وما أثبتناه عن السلوك.

السلطان على شُقَق الحرير إلى داخل قلعة الجبل. هذا والتهاني في دُور السلطان والأمراء وغيرهم قد امتلأت منهم البيوت والشوارع بحيث إنّ الرجل كان لا يسمَع كلامَ من هو بجانبه إلا بعد جَهْد؛ وكان يوماً عظيماً عَظُم فيه سرورُ الناس قاطبةً لا سيّما أهل مصر، فإنّهم فرحوا بالنصر وأيضاً بسلامة سلطانهم الملك الناصر محمد[1].

وأقام الملك الناصر بالديار المصريّة إلى سنة ثلاث وسبعمائة فَوَرد عليه الخبر بموت غازان بمدينة الرّيّ[2]، وقام بعده أخوه خَرْبَنْدَا[3] بن أَرْغُون بن أبغا بن هولاكو في ثالث عشر شوال؛ وجلس خَرْبَنْدَا على تخت الملك في ثالث عشر ذي الحجّة وتلقّب غياث الدين محمداً، وكتَب إلى السلطان بجلوسه وطلب الصلح وإخماد الفتنة.

---

(١) وقد أورد النويري في نهاية الأرب نصّ مؤلف صغير في هذه الوقعة (وقعة مرج الصفَّر) صنّفه القاضي علاء الدين علي بن عبد الظاهر، وسمّاه «الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر». وقد أثبتنا نصّه في ملاحق هذا الجزء.

(٢) الريّ: مدينة مشهورة، من أمهات البلاد، قصبة بلاد الجبال. توجد أطلالها على بعد ثمانية كيلو مترات جنوب شرقي طهران بإيران. واسمها القديم «راغة» ومنه اشتق الاسم العربي. وسميت الريّ «المحمديّة» وذلك لأن المهدي العباسي نزلها في خلافة المنصور. (الموسوعة العربية الميسرة: ٩٠٤، وبلدان الخلافة الشرقية: ٢٤٩).

(٣) هو أولجايتو بن أرغون. وقد عرف أولاً باسم «خربنده» ثم «أولجايتو محمد خدابنده». وأولجايتو: كلمة مغولية بمعنى المحظوظ. وخربنده: كلمة مركبة من «خر» بمعنى حمار و«بنده» بمعنى تابع، والمراد المكاري. أما خدابنده فهي كلمة مركبة من «خدا» بمعنى الله و«بنده» بمعنى عبد، والمراد عبد الله.
وقد اختلف المؤرخون في بيان العلة في تلقيب أولجايتو بهذين اللقبين: خربنده وخدابنده؛ وذهبوا في ذلك مذاهب شتى: فابن بطوطة يروي أن سبب تسميته بخربنده يرجع إلى أن التركانوا يسمون الطفل باسم أول داخل إلى البيت عند ولادته، فلما ولد هذا السلطان كان أول داخل المكاري، والتر يسمونه: خربنده. ويزعم البعض أنه عندما تولى غازان السلطة هرب منه أولجايتو، وكان يطوف مع المكارين في نواحي كرمان وهرمز، فأطلقوا عليه اسم خربنده. والبعض يرجح أن تسميته بخربنده كانت دفعاً للحسد وإصابة العين وذلك جرياً على عادة المغول الذين يختارون اسماً قبيحاً لمن يتوسمون فيهم الصحة والجمال. قيل إنه سمي في مبدأ أمره: «تمودر» بمعنى الجهنمي. وقد حكم أولجايتو بين سنتي ٧٠٣ و ٧١٦هـ. (انظر مؤرخ المغول رشيد الدين فضل الله الهمذاني: ص ٨٤، ٨٥، ١٤٠).

ثم في السنة آستأذن الأميرُ سلّار نائب السلطنة في الحجّ فأذِن له، فحجّ كما حجّ الأمير بِيبَرْس الجَاشْنَكِير في السنة الماضية آثنتين وسبعمائة، إلّا أنّ سلّار صنع من المعروف في هذه السنة والإحسان إلى أهل مكّة والمجاورين وغيرِهم وعاد، ثم حجّ الأمير بِيبَرْس الجاشْنَكِير ثانياً في سنة أربع وسبعمائة.

وورد الخبر[١] على السلطان الملك الناصر بقدوم رجل من بلاد التتار إلى دِمشق يقال له الشيخ بُراق في تاسع جمادى الأولى ومعه جماعةٌ من الفقراء نحو المائة لهم هيئةٌ عجيبة، على رأسهم كلاوت[٢] لباد مقصّص بعمائم فوقها، وفيها قُرون من لباد يُشبه قرون الجواميس، وفيها أجراسٌ، ولحاهم محلّقة دون شواربهم، ولُبْسهم لبابيد بيض، وقد تقلّدوا بحبال منظومة بكِعاب البقر، وكلٌّ منهم مكسور الثّنِيّة العليا، وشيخُهم من أبناء الأربعين سنة، وَفيه إقدامٌ وجُرأة وقوّة نفس وله صَوْلةٌ، ومعه طبلخاناه تدقّ له نوبة، وله محتسِبٌ على جماعته، يؤدِّب كلّ من يترك شيئاً من سُنَّته بضرب عشرين عصا تحت رجليه، وهو ومن معه ملازمون التعبد والصلاة؛ وأنه قيل له عن زِيّه، فقال: أردت أن أكون مسخرة الفقراء. وذُكِر أنّ غازان لما بلغه خبرُه آستدعاه وألقى عليه سَبُعاً ضارياً فَركِب على ظهر السَّبُع ومشى به فجَلّ في عين قازان ونَثَر عليه عشرة آلاف دينار؛ وأنّه عندما قَدِم دِمَشق كان النائب بالمَيْدان الأخضر فدخل عليه، وكان هناك نعامةٌ قد تفاقم ضَررُهَا وشرُّها ولم يقدر أحد على الدنوّ منها، فأمر النائبُ بإرسالها عليه فتوجّهت نحوَه، فوثَب عليها وركبها فطارت به في المَيْدان قَدْرَ خمسين ذراعاً في الهواء حتّى دنا من النائب، وقال له: أطِير بها إلى فوق شيئاً آخر؟ فقال له النائب: لا، وأنعم عليه وهاداه الناس؛ فكتب السلطان بمنعه من القدوم إلى الديار المصريّة، فسار إلى القُدس ثم رَجَع إلى بلاده. وفي فقرائه يقول سِراج الدين عمر الورّاق من موشّحة[٣] طويلة أوّلها:

---

(١) أورد المقريزي هذا الخبر في حوادث سنة ٧٠٦هـ.

(٢) الكلاوت: أحد جموع لفظ كلوتة؛ وهي غطاء للرأس تلبس وحدها أو بعمامة. وتسمى أيضاً: كلفة وكلفتة، وكلفتاة.

(٣) كذا أيضاً في السلوك. وما يلي ليس من الموشحات وإنما هو من المواليا لأن الموشحات يلتزم فيها اللفظ العربي الصحيح والمواليا لا تتطلب ذلك.

[جَتْنَا عَجَمْ من جوّا الرومْ][١] صُوَر تحير فيها الأفكارْ
لها قُرونْ مثل التِّيران إبليسْ يصيحْ منهم زِنْهارْ

وقد ترجمنا بُراق هذا في تاريخنا المنهل الصافي بأوسع من هذا اِنتهى.

ثم إنّ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون في سنة سبع[٢] وسبعمائة ضَجِر من الحَجْر عليه من تَحَكّم الأميرين سَلّار وبِيبَرس الجَاشْنَكِير ومَنعه من التصرُّف وضِيق يده، وشكا ذلك لخاصّته، وآستدعى الأميرَ بَكْتَمُر الجُوكَنْدَار وهو أمير جَانْدَار يوم ذاك في خِفْية وأعلمه بما عزَم عليه من القيام على الأميرين سَلّار وبِيبَرْس، فقرّر معه بَكْتَمُر أنّ القلعة إذا أُغلقت في اللّيل وحُمِلت مفاتيحُها إلى السلطان على العادة لبِسَتْ مماليك السلطان السلاح وركِبت الخيول من الإسطبل وسارت إلى إسطبلات الأمراء، ودُقّت كُوسات السلطان بالقلعة [دقّاً][٣] حَرْبيّاً ليجتمع المماليك تحت القلعة ممن هو في طاعة السلطان، قال بَكْتَمُر: وأنا أَهْجُم على بيتَي سَلّار وبِيبَرْس بالقلعة أيضاً.

قلت: أعني أنّ بَكْتَمُر كان سكنه بالقلعة، فيهجُم هو أيضاً على بيتي سَلّار وبِيبَرْس بالقلعة أيضاً، ويأخذهما قَبْضاً باليد.

وكان لكلٍّ من بِيبَرْس وسَلّار أَعْيُنٌ عند السلطان، فبلَّغُوهما ذلك، فآحترزا على أنفسهما، وأمر الأميرَ [سيف الدين][١] بَلَبَان الدِّمَشْقِيّ والي القلعة، وكان خَصِيصاً بهما، أنْ يُوهِمَ أنّه أغلقَ بابَ القلعة ويُطَرِّف[٤] أقفالها ويَعْبُر بالمفاتيح إلى السلطان على العادة ففعل ذلك. وظنّ السلطان ومماليكُه أنّهم قد حصلوا على غرضهم، وآنتظروا بَكْتَمُر الجُوكَنْدَار أن يحضُر إليهم فلم يحضُر، فبعثوا إليه فإذا هو مع بِيبَرْس وسَلّار وقد حَلَف لهما على القيام معهما. فلمّا طَلع النهار ظنّ السلطان أنّ بَكْتَمُر قد غَدَر به وترقّب المكروه من الأمراء، وليس الأمر كذلك؛ وما هو إلّا أنّ سلّار وبِيبَرْس لمّا بلغهما الخبرُ خرجوا إلى دار النيابة بالقلعة، وعَزَم

---

(١) زيادة عن السلوك.
(٢) الملاحظ أن المؤلف أسقط أخبار سنوات ٧٠٤ ــ ٧٠٧ هـ.
(٣) زيادة عن السلوك.
(٤) أي إنه لا يحكم إقفالها، بأن يجعل ألسنة الأقفال في الطرف فقط.

بِيبَرْس أن يهجُم على بَكْتَمُر ويقتُلَه فمنعه سلّار لما كان عنده من التثبُّت والتُّؤدَة، وأشار بالإرسال إليه ويُحضره حتّى تبطُل حركةُ السلطان؛ فلمّا أتى بَكْتَمُر الرسولُ تحيّر في أمره وقصد الامتناع، وألبس مماليكَه السلاح ومنعهم وخرج إليهم، فعنّفه سلّار ولامه على ما قصد فأنكر وحَلَف لهم على أنّه معهم، وأقام عندهم إلى الصباح، ودخل مع الأمراء إلى الخِدمة عند الأمير سلار النائب ووقف ألزام سلار وبِيبرس على خيولهم بباب الإسطبل مُتَرَقِّبين خروجَ المماليك السلطانية، ولم يدخل أحدٌ من الأمراء إلى خدمة السلطان وتشاورُوا. وقد أُشِيع في القاهرة أنّ الأمراء يريدون قَتْلَ السلطان الملك وخرج العامّة والأجناد إلى تحت القلعة، وبَقِي الأمراء نهارَهم مجتمعين، وبعثُوا بالاحتراس على السلطان خَوْفاً من نزوله من باب السرّ[1]، وألبسوا عِدّة مماليك وأوقفوهم مع الأمير سيف الدين سُمُك أخي سَلّار على باب الإسطبل[2]. فلمّا كان نصفُ الليل وقَعَ بداخل الإسطبل حِسٌّ وحركةٌ من قيام المماليك السلطانية ولبْسهم السلاح لينزلوا بالسلطان على حَمِيَّة من الإسطبل، وتوقّعوا الحرب، فمنعهم السلطان من ذلك؛ وأراد الأميرُ سُمُك إقامةَ الحُرْمة فرَمَى بالنُّشّاب ودَقّ الطَّبْلَ فوقع سهمٌ من النُّشّاب بالرَّفرف السُّلطانِيّ؛ وآستمرّ الحال على ذلك إلى أذان العصر من الغد، فبعث السلطان إلى الأمراء يقول: «ما سببُ هذا الركوب على باب إسطبلي؟ إن كان غَرَضُكم في المُلك فما أنا مُتَطلِّع إليه، فخذُوه وآبعثوني أيّ موضع أردتم!» فردُّوا إليه الجواب مع الأمير بِيبَرْس الدَّوَادَار والأمير عِزّ الدين أَيْبَك الخازندار والأمير بُرُلْغِي الأشرفي بأنّ السبب هو مَنْ عند السلطان من المماليك الذين يُحرِّضونه على الأمراء؛ فأنكر أن يكون أحدٌ من مماليكه ذَكَر له شيئاً عن الأمراء؛ وفي عَوْد الجواب

(١) باب السرّ: أحد أبواب قلعة الجبل بالقاهرة. وكان يدخل ويخرج منه أكابر الأمراء وخواص الدولة كالوزير وكاتب السر ونحوهما. وهذا الباب يبقى مغلقاً حتى ينتهي إليه من يستحق الدخول أو الخروج منه فيفتح له ثم يغلق. (صبح الأعشى: ٣٧٢/٣). وهذا الباب هو الذي يعرف اليوم بالباب الوسطاني، وهو البوابة الوسطانية التي تفصل بين دهليز الباب العمومي البحري للقلعة وبين الحوش الذي فيه جامع الناصر محمد بن قلاوون وجامع محمد علي باشا بالقلعة. (محمد رمزي).

(٢) هو ذاته باب السلسلة، أحد أبواب قلعة الجبل الذي يعرف اليوم بباب العزب بميدان محمد علي بالقاهرة. (محمد رمزي).

من عند السلطان وقعَتْ صيْحة بالقلعة سببها أنّ العامة كان جمعُهم قد كثُر، وكان عادتهم أنهم لا يريدون أن يَلِيَ المُلكَ أحدٌ من المماليك، بل إن كان ولا بدّ يكون الذي يَلِي المُلكَ من بني قلاوون. وكانوا مع ذلك شديدي المحبّة للملك الناصر محمد بن قلاوون. فلمّا رأوا العامة أنّ الملك الناصر قد وَقفَ بالرَّفْرَف من القلعة، وحواشي بِيبَرس وسَلّار قد وقفوا على باب الإسطبل محاصرينه، حَنِقوا من ذلك وصرَخُوا، ثم حملوا يداً واحدة على الأمراء بباب الإسطبل، وهم يقولون: «يا ناصر! يا منصور!» فأراد سُمُك قتالهم، فمنعه من كان معه من الأمراء وخوّفه الكَسْرة من العوّام، فتقهقروا عن باب الإسطبل السلطانيّ وسَطَا عليهم العامّةُ وأفحشوا في حقّهم. وبلغ ذلك بِيبَرْس وسَلّار فأركبا الأمير بَتْخاص المنصوريّ في عِدّة مماليك فنزلوا إلى العامة يُنَحُّونهم ويضربونهم بالدبابيس ليتفرّقوا فآشتدّ صِياحُهم: يا ناصر! يا منصور! وتكاثر جمعُهم وصاروا يدعون للسلطان، ويقولون: الله يَخُون الخائن، الله يخون من يخون آبن قلاوون! ثم حملت طائفةٌ منهم على بَتْخاص ورجمته طائفة أخرى، فجرّد السيفَ ليضَعَه فيهم فَخشِيَ تكاثُرَهم عليه، فأخذ يُلاطفهم، وقال لهم: طيِّبوا خاطَركم، فإنّ السلطان قد طاب خاطُره على أمرائه؛ وما زال يَحْلِف لهم حتّى تفرّقوا.

وعاد بَتْخاص إلى سَلّار وبِيبَرْس وعرّفهم شِدَّة تعصُّب العامّة للسلطان؛ فبعث الأمراءُ عند ذلك ثانياً إلى السلطان بأنّهم مماليكُه وفي طاعته، ولا بُدّ من إخراج الشباب الذين يَرْمُون الفِتْنة بين السلطان والأمراء، فآمتنع السلطان من ذلك وآشتدّ، فما زال به بِيبَرْس الدّوَادار وبُرُلْغِي حتّى أخرج منهم جماعةً وهم: يَلْبُغا التركمانيّ، وأَيْدَمُر المَرْقَبِي، وخاصّ تُرك؛ فهدّدهم بِيبَرْس وسَلّار ووبخّاهم وقصَد سلّار أن يُقيِّدهم، فلم تُوافق الأمراء على ذلك رعايةً لخاطر السلطان؛ فأخْرجوا إلى القُدس من وقتهم على البريد. ودخل جميعُ الأمراء على السلطان وقبّلوا الأرض ثم قبلوا يده فخلَع على الأمير بِيبَرْس وسَلّار.

ثم سأل الأمراءُ السلطانَ أن يركبَ في أمرائه إلى الجبل الأحمر حتّى تطمئنّ قلوبُ العامّة عليه ويعلموا أنّ الفتنة قد خَمدت، فأجاب لذلك. وبات ليلتَه في قَلَق

زائدٍ وكَرْب عظيم لإخراج مماليكه المذكورين إلى القدس. ثم ركب بالأمراء من الغد إلى قُبّة النَّصر تحت الجبل الأحمر، وعاد بعد ما قال لبِيبَرْس وسَلار: إنّ سبب الفتنة إنما كان من بَكْتَمُر الجُوكَنْدار؛ وذلك أنه رآه قد رَكب بجانب الأمير بِيبَرْس الجَاشْنَكِير وحادثه، فتذكّر غدره به، فشقّ عليه ذلك. فتلطّفُوا به في أمره، فقال: «والله ما بَقِيَت لي عَيْنٌ تنظر إليه؛ ومتى أقام في مصر لا جلستُ على كرسي المُلك أبداً»؛ فأُخْرِج من وقته إلى قلعة الصُّبَيْبَة، وآستقرّ عِوَضَه أميرُ جاندار الأمير بدر الدين بَكْتُوب الفَتّاح. فلمّا مات سُنْقُرْشاه بعد ذلك آستقرّ بَكْتَمُر الجوكَنْدار في نيابة صَفَد عِوَضَه فنُقِل إليها من الصُّبَيْبَة. وآجتاز السلطان بخانقاه[1] الأمير بِيبَرْس الجَاشْنَكِير داخل باب النصر فرآها في ممَرِّه، وكان قد نَجَزَ العملُ منها في هذه الأيام؛ وطلعَ السلطان إلى القلعة وسكَن الحال، والأمراءُ في حَصْر من جهة العامّة من تعصُّبهم للسلطان، والسلطان، في حَصْر بسبب حَجْر الأمراء عليه وإخراج مماليكه من عنده.

وآستمرّ ذلك إلى أن كان العاشر من جُمادَى الآخرة من سنة ثمانٍ وسبعمائة عَدّى السلطانُ الجِيزَة وأقام حول الأهرام يتصيّد عشرين يوماً، وعاد وقد ضاق صدرُه وصار في غاية الحَصْر من تحكُّم بِيبَرْس الجاشْنَكِير وسلّار عليه، وعدَم تصرُّفه في الدولة من كلِّ ما يريد، حتى إنّه لا يصل إلى ما تشتهي نفسه من المأكل لقلة المرتّب له! فلولا ما كان يتحصّل له من أملاكه وأوقاف أبيه لما وجَد سبيلاً لبلوغ بعض أغراضه؛ وطال الأمر عليه سنين، فأخذ في عمل مصلحة نفسه وأظهر أنّه يريد الحجّ بعياله، وحدث بِيبَرْس وسَلّار في ذلك يوم النصف من شهر رمضان فوافقاه عليه، وأعجَب البرجيّة خشداشية بيبرس سفره لينالوا أغراضهم، وشرعُوا في تجهيزه؛ وكُتِب إلى دمشق والكرك وغزّة برمي الإقامات، وأُلْزِم عربُ الشرقية بحمل

(١) هذه الخانقاه كانت من جملة دار الوزارة الكبرى، وهي أجلّ خانقاه بالقاهرة بنياناً وأوسعها مقداراً وأتقنها صنعة. بناها الملك المظفر ركن الدين بيبرس الجاشنكير قبل أن يلي السلطة ما بين سنتي ٧٠٦و٧٠٩هـ. وقرر فيها أربعمائة صوفيّ، وبالرباط بجانبها مائة من الجند وأبناء الناس الذين قعد بهم الوقت. (خطط المقريزي: ٢/٤١٦) وهذه الخانقاه لا تزال موجودة إلى اليوم بشارع الجمالية بالقاهرة باسم جامع بيبرس أو البيبرسية أو خانقاه بيبرس. (محمد رمزي).

الشَّعِير، فتهيّأ ذلك. وأحضر الأمراءُ تقادمهم له من الخيل والجمال في العشرين من شهر رمضان فقَبِلها منهم وشكرهم على ذلك. وركب في خامس عشرين شهر رمضان من القلعة يُريد السفر إلى الحج، ونزل من القلعة ومعه جميع الأمراء؛ وخرج العامّة حوله وحاذوا بينه وبين الأمراء، وهم يَتَباكَوْن حوله ويتأسّفون على فراقه ويدعون له إلى أن نزل بركة الحجاج. وتعيّن للسفر مع السلطان من الأمراء: عزّ الدين أَيْدَمُر الخَطِيريّ الأستادار، وسيف الدين آل ملك الجُوكَنْدَار، وحُسام الدين قرا لاجين أمير مجلس، وسيف الدين بَلَبَان أمير جَانْدَار، وعِزّ الدين أَيْبَك الرومي السِّلاح دار، ورُكن الدين بِيبَرْس الأحمديّ، وعلم الدين سَنْجَر الجُمَقْدار، وسيف الدين تُقْطاي الساقي، وشمس الدين سُنْقُر السَّعْدِيّ النقيب، ومن المماليك خمسة وسبعون نفراً. وودّعه سلّار وبيبرس بمن معهم من الأمراء وهم على خيولهم من غير أن يترجّلوا له، وعاد الأمراء.

ورحل السلطان من ليلته وخرج إلى جهة الصالحيّة وتصيّد بها، ثم سار إلى الكَرَك ومعه من الخيل مائة وخمسون فرساً، فوصَل إلى الكرك في يوم الأحد عاشر شوّال بمن معه من الأمراء ومماليكه. وآحتَفل الأمير جمالُ الدين آقوش الأشرفيّ نائب الكَرَك بقدومه وقام له بما يَلِيق به، وزَيَّن له القلعة والمدينة، وفتح له باب السِّرّ من قلعة الكَرَك ومَدّ الجسرَ على الخَنْدق، وكان له مدّة سنين لم يمدّ وقد ساس خشبه لطول مُكْثه. فلمّا عَبَرت الدوابّ عليه وأتى السلطان في آخرهم آنكسر الجسرُ تحتَ رِجْلَي فرس السلطان بعدما تعدّى يدا الفرس الجسر، فكاد فرسُ السلطان أن يسقُط لولا أنهم جَبدوا عِنان الفرس حتّى خرج من الجسر وهو سالمٌ؛ وسقَط الأمير بَلَبان طُرْنا أَمير جاندار وجماعةٌ كثيرة، ولم يمُت منهم سوى رجل واحد، وسقط أكثرُ خاصّكيّة السلطان في الخندق وسَلِموا كلُّهم إلا آثنين، وهم: الحاج عِزّ الدين أَزْدَمُر رأس نَوْبة الجَمَدَاريّة آنقطع نُخاعه وبطَل وعاش كذلك لسنة ستّ عشرة وسبعمائة، والآخر مات لوقته.

قال آبن كثير في تاريخه: ولما توسط السلطان الجسرَ آنكسر فسَلِم من كان قُدّامه وقفَز به فرسُه فسلم، وسقط من كان وراءه وكانوا خمسين فمات أربعة وتهشَّم أكثرهم في الوادي تحته. اِنتهى.

وقال غيره: لمّا آنقطعت سلسلة الجسر وتمزق الخشبُ صرَخ السلطان على فرسه، وكان قد نزلت رِجْلُه في الخشب، فوثَب الفرسُ إلى داخل الباب، ووقع كلُّ من كان على الجسر، وكانوا أكثر من مائة مملوك، فوقعوا في الخَنْدق فمات منهم سبعةٌ وآنهشم منهم خَلْقٌ كثير؛ وضاق صدُر السلطان، فقيل له: هذه شِدَّة يأتي من بعدها فرج!.

وجلس السلطان بقلعة الكَرَك، ووقف نائبُها الأميرُ آقوش خَجِلاً وجلاً خائفاً أن يتوهّم السلطان أن يكون ذلك مكيدةً منه في حقّه؛ وكان النائب المذكور قد عَمِل ضِيافةً عظيمة للسلطان غَرِم عليها جملةً مستكثرةً، فلم تقع المَوْقِعَ لاشتغال السلطان بهمّه وبما جَرَى على مماليكه وخاصّكيته. ثم إنّ السلطان سأل الأمير آقوش عن الجسر المذكور فقال: ما سبب آنقطاعه؟ فقال آقوش بعد أن قبّل الأرض: أيّد الله مولانا السلطان، هذا الجسر عتيقٌ وثَقُل بالرجال فما حَمل، فقال السلطان: صدقت، ثم خَلَع عليه وأمره بالانصراف. وعندما آستقرّ السلطان بقلعة الكَرَك عَرَّف الأمراء أنّه قد آنثنى عزمُه عن الحجّ، وآختار الإقامة بالكَرَك وترك السلطنة، وخَلَع نفسه ليستريح خاطرُه.

وقال آبن كثير: لمّا جَرى على السلطان ما جرى وآستقرّ في قلعة الكَرَك خلَع على النائب، وأذِن له في التوجُّه إلى مصر فسافر.

وقال صاحب النُّزْهة[١]: لمّا بات السلطان تلك اللّيلة في القلعة وأصبح طَلب نائبَ الكَرَك وقال له: يا جمال الدِّين، سافر إلى مصر وآجتمِع بخُشْدَاشِيَتِك؛ فباس الأرض، وقال: السمعَ والطاعةَ. ثم إنّه خرج في تلك الساعة بمماليكه وكلِّ من يلوذ به. ثم بعد ثلاثة أيام نادَى السلطان بالقلعة والكَرَك: لا يبقى هنا أحدٌ لا كبيرٌ ولا صغيرٌ حتّى يخرجَ فيجيبَ[٢] ثلاثةَ أحجار من خارج البلد، فخرجَ كلُّ من بالقلعة والبلد. ثم إنّ السلطان أغلق باب الكَرَك؛ ورَجعت الناس ومعهم الأحجار فرأَوْا

---

(١) هو «نزهة الأنام في تاريخ الإسلام» ـ وهو مرتب على السنين ـ لابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩هـ. (كشف الظنون: ١٩٤١).

(٢) استعمال عاميّ، أصله: يجيء بثلاثة أحجار. والعامة تقول: جابَهُ بمعنى جاء به.

الباب مُغلقاً، فقيل لهم: كلّ من له أولادٌ أو حريمٌ يخرج إليه ولا يبقَى أحدٌ بالكَرَك، فخرج الناس بمتاعهم وأولادهم وأموالهم، وما أمسى المَساء وبقي في الكرك أحدٌ من أهلها غيره ومماليكه. ثم طَلَب مملوكَه أَرْغُون الدَّوَادار وقال له: سِرْ إلى عقبة أيْلة وأحْضِر بيتي وأولادي؛ فسار إليهم أَرْغُون وأقدمهم عليه. ووَجد الملك الناصر من الأموال بالكَرَك سبعةً وعشرين ألف دينار عَيْناً، وألف ألف درهم وسبعمائة ألف درهم. ثم إنّ السلطان طَلَب الأمراء الذين قدموا معه وعرّفهم أنه اختـار الإقامة بالكَرَك كما كان أوّلاً، وأنه ترك السلطنة، فشَقَّ عليهم ذلك وبَكَوْا وقبَّلوا الأرض يتضرّعون إليه في تَرْك هذا الخاطر، وكَشَفُوا رؤوسهم، فلم يَقْبَل ولا رجَـع إلى قولهم. ثم آستدعى القاضي علاء الدين علي بن أحمد بن سعيد بن الأثير كاتب السّر، وكان قد توجّه معه، وأَمَره أن يكتب للأمراء بالسلام عليهم، ويُعَرِّفهم أنّه قد رجَـع عن الحجّ وأقام بالكَرَك ونَزل عن السلطنة، وسألهم الإنعام عليه بالكَرَك والشُّوبَك؛ وأعطى الكُتُبَ للأمراء وأَمَرهم بالعَوْدة إلى الديار المصريّة، وأعطاهم الهُجُنَ التي كانت معه برَسْم الحجّ، وعِدَّتُها خمسمائة هَجِين والجِمال والمال الذي قدّمه له الأمراءُ بَرْسم التَّقْدِمة قبل خروجه من القاهرة، فساروا الجميـع إلى القاهرة.

وأمّا إخراج السلطان أهلَ قلعة الكَرَك منها لأنّه قال: أنا أعلم كيف باعوا الملك السعيـد بَرَكَـة خان آبن الملك الـظاهر بِيبـرْس بالمـال لُطرُنْـطاي! فلا يُجَاورونني؛ فخرج كلّ من كان فيها بأموالهم وحريمهم من غير أن يتعرّض إليهم أحدٌ البتَّة.

وأمّا النائب آقوش فإنّه أخذ حريمه وسافر إلى مصر بعد أن قَدم ما كان له من الغِلال إلى السلطان، وهو شيء كثير، فقَبِله السلطانُ منه. فلمّا قَدِم آقوش إلى مصر قال له سَلّار وبِيبَرْس: مَن أمرك بتمكين السلطان من الطلوع إلى القلعة؟ (يعني قلعة الكَرَك) فقال: كتابُكم وصل إليّ يأمرني بأن أُنْزِل إليه وأطلِعَه إلى القلعة، فقال: وأين الكتاب؟ فأخرجه، فقالا: هذا غيرُ الكتاب الذي كتبناه، فآطلبوا أَلْطُنْبُغَا؛ فطلبوه فوجدوه قد هرب إلى الكَرَك عند السلطان فسكتوا عنه. اِنتهى. وأمّا الكتاب الذي كتبه الملك الناصر محمد بن قلاوون من الكَرَك إلى بِيبرس وسَلّار مضمونه:

«بسم الله الرحمن الرحيم.

حَرس الله تعالى نعمة الجَنَابَيْن العاليَيْن الكبيرين الغازِيَيْن المجاهِدَيْن، وفقهما الله تعالى توفيقَ العارفين! أما بعدُ فقد طلَعت إلى قلعة الكَرَك، وهي من بعض قِلاعي ومُلْكي، وقد عوّلتُ على الإقامة فيها؛ فإن كنتم مماليكي ومماليك أبي فأطيعوا نائبي (يعني نائبه سلّار) ولا تخالفوه في أمر من الأمور، ولا تعملوا شيئاً حتّى تشاوروني، فأنا ما أريد لكم إلّا الخير، وما طلعتُ إلى هذا المكان إلّا لأنّه أَرْوَحُ لي وأقلُّ كُلْفةً؛ وإن كنتم ما تسمعون مني فأنا مُتوكِّلٌ على الله والسلام».

فلمّا وصل الكتاب إلى الأمراء قرأوه وتشاوروا ساعة، ثم قاموا من باب القلعة وذهبوا إلى دار بيبرس وآتفقوا على أن يُرسلوا إلى الملك الناصر كتاباً، فكتبوه وأرسلوه مع البَرْوَانِيّ على البريد؛ فسار البَرْوَانِيّ إلى أن وصل إلى الكرك، وآجتمع بالملك الناصر وقبّل الأرض بين يديه وناوله الكتاب، فأعطاه الملك الناصر لأرغون الدّوَادَار، فقرأه، فتبسّمَ السلطان وقال: لا إله إلا الله! وكان في الكتاب:

«ما علِمْنا ما عوّلت عليه، وطُلُوعَك إلى قلعة الكَرَك وإخراجَ أهلها وتشييعَك نائبها، [وهذا أملٌ بعيد][1] فحلَّ عنك شُغْل الصَّبيّ، وقُمْ وآحضر إلينا، وإلّا بعد ذلك تطلُب الحضور ولا يَصِحّ لك، وتندم ولا يَنفعك النَّدَم. فيا ليت لو علمنا ما كان وقع في خاطرك وما عوّلت عليه؛ غيَر أنّ لكلِّ مُلْك آنصرام، ولٱنقضاء الدولة أحكام، ولحلول الأقدار سهام؛ ولأجل هذا أَمرك غَيُّك بالتطويل، وحسَّن لك زُخْرُفَ الأقاويل؛ فالله الله حال وقوفك علَى هذا الكتاب، يكون الجواب حضورَك بنفسك ومعك مماليكك، وإلّا تعلم أنّا ما نُخَلِّيك في الكَرَك، [ولو كثُر شاكروك[1]] ويخرج المُلْك من يدك؛ والسلام».

فقال الملك الناصر: لا إله إلا الله، كيف أظهروا ما في صدورهم! ثم أمَر بإحضار آلة مثل العصائب والسناجق والكُوسات وكلّ ما كان معه من آلة الملك وسلّمها إلى البَرْوَانِيّ، وقال له: قل لسَلّار «ما أخذتُ لكم شيئاً من بيت المال؛ وهذا الذي أخذتُه قد سيرتُه لكم؛ وآنظروا في حالكم فأنا ما بَقِيت أعمل سلطاناً، وأنتم على هذه الصورة! فدعوني أنا في هذه القلعة منعزلاً عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إمّا بالموت وإمّا بغيره».

---

(١) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية عن عقد الجمان.

فأخذ البَرْوَانِيّ الكتاب وجميعَ ما أعطاه السلطان وسار إلى أن وصل إلى الديار المصريّة؛ ودفَع الكتاب لسَلّار وبِيبَرْس، فلما قرآ الكتاب قالا: «ولو كان هذا الصبيّ يجيء ما بَقِي يُفْلِح ولا يصلُح للسلطنة؛ وأيّ وقت عاد إلى السلطنة لا نأمن غَدْرَه».

فلمّا سمعت الأمراء ذلك آجتمعت على سلطنة الأمير سَلّار، فخاف سَلّار من ذلك وخَشِي العاقبةَ فامتنع، فآختار الأمراء ركن الدين بِيبَرس الجَاشْنَكِير وأكثرهم البرجية فإنّهم خُشْدَاشِيَتُه. وبويع له بعد أن أثبتَ كتابَ الملك الناصر محمد بن قلاوون على القضاة بالديار المصريّة بأنه خلَع نفسه؛ وكانت البَيْعَة لبِيبَرْس في الثالث والعشرين من شَوّال من سنة ثمان وسبعمائة في يوم السبت بعد العصر في دار سَلّار. يأتي ذكر ذلك كلّه في أوّل ترجمة بِيبَرس، إن شاء الله تعالى. وكانت مُدّةُ سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون في هذه المرّة الثانية عشر سنين وخمسة أشهر وتسعة عشر يوماً. وتأتي بقيّة ترجمته في سلطنته الثالثة بعد أن نذكر سلطنة بيبرس وأيامه كما نذكر أيام الملك الناصر هذا قبل ترجمة بيبرس المذكور على عادة هذا الكتاب إن شاء الله تعالى. والحمد لله وحده.

* * *

السنة الأولى من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

وهي سنة ثمان وتسعين وستمائة، على أن الملك المنصور لاجين كان حكم منها مائة يوم.

فيها كان قَتْل الملك المنصور حُسام الدين لاجين المذكور ومملوكِه مَنْكُوتَمُر حسب ما تقدّم.

وفيها في العَشْر الأوسط من المحرّم ظهرَ كوكبٌ ذُو ذُؤابةٍ في السماء ما بين أواخر بُرْج الثَّور إلى أوّل برْج الجَوْزاء، وكانت ذُؤابتُه إلى ناحية الشمال، وكان في العَشْر الأخير من كانون الثاني وهو شهر طوبة.

وفيها تُوُفِّي القاضي نِظام الدين أحمد آبن الشيخ الإمام العلّامة جمال الدين محمود بن أحمد بن عبد السلام الحَصِيرِّي الحَنفيّ في يوم الخميس ثامن المحرّم ودُفِن يوم الجمعة بمقابر الصوفية [بدمشق] عند والده؛ وكان إماماً عالماً بارعاً ذكياً وله ذِهْنٌ جيد وعبارةٌ طَلِقَةٌ مفيدةٌ؛ ودرّس بالنُّورية[١] وغيرها وأَفتَى سنين وأَقْرأ؛ وناب في الحُكْم بِدَمشق عن قاضي القُضاة حُسام الدين الحنفِيّ، وحسُنت سِيرتُه رحمه الله.

وفيها تُوُفّي الأميرُ عزّ الدين أَيْبَك المَوْصليّ نائب طرابُلُس والفتوحات الطرابُلُسيّة في أوّل صفر مسموماً. وكان من أجلّ الأمراء وله مواقفُ مشهورة.

وفيها توفِّي قتيلاً الأميرُ سَيْف الدين طُغْجِي بن عبد الله الأَشْرَفيّ. أصله من مماليك الملك الأشرف خليل بن قلاوون. وقُتِل أيضاً الأمير سيف الدين كُرْجِي، والأمير نُوغاي الكرموني السلاح دار؛ وهؤلاء الذين قَتلوا السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين ومملوكَه مَنْكُوتَمُر، ثم قُتِلوا بعده بثلاثة أيام حسب ما تقدّم ذكر ذلك كلِّه في آخر ترجمة الملك المنصور لاجين مُفَصّلاً؛ وقُتِل معهم تمامُ آثني عشر نَفراً من الأمراء والخاصّكِيّة ممّن تألّبُوا على قتل لاجين.

وفيها تُوُفّي الأمير بدر الدين بدر الصَّوَابيّ [أحد أمراء الألوف بدمشق][٢] في ليلة الخميس تاسع جمادى الأولى بقرية الخِيَارَة[٣]. كان خرج إليها فَمرض بها ومات؛ وقيل بل مات فَجْأةً ــ وهو الأصحُّ ــ فُحِمل منها إلى جبل قاسِيون، ودُفِن بتُربته التي أعدّها لنفسه. وكان أميراً مباركاً صالحاً ديِّناً خيِّراً. قال عِزّ الدين بن عبد الدائم: أقام أميرَ مائة ومُقدَّم ألف أكثرَ من أربعين سنة، وولي إِمْرة الحاجّ بدِمَشْق غيرَ مرّة. رحمه الله.

---

(١) المدرسة النورية: نسبة إلى نور الدين محمود الشهيد. وهما مدرستان بهذا الاسم: النورية الكبرى بخط الخواصين بدمشق (وقيل أنشأها ولده الملك الصالح إسماعيل)؛ والنورية الصغرى بجامع قلعة دمشق. والمدرستان للحنفية. (الدارس: ١/٤٦٦، ٤٩٩).

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) الخيارة: قرية في فلسطين بالقرب من حطين. (معجم البلدان).

وفيها تُوُفّي العلّامة حُجّة العَرَب الإمام الأستاذ بهاء الدين أبو عبد الله محمد ابن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحَلَبيّ النحوي المعروف بابن النحّاس. مات بالقاهرة في يوم الثلاثاء سابع جمادى الأولى وأُخرِج من الغد، ودُفِن بالقرافة بالقُرْب من تُرْبة الملك المنصور لاجين؛ ومولده في سنة سبع وعشرين وستمائة بحلب؛ وكان إماماً عالماً علامة بارعاً في العربيّة، نادرةَ عصره في فنون كثيرة. وله نظم ونثر.

قال العلّامةُ أثيرُ الدين أبو حَيّان: حدَّثنا الشيخُ بهاء الدين آبن النحاس قال: آجتمعتُ أنا والشِّهاب مسعود السنْبُليّ والضياءُ المُنَاويّ فأنشد كلٌّ منا له بيتين، فكان الذي أنشده السُّنْبُلي في مَليحٍ مُكارِي: [مجزوء الرجز]

عَلِقْتُه مُكارِياً شَرّدَ عن عيني الكَرَى
قد أشبَه البَدر فلا يَمَلّ من طول السُّرَى

وأنشد المُنَاوِيّ في مليح آسمه جَمْرِيّ: [السريع]

أَفْدِي الذي يَكْبِتُ بَدْرَ الدُّجَى لحُسنه الباهر من عَبْده
سَمَّوْه جَمْرِيّاً وما أنصفُوا ما فيه جمريٌّ سوى خَدِّه

وأنشد الشيخ بهاء الدين هذا في مَلِيح مشروط: [الرمل]

قلت لما شرطوه وجَرَى دَمُهُ القَانِي على الوجه اليَقَقْ[1]
غيرُ بِدْعٍ ما أَتَوْا في فعلهم هو بَدْرٌ سَتَرُوه بالشَّفَقْ

قلت: ونظمُ الثلاثة نظمٌ متوسِّط ليس بالطبقة العُلْيا. وأحسن من الأوّل قولُ من قال: [الكامل]

أَفْدِي مُكارِيّاً تراه إذا سعَى كالبَرْق ينتهب العيونَ ويخْطَفُ
أخذ الكِرَا مِنِّي وأَحْرَمَني الكَرَى بيني وبينك يا مُكاري المَوْقِفُ

وأحسن من الأخير قولُ من قال، وهو نجم الدين عبد المجيد بن محمد التَّنوخِيّ: [مجزوء الكامل]

(١) اليقق: الشديد البياض الناصعه.

انظُرْ إليه وسَلْ قَلْبَكَ عن محبته لعَلّكْ
مَلَك الفؤادَ بغير شَرْ طٍ حُسْنُه والشَّرْطُ أمْلَكْ

غَيْرُه في المعنى: [الرمل]

شَرَّطُوه فَبَكَى من أَلَمٍ فغَدَا ما بين دَمْعٍ ودمٍ
ناثراً من ذا ومن ذا لؤلؤاً وعقيقاً ليس بالمنتظمِ

وفيها تُوُفِّي الصاحب تَقِي الدين أبو البَقَاء تَوْبةُ بن عليّ بن مُهاجِر بن شُجاع بن تَوْبَة التَّكْرِيتي في ليلة الخميس ثامن جُمادَى الآخرة ودُفِن بقاسِيون. وكان رئيساً فاضلاً؛ ولي الوَزَرَ بدِمشْق لخمسة سلاطين: أوّلهم المنصور قلاوون، ثانيهم آبنه الأشرف خليل، ثم لأخيه الناصر محمد، ثم للعادل كَتْبُغَا، ثم للمنصور لاجين. إنتهى. وكان مولده سنة عشرين وستمائة.

وفيها في أوّل ذي القعدة، وقيل في شوّال، تُوُفِّي بالقاهرة الأمير الكبير بدر الدين بَيْسَري بن عبد الله الشَّمسِيّ الصالحيّ النَّجْمِيّ بالسجن بقلعة الجبل، ودُفِن بتربته بالقاهرة. كان أميراً جليلاً مُعَظَّماً في الدُّول؛ كان الظاهر بِيبَرْس يقول: هذا ابن سلطاننا في بلادنا! وعُرِضت عليه السلطنة لما قتل الملك الأشرف خليل ابن قلاوون فامتنع، وكانت قد عُرِضت عليه قبل ذلك بعد الملك السَّعِيد بن الظاهر فلم يَقْبَل؛ وهو آخرُ من بَقِي من أكابر مماليك الملك الصالح نجم الدين أيُّوب، وتَرَقَّى حتى صار أميرَ مائة ومقدَّم ألف؛ وعَظُم في الدُّوَل حتّى قبض عليه خُشْدَاشُهُ المنصور قلاوون وحبسه تسع سنين إلى أن أطلقه آبنه الأشرف خليل وأعاده إلى رتبته، فآستمر إلى أن قَبض عليه المنصور لاجين وحبسه إلى أن قُتِل لاجين؛ وأُعِيد الناصر محمد بن قلاوون فكلّموه في إطلاقه فأبى إلا حبسه إلى أن مات في الجُبّ[1].

---

(١) الجبّ: بئر بقلعة الجبل. وصفه المقريزي بأنه الجبّ الشنيع لسجن الأمراء، وأنه كان مهولاً مظلماً كثير الوطاويط كريه الرائحة، يقاسي المسجون فيه ما هو كالموت أو أشد منه. وقد بدأه السلطان قلاوون سنة ٦٨١هـ، ولم يزل يستخدم لذلك الغرض حتى عهد الناصر محمد بن قلاوون. (خطط المقريزي: ١٨٨/٢).

وكانت له دارٌ[١] عظيمةٌ ببين القصرين وقد تَغَيّرت رُسُومها الآن. وكان عالَي الهِمّة كثيرَ الصدقات والمعروف؛ كان عليه في أيام إمْرته رَوَاتِبُ لجماعة من مماليكه وحواشيه وخَدَمه، فكان يُرَتِّب لبعضهم في اليوم من اللّحم سبعين رِطْلاً وما تحتاج إليه من التّوابِل وسبعين عَلِيقةً، ولأَقلِّهم خمسة أرطال وخمس علائق وما بين ذلك؛ وكان ما يَحْتَاج إليه في كلّ يوم لِسماطه ولدُوره والمُرَتَّب عليه ثلاثةَ آلاف رطْل لحم وثلاثة آلاف عليقة في كلّ يوم؛ وكانت صدقته على الفقير ما فوق الخمسمائة ولا يُعْطي أقلَّ من ذلك؛ وكان إنعامُه ألفَ إرْدِبّ غَلّة وألف قنطار عسل وألف دينار وأشياء يطول شرحها. وفي الجملة أنّه كان من أعظم أمراء مصر بلا مدافعة. (وبَيْبَرِي: آسم مركب من لفظتين: تركية وعجمية) وصوابه في الكتابة (باي سري) فباي في اللغة التركية بالتفخيم هو السعيد، وسَرِي بالعجميّ الرأس، فمعنى الاسم سعيد الرأس.

قلت: وكان سَعيد الرأس كما قيل، وهذا بخلاف مذهب النُّحاة فإنّ هذا الاسم عين المُسَمَّى. انتهى.

وفيها تُوُفّي الأستاذ جمال الدين أبو المجد ياقوت بن عبد الله المُسْتَعْصِمِيّ الرُّوميّ الطَّوَاشِيّ صاحب الخطّ البديع الذي شاع ذكرُه شرقاً وغرباً. كان خَصِيصاً عند أستاذه الخليفة المستعصم بالله العَبّاسيّ آخر خلفاء بني العبّاس ببغداد. ربّاه وأدّبه وتعهّده حتى برع في الأدب، ونَظَم ونَثَر وانتهت إليه الرياسة في الخط المنسوب. وقد سُمِّي بهذا الاسم جماعةٌ كثيرة قد ذُكِر غالبهم في هذا التاريخ، منهم كُتّاب وغيرُ كُتّاب، وهم: ياقوت أبو الدرّ [الكاتب مولى أبي المعالي أحمد بن علي بن النجار][٢] التاجر الرومي (وفاته بدمشق سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة)، وياقوت الصَّقْلَبِيّ الجَمَالي أبو الحسن مولى الخليفة المسترشد العَبّاسيّ (وفاته سنة ثلاث

(١) هي الدار البيسرية. (انظر خطط المقريزي: ٢/٦٩) وقد اندثرت هذه الدار، ومكانها اليوم مجموعة المباني الواقعة في المنطقة التي تحدّ الآن من الشرق بشارع المعز لدين الله، ومن الشمال شارع الخرنفش، ومن الغرب حارة البرقوقية، ومن الجنوب جامع الكامل. (محمد رمزي).

(٢) زيادة عما تقدم في الجزء الخامس، ص ٢٨٣.

وستين وخمسمائة)، وياقوت أبو سعيد مولى أبـي عبد الله عيسى بن هبـة الله بن النَّقَّاش (وفاته سنة أربـع وسبعين وخمسمائة)، وياقوت [بن عبد الله][1] الموصلي الكاتب أمين الدين المعروف بالمَلَكي نسبة إلى أستاذه السلطان مَلِكْشَاه السَّلْجُوقيّ (وياقوت هذا أيضاً ممن آنتشر خَطُّه في الآفاق، ووفاته بالموصل سنة ثماني عشرة وستمائة)، وياقوت [بن عبد الله][1] الحَمَويّ الرومي شهاب الدين أبو الدرّ: كان من خُدّام بعض التُّجار ببغداد يعرف بعسكر الحَمَويّ (وياقوت هذا هو صاحب التصانيف والخط أيضاً، ووفاته سنة ستٍّ وعشرين وستمائـة،)، وياقـوت [بن عبد الله][1] مهذَّب الدِّين الرُّومي مولى أبـي منصور التاجر الجِيليّ، وياقوت هذا كان شاعراً ماهراً، وهو صاحب القصيدة التي أوّلها: [البسيط]

إن غاض دمعك والأحبابُ قد بانوا فكّـل ما تَـدَّعي زورٌ وبُهْتـانُ

ووفاته سنة آثنتين وعشرين وستمائة. فهؤلاء الذين تقدّموا ياقوت المستعصميّ صاحب الترجمة بالوفاة، وكلٌّ منهم له ترجمةٌ وفضيلةٌ وخطٌّ وشِعْرٌ. وقد تقدّم ذكر غالبهم في هذا الكتاب، وإنما ذكرناهم هنا جملةً لكون جماعات كثيرة من الناس مهما رأوه من الخطوط والتصانيف يقرأوه لياقوت المستعصميّ، وليس الأمر كذلك بل فيهم من رجَّـح خَطَّه آبنُ خلِّكان على ياقوت هذا.

قلت: وقد خرجنا عن المقصود لكثرة الفائدة، ولنعْد إلى بقية ترجمة ياقوت المستعصميّ. فمن شعره قوله: [البسيط]

تُجَدِّد الشمسُ شوقي كلّما طَلَعْت إلى مُحَيّاك يا سمعي ويا بصري
وأَسْهَـرُ اللّيـل ذَا أُنسٍ بـوَحْشتِـهِ إذْ طِيبُ ذكرك في ظَلْمائه سَمَرِي
وكلّ يوم مَضَى [لي] لا أراكَ بِهِ فلستُ مُحْتَسِباً ماضيه من عُمُرِي
لَيْلي نهارِي إذا ما دُرْتَ في خَلَدِي لأَنّ ذكْـرك نـورُ القلب والبَصـرِ

وله أيضاً: [الكامل]

(١) زيادة عن شذرات الذهب.

صَدَّقْتُمُ فيَّ الوُشاةَ وقد مَضَى ... في حُبِّكم عُمْرِي وفي تكذيبها
وزعمتُم أنِّي مَلِلْتُ حَديثَكُمْ ... مَنْ ذا يَمل من الحياة وَطِيبها

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفِّي السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين المنصوريّ، ومن الغد قُتِل نائبه مَنْكُوتَمُر؛ ثم قتلوا الأميرين كُرْجِي وطُغْجِي الأشرفيين. وأُحْضِر السلطان الملك الناصر وعاد إلى السلطنة. وفيها توفي الإمام جمال الدين محمد بن سليمان بن النقيب الحَنَفِيّ صاحب التفسير بالقُدس في المحرّم. والعلّامة بهاء الدين محمد [بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم] أبو عبد الله الحَلبيّ آبن النحاس في جُمادَى الأولى. والصاحب تَقِيّ الدين تَوْبَة بن عليّ [بن مهاجر][١] التِّكْرِيتيّ في جُمَادَى الآخرة. والزاهد المُلَقِّن عليّ بن محمد [بن عليّ][١] بن بقاء الصالحيّ في شوّال. والمُسْنِد ناصر الدين عمر بن عبد المنعم بن عمر بن القَوّاس في ذي القعدة. وصاحب حماة الملك المظفر تقي الدين محمود ابن المنصور محمد [بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه][١]. والملك الأوحد يوسف آبن الملك الناصر داود بن المُعَظَّم عيسى. والعماد عبد الحافظ بن بدْرَان بن شِبْل النابُلُسِيّ في ذي الحجّة، وقد قارب التسعين.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم خمس أذرع وأصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وست عشرة إصبعاً.

* * *

(١) زيادة عن شذرات الذهب.

السنة الثانية من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

وهي سنة تسع وتسعين وستمائة.

فيها كانت وقعة السلطان الملك الناصر محمد المذكور مع قَازَان على حِمْص وقد تقدّم ذكرها.

وفيها تُوفّي القاضي عَلَاء الدين أحمد بن عبد الوهّاب بن خلف بن محمود ابن بدر العَلَامِيّ المعروف بابن بنت الأعزّ. كان لطيفَ العِبارة جميلَ الصورة لطيف المِزَاج. تَوَلَّى حِسْبَة القاهرة ونظر الأحباس، ودرّس بعدّة مدارس وحَجّ ودخل اليَمَن ثم عاد إلى القاهرة ومات بها في شهر ربيع الآخر، وكان له نظم ونثر. ومن شعره قصيدة أوّلها: [البسيط]

إن أَوْمَضَ البَرْقُ في ليلٍ بذِي سَلَمٍ فإنّه ثَغر سَلْمَى لَاحَ في الظُّلَمِ

وفيها تُوُفّي الشيخ المُسْنِد المَعمَّر شرف الدين أحمد بن هبة الله آبن تاج الأمناء أحمد بن محمد بن عساكر بدمشق، وبها دُفن بمقابر الصوفيّة بتُرْبة الشيخ فخر الدين بن عساكر، وكان من بقايا المُسْنِدين، تَفَرَّد سماعاً وإجازةً.

ذكر مَنْ عدم في هذه السنة من وقعة حِمْص مع التّتار

قاضي القضاة حُسام الدِّين الحَنَفِيّ، والشيخ عماد الدين إسماعيل آبن تاج الدين [أحمد بن سعيد][1] بن الأثير الكاتب، والأمير جمال الدين المطروحي[2]، والأمير سيف الدين كُرْت، والأمير ركن الدين الجَمَالي نائب غَزّة؛ ولم يظهر للجميع خبر، غير أنّهم ذكروا أن قاضي القضاة حُسام الدين المذكور أَسَرُوه التتار وباعوه للفرنج، ووصل قُبْرُص وصار بها حكيماً، وداوَى صاحب قُبْرُص من مَرَض مُخِيف فشفِي فأوعده أن يُطلقه، فمَرِض القاضي حُسام الدين المذكور ومات. كذا حكى بعض أجناد الإسكندرية.

وفيها تُوفي الشيخ الصالح الحافظ شهاب الدين أبو العباس أحمد بن فَرَج بن أحمد بن اللَّخْمِيّ الإشبِيلي بدمشق، ودُفِن بمقابر الصوفيّة؛ وكان حافظاً ديناً خيراً زاهداً متورِّعاً. عُرِض عليه جهات كثيرة فأعرض عنها؛ وهو صاحب القصيدة المشتملة على صفات الحديث: [الطويل]

غَرَامِي صحيحٌ والرَّجَا فيك معضلُ ... وحُـزْني ودَمْعِي مُرْسَـلٌ ومُسَلْسَلُ
وصَبْـرِيَ عنكم يشهَدُ العقـل أنه ... ضعيفٌ ومتـروكٌ وذُلِّـيَ أَجْمَـلُ
فـلا حسنٌ إلا سماعُ حـديثِكم ... مُشـافهـةً تُمْلَى علـيّ فـأَنْقُـلُ
وأَمْـرِيَ موقـوفٌ عليك وليس لي ... على أحـد إلاّ عليـك المُعَـوَّلُ
ولو كان مرفوعـاً إليكَ لكنتَ لِي ... على رَغْم عـذالـي تَـرِقُّ وتَعْـدِلُ
وعَـذْلُ عَـذُولٍ مُنْكَـرٌ لا أُسيغـه ... وزُور وتـدلـيسٌ يُـرَدُّ ويُـهْـمَـلُ

(١) زيادة عن السلوك.
(٢) في السلوك: «الأمير أقش كرجي المطروحي الحاجب».

أَقَضِّي زماني فيك مُتَّصِلَ الأَسَى ... ومُنْقَطِعاً عمّا به أَتَوَصَّلُ
وها أنا في أكفان هَجْرِك مُدْرَجٌ ... تُكَلِّفُني ما لا أُطِيقُ فأَحْمِلُ

وهي أطول من ذلك.

وفيها تُوفّي قاضي القضاة عِز الدين عبد العزيز آبن قاضي القضاة محيي الدين يحيى بن محمد بن عليّ بن الزكيّ في يوم الأحد حادي عشر ذي الحجّة. وكان من أعيان الدمَشْقيين؛ ودرّس بعدّة مدارس وآنتفع به الناس. رحمه الله.

وفيها تُوفي الشيخ الإمام العالم مُفتِي المسلمين شمس الدين محمد آبن الشيخ الإمام العلّامة شيخ المواهب قاضي القضاة صدر الدين أبي الربيع سليمان آبن أبي العِزّ وُهَيْب الحَنفي الدِّمَشْقِي في يوم الجمعة سادس عشر ذي الحجة بالمدرسة النُورية بدمشق، ودُفِن بتربة والده بقاسِيون؛ وكان فقيهاً عالماً مُفْتِياً بصيراً بالأحكام متصدِّياً للفَتْوَى والتدريس. أفتى مدّة أربع وثلاثين سنة وقرأ عليه جماعةٌ كثيرة وآنتفع الناس به؛ وكان نائباً في القضاء عن والده، وسُئِل بالمناصب الجليلة فآمتنع من قبولها. رحمه الله.

قلت: وبنو العز بيت كبير بدمشق مشهورون بالعلم والرياسة.

وفيها تُوُفّي صاحبُ الأَنْدَلُس أميرُ المسلمين أبو عبد الله محمد[1] بن محمد بن يوسف المعروف بابن الأَحْمَر. ملكَ الأندلس وما والاها بعد موت والده سنة إحدى وسبعين وستمائة، وآمتدت أيامه وقَوِي سلطانه، ومات في عشر الثمانين[2] رحمه الله تعالى.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: فيها تُوُفّي الإمام شمس الدين محمد بن عبد القَويّ المَقْدِسيّ النحويّ. وعِماد الدين يوسف بن أبي نصر الشقارِيّ، وقاضي القضاة إمام الدين عمر بن عبد الرحمن القَزْوِينيّ بمصر في ربيع

(١) الصواب أن وفاته كانت سنة ٧٠١هـ. وهو ثاني ملوك الدولة النصرية في الأندلس. (الأعلام: ٣٢/٧ ومصادره).

(٢) في المرجع أعلاه أنه ولد سنة ٦٣٣هـ ومات سنة ٧٠١هـ، فيكون قد مات عن ثمان وستين سنة.

الآخر. وعبد الدائم بن أحمد المَحَجِّي الوزّان. وعلي بن أحمد بن عبد الدائم وأخوه عمر. وأحمد بن زيد [بن أبي الفضل الصالحي الفقير المعروف][١] بالجمّال. وشرف الدين أبو الفضل أحمد بن هبة الله بن أحمد بن عساكر في جمادى الأولى. وعيسى بن بَركة بن والي. ومحمد بن أحمد بن نوال الرصافي. وعلي بن مطر المَحَجِّي البَقّال. وصفيّة بنت عبد الرحمن بن عمرو الفَرّاء، وابن عمها إبراهيم بن أبي الحسن [بن عمرو بن موسى أبو إسحاق الفرّاء][٢]. وأحمد بن محمد الحدّاد. وخديجة بنت [التَّقِيّ محمد بن محمود بن عبد المنعم][٢] المَرَاتِبِيّ. والحافظ شهاب الدين أحمد بن فَرَج اللَّخْميّ الإشبيليّ في جُمادى الآخرة. وأبو العبَّاس أحمد بن سليمان بن أحمد المَقْدِسِيّ الحرَّاني. والشيخ عِزّ الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد الحقّ. والخطيب موفّق الدين محمد بن محمد [المعروف بـ][٢]ـابن حُبَيش في جُمادى الآخرة بِدِمَشْق. والمعمَّرة زينب بنت عمر بن كُنْدِي ببعلبكّ. والأمير علم الدين [سَنْجَر البُرْنُلِي][٢] الدَّوَادَاري في رجب بحصن الأكراد. والمؤيّد عليّ بن إبراهيم بن يحيى ابن خطيب عَقْرَباء[٣]. وشمس الدين محمد بن علي بن أحمد بن الفضل الواسِطيّ في رجب، وله أربعٌ وثمانون سنة. والعَلاّمة نجم الدين أحمد بن مكّي في جُمادى الآخرة. والإمام شمس الدين محمد بن سَلْمَان بن حَمَائِل سبط غانِم[٤]. والشيخ بدر الدين حسن بن علي بن يوسف بن هود المُرْسِيّ في رجب. والإمام شمس الدين محمد ابن الفخر عبد الرحمن بن يوسف البَعْلَبَكِّيّ في رمضان. والشريف شمس الدين محمد بن هاشم بن عبد القاهر العباسِيّ العدل في رمضان، وله أربع وتسعون سنة. والشيخ بهاء الدين أيُّوب بن أبي بكر [بن إبراهيم بن هبة الله أبو صابر][٥] بن النحاس مدرس القِليجِيّة[٦] في شوّال. والمفتي

(١) زيادة عن تاريخ الإسلام للذهبي.

(٢) زيادة عن الذهبي وشذرات الذهب.

(٣) عقرباء: اسم مدينة الجولان، وهي كورة من كور دمشق. (معجم البلدان).

(٤) هو غانم بن علي بن إبراهيم بن عساكر المقدسي الزاهد. تقدمت وفاته سنة ٦٣٢هـ.

(٥) زيادة عن الذهبي وشذرات الذهب.

(٦) المدرسة القليجية: بدمشق، داخل البابين الشرقي وباب توما. ويقال لها القليجية المجاهدية نسبة إلى بانيها مجاهد الدين بن قليج بن محمد بن شمس الدين محمود. (الدارس: ١/٣٢٩).

جمال الدين عبد الرحيم بن عمر البَاجِرْبِقِي. والعدل بهاء الدين محمد بن يوسف البِرْزَاليّ عن آثنتين وستين سنة. والأديب جمال الدين عمر بن إبراهيم بن العقيميّ الرَّسْعَنِيّ، وله أربع وتسعون سنة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وعدة أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرةَ ذراعاً وستّ أصابع؛ وكان الوفاء ثالث عشر توت.

* * *

السنة الثالثة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

وهي سنة سبعمائة من الهجرة.

فيها تُوُفّي الأميرُ سيف الدِّين بَلَبَان الطَّبَّاخِيّ بالعسكر المنصور على الساحل؛ وكان من أعيان الأمراء وأحشمهم وأشجعهم وأكثرهم عُدَّةً ومماليكَ وحاشية. وولي نيابةَ حَلَب قبل ذلك بمدّة، ثم ولي الفتوحات بالساحل ودام عليها سنين. وكان جميلَ السِّيرة والطريقة وله المواقف المشهورة والنِّكاية في العدو. رحمه الله تعالى.

وفيها تُوُفّي الأديب البارع شهاب الدين أبو جَلَنْك[1] الحَلَبِيّ الشاعر المشهور صاحب النوادر الطَّريفة، كان بارعاً ماهراً وفيه هِمَّةٌ وشجاعة. ولما كانت وَقْعة التّتار في هذه السنة نزل أبو جَلَنْك المذكور من قلعة حَلَب لقتال التّتار، وكان ضَخْماً سميناً فوَقَع عن فَرَسه من سهم أصاب الفرَس فبَقي راجلاً، فأسروه وأحضروه بين يدَيْ مقدّم التتار، فسأله عن عسكر المسلمين، فرفَع شأنهم فغضِب مقدّم التتار، عليه اللعنة، من ذلك فضَرب عُنُقَه. رحمه الله تعالى. ومن شعر أبي جَلَنْك المذكور قوله: [السريع]

وشادِنٍ يَصْفَعُ مُغْرىً به ... براحةٍ أنْدَى من الوابِل
فصِحتُ في الناس ألا فآعجبوا ... بَحْرٌ غَدَا يَلْطِمُ في الساحِل

[1] هو أحمد بن أبي بكر. (فوات الوفيات).

قال الشيخ صلاح الدين الصفدِيّ رحمه الله: وكان أبو جَلَنْك قد مَدَح قاضيَ القُضاة شمس الدين أحمدَ بن خلِّكان فَوَقَّع له بِرطلي خُبْزٍ، فكتب أبو جَلَنْك على بُستانه: [الرجز]

لله بستانٌ حَلَلْنا دَوْحَهُ كَجنّةٍ قد فُتّحت أبوابَها[1]
والبانُ تَحْسِبهُ سنانيراً رَأَتْ قاضِي القضاةِ فنفَّشَتْ أذْنابَها

قلتُ: لعل الصلاح الصَّفَدِيّ وَهَم في آبن خلّكان، والصوابُ أنّ القصّة كانت مع قاضي القضاة كمال الدين ابن الزَّمْلِكَانِيّ. اِنتهى.

ومن شعر أبي جَلَنْك في أَقْطَعَ: [الطويل]

وبِي أقطعٌ ما زال يَسْخُو بماله ومن جُوده ما رُدَّ في الناس سائلُ
تناهت يَدَاه فآستطال عطاؤُها وعند التَّناهِي يَقْصُر المتطاوِلُ

قلت: ووقَعَ في هذا المعنى عِدّةُ مقاطيع جيِّدة في كتابي المسمى بـ «حلية الصفات في الأسماء والصناعات» فمن ذلك: [المجتث]

أفديه أَقْطعَ يَشْدُو ساروا ولا ودّعوني
ما أنصفوا أهل ودي واصلتُهم قطعوني

ولشمس الدين ابن الصائغ الحَنَفِيّ: [مجزوء الرجز]

وأقْطَعٍ قلتُ له هل أنت لِصٌّ أَوْحَدُ
فقال هَذِي صنعةٌ لم يبقَ لي فيها يَدُ

وفي المعنى هَجْوٌ: [الوافر]

تَجَنَّبْ كُلَّ أَقْطَع فَهْو لِصٌّ يُريد لك الخِيانَةَ كُلَّ ساعَهْ
ومَا قَطَعُوه بعد الوصل لكِنْ أرادوا كَفَّهُ عن ذِي الصَّناعَهْ

غيره في المعنى: [مجزوء الرمل]

(١) رواية هذا الشطر في فوات الوفيات: ٦١/١ «والورق قد صدحت عليه لما بها».

مَنْ يكُنْ في الأصل لِصّاً ... لم يَكُنْ قطُّ أمِينَا
فَثِقُوا منه بِرَهْنٍ ... أوخُذوا منه يَمِينَا

وفيها تُوُفّي الشيخ الصالح المُسْنِد عِزّ الدين أبو الفِدَى إسماعيل بن عبد الرحمن بن عمر بن موسى بن عميرة المعروف بابن الفَرّاء المرداوِيّ ثم الصالحيّ الحنبليّ. مولده سنة عشر وستمائة وسَمِع الكثير وحدَّث، وخَرّج له الحافظ شمس الدين الذّهبيّ مشيخة؛ وكان دَيِّناً خَيِّراً وله نَظْمٌ. من ذلك قوله: [الخفيف]

أين من عَهْد آدَم وإلى الآ ... ن مُلوكٌ وسادةٌ وصُدُورُ
مَزّقَتْهُم أيدي الحوادث وآستو ... لتْ عليهم رَحَى المنون تَدُورُ

وله في المعنى، وقيل هما لغيره: [الكامل]

ثم آنقضت تلك السّنون وأهلُها ... فكأنّها وكأنّهم أحلامُ
وكذاك مَنْ يأتي وحقِّك بعدَهُمْ ... أمضاهُ رَبٌّ قادرٌ عَلاَّمُ

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم في هذه السنة، قال: وفيها تُوُفّي عِزّ الدين أحمد آبن العماد عبد الحميد بن عبد الهادي في المحرّم، وله ثمان وثمانون سنة. وعماد الدين أحمد [بن محمد] بن سعد[1] المَقْدِسِيّ وله ثلاث وثمانون سنة. وعز الدين إسماعيل بن عبد الرحمن بن عُمَر الفَرّاء في جُمادى الآخرة، وله تسعون سنة. وأبو علي يوسف بن أحمد بن أبي بكر الغَسُوليّ في الشهر، وله نحو من تسعين سنة. والحافظ شمس الدين أبو العلاء محمود بن أبي بكر البُخَاريّ الفَرَضيّ بمارِدين في ربيع الأوّل، وله ستّ وخمسون سنة. وشمس الدين أبو القاسم الخِضر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبدان الأَزْدِيّ في ذي الحجة. والمقرىء شمس الدين محمد بن منصور الحاضري في صفر.

أمر النيل في هذه السنة:

(١) في الأصل: «ابن سعيد». والتصحيح والزيادة عن شذرات الذهب.

الماء القديم والحديث (أعني مجموع النيل) في هذه السنة ستَّ عشرةَ ذراعاً وثماني عشرةَ إصبعاً.

* * *

السنة الرابعة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

وهي سنة إحدى وسبعمائة.

فيها في ثالث عشر من شهر ربيع الأوّل سافر الأمير رُكن الدين بِيبرْس الجَاشْنَكِير إلى الإسكندرية وصحبتُه جماعة كثيرةٌ من الأمراء بسبب الصَّيْد، ورسَمَ له السلطان أنّ مدّة مقامه بالإسكندريّة يكون دَخلها له؛ ثم أَعْطَى السلطانُ لجميع الأمراء دُسْتُوراً لمن أراد السفر لإقطاعه لعمل مصالح بلاده؛ وكان إذ ذاك يُرَبِّعُون خيولهم شهراً واحداً لأجل العدوّ المخذول.

وفيها تُوُفّي مُسْنِدُ العَصْر شهاب الدين أحمد ابن رَفِيع الدِّين إسحاق بن محمدابن المؤيّد الأَبَرْقُوهِيّ بمكّة في العشرين من ذي الحجّة. ومولده سنة خمس عشرة وستمائة بأبرْقُوه من أعمال شِيراز، وكان سَمِع الكثير وحدّث وطال عمُره وتفرّد بأشياء.

وفيها تُوُفّي الحافظ شرف الدين أبو الحسين على آبن الإمام أبي عبد الله محمد بن أبي الحسين أحمد بن عبد الله بن عيسى بن أحمد بن محمد اليُونِينِيّ في يوم الخميس حادي عشر شهر رمضان ببعلبَكّ. ومولده في حادي عشر شهر رجب سنة إحدى وعشرين وستمائة ببعلبك.

وفيها تُوُفّي الأمير علم الدين سَنْجَر بن عبد الله المعروف بأَرْجَوَاش المنصوريّ نائب قلعة دِمَشق في ليلة السبت ثاني عشرين ذي الحجّة، وكان شُجاعاً. وهو الذي حفِظ قلعة دمَشْق في نَوْبة غازان وأظهر من الشجاعة ما لا يُوصف على تَغفُّلٍ كان فيه؛ حسب ما قدّمنا من ذكره في أصل ترجمة الملك الناصر محمد بن قلاوون ما فعله وكيف كان حِفْظُه لقلعة دِمَشق. وأمّا أمرُ التَّغَفُّل الذي كان به:

قال الشيخ صلاح الدين خليل بن أَيْبَك في تاريخه: حَكَى لي عنه عبد الغني الفقير المعروف قال: لَمّا مات الملك المنصور قلاوون (أعني أستاذه) قال لي: أَحْضِرْ لي مُقْرِئين يقرأون خَتْمَةً للسلطان، فأحضرتُ إليه جماعةً فجعلوا يقرأون على العادة، فأحضر دبوساً وقال: كيف تقرأون للسلطان هذه القراءة! تقرأون عالياً؛ فضَجُّوا بالقراءة جَهْدَهم، فلمّا فَرَغُوا منها، قلتُ: يا خَوَنْد فرغَت الخَتْمَة، فقال: يقرأون أُخْرَى، فقرأوها وقَفَزُوا ما أرادوا، فلمّا فَرَغُوا أعلمتُه، قال: وَيْلَكَ! السماءُ ثلاثةٌ، والأرضُ ثلاثة، والأيام ثلاثة، والمعادنُ ثلاثة، وكل ما في الدنيا ثلاثة؛ يقرأون أخرى! فقلت: اِقرأوها واَحمدوا الله تعالى على أنّه ما عَلِم أن هذه الأشياءَ سبعة سبعة؛ فلمّا فَرَغُوا [من] الثلاثة وقد هَلَكُوا من صُراخهم، قال: دعهم عندك في التَّرْسِيم إلى بُكرة، ورُح آكتب عليهم حُجَّة بالقسامة الشريفة بالله تعالى، وبنعمة السلطان أنّ ثَوابَ هذه الخَتَمَات لمولانا السلطان الملك المنصور قلاوون؛ ففعلتُ ذلك وجئتُ إليه بالحجّة، فقال: هذا جيِّد، أصلح الله أبدانكم؛ وصَرف لهم أُجْرَتَهم. وحُكِي عنه عِدَّةُ حكايات من هذا تَدُلّ على تَغَفُّلٍ كبير.

قلتُ: ويُلْحَقُ أَرْجَوَاش هذا بعقلاء المجانين فإنّ تدبيره في أمر قلعة دِمَشْق وقيامَه في قتال غازان له المنتهى في الشجاعة وحسن التدبير. اِنتهى.

وفيها تُوُفّي شمس الدين سعيد بن محمد بن سعيد بن الأثير في سابع عشر ذي القعدة بدمشق؛ وكان رئيساً فاضلاً كاتباً؛ كَتَب الإنشاء بدِمَشق سنين.

وفيها تُوُفّي الشريف نجم الدين أبو نُمَيّ محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قَتَادَة بن إدريس بن مُطاعن بن عبد الكريم[١] بن عيسى بن حسين بن سليمان بن عليّ بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله المَحْض بن موسى [بن

(١) أورد الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول نسب أبي نمي على النحو التالي: الشريف نجم الدين أبو نمي محمد بن أبي سعد حسن بن علي بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن سليمان بن عبد الكريم بن عيسى بن سليمان بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن موسى بن عبد الله بن سليمان بن موسى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب. (طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب: ص ١١١).

عبد الله][1] بن الحسن بن الحسن بن عليّ بـن أبـي طالب الحَسَنِيّ المَكِيّ صاحب مكّة المشرّفة في يوم الأحد رابـع صفر بعد أن أقام في إمرة مكّة أربعين سنة؛ وقدِم القاهرة مِراراً، وكان يقال: لولا أنّه زَيْدي لصلـح للخلافة لحُسن صفاته.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وأصابـع. مبلـغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وثلاث عشرة إصبعاً.

* * *

السنة الخامسة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

وهي سنة آثنتين وسبعمائة.

فيها في أوّل المحرّم قَدِم الأمير بِيبَرْس الجَاشْنَكِير من الحجاز ومعه الشريفان حُمَيْضَة ورُمَيْثَة[2] في الحديد فسُجِنا بقلعة الجبل.

وفيها في رابـع جمادى الآخرة ظَهَر بالنيل دابّة كَلَوْن الجاموس بغير شعر، وأُذُناها كأُذن آلجمَل، وعَيْناها وفَرجها مثل الناقة، ويُغَطّي فَرجَها ذنبُ طوله شِبْرٌ ونصفٌ، طَرَفُه كذَنَب السَّمَك، ورَقَبتُها مثل ثخن التِّلِّيس[3] المحشوّ تِبْناً، وفمها وشفتاها مثل الكِرْبال[4]، ولها أربـعُ أنياب [اثنتان فوق آثنتين][5] في طول نحو شِبْر وعَرْض إصبعين، وفي فمها ثمانيةٌ وأربعون ضِرْساً وسِنّاً مثل بَيادق الشِّطْرَنْـج، وطول يدها من باطنها شِبْران ونصفٌ، ومن ركبتها إلى حافرها مثل أظافير الجمل، وعَرْضُ ظَهْرها قدرُ ذراعين ونصف، ومن فمها إلى ذنبها خمس عشرة قَدماً، وفي بطنها ثلاثة كُروش، ولحمها أحمرُ له ذَفَرَةُ السَّمَك، وطعمُه مثل لحم الجمَل، وثخانةُ جِلْدِها أربـعُ أصابـع، لا تعْمَل فيه السُّيوف؛ وحُمِل جِلْدُها على خمسة جمال في مقدار

---

(١) زيادة عن المصدر السابق.

(٢) وهما ولدا أبـي نُمَي المذكور قبل هذا.

(٣) التِّلِّيس: هو الكيس الذي يستعمل لتعبئة الغلال والأتبان.

(٤) الكربال: مندف القطن.

(٥) زيادة عن السلوك.

ساعة من ثِقْلِه، وكان يُنقَل من جَمَل إلى جَمَل وقد حُشِيَ تِبْناً حتّى وَصَل إلى قلعة الجبل.

وفيها كان بمصر والقاهرة زَلزلة عظيمة أَخربتْ عدّة منائر ومبانٍ كثيرة من الجوامع والبيوت حتّى أقامت الأمراءُ ومباشرو الأوقاف مدّةً طويلة تَرُمُّ وتُجدّد ما تشعّث فيها من المدارس والجوامع حتّى مَنارة[1] الإسكندرية.

وفيها أبطل الأمير رُكن الدين بِيبَرْس الجَاشْنَكِير عيد الشهيد[2] بمصر، وهو أنّ النصارى كان عندهم تابوتٌ فيه إصبعٌ يزعمون أنّها من أصابع بعض شهدائهم، وأنّ النيل لا يزيد ما لم يُرْمَ فيه هذا التابوت، فكان يجتمع النصارى من سائر النواحي إلى شَبْرَا[3]، ويَقع هناك أمور يطول الشرح في ذكرها، حتى إنّ بعض النصارى باع في أيّام هذا العيد باثني عشر ألف درهم خمراً من كثرة الناس التي تتوجّه إليه للفُرجة؛ وكان تثور في هذا العيد فِتَنٌ وتُقتل خلائق. فأمر الأمير بِيبَرْس رحمه الله بإبطال ذلك، وقام في ذلك قَوْمةً عظيمة، فشقّ ذلك على النصارى، واجتمعوا بالأقباط الذين أظهروا الإسلام، فتوجّه الجميع إلى التاج ابن سعيد الدولة كاتب بِيبَرِس، وكان خَصِيصاً به، وأوعدوا بيبرس بأموال عظيمة، وخوّفوه من عدم طلوع النيل ومن كَسْر الخراج، فلم يلتفت إلى ذلك وأبطله إلى يومنا هذا.

وفيها تُوُفّي الشيخ كمال الدين أحمد بن أبي الفتح محمود بن أبي الوَحْش أسد بن سلامة بن سليمان بن فِتْيان المعروف بآبن العطّار، أحد كُتّاب الدَّرج بدِمَشق في رابع عشر ذي القعدة. ومولده سنة ستّ وعشرين وستمائة؛ وكان كثير

(١) منارة الإسكندرية: هي المنارة الكبيرة التي بناها بطليموس سوتر في الشمال الغربي من جزيرة فاروس الواقعة بقرب شاطىء الإسكندرية، وكانت تهتدي بها المراكب السائرة إلى الإسكندرية. وقد بقيت هذه المنارة قائمة بعد الفتح العربي بعدة قرون، وأطلق عليها كتاب العرب اسم المنارة أو المنار. وتقوضت تماماً مع مرور الزمن ولم يكن قد بقي منها شيء في العام ٨٨٢هـ حين شيدّ قايتباي على أنقاضها قلعة المنارة. (انظر صبح الأعشى: ٣٥٦/٣، ودائرة المعارف الإسلامية: ٣٢٤/٣، ومعجم البلدان: ١٨٨/١).

(٢) انظر خطط المقريزي: ٦٨/١ وفيه تاريخ طويل مفصل لهذا العيد.

(٣) المراد بها شبرا الخيمة. وهي اليوم إحدى قرى مأمورية ضواحي مصر بمديرية القليوبية. (محمد رمزي).

التلاوة محبّاً لسماع الحديث، وسَمِع وحدّث، وكان صدْراً كبيراً فاضلاً وله نظم ونثر، وأقام يكتب الدَّرج أربعين سنة.

وفيها تُوفّي الشيخ شهاب الدين أحمد آبن الشيخ القُدْوة برهان الدين إبراهيم ابن مِعْضاد الجَعْبرِيّ بالقاهرة؛ وقد تقدم ذكر وفاة والده، ودفن بزاويته خارج باب النصر من القاهرة.

وفيها تُوُفّي الأمير فارس الدين أَلْبَكي الساقي أحد مماليك الملك الظاهر بِيبَرْس. كان من أكابر أمراء الديار المصريّة، ثم آعْتُقِل إلى أن أَفْرج عنه الملك المنصور قلاوون وأنعم عليه بإمرة؛ ثم نقله إلى نيابة صَفَد فأقام بها عشر سنين؛ وفرّ مع الأمير قَبْجَق إلى غازان وتزوّج بأخته؛ ثم قَدِم مع غازان ولَحِق بالسلطان، فولّاه نيابة حمْص حتى مات بها في يوم الثلاثاء ثامن ذي القعدة. وكان مليحَ الشكل كثير الأدب، ما جلس قطُّ بلا خُفّ، وإذا رَكِب ونزل حَمَل جَمَدارُه[1] شاشه، فإذا أراد الركوب لفّه مرّةً واحدةً بيده كيف كانت.

وفيها آسْتُشْهِد بوقعة شَقْحَب الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر العِزِّي نقيب المماليك السلطانية؛ وأصله من مماليك الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر [الظاهري] نائب الشام؛ وكان كثير الهَزْل، وإليه تُنسب سُوَيْقة[2] العزِّي خارج القاهرة بالقرب من جامع[3] أَلْجاي اليُوسُفِيّ.

وفيها آسْتُشْهِد الأميرُ يوسف الدين أَيْدَمُر الشمسي القشّاش؛ وكان قد ولي

---

(١) الجمدار: موظف يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير ثيابه. وهي كلمة فارسية مركبة من لفظين أحدهما «جاما» ومعناه الثوب، والثاني «دار» ومعناه ممسك. وأصل الكلمة «جامادار». (صبح الأعشى: ٥/٤٥٩) ــ والشاش أو الشاشية: ما يوضع على الرأس وتلف عليه العمامة أو توضع عليه القلنسوة. وكانت تصنع في الشاش من د[illegible] وراء النهر، فنسبت إليها.

(٢) انظر خطط المقريزي: ٢/١٠٦.

(٣) جامع ألجاي اليوسفي: ذك[illegible] المقريزي في خططه: ٢/٣٩٩ باسم مدرسة ألجاي. وهذه المدرسة لا تزال موجودة بشارع سوق الـ[illegible]ح بالقاهرة باسم جامع ألجاي اليوسفي أو جامع السايس. وقد غلط المقريزي في تاريخ إنشاء هذه المدرسة فذكر أنها أنشئت في سنة ٧٦٨هـ، والصواب أنها أنشئت سنة ٧٧٤هـ كما تثبت الكتابة الموجودة بأعلا الباب العمومي لهذا الجامع. (محمد رمزي).

كَشف الغربية والشرقية جميعاً وآشتدّت مهابته؛ وكان يعذِّب أهل الفساد بأنواع قبيحة من العذاب، منها: أنّه كان يغرِس خازوقاً بالأرض ويجعلُ عوده قائماً ويرفع الرَّجُل ويُسقِطه عليه! وأشياء كثيرة ذكرناها في ترجمته في تاريخنا المنهل الصافي؛ ولم يجسُر أحد من الفَلاحين في أيّامه أن يَلبَس مِئزراً أسود ولا يركب فَرساً ولا يتقلّد بسيف ولا يَحمِل عصا مجلّبة [بحديد](١) حتى ولا أرباب الأدراك(٢)؛ ثم آستعفَى من الولاية ولَزِم داره؛ وخرج لغزوة شَقْحَب في مِحفَّة إلى وقت القتال: لبِس سلاحه ورَكِب فَرسه وهو في غاية الألم، فقيل له: أنت لا تقدِر تُقاتل، فقال: والله لمِثل هذا اليوم أنتظر، وإلاّ بأيّ شيء يتخلّص القَشّاش من ربّه بغير هذا! وحَمَل على العدوّ وقاتل حتّى قُتِل؛ ورُئي فيه ــ بعد أن مات ــ ستّة جِراحات.

وفيها أيضاً آستُشْهِدَ الأمير أُوْلِيا بن قَرَمان أحد أمراء الظاهريّة، وهو آبن أخت قَرَمان؛ وكان شجاعاً مِقْداماً.

وفيها آستُشْهِد أيضاً الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الأُستادار، وكان من كبار الأمراء المنصوريّة.

وآستُشْهِد الأمير جمال الدين آقوش الشمسي الحاجب، والأمير سيف الدين بَهادُر أحد الأمراء بحَمَاة، والأمير صلاح الدين ابن الكامل، والأمير علاء الدين ابن الجاكي، والشيخ نجم الدين [أَيُّوب](٣) الكُرْدِيّ، والأمير شمس الدين سُنْقُر الشمسي [الحاجب](٣)، والأمير شمس الدين سُنْقُر الكافري، والأمير سُنْقُرشَاه أستادار بِيبَرْس الجالق، والأمير حُسام الدين عليّ بن باخل، والأمير لاجين الروميّ [المنصوري](٣) أستادار الملك المنصور قلاوون ويعرف بالحُسام.

قلت: ورأيت أنا من ذرّيته الصارميّ إبراهيم بن الحسام. وكلُّ هؤلاء استشهدوا في نَوْبة غازان بشَقْحَب بيد التتار.

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) أرباب الأدراك: هم الجند أو الخفراء الذين يكلفون بحراسة الدرك. والدرك هو مكان معين يكلف الخفراء بحراسته بالتناوب. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٢٠).

(٣) زيادة عن السلوك.

وفيها تُوُفّي الملك العادل كَتْبُغا المنصوريّ نائب حَمَاة بها وهو في الكهوليّة في ليلة الجمعة يوم عيد الأضْحَى. وقد تقدّم ذكره في ترجمته من هذا الكتاب عند ذكر سلطنته بالديار المصريّة، وما وقَع له حتى خُلِع وتوجّه لنيابة صَرْخَد، ثم نُقِل إلى نيابة حماة فمات بها.

وفيها تُوُفّي قاضي القضاة تقيّ الدين محمد آبن الشيخ مجد الدين عليّ بن وهب بن مُطيع بن أبي الطاعة القُشَيْرِيّ المنفلوطي الفقيه المالكيّ ثم الشافعيّ المعروف بابن دقيق العيد قاضي قضاة الشافعيّة بالديار المصريّة. كان إماماً عالماً. كان مالكياً ثم آنتقل إلى مذهب الشافعي؛ ومولده في عشرين شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة، ومات في يوم الجمعة حادي عشر صفر؛ وكان تفقّه بأبيه ثم بالشيخ عز الدين آبن عبد السلام وغيره، وسمع من آبن المُقَيَّر وآبن رَوَاح وآبن عبد الدائم وغيرهم؛ وخرّج لنفسه تساعيات، وصار من أئمة العلماء في مذهبي مالك والشافعيّ مع جَوْدة المعرفة بالأصول والنحو والأدب؛ إلّا أنّه كان قَهَره الوَسواس في أمر المياه والنَّجاسات، وله في ذلك حكاياتٌ ووقائع عجيبة. ورَوَى عنه الحافظ فتح الدين ابن سيّد الناس، وقاضي القضاة علاء الدين القُونَويّ، وقاضي القضاة علم الدين الإِخْنائي وغيرهم. وكان أبو حَيّان النحويّ يُطْلِق لسانَه في حقّ قاضي القضاة المذكور، وقد أوضَحنا ذلك في ترجمته في المنهل الصافي بآستيعاب. ومن نظمه قصيدته المشهورة في مدح النبيّ صلىّ الله عليه وسلّم التي أوّلها: [الكامل]

يا سائِراً نحوَ الحجاز مشمّراً ... اِجْهَدْ فَدَيتُك في المسير وفي السُّرَى
وإذا سَهِرتَ اللّيل في طلب العُلا ... فحذَارِ ثم حَذَارِ من خدع الكَرَى

وله أيضاً: [الرجز]

سحابُ فكري لا يزال هامِيَا ... ولَيلُ هَمّي لا أراه راحلَا
قد أتعبَتْنِي هِمّتِي وفِطْنتِي ... فليتني كنت مَهِيناً جاهلَا

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم لم يُحَرَّر. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً سواء؛ وكان الوفاء في سابع عشرين مسري.

* * *

السنة السادسة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاون الثانية على مصر

وهي سنة ثلاث وسبعمائة.

فيها آنتدب الأمراء لعمارة ما خرِب من الجوامع بالزَّلزلة في السنة الماضية، وأنفقوا فيها مالاً جزيلاً.

وفيها كملت عمارة المدرسة الناصريّة[1] ببين القصرين، ونَقَل الملك الناصر محمد بن قلاوون أُمَّه من التُّربة المجاورة[2] للمشهد النِّفيسِيّ إليها. وموضع هذه المدرسة الناصريّة كان داراً تُعرف بدار سيف الدين بَلَبَان الرشيديّ فآشتراها الملك العادل زَيْن الدين كَتْبُغَا وشرَع في بنائها مدرسة، وعَمِل بوّابتها من أنقاض مدينة عكّا، وهي بوّابة كنيسة بها، ثم خُلِع كَتْبُغَا، فآشتراها الملك الناصر محمد هذا على يد قاضي القضاة زين الدين عليّ بن مخلوف وأتّمها وعَمِل لها أوقافاً جليلة، من جملتها: قَيْسَارِيّة أمير علي[3] بالشرابشيين[4]، والرَّبع المعروف بالدهيشة[5] قريباً

(١) المدرسة الناصرية: بدأ بإنشائها الملك العادل زين الدين كتبغا المنصوري سنة ٦٩٥هـ. وبعد أن ارتفع بناؤها عن الأرض تصادف أن خلع كتبغا وعاد الناصر محمد بن قلاوون إلى السلطنة فاشترى هذه المدرسة وأكملها في سنة ٧٠٣هـ. (انظر خطط المقريزي: ٣٨٢/٢). ولا تزال هذه المدرسة موجودة إلى اليوم بين جامعي قلاوون وبرقوق بشارع المعز لدين الله بالقاهرة وتعرف بجامع الناصر. (محمد رمزي).

(٢) المراد تربة الخلفاء العباسيين.

(٣) عرفت بالأمير علي ابن الملك المنصور قلاوون الذي عهد له بالملك ولقبه بالملك الصالح ومات في حياة أبيه سنة ٦٧٩هـ. (انظر خطط المقريزي: ٨٧/٢، و ٣٧٣/١).

(٤) سوق الشرابشيين: كان يباع في هذا السوق الخلع التي ينعم بها السلطان على الأمراء والوزراء والقضاة وغيرهم. وقيل له سوق الشرابشيين لأنه كان من الرسم في الدولة التركية أن السلطان والأمراء يلبسون على رؤوسهم كلوتة صفراء مضربة تضريباً عريضاً ولها كلاليب بغير عمامة فوقها، وهو لباس يشبه التاج مثلث الشكل يحمل على الرأس بغير عمامة، فعرف هذا السوق بالشرابشيين نسبة إلى الشرابيش المذكورة. (خطط المقريزي: ٩٨/٢).

(٥) هذا الربع لا يزال موجوداً، وهو ضمن أعيان وقف رضوان بك الفقاري تجاه جامع الصالح طلائع بن رزيك في أول شارع قصبة رضوان على اليمين من جهة باب زويلة. (محمد رمزي).

من باب زُويلة، وحوانيت بباب الزُّهومة[١] والحمام[٢] المعروفة بالفخرية بجوار المدرسة[٣] الفخرية، وعِدّة أوقاف أخرى في مصر والشام.

وفيها تُوُفّي الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الحَمَوِي. كان أصله من مماليك الملك المنصور[٤] صاحب حَمَاة، فطلبه منه الملك الظاهر بيبرْس هو وأبو خُرْص [علم الدين سَنْجَر][٥] من الملك المنصور، فسيرهما إليه ففرقّهما ثم أمَّرهما؛ ثم وَلَّى الملك الأشرُف خليل أيبكَ هذا نيابة دِمَشْق بعد سَنْجَر الشجاعيّ حتّى عزله الملك العادل كَتْبُغَا بمملوكه إغزلوا العادليّ، وولي بعد ذلك نيابة صَرْخد ثم حِمْص وبها مات في تاسع عشر ربيع الآخر.

وفيها توفي الأمير ركن الدين بِيبرْس التِّلَاوِيّ. وكان يَلي شدَّ دمشق؛ وكان فيه ظُلْم وعَسْف، وتولّى عِوَضَه شدّ دِمَشق الأمير قَيْرَان الدواداري.

وفيها تُوُفّي القاضي شمس الدين سليمان بن إبراهيم بن إسماعيل المَلَطِيّ ثم الدِّمَشْقِيّ الحنفيّ أحد نوّاب الحكم بدمشق ومصر. كان فقيهاً عالماً ديّناً مباركاً حسن السِّيرة.

---

(١) باب الزهومة: أحد أبواب القصر الكبير الشرقي الفاطمي بالقاهرة. وقد عرف بذلك الاسم لأن اللحوم وحوائج الطعام كانت تدخل إلى مطبخ القصر من هذا الباب، فقيل له باب الزهومة يعني باب الزفر. (انظر خطط المقريزي: ١/٤٣٥و٢/٣٥؛ وصبح الأعشى: ٣/٣٥٠).

(٢) وكان يعرف أولاً باسم حمام الكلاب، ثم عرف بحمام البنات لأنه يجاور جامع فخر الدين عبد الغني الذي يعرف بجامع البنات بشارع جامع البنات بالقاهرة. وقد هدم هذا الحمام ودخلت أرضه في دار أم حسين بك بن محمد علي باشا والي مصر. (محمد رمزي).

(٣) في السلوك: «بجوار المدرسة السيفية». والمدرسة الفخرية التي يقصدها المؤلف هي التي أنشأها الأمير فخر الدين عبد الغني بن أبي الفرج الأرمني. وذكرها المقريزي في خططه باسم جامع الفخري لتمييزها من المدرسة الفخرية القديمة التي أنشأها الأمير فخر الدين عثمان بن قزل البارومي. (محمد رمزي) ــ وانظر خطط المقريزي: ٢/٣٢٨، ٣٦٧.

(٤) هو الملك المنصور تقي الدين محمود ابن الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن المظفر محمود ابن المنصور محمد بن عمر بن شاهنشاه الحموي، آخر ملوك حماة. تقدمت وفاته سنة ٦٩٨هـ.

(٥) زيادة عما ذكره المؤلف في الجزء السابع، ص ١٧٦.

وفيها تُوفّي القان إيل خان معزّ الدين قازان، وقيل غازان، وكلاهما يصح معناه، آبن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن تُولى بن جنكز خان ببلاد قَزْوِين في ثاني عشر شوّال وحُمِل إلى تربته وقُبّته التي أنشأها خارج تِبْريز. وكان جلوسه على تخت المُلْك في سنة ثلاث وتسعين وستمائة؛ وأسلَم في سنة أَربع وتسعين، ونَثَر الذهب والفِضّة واللؤلؤ على رؤوس الناس؛ وفشا الإسلامُ بإسلامه في ممالك التتار، وأظهرَ العدل وتَسّمى محموداً، وكان أجلّ ملوك المُغْل من بيت هولاكو، وهو صاحب الوَقَعات مع الملك الناصر محمد بن قلاوون والذي مَلَك الشام. وقد تقدّم ذكر ذلك كلِّه في أصل هذه الترجمة.

وفيها تُوُفّي القاضي فتح الدين أبو محمد عبد الله آبن الصاحب عِزّ الدين محمد بن أحمد بن خالد بن محمد القَيْسَرَانِيّ في يوم الجمعة خامس عشرين شهر ربيع الآخر بالقاهرة؛ وقد وَزَرَ جَدُّه موفَّق الدين خالد للملك العادل نور الدين محمود بن زَنْكي المعروف بالشهيد. وكانت لديه فضيلة وعُنِي بالحديث، وجَمع وألّف كتاباً في معرفة الصحابة؛ وكان له نظم ونثر، وخرّج لنفسه أربعين حديثاً، وروَى عنه الدِّمْياطِيّ من شعره، وأخَذ عنه الحافظ فتح الدين آبن سيِّد الناس، والبِرْزَاليّ والذهبيّ. ومن شعره: [الوافر]

بوجه مُعذِّبي آياتُ حُسْنٍ ... فقُل ما شئتَ فيه ولا تُحاشِي
ونسخة حُسنِه قُرِئَتْ فصحَّتْ ... وها خَطُّ الكمال على الحواشِي

وفيها تُوفّي القاضي كمال الدين أبو الفتح موسى آبن قاضي القضاة شمس الدين أحمد ابن شهاب الدين محمد بن خَلِّكان. كان فاضلاً، آشتغل في حياة والده ودرس؛ وكانت سِيرتُه غير مشكورة؛ وهو كان أكبرَ الأسباب في عزل والده، ومات في شهر ربيع الأوّل.

وفيها توفّي الشريف أبو فارس عبد العزيز بن عبد الغني بن سرور بن سلامة المَنُوفيّ أحد أصحاب أبي الحَجاج الأَقْصُرِيّ. مات في ليلة الأثنين خامس عشر ذي الحجة بمصر عن مائة وعشرين سنة.

وفيها تُوفِّي الشريف جَمَّاز بن شِيحة [بن هاشم بن قاسم بن مُهَنّا][١] أمير المدينة النبويّة مصروفاً عن ولايتها، والأصح وفاته في القابلة.

وفيها تُوُفِّي الإمام المحدّث تاج الدين عليّ بن أحمد بن عبد المحسن الحُسَيْنِيّ الغَرَّافِي الإسكندرانيّ في سابع ذي الحجّة.

وفيها تُوفِّي الأمير الوزير ناصر الدين محمد، ويقال ذُبْيان الشيخيّ، تحت العقوبة في سابع ذي القعدة.

وفيها تُوفِّي الشريف شمس الدين أبو عبد الله محمد بن الحسين بن محمد الأرمويّ نقيب الأشراف في تاسع عشر شوّال، وكان فاضلاً رئيساً. وقيل وفاته في الآتية، وهو الأقوى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم ثلاث أذرع وعدّة أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعاً وستّ عشرة إصبعاً. وكان الوفاء أوّل أيام النَّسِيء.

* * *

السنة السابعة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

وهي سنة أربع وسبعمائة.

فيها توجّه الأمير بِيبَرْس الجاشْنَكِير إلى الحجاز مرّة ثانية ومعه علاء الدين أيْدُغدي الشَّهْرُزُورِيّ رسولُ مَلِك الغرب، والأمير بِيبَرْس المنصوريّ الدَّوَادار، والأمير بهاء الدين يعقوباً وجماعة كثيرة من الأمراء، وخرج رَكْب الحاج في عالَم كثير من الناس مع الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الخازِنْدار زوجِ بنت الملك الظاهر بِيبَرْس.

وفيها ظَهر في مَعدِن الزُّمُرُّد[٢] قطعةٌ زِنتها مائة وخمسة وسبعون مثقالاً فأخفاها

---

(١) زيادة عن الدرر الكامنة.

(٢) الزمرّد: ضرب من معدن «البريل» أخضر اللون يوجد في صخور الرخام والشست الميكائي؛ وأشهر مناجمه في جنوب مصر. وقد اكتشف المصريون القدماء هذه المناجم واستغلوها استغلالاً كبيراً، ولكنها =

الضامن، ثم حَمَلها إلى بعض الملوك، فدفَع فيها مائة ألف وعشرين ألف درهم، فأبَى [أن] يبيعها، فأخذها المَلِكُ منه غَصْباً وبعث بها إلى السلطان فمات الضامن غَماً.

وفيها تُوُفِّي القَاضي فتح الدين أحمد بن محمد بن سُلطان القُوصِيّ الشافعيّ وكيل بيت المال بُقوص وأحدُ أعيانها. كان من الرؤساء، ومات بها في حادي عشر المحرّم.

وفيها تُوُفِّي القاضي زَيْن الدين أحمد آبن الصاحب فخر الدين محمد آبن الصاحب بهاء الدين عليّ بن محمد بن سليم بن حِنّا في ليلة الخميس ثامن صفر؛ وكان فقيهاً فاضلاً متديِّناً وافر الحُرْمة.

وفيها تُوُفِّي شمس الدين أحمد بن عليّ بن هبة الله بن السَّديد الإِسْنَائِيّ خطيب إسْنا[١] ونائب الحكم بها وبأدْفُو[٢] وقُوص[٣] في شهر رجب؛ وكانت قد آنتهت إليه رياسة الصعيد، وبنَى بقوص مدرسة؛ وكان قويَّ النفس كثيرَ العطاء مُهاباً ممدوحاً يبذُل في بقاء رياسته الآلاف الكثيرة؛ يقال إنه بذَل في نيابة الحكم بالصعيد مائتي[٤]

= اختفت بعد ذلك آجالاً طويلة حتى أعيد كشفها في القرن الحالي. (الموسوعة العربية الميسرة: ٩٤٦).
وقال القلقشندي ــ في ذكر خواص وعجائب الديار المصرية: «أما خواصها فمن أعظمها خطراً معدن الزمرّد الذي لا نظير له في سائر أقطار الأرض؛ وهو في مغارة في جبل على ثمانية أيام من مدينة قوص (في التخوم بين بلاد مصر والسودان خلف أسوان). يوجد عروقاً خضراً في تطابيق حجر أبيض. وأفضله الذبابيّ ــ لمشابهة لونه في الخضرة لون كبار الذباب الأخضر الربيعي ــ ولم يزل هذا المعدن يستخرج منه الزمرّد إلى أثناء الدولة الناصرية محمد بن قلاوون فأهمل أمره وترك. قال ابن فضل الله العمري في مسالك الأبصار: وجميع ملوك الأرض وأهل الآفاق تستمد منه». (انظر صبح الأعشى: ٢/١١٥، و٣/٣١٠ ـ طبعة دار الكتب العلمية).

(١) إسنا: من المدن المصرية القديمة. سبق التعليق عليها: راجع الفهارس.

(٢) أدفو: من المدن المصرية القديمة الشهيرة بالصعيد الأعلى، تقع على الشاطىء الغربي للنيل. وهي اليوم قاعدة مركز أدفو بمديرية أسوان. (محمد رمزي).

(٣) سبق التعليق عليها. ــ انظر الفهارس.

(٤) في السلوك: «ثمانين ألف درهم».

ألف؛ وصادره الأمير كَرَاي المنصوريّ وأخذ منه مائة وستين ألف درهم، فَقِدم القاهرة ومات بها.

وفيها تُوُفِّي الأمير بِيبَرْس المُوَفَّقِي المنصوريّ أحدُ الأمراء بدِمَشق بها في يوم الأربعاء ثالث عشر جُمادى الآخرة مخنوقاً وهو سكران. نسأل الله حسن الخاتمة بمنّه وكرمه.

وفيها تُوُفّي الأمير الشريف عزّ الدين جَمَّاز بن شيحة أمير المدينة، وقد تقدّم في الماضية. والأصح أنّه في هذه السنة.

وفيها تُوُفّي الأمير شمس الدين محمد آبن الصاحب شرف الدين إسماعيل بن أبي سعيد بن التِّيتِيّ الآمديّ أحد الأمراء ونائب[١] دار العدل بقلعة الجبل، كان رئيساً فاضلاً.

وفيها تُوُفّي الأمير مُبارز الدين سَوَار الروميّ المنصوريّ أمير شِكَار؛ وكان من أعيان الأمراء وفيه شجاعة وحِشمة ورياسة؛ وكان معظماً في الدول.

وفيها تُوُفّي الأمير سيف الدين بَهادُر بن عبد الله المنصوريّ المعروف بسَمِز (أعني سمِيناً) مقتولاً بأيدي عرب الشام بعد أن قَتل منهم مقتلة كبيرة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وأصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعاً وآثنتا عشرة إصبعاً، وكان الوفاء رابع توت.

* * *

(١) نائب دار العدل: كانت دار العدل في قلعة الجبل؛ وهي المكان الذي كان يحضر فيه رئيس ديوان الإنشاء، ومعه كتاب الدست، يحضرون مع السلطان أو من ينوب عنه جلسات النظر في المظالم لقراءة القصص على السلطان. وإذا لم يتخذ قرار في هذه المظالم أثناء وجود السلطان أو من ينوب عنه، فإنها تحمل إلى ديوان الإنشاء لبحثها، ومنه ترسل إلى الجهة المختصة للتنفيذ ويوقع عليها بذلك. ويكون هذا التوقيع من قبل رئيس الديوان، إما بمراجعة السلطان أو بغير مراجعة. (نظم دولة سلاطين المماليك: ٦٦/١) ونستنتج من ذلك أن نائب دار العدل هو الذي كان ينوب عن السلطان في التوقيع على الأحكام الصادرة بشأن المظالم؛ وهذا النائب يمكن أن يكون أحياناً رئيس ديوان الإنشاء نفسه.

السنة الثامنة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

وهي سنة خمسٍ وسبعمائة.

فيها قدمت هدية الملك المؤيّد هِزبْر الدين داود صاحب اليمن فوُجِدت قيمتها أقلّ من العادة؛ فكُتِب بالإنكار عليه والتهديد[١].

وفيها آستسقَى أهلُ دِمَشق لقلّة الغَيْث فسُقُوا بعد ذلك، ولله الحمد.

وفيها تُوُفّي خطيب دِمَشق شرف الدين أحمد بن إبراهيم بن سِبَاغ الفَزارِيّ الفقيه المقرىء النحويّ المحدّث الشافعيّ في شوّال عن خمس وسبعين سنة.

وفيها تُوُفّي الحافظ شرف الدين أبو محمد عبد المؤمن بن خَلَف بن أبي الحسن بن شرف بن الخضْر بن موسى الدِّمْيَاطِيّ الشافعيّ أحد الأئمة الأعلام والحُفّاظ والثقات. مولده في سنة ثلاث عشرة وستمائة بُتونَة وهي بلدة في بُحَيْرة تِنِّيس[٢] من عمل دِمْياط، وقيل في سنة عشر وستمائة؛ وآشتغل بدمْياط وحَفِظ التنبيه[٣] في الفقه، وسَمِع بها وبالقاهرة من الحافظ عبد العظيم المنذريّ وأخذ عنه علم الحديث؛ وقرأ القرآن بالروايات، وبَرع في عدّة فنون وسمِع من خلائق؛ آستوعَبْنا أسماء غالبهم في ترجمته في المنهل الصافي. ورحل إلى الحجاز ودمشق وحلب وحَمَاة وبغداد، وحدّث وسَمِع منه خلائق مثل اليُونِينيّ والقُونَوي والمِزِّيّ وأبي حَيّان والبِرْزَاليّ والذهبيّ وآبن سيِّد الناس وخَلْق سواهم؛ وصنّف مصنَّفات كثيرةً ذكرنا غالبها في المنهل الصافي، [وله كتاب فضل الخيل، وقد سمعت أنا هذا الكتابَ بقراءة الحافظ قطب الدين الخُيَضْرِيّ في أربعة مجالس آخرها في سلخ

---

(١) أضاف المقريزي في السلوك: «وسيّر الكتاب مع أحد مقدمي الحلقة، فلم يعبأ به الملك المؤيد، ولا أجاب عن الكتاب بشيء».

(٢) بحيرة تنّيس: هذه البحيرة هي التي تعرف اليوم ببحيرة المنزلة الواقعة في شمال أراضي مديريتي الشرقية والدقهلية بمصر. وتمتد من بور سعيد إلى غيط النصارى بدمياط. (محمد رمزي).

(٣) «التنبيه» في فقه الشافعية، للشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن علي الفقيه الشيرازي المتوفى سنة ٤٧٦هـ. وهو أحد الكتب الخمسة المشهورة المتداولة بين الشافعية وأكثرها تداولاً كما صرح به النووي في تهذيبه. (كشف الظنون: ٤٨٩).

شعبان سنة خمس وأربعين وثمانمائة بالقاهرة في منزل المُسْمِع بحارة برجوان][١] على الشيخ الإمام العلّامة مؤرِّخ الديار المصريّة تقيّ الدين أحمد [بن عليّ بن عبد القادر][١] المَقْرِيزِيّ بسماعه جميعه على الشيخ ناصر الدين محمد بن عليّ بن الطَّبَردار الحرَّاوِي بسماعه جميعه على الشيخ مؤلِّفه الحافظ شرف الدين الدِّمْياطِيّ صاحب الترجمة ــ رحمه الله ــ وكانت وفاته فجأةً بالقاهرة: بعد أن صَلّى العصر غُشِي عليه في موضعه، فحُمِل إلى منزله فمات من ساعته في يوم الأحد خامس عشر ذي القعدة. ومن شعره: [الطويل]

رَوَيْنَا بإسناد عن آبن مُغَفَّلٍ حديثاً شهيراً صحّ من عِلَّةِ القَدْحِ
بأنّ رسول الله حين مَسيره لثامنةٍ وافْته من ليلة الفَتْحِ

وفيها تُوُفّي الملك الأوحد، وقيل الزاهر، تقي الدين شادي آبن الملك الزاهر مجير الدين داود آبن الملك المجاهد أسد الدين شِيرِكُوه الصغير آبن الأمير ناصر الدين محمد آبن الملك المنصور اسد الدين شِيركوه الكبير آبن شادي بن مروان الأيُّوبي في ثالث صفر وهو يوم ذاك أحد أمراء دمشق.

وفيها توفي المُسْنِد أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الحَرّاني الحنبليّ. مولده بحَرَّان سنة ثماني عشرة وستمائة، وسمِع من آبن روزبة والمُؤْتَمن بن قُمَيْرَة، وسمع بمصر من آبن الجُمَّيْزيّ وغيره وتفرّد بأشياء؛ وكان فيه دُعابة ودِين؛ وتلا بمكّة ألف ختمة.

وفيها تُوُفّي قاضي قضاة الشافعيّة بحلب شمس الدين محمد بن محمد بن بَهْرَام بها في أوّل جُمادَى الأولى، وكان فقيهاً فاضلاً.

وفيها تُوُفّي الشيخ الإمام شرف الدين أبو زكريّا يحيى بن أحمد بن عبد العزيز الجُذَامِيّ الإسكندرانيّ المالكيّ شيخ القراءات بها في هذه السنة؛ وكان إماماً عالماً بالقراءات، وله مشاركة في فنون. رحمه الله.

أمر النيل في هذه السنة: الماء القديم لم يُحرّر؛ وزاد البحر حتى بلغ ثماني

(١) زيادة عن المنهل الصافي للمؤلف.

أذرع ونصفاً ثم توقّف إلى ثامن مسري، ثم زاد حتّى أوفى في رابع توت. وبلغ ست عشرة ذراعاً وخمس عشرة إصبعاً.

* * *

السنة التاسعة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

وهي سنة ست وسبعمائة.

فيها وقَع بين الأميرين: علم الدين سَنْجر البَرْوانِيّ وسيف الدين الطشلاقيّ على باب قلعة الجبل مخاصمةٌ بحضرة الأمراء لأجل آستحقاقهما في الإقطاعات، لأنّ الطشلاقيّ نزل على إقطاع البَرْوَانِيّ، وكان كل منهما في ظُلْم وعَسْف. والبَرْوَانِيّ من خواصّ بيبرس الجاشْنَكِير، والطشلاقيّ من ألزام سلّار لأنه خشداشه، كلاهما مملوك الملك الصالح علي آبن الملك المنصور قلاوون ــ ومات في حياة والده قلاوون ــ فسطا الطشلاقي على البرواني وسَفِه عليه، فقام البَرْوَانِيّ إلى بيبرس وآشتكى منه فطلبه بيبرس وعنّفه، فأساء الطشلاقي في ردّ الجواب وأفحش في حقّ البَرْوَانِيّ، وقال: أنت واحدٌ مَنْفِيٌّ تجعل نفسك مثلَ مماليك السلطان! فاستشاط بيبرس غضباً وقام ليضربه، فجرّد الطشلاقيّ سيفَه يريد ضرب بيبرس، فقامت قيامة بيبرس وأخذ سيفَه ليضربَه، فترامى عليه مَنْ حضر من الأمراء وأمسكوه عنه، وأخرجوا الطشلاقيّ من وجهه بعدما كادت مماليك بيبرس وحواشيه تقتله بالسيوف؛ وفي الوقت طلَب بيبرس الأميرَ سُنْقُر الكماليّ الحاجب وأمر بنفي الطشلاقيّ إلى دمشق، فَخشِي سُنْقُر من النائب سَلّار ودخل عليه وأخبره، فأرسل سَلّار جماعةً من أعيان الأمراء إلى بِيبَرس، وأمرهم بملاطفته حتى يَرْضَى عن الطشلاقيّ وأنّ الطشلاقيّ يلزم داره، فلمّا سَمِع بيبرس ذلك من الذين حضروا صَرَخ فيهم وحلف إن بات الطشلاقيّ الليلة بالقاهرة عمِلت فتنة كبيرة؛ فعاد الحاجب وبلغ سَلّار ذلك فلم يَسَعْه إلّا السكوت لأنهما (أعني بيبرس وسلّار) كانا غَضِبا على الملك الناصر محمد وتحقّق كلُّ منهما متى وقع بينهما الخُلْفُ وجدَ الملك الناصر طريقاً لأخذهما واحداً بعد واحد، فكان كل من بيبرس وسلّار يُراعي الآخر وقد آقتسما مملكة مصر، وليس للناصر معهما إلّا مجرد الاْسم في السلطنة فقط. اِنتهى. وأُخرِج الطشلاقيّ

من وقته وأَمَر سلاّر الحاجبَ بتأخيره في بلبيس حتّى يُراجع بيبرس في أمره، فعندما اجتمع سلاّر مع بيبرس في الخدمة السلطانية من الغد بدأ بيبَرْس سلاّرَ بما كان من الطشلاقيّ في حقّه من الإساءة، وسلاّر يُسَكِّنه ولا يسكن بل يشتّد فأمسك سلار عن الكلام على حِقْد في الباطن، وصار السلطان يريد إثارة الفتنة بينهما فلم يتمّ له ذلك. وتوجّه الطشلاقي إلى الشام منفياً.

وفيها قَدِم البريدُ على الملك الناصر من حَمَاة بمحضر ثابت على القاضي بأن ضَيْعَةً تُعرف بَبارِينَ(١) بين جبلين فسُمِع للجبلين في اللّيل قعقعةٌ عظيمة فتسارع الناس في الصباح إليهما، وإذا أحدُ الجبلين قد قَطَع الوادي وآنتقل منه قدرُ نصفه إلى الجبل الآخر، والمياه فيما بين الجبلين تَجْرِي في الوادي فلم يسقُط من الجبل المُنْتَقِل شيء من الحجارة؛ ومقدارُ النصف المُنْتَقِل من الجبل مائةُ ذراع وعشرُ أذرع، ومسافة الوادي الذي قطعه هذا الجبل مائة ذراع، وأن قاضي حماة خرج بالشهود حتى عاين ذلك وكتَب به محضراً. فكان هذا من الغرائب.

وفيها وقعت الوحشة بين بيبرس الجاشْنَكِير وسلّار بسبب كاتب بيبرس التاج ابن سعيد الدولة، فإنّه كان أساء السيرة، ووقع بين هذا الكاتب المذكور وبين الأمير سَنْجَر الجاولي، وكان الجاوَلي صديقاً لسلّار إلى الغاية؛ فقام بِيبَرس في نُصْرة كاتبه، وقام سلّار في نُصْرة صاحبه الجاولي، ووقع بينهما بسبب ذلك أمور؛ وكان بِيْبَرس من عادته أنّه يركب لسلّار عند ركوبه وينزل عند نزوله، فمن يومئذ لم يركب معه وكادت الفتنة أن تقع بينهما؛ ثم آستدركا أمرها خوفاً من الملك الناصر، وآصطلحا بعد أمور يطول شرحها؛ وتكلّما في أمر الوَزَر ومَنْ يصلح لها، فعيّن سلار كاتَب بيبرس التاج ابن سعيد الدولة المقدّم ذكره تقرُّباً لخاطر بيبرس بذلك، فقال بيبرس: ما يَرْضَى، فقال سلّار: دعني وإيّاه، فقال بيبرس: دونك، وتفرّقا. فبَعث سلّار للتاج المذكور وأحضره، فلمّا دخل عليه عبَّس وجهه وصاح بإزعاج: هاتوا خِلْعة الوزارة، فأحضروها؛ وأشار إلى تاج الدولة المذكور بلُبْسها، فتمنّع، فصرخَ فيه، وحلَف لئن لم يَلْبَسْها ضرَب عُنُقَه، فخاف الإخراق به لما يعلمه من

(١) بارين: مدينة بين حلب وحماة من جهة الغرب. والعامة تقول: بعرين. (معجم البلدان).

بُغض سلار له فلَبِس التشريف، وكان ذلك يوم الخميس خامس عشر المحرّم من السنة، وقبّل يد سلّار فبشّ في وجهه ووصّاه؛ وخرج تاج الدولة بخِلْعة الوزارة من دار النيابة بقلعة الجبل إلى قاعة الصاحب بها، وبين يديه النُّقباء والحجّاب، وأخْرِجت له دواةُ الوزارة والبغلة، فعلّم على الأوراق وصرّف الأمور إلى بعد العصر ثم نزل إلى داره. وهذا كلّه بعد أن أمسك بيبرسُ سَنْجَرَ الجاولي وصادره ثم نفاه إلى دمشق على إمْرة طبلخاناه، وولّى مكانه أستاداراً الأميرَ أَيْدُمر الخطِيريّ صاحب الجامع[1] ببولاق.

وفيها تُوُفّي الصاحب شهاب الدين أحمد بن أحمد بن عطاء الله الأَذْرَعِيّ الدمشقيّ الحنفي محتسب دمشق ووزيرها؛ وكان رئيساً فاضلاً حسَن السِّيرة.

وفيها تُوفّي الأمير عِزّ الدين أَيْبَك بن عبد الله الطويل الخازِندار المنصوريّ في حادي عشر شهر ربيع الأوّل بدمشق؛ وكان دَيِّناً كثير البِرّ والصدقات والمعروف.

وفيها تُوُفّي الأمير بدر الدين بَكْتَاش بن عبد الله الفخريّ الصالحيّ النجميّ أمير سلاح. أصله من مماليك الأمير فخر الدين يوسف ابن نجم الدين أَيُّوب، فترقّى في الخدم حتّى صار من أكابر الأمراء؛ وغزا غير مرّة وعُرِف بالخير وعلوِّ الهمّة وسَداد الرأي وكثرة المعروف. ولمّا قُتِل الملك المنصور لاجين أجمعوا على سلطنته فامتنع وأشار بعَوْد السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون، وبعدها ترك الإمْرة في حال مرضه الذي مات فيه. رحمه الله تعالى.

وفيها تُوُفّي الأمير سيف الدين كاوركا المنصوريّ أحد أعيان الأمراء بالديار المصريّة.

وفيها تُوُفّي الأمير سيف الدين بَلَبَان الجُوكَنْدَار المنصوريّ، وكان ولي نيابة

(١) جامع الخطيري: ــ انظر خطط المقريزي: ٣١٢/٢، وخطط علي مبارك: ٢٢٥/٤. وهذا الجامع لا يزال موجوداً بناحية بولاق باسم جامع الخطيري بشارع فؤاد الأول بالقرب من النيل. (محمد رمزي).

قلعة صَفَد وشَدّ دواوين دِمَشق ثم نيابة[1] قلعتها، ثم نُقِل إلى نيابة حِمْص فمات بها، وكان مشكور السيرة.

وفيها تُوُفّي القاضي بدر الدين محمد بن فضل الله بن مُجَلّي العُمَرِيّ الدمشقي أخو كاتب السّر القاضي شرف الدين عبد الوهاب ومحيي الدين يحيى وقد جاوز سبعين سنة. وهذا أوّل بدر الدين من بني فضل الله، ويأتي ذكر ثانٍ وثالث، والثالث هو كاتب السر بمصر.

وفيها تُوُفّي الأمير فارس الدين أصلم الردّادي في نصف ذي القعدة؛ وكان رئيساً حشيماً من أعيان الدولة الناصرية.

وفيها تُوُفّي الأمير بهاء الدين يعقوبا الشَّهْرُزُورِيّ بالقاهرة في سابع عشر ذي الحجّة؛ وكان أميراً حشِيماً شُجاعاً، وهو من حواشي بِيبرس الجاشْنَكِير.

وفيها تُوُفّي الطواشي عِزّ الدين دينار العزيزي الخازِنْدار الظاهريّ في يوم الثلاثاء سابع شهر ربيع الأوّل؛ وكان ديِّناً خيِّراً كثير الصدقات والمعروف.

وفيها تُوُفّي مَلِك الغرب [الناصر][2] أبو يعقوب يوسف [بن يعقوب][2] بن عبد الحقّ؛ [المريني][2] وثَب عليه سَعادَة الخَصِيُّ أحدُ مواليه في بعض حُجَره، وقد خضّب رجليه بالحِنّاء وهو مُستلقٍ على قفاه، فطعنه طَعَنات قطَع بها أمعاءه، وخرج فأدرك وقُتِل؛ ومات السلطان من جِراحه في آخر يوم الأربعاء سابع ذي القعدة؛ وأقيم بعده في الملك أبو ثابت عامر آبن الأمير أبي عامر [عبد الله][2] آبن السلطان أبي يعقوب ــ هذا أعني حفيده. وكان مدّة مُلْكه إحدى وعشرين سنة.

وفيها تُوُفّي الطّواشي شمس الدين صواب السُّهَيْلي بالكَرَك عن مائة سنة؛ وكان مشكورَ السيرة.

---

(١) نائب القلعة: هو الذي يشرف على القلعة؛ وكان في مرتبة أقلّ من مرتبة النيابة. وكان إذا تولى منصبه حلف يمين الطاعة للسلطان والدفاع عن قلعته، وأنه لا يسلمها إلا للسلطان أو بمرسومه الشريف. (انظر صبح الأعشى: ١٨٤/٤، ٩٢/١١، ٣٠/١٣، ٣٠٩).

(٢) زيادة عن الأعلام.

وفيها تُوُفّي الشيخ ضياء الدين عبد العزيز بن محمد بن علي الطوسيّ الفقيه الشافعيّ بدمشق في تاسع عشرين جُمادَى الأولى؛ وكان فقيهاً نحوياً مصنِّفاً. شرح «الحاوي» في الفقه و«مختصر آبن الحاجب» وغير ذلك.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع وعدة أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعاً وسبع أصابع؛ وكان الوفاء في رابع عشر مسري.

* * *

السنة العاشرة من سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

وهي سنة سبع وسبعمائة.

فيها ورَد الخبر عن ملك اليمن هِزَبْر الدين داود بأمور تدلّ على عصيانه[١]، فكتَب السلطان والخليفة بالإنذار؛ ثم رسم السلطان للأمراء أن يعمل كلُّ أمير مَرْكَباً يقال لها: جَلْبة[٢]، وعمارةً قيّاسة[٣] يقال لها: فِلْوة برسم حمل الأزواد وغيرها لغَزْو بلاد اليمن.

وفيها عَمَّر الأمير بَيبرس الجَاشْنَكِير الخانقاه الرُّكْنّية داخل باب النصر موضع دار الوزارة برحبة باب العيد من القاهرة، ووقف عليها أوقافاً جليلة ومات قبل فتحها، فأغلقها الملك الناصر في سلطنته الثالثة مدّة، ثم أمر بفتحها ففتحت.

وفيها عَمَّر الأمير عِزّ الدين أَيْبك الأفرم الصغير نائب دِمَشق جامعاً بالصالحية[٤]، وبعث يسأل في أرض يُوقفها عليه فأجيب إلى ذلك.

(١) من ذلك أنه «كثر ظلمه للتجار وأخذ أموالهم، وترك إرسال الهدية إلى مصر على العادة بعد أن عزم على تجهيزها، وقصد أن يبعث الأموال إلى مكة ليقدّم اسمه على اسم سلطان مصر في الدعاء». (انظر السلوك: ٢/١/٣٢).

(٢) الجلبة: هي المركب الحربي الكبير.

(٣) القياسة: سفينة تستعمل للإبحار في المياه القليلة العمق؛ وتكون عادة عريضة المساحة قليلة الارتفاع بطيئة السير.

(٤) الصالحية: قرية بسفح جبل قاسيون المشرف على دمشق. (معجم البلدان).

وفيها وقَـع الاهتمام على سفر اليمن، وعوّل الأمير سَلّار أن يتوجّه إليها بنفسه خشيةً من السلطان الملك الناصر، وذلك بعد أن أراد السلطان القبض عليه وعلى بيبرس الجَاشْنَكِير عندما اتّفق السلطـان مع بَكْتَمُر الجُوكَنْدار، وقد تقدّم ذِكْر ذلك كله في أصل هذه الترجمة، وأيضاً أنه شقّ عليه ما صار إليه بيبرس الجاشْنَكِير من القوّة والْاستظهار عليه بكثرة خُشْداشيته البُرْجِيّة؛ والبرجية كانت يوم ذاك مثل مماليك الأطباق[١] الآن، وصار غالب البُرْجية أمراء، فٱشتدّت شوكة بيبرس بهم بحيث إنّه أخرج الأمير سَنْجر الجاولي وصادره بغير ٱختيار سلّار؛ وعظُمت مهابته وٱنبسطت يده بالتحكُّم وٱنفرد بالركوب في جمـع عظيم؛ وقصد البرجية في نوبة بَكْتَمُر الجُوكَنْدار إخراجَ الملك الناصر محمد إلى الكَرَك وسلطنة بِيبرس، لولا ما كان من منـع سَلّار لسياسةٍ وتدَبير كانا فيه.

فلمّا وقَـع ذلك كلُّه خاف سَلّار عواقب الأمور من السلطان ومن بيبرس، وتحيّل في الخلاص من ذلك بأنه يَحُـجُّ في جماعته، ثم يسير إلى اليمن فيملكها ويمتنـع بها؛ ففطن بيبرس لهذا، فدسّ عليه جماعةً من الأمراء من أَثْنَى عزمه عن ذلك، ثم ٱقتضى الرأي تأخير السفر حتى يعود جواب صاحب اليمن.

وفيها حُبِس تقي الدين بن تيمّية بعد أمور وقعت له[٢].

---

(١) الأطباق أو الطباق: هي الأماكن التي يسكنها المماليك الذين يشتريهم السلطان. وهي تشبه الثكنات العسكرية.

(٢) الصواب أنه أفرج عنه في هذه السنة بعد أن كان قد حُبس في الجبّ (من القلعة) في شهر شعبان من سنة ٧٠٥هـ. (انظر البداية والنهاية: ٣٨/١٤ وما بعدها، والسلوك: ١٤/١/٢ وما بعدها). والسبب في حبس تقي الدين بـن تيمية أنه كان فقيهاً غاية في الجرأة والشجاعة: خاض معارك طويلة ضد الفساد في الدولة، وكان على رأس هذا الفساد أمراء المماليك بقيادة بيبرس الجاشنكير وسلّار نائب السلطنة، في حين كان السلطان الناصر محمد بن قلاوون مسلوب الإرادة ليس له من السلطة إلا الاسم. والحق أن العصر كان مليئاً بالفساد: فالولاة يرتشون، ولا يؤدون الأمانة، ويبطشون بمن يقاومهم. ومن العلماء من ينافقهم طمعاً في العطاء أو خوفاً من سطوتهم. ولم يبق رجال كالعز بن عبد السلام يفرض عليهم هيبة الدين، ولا كالنووي ينصح الحاكم، فإذا رفض الحاكم نصيحته جابهه بأنه مملوك ينهب ما ليس له، ولا كابن دقيق العيد لا يخاف في الله لومة لائم. وكان الجمود يبسط سلطانه على العقول، فلا أحد يفكر خارج المذاهب الفقهية المتوارثة، وكل حزب يتعصب لمذهبه ويقلد السلف، ويكيد كل واحد لأخيه. =

وفيها تُوُفّي الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر السنانِيّ بدمشق؛ وكان فاضلاً، وله شعر وخِبْرة بتفسير المنامات. ومن شعره: [الكامل]

تَجِد النَّسيم إلى الحبيب رسولاَ ... دَنِفُ حكاه رِقةً ونُحولاَ
تجري العيونُ من العيون صبابةً ... فتسيلُ في إثر الغريق سُيولاَ
وتقول من حَسَدٍ له: يا ليتني ... كنتُ اتَّخذتُ مع الرَّسول سبيلاَ

وفيها تُوُفّي الأمير ركن الدين بِيبَرْس العجميّ الصالحي المعروف بالجَالِق؛ (والجالِق باللّغة التركيّة: آسم للفَرَس الحادّ المِزاج الكثير اللّعب)؛ وكان أحد البحرّية[1] وكبير الأمراء بدمشق؛ ومات في نصف جُمادَى الأولى بمدينة الرملة[2] عن نحو الثمانين سنة، وكان دِّيناً فيه مُروءة وخير. (وجَالِق بفتح الجيم وبعد الألف لام مكسورة وقاف ساكنة).

وفيها تُوُفّي الأمير الطَّوَاشي شهاب الدين فاخر المنصوريّ مقدّم المماليك السلطانية؛ وكانت له سطوةٌ ومَهابة على المماليك السلطانية بحيث إنّه كان

= ودور اللهو والفساد والخمارات أصبحت أكثر عدداً من المدارس، والمشعوذون المتنسبون إلى الصوفية يبهرون العامة بفنون الشعوذة، ويؤثرون عليهم، ويشيعون الفساد. وبعض المتنسبين إلى الصوفية يزعم أنه قد اتحد في الله فرفع عنه التكليف، فلا ينهض لأداء فرائض الإسلام؛ لا صلاة ولا صيام ولا زكاة، بل يستبيح المحرمات وتعاطي الحشيشة. إذن فقد نهض تقي الدين بن تيمية بأعباء معركة ضارية في أكثر من اتجاه في نفس الوقت: قام ضد الحكام والولاة الفاسدين، وقام ضد البدع الصوفية التي كان تسيطر على عقل وحياة الناس والحكام، كما قام في نفس الوقت ضد الجمود المذهبي ومحاباة الفقهاء للحكام. كما أن خصومه جرّوه في نفس الوقت إلى معركة كلامية حامية تتعلق بصفات الله وحدوث القرآن أو قدمه، إلى ما هنالك من المسائل التي تعيد إلى الذهن محنة الإمام أحمد بن حنبل أيام المأمون والمعتزلة. وهكذا قدّم ابن تيمية إلى المحاكمة بتهمة فساد العقيدة، وحكم عليه بالسجن من قبل قاضي المالكية زين الدين بن مخلوف وبحضور نصر الدين المنبجي المتصّوف الذي كان قد استحوذ على عقل بيبرس الجاشنكير. (انظر، بالإضافة إلى السلوك والبداية والنهاية، كتاب عبد الرحمن الشرقاوي: الفقيه المعذّب ابن تيميّة).

(١) البحرية: سبق التعريف بهذا المصطلح؛ انظر الفهارس.
(٢) الرملة: مدينة بفلسطين، تقع في السهل الساحلي الفلسطيني جنوبي شرق يافا وجنوبي غرب اللدّ، وتمر بها الطرق التي تربط مصر ببلاد الشام والعراق. (الموسوعةالفلسطينية: ٢/٤٧٤).

لا يستجرىء أحد منهم أن يَمُرّ من بين يديه كائناً من كان بحاجة أو بغير حاجة، وحيثما وقـع بصرُه عليه أمر بضربه.

قلت: لله دَرّ ذلك الزمان وأهله! ما كان أحسن تدبيرَهم وأصوب حَدْسَهم من جَوْدة تربية صغيرهم وتعظيم كبيرهم! حتى ملكوا البلاد، ودانت لهم العبـاد، وآستجلبوا خواطر الرعيّة، فنالوا الرتب السّنية. وأما زماننا هذا فهو بخلاف ذلك كلِّه، فالمقدَّم مؤخَّر والصغير متنمِّر، والقلوب متنافرة، والشرور متظاهرة، وإن شئت تعلم صدق مقالتي حَرِّك تَرَ. اِنتهى.

وفيها تُوُفّي المُعْتَقَد عمر[١] بن يعقـوب بن أحمد [السعـودي في جُمادَى الآخرة]. [وفيها تُوُفّي الشيـخ فخر الدين عثمان][٢] بن جَوْشَن السُّعودِيّ في يوم الأربعاء من شهر رجب؛ وكان رجلاً صالحاً مُعْتَقَداً.

وفيها تُوُفّي الصـاحب تاج الـدين محمد آبن الصـاحب فخر الـدين محمد آبن الصاحب بهاء الدين عليّ بن محمد بن سليم بن حِنّا، ومولده في تاسع شعبان سنة أربعين وستمائة، وجَدُّه لأمّه الوزيرُ شرف الدين صاعد الفائزيّ. وكانت له رياسة ضخمة وفضيلة؛ ومات بالقاهرة في يوم السبت خامس جُمادَى الآخرة.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربـع أذرع وستّ أصابـع. مبلـغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإصبـع واحدة[٣].

* * *

(١) في الأصل: «عثمان بن يعقوب». والتصحيح والزيادة عن السلوك والدرر الكامنة.

(٢) زيادة عن السلوك.

(٣) في السلوك: «ثمانية عشر ذراعاً وإحدى وعشرون إصبعاً».

السنة الحادية عشرة من سلطنة السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون الثانية على مصر

وهي سنة ثمانٍ وسبعمائة؛ وهي التي خُلِع فيها الملك الناصر المذكور من مُلْك مصر وأقام بالكَرَك وتسلطن من بعده بِيبرْس الجَاشْنَكير حسب ما تقدّم ذكره.

فيها أفْرِج عن الملك المسعود خِضْر آبن الملك الظاهر بِيبرس البُنْدُقْدَارِيّ من البُرْج بقلعة الجبل، وأسْكِن بدار الأمير عِزّ الدين الأفرم الكبير بمصر، وذلك في شهر ربيع الأوّل.

وفيها كان خروج الملك الناصر محمد بن قلاوون صاحب الترجمة من القاهرة قاصداً الحج وسار إلى الكَرَك وخَلَع نفسه.

وفيها تُوُفّي الشيخ علم الدين إبراهيم بن الرشيد بن أبي الوَحْش رئيس الأطباء بالديار المصريّة والبلاد الشاميّة؛ وكان بارعاً في الطّب محظوظاً عند الملوك، ونالته السعادة من ذلك، حتّى إنّه لمّا مات خلّف ثلاثمائة ألف دينار غير القماش والأثاث.

وفيها تُوُفّي الأمير عز الدين أَيْبَك الشجاعيّ الأشقر شادّ الدواوين بالقاهرة في المحرّم.

وفيها تُوُفّي الأمير علاء الدين أَلطَبَرْس المنصوريّ والي باب القلعة والملقب بالمجنون، المنسوب إليه العمارة فوق قنطرة المجنونة[1] على الخليج الكبير خارج القاهرة؛ عمرها للشيخ شهاب الدين العابر ولفقرائه وعَقَدَها قَبْواً. وفي ذلك يقول علم الدين ابن الصاحب: [الكامل]

ولقد عَجِبتُ مِنَ الطِّبَرْسِ وصحبه ... وعقولهم بعقوده مفتونه

عقدوه عقداً لا يصح لأنهم ... عقدوا لمجنون على مجنونه

---

(١) قنطرة المجنونة: كانت هذه القنطرة في الموضع الذي تأخذ فيه بركة الفيل مياهها مباشرة من الخليج المصري. ولأن الماء كان يندفع منها بقوة وقت فيضان النيل بسبب انحدار أرض البركة فقد عرفت هذه القنطرة بالمجنونة. (انظر خطط المقريزي: ٢/١٦١).

وكان أَلْطِبرس المذكور عفيفاً ديِّناً، غير أنه كان له أحكامٌ قراقوشية من تسلطه على النساء ومنعهنّ من الخروج إلى الأسواق وغيرها؛ وكان يخرُج أيام الموسم إلى القرافة ويُنَكِّل بهن، فآمتَنَعْنَ من الخروج في زمانه إلا لأمر مهم مثل الحَمّام وغيره.

وفيها تُوُفّي الأمير عِزّ الدين أيْدَمُر الرشيديّ أستادار الأمير سَلّار نائب السلطنة بالديار المصرية في تاسع عشر شوال؛ وكان عاقلاً رئيساً وله ثروة واسعةٌ وجاه عريض.

وفيها تُوُفّي الشيخ المُعْتَقَد عبد الغَفّار [بن أحمد بن عبد المجيد بن نُوح][1] القُوصيّ القائم بخراب الكنائس بقُوص وغيرها في ليلة الجمعة سابع ذي القعدة؛ وكان له أتباع ومريدون وللناس فيه آعتقاد.

وفيها تُوُفّي ظهير الدين أبو نصر بن الرشيد [بن أبي السرور][2] بن أبي النصر السّامِريّ الدمشقي الكاتب في حادي عشرين شهر رمضان بدِمَشق؛ ومولده سنة آثنتين وعشرين وستمائة؛ كان أوّلاً سَامِرياً ثم أسلم في أيام الملك المنصور قلاوون، وتنقّل في الخِدَم حتّى ولي نظر جيش دمشق إلى أن مات.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم أربع أذرع. مبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعاً وإصبع واحدة مثل السنة الماضية.

---

(١) زيادة عن الدرر الكامنة.
(٢) زيادة عن السلوك.

ذكر سلطنة الملك المظفّر بيبرس[١] الجاشنكير على مصر

السلطان الملك المظفّر ركن الدين بيبرس بن عبدالله المنصوريّ الجَاشْنَكِير، أصله من مماليك الملك المنصور قلاوون البُرْجيّة، وكان جَرْكَسِيّ الجنس، ولم نعلم أحداً مَلك مصر من الجراكسة قبله إن صحّ أنه كان جَرْكَسِياً. وتأمّر في أيام أستاذه المنصور قلاوون، وبَقِي على ذلك إلى أن صار من أكابر الأمراء في دولة الملك الأشرف خليل بن قلاوون. ولما تسلطن الملك الناصر محمد بن قلاوون بعد قتل أخيه الأشرف خليل صار بِيبرس هذا أستاداراً[٢] إلى أن تسلطن الملك العادل زين الدين كَتْبُغَا عَزَله عن الأستَادارية بالأمير بَتْخاص، وقيل: إنّه قَبَض على بيبرس هذا وحبسه مدّة، ثم أَفْرج عنه وأنعم عليه بإمرة مائة وتَقْدِمة ألف بالديار المصريّة. وآستمرّ على ذلك حتى قُتِل الملك المنصور حُسام الدين لاجين فكان بيبرس هذا أحد من أشار بعود الملك الناصر محمد بن قلاوون إلى المُلك. فلمّا عاد الناصر إلى مُلكه تقرّر بيبرس هذا أستاداراً على عادته وسلّار نائباً، فأقاما على ذلك سنين إلى أن صار هو وسَلّار كَفيلَي الممالك الشريفة الناصرية، والملك الناصر محمد معهما آلة في السلطنة، إلى أن ضَجِر الملك الناصر منهما وخَرج إلى الحجّ فسار إلى الكَرَك وخلع نفسه من المُلك. وقد ذكرنا ذلك كلّه في ترجمة الملك الناصر محمد. فعند ذلك وقَع الآتّفاق على سلطنة بِيبرس هذا بعد أمور نذكرها؛ فتسلطن وجلَس على تخت الملك في يوم السبت الثالث والعشرين من شوّال من سنة ثمانٍ وسبعمائة.

---

(١) ترجمته وأخباره في: السلوك: ٢/١/٤٥، وخطط المقريزي: ٢/٢٣٩، وخطط علي مبارك: ١/٩١، والجوهر الثمين: ٢/١٣٩، وبدائع الزهور: ١/١/٤٢٣، والبداية والنهاية: ١٤/٥٣ وما بعدها، وغيرها.

(٢) سبق شرح هذا المصطلح. انظر الفهارس.

وهو السلطان الحادي عشر من ملوك الترك، والسابع ممن مسّهم الرِّق، والأوّل من الجراكسة إن صحّ أنه جَرْكَسِيّ الجنس؛ ودُقّت البشائر وحضَر الخليفة أبو الربيع سليمان وفوَّض إليه تقليد السلطنة، وكَتَب له عهداً وشَمِله بخطه، وكان من جملة عُنوان التقليد: «إنّه من سليمان وإنّه بسم الله الرحمن الرحيم». ثم جلس الأمير بَتْخاص والأمير قُلِّي والأمير لاجين الجَاشْنَكِير لاستحلاف الأمراء والعساكر، فحلفوا الجميع وكُتِب بذلك إلى الأقطار.

والآن نذكر ما وعدنا بذكره من سبب سلطنة بيبرس هذا مع وجود سلار وآقوش قَتّال السَّبُع وهما أكبر منه وأقدم وأرفع منزلةً، فنقول:

لمّا خرج الملك الناصر محمد بن قلاوون من الديار المصريّة إلى الحجّ، ثم ثَنَى عزمه عن الحج وتوجّه إلى الكَرَك، خَلَع نفسه؛ فلمّا حضر كتابه الثاني[١] بتركه السلطنة ــ وقد تقدّم ذكر ذلك في أواخر ترجمة الناصر بأوسع من هذا ــ أثبت الكتاب على القضاة. فلمّا أصبح نهار السبت الثالث والعشرين من شوّال جلس الأمير سلّار النائب بشُبّاك دار النيابة بالقلعة وحضر إلى عنده الأمير بِيبرس الجَاشْنِكير هذا وسائر الأمراء وآشتوروا فيمن يَلِي السلطنة، فقال الأمير آقوش قَتّال السَّبُع، والأمير بيبرس الدَّوَادَار، والأمير أَيْبَك الخازِنْدار وهم أكابر الأمراء المنصوريّة: ينبغي آستدعاء الخليفة والقضاة وإعلامهم بما وقع، فخرج الطَّلَب لهم وحضروا، وقُرِىء عليهم كتابُ السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون؛ وشهِد عند قاضي القضاة زَيْن الدين بن مخلوف الأميران: عِز الدين أَيْدَمُر الخَطِيريّ والأمير الحاج آل ملك، ومن كان توجّه معهم إلى الكَرَك في الرسليّة، بنزول الملك الناصر عن الملك وتركه مملكة مصر والشام فأثْبت ذلك.

(١) وكان قد أرسل إليهم كتابه الأول وهو في القاهرة يقول فيه: «ما سبب هذا الركوب على باب إصطبلي! إن كان غرضكم في الملك فما أنا متطلّع إليه. . . » ــ راجع ص ١٣٧ وص ١٤٣ من هذا الجزء ــ ويشير ابن أيبك الدواداري ــ في كنز الدرر ــ إلى اختلاق هذا الكتاب وتزويره على الناصر محمد بن قلاوون، مخالفاً بذلك سائر ما تحت يدينا من مصادر، قائلاً: «ــ وكانوا قد اختلقوا على مولانا السلطان، كتاباً كثير التزوير والبهتان. . ــ وقرىء ذلك الكتاب المزور، الوارد عن ذلك البدر المصوّر؛ وكان القارىء له بإعلان وإظهار، بهاء الدين أرسلان الدوادار» (الجوهر الثمين: ٢/ ١٣٩، حاشية: ١).

وأعيد الكلام فيمن يصلح للسلطنة من الأمراء، فأشار الأمراء الأكابر بالأمير سَلّار، فقال سَلّار: نعم على شرط: كلّ ما أُشير بِه لا تخالفوه. وأُحْضِر المصحف وحلّفهم على موافقته وألّا يخالفوه في شيء؛ فقَلقَ البُرْجيّة من ذلك، ولم يبق إلّا إقامتهم الفتنة، فكَفّهم الله عن ذلك وآنقضى الحلف، فعند ذلك قال الأمير سَلّار: والله يا أمراء، أنا ما أصلح للملك، ولا يصلُح له إلّا أخي هذا، وأشار إلى بِيبرس الجَاشْنَكِير ونَهض قائماً إليه، فتسارع البرجيّة بأجمعهم: صدَق الأمير سَلار وأخذوا بيد الأمير بيبرس، وأقاموه كرهاً، وصاحوا بالجاويشية فصرخوا بآسمه؛ وكان فَرَس النوبة عند الشباك فألبسوه تشريف السلطنة الخليفتي، وهي فَرَجِيّة أطلس سوداء وطَرْحة سوداء وتقلّد بسيفين، ومشَى سَلّار والأمراء بين يديه من عند سَلّار من دار النيابة بالقلعة وهو راكب، وعَبَر من باب القلعة إلى الإيوان[1] بالقلعة، وجلس على تخت الملك وهو يبكي بحيث يراه الناس، وذلك في يوم السبت المذكور؛ ولُقِّب بالملك المظفر، وقَبّل الأمراء الأرض بين يديه طَوعاً وكرهاً؛ ثم قام إلى القصر وتفرّق الناس بعد ما ظنّوا كلّ الظنّ من وقوع الفتنة بين السّلّاريّة والبيبرسية.

وقيل في سلطنته وجه آخر، وهو أنّه لما آشتوروا الأمراء فيمن يقوم بالملك، فآختار الأمراء سلّار لعقله، وآختار البرجيّة بيبرس؛ فلم يُجب سلّار إلى ذلك وآنفضّ المجلس؛ وخلا كلٌّ من أصحاب بيبرس وسَلّار بصاحبه، وحسّن له القيام بالسلطنة وخوّفه عاقبة تَرْكها، وأنه متى ولي غيره لا يوافقونه بل يقاتلونه. وبات البُرجية في قلق خوفاً من ولاية سلّار، وسَعى بعضهم إلى بعض، وكانوا أكثرَ جمعاً من أصحاب سلّار، وأعدّوا السلاح وتأهّبوا للحرب. فبلغ ذلك سّلار فَخشي سوء العاقبة، وآستدعَى الأمراء إخوته وحَفَدَته ومن ينتمي إليه، وقرّر معهم سراً موافقته على ما يُشير به، وكان مُطاعاً فيهم فأجابوه؛ ثم خرج في شباك النيابة ووقَع نحوٌ ممّا حكيناه من عدَم قبوله السلطنة وقبول بيبرس الجَاشْنَكِير هذا؛ وتسلطن حسب

(١) الإيوان بقلعة الجبل: وهو الإيوان الكبير، ويعرف بدار العدل. أنشأه المنصور قلاوون، وجدد بناءه الأشرف خليل، واستمر جلوس نائب دار العدل به. (خطط المقريزي: ٢٠٦/٢) وقد اندثر هذا الإيوان، ومكانه اليوم الأرض القائم عليها جامع محمد علي باشا الكبير وملحقاته بقلعة الجبل بالقاهرة. (محمد رمزي).

ما ذكرناه، وتمّ أمره، وآجتمع الأمراء على طاعته، ودخلوا إلى الخدمة على العادة في يوم الاْثنين خامس عشرين شوّال، فأظهر بِيبرس التغمُّم بما صار إليه.

وخَلَع على الأمير سلار خِلْعة النيابة على عادته بعد ما آستعفَى وطلَب أن يكون من جملة الأمراء، وأَلَحّ في ذلك حتى قال له الملك المظفّر بِيبرس: إن لم تكن انت نائباً فلا أعمَل أنا السلطنة أبداً، فقامت الأمراء على سلّار إلى أن قَبِل ولَبِس خِلْعة النيابة.

ثم عُيِّنت الأمراء للتوجُّه إلى النوّاب بالبلاد الشامية وغيرها؛ فتوجّه إلى نائب دِمَشق - وهو الأمير جمال الدين آقوش الأفرم الصغير المنصوريّ - الأميرُ أَيْبك البغداديّ ومعه آخرُ يُسمَّى شادي ومعهما كتاب، وأمرهما أن يذهبا إلى دِمَشق ويُحَلِّفا نائبه المذكور وسائر الأمراء بدمشق؛ وتوجّه إلى حلب الأميرُ ركن الدين بِيبرس الأحمديّ وطَيْبَرْس الجَمَدار وعلى يديهما كتابٌ مثل ذلك؛ وتوجّه إلى حَماة الأمير سيف الدين بَلاط الجُوكَنْدار وطَيْدَمُر الجَمَدار؛ وتوجه إلى صفد عِزّ الدين أَزْدمُر الإسماعيليّ وبِيبَرس بن عبد الله؛ وتوجّه إلى طرابُلُس عِزّ الدين أَيْدَمُر اليُونُسي وأقطاي الجَمَدَار. وخُطِب له بالقاهرة ومصر في يوم الجمعة التاسع والعشرين من شوّال المذكور، وتوجه الأمراء المذكورون إلى البلاد الشامية.

فلما قَرُب من سار إلى دِمَشق خرجَ النائب آقوش الأفرم ولاقاهما خارج دِمَشق وعاد بهما؛ فلما قرأ الكتاب بسلطنة بِيبرس كاد أن يطير فرحاً لأنّه كان خُشْدَاش بِيبرس، وكان أيضاً جارْكَسيّ الجنس، وكانا يوم ذاك بين الأتراك كالغُرباء. وزُينت دِمَشق زينةً هائلة كما زُيِّنت القاهرة لسلطنته. ثم أَخْرج كتابُ السلطان بالحلف؛ وفيه أن يَحلفوا ويبعثوا لنا نسخةَ الأيمان، فأجاب جميعُ الأمراء بالسمع والطاعة، وسكت منهم أربعة أنفس ولم يتحدّثوا بشيء، وهم: بِيبرس العلائي وبهادُر آص وآقجبا الظاهريّ وبَكْتَمُر الحاجب بدِمَشق، فقال لهم الأفرم: يا أمراء، كلّ الناس ينتظرون كلامكم فتكلّموا، فقال بهادُر آص: نُريد الخطَّ الذي كتبه

الملك الناصر بيده وفيه عزل[١] نفسه، فأخرج النائب خطَّ الملك الناصر فرآه بهادُر ثم قال: يا مولانا مَلِكَ الأمراء، لا تستعجل فممالك الشام فيها أمراء غيرنا، مثل الأمير قَرَا سُنْقُر نائب حلب، وقَبْجَق نائب حَمَاة، وأَسَنْدَمُر نائب طرابُلُس وغيرهم، فنُرسل إليهم ونتّفق معهم على المصلحة، فإذا شاورناهم تَطِيب خواطرهم، ورُبّما يَرَوْن من المصلحة ما لا نرى نحن؛ ثم قام بهادُر المذكور وخرج فخرجت الأمراء كلُّهم في أثره، فقال الأمير أيبك البغداديّ القادم من مصر للأفرم: لو مسكتَ بَهادُر آص لانصلح الأمر على ما نريد! فقال له الأفرم: والله العظيم لو قبضتُ عليه لقامت فتنةٌ عظيمة تروح فيها رُوحك، وتغيير الدول يا أَيْبَك ما هو هين! وأنا ما أخاف من أمراء الشام من أحد إلّا من قَبْجَق المنصوريّ فإنه ربّما يُقيم فتنةً من خوفه على رُوحه.

قلت: وقَبْجَق هذا هو الذي كان نائب دمشق في أيّام المنصور لاجين، وتوجّه إلى غازان وأقدمه إلى الشام. وقد تقدّم ذكرُ ذلك كلِّه.

ولمّا كان اليوم الثاني طلب الأفرمُ هؤلاء الأمراء الأربعة وآختلَى بهم، وقال لهم: إعلموا أنّ هذا أمر آنقضى، ولم يبقَ لنا ولا لغيرنا فيه مجال؛ وأنتم تعلمون أنّ كلَّ من يجلس على كرسيّ مصر كان هو السلطان ولو كان عبداً حبشِياً؛ فما أنتم بأعظم من أمراء مصر، وربّما يُبَلَّغُ هذا إليه فيتغيّر قلبُه عليكم؛ ولم يزل يتلاطف بهم حتّى حَلفوا له، فلمّا حلفوا حَلَف باقي الأمراء؛ وخلَع الأفرم على جميع الأمراء والقضاة خِلَعاً سنيّة، وكذلك خلَع على الأمير أَيْبَك البغداديّ وعلى رفيقه شادي وأعطاهما أَلْفَي دينار وزوّدَهما وردّهما في أسرع وقت. وكتب معهما كتاباً يُهنِّىء بيبرس بالمُلك، ويقول: عن قريب تأتيك نسخةُ الأيمان. وقَدِما القاهرة وأخبرا الملك المظفّر بِيبَرْس بذلك، فسُرّ وآنشرح صدُره بذلك.

ثم إنّ الأفرم نائب الشام أرسل إلى قَرَا سُنْقُر وإلى قَبْجَق شخصاً من مماليكه

---

(١) لعلّ في هذا إشارة إلى ما ذهب إليه ابن أيبك الدواداري من أن كتاب العزل كان مختلقاً ومزوراً على الملك الناصر. (راجع ص ١٨٤، حاشية: ١) أو على الأقلّ أن ذلك كان شائعاً بين أوساط المعارضين لسلطنة بيبرس.

بصورة الحال؛ فأمّا قَرَا سُنْقُر نائب حلب فإنّه لمّا سَمِع الواقعة وقرأ كتاب الأفرم، قال: أيش الحاجة إلى مشاورتنا! أستاذك بعثك بعد أن حَلَف، وكان ينبغي أن يتأنّى في ذلك؛ وأمّا قَبْجَق نائب حَمَاة فإنه لمّا قرأ كتاب الأفرم، قال: لا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم، أيش جَرَى على آبن أستاذنا حتّى عَزَل نفسه! والله لقد دَبّرتُم أنحس تدبير؛ هذه والله نوبةُ لاجين. ثم قال لمملوك الأفرم: اِذهب إلى أستاذك وقل له: الآن بلغتَ مرادك، وسوف تبصر من يُصبح ندمان، وفي أمره حَيْران! وكذلك لمّا بعث الأفرم لأَسَنْدَمُر نائب طرابُلُس، فلما قرأ كتابه أطرق رأسه إلى الأرض، ثم قال: اِذهب لأستاذك وقل له: يا بعِيد الذِّهن وقليل العلم، بعد أن دبرت أمراً، فما الحاجة إلى مشاورتنا! فوالله ليكونَنّ عليك أشأم التدبير وسيعود وبالُـه عليك؛ ولم يكتب له جواباً.

وأمّا قَرَا سُنْقُر نائب حلب فإنه أرسل إلى قَبْجَق وإلى أَسَنْدَمُر يُعلمهما أنّ الأفرم حلّف عساكر دِمَشق على طاعة بِيبرس، ولا نأمن أن يعملَ الأفرم علينا، فهلُمُّوا نجتمع في موضع واحد فنتشاور ونَرَى أمراً يكون فيه المصلحة؛ فاتّفقوا الجميع على أن يجتمعوا في حلب عند قَرَا سُنْقُر، وعينوا ليلة يكون اجتماعهم فيها. فأمّا قَبْجَق فإنه ركب إلى الصيد بمماليكه خاصّة، وتصيّد إلى الليل فسار إلى حلب. وأمّا أَسَنْدَمُر أظهر أنّه ضعيف وأَمَر ألّا يُخَلِّي أحداً يدخل عليه؛ وفي الليل رَكِب بمماليكه الذين يَعتمد عليهم، وقد غَيَّرُوا ملابسهم، وسار يطلب حلب. وآجتمع الجميعَ عند قَرَا سُنْقُر، فقال لهم قَرَا سُنْقُر: ما تقولون في هذه القضيّة التي جرت؟ فقال قَبْجَق: والله لقد جَرَى أمرٌ عظيم، وإن لم نُحسن التدبير نَقَع في أمور! يُعزَل آبن أستاذنا ويأخُذها بيبرس! ويكون الأفرم هو مدَبِّر الدولة! وهو على كلّ حال عدوُّنا ولا نأمن شَرَّه، فقالوا: فما نفعل؟ قال: الرأيُ أن نكتب إلى آبن أستاذنا في الكَرَك ونطلُبَه إلى حلب ونركَب معه؛ فإما نأخذ له الملك، وإما أن نموت على خيولنا! فقال أسندمر: هذا هو الكلام؛ فحلف كلٌّ من الثلاثة على هذا الآتّفاق، ولا يقطع واحدٌ منهم أمراً إلّا بمشورة أصحابه، وأنّهم يموت بعضُهم على بعض؛ ثم إنّهم تفرّقوا في اللّيل كلٌّ واحد إلى بلده.

وأمّا الأمراء الذين خرجوا من مصر إلى النوّاب بالبلاد الشاميّة بالخِلَع وبسلطنة بيبرس، فإنهم لمّا وصلوا إلى دِمَشق قال لهم الأفرم: أنا أرسلتُ إليهم مملوكي، فَرَدوا عليّ جواباً لا يَرْضَى به مولانا السلطان. وكان الأفرم أرسل إلى الملك المظفّر بيبرس نسخةَ اليمين التي حَلّف بها أمراء دِمَشق مع مملوكه مُغْلَطَاي، فأعطاه الملك المظفّر إمَرة طبلخاناه وخلَع عليه، وأرسل معه خِلْعةً لأستاذه الأفرم بألف دينار، وأطلق له شيئاً كثيراً كان لبيبرس في الشام قبل سلطنته من الحواصل والغلال؛ فسُرّ الأفرم بذلك غايَة السرور، ثم قال الأميران اللذان وصلا إلى دِمَشق للأفرم: ما تُشير به علينا؟ فقال لهما: ارجعا إلى مصر ولا تذهبا إلى هؤلاء؛ فإنّ رؤوسهم قويّة، وربّما يُثيرون فتنة، فقالا: لا غنى لنا [عن] أن نسمع كلامهم؛ ثم إنّهما رَكِبا من دِمَشق وسارا إلى حَمَاة، ودخلا على قبجَق ودفعا له كتاب الملك المظفّر، فقرأه ثم قال: وأين كتاب الملك الناصر؟ فأخرجا له الكتاب، فلمّا وقف عليه بكى، ثم قال: من قال إنّ هذا خطُّ الملك الناصر؟ والله واحد يكون وكيلاً في قرية ما يَعْزِل نفسه منها بطيبة من خاطره! ولا بُد لهذا الأمر من سبب؛ إذهبا إلى الأمير قَرَا سُنْقُر فهو أكبر الأمراء وأخبرهم بالأحوال؛ فركبا وسارا إلى حلب واجتمعا بقَراسُنْقُر؛ فلمّا قرأ كتاب المظفّر قال: يا إخوتي إنّا على أيمان آبن أستاذنا لا نخونه ولا نحلف لغيره ولا نُواطىء عليه ولا نُفسِد مُلْكه، فكيف نَحلِف لغيره! والله لا يكون هذا أبداً ودعوا يَجْرِي ما يجري، وكلُّ شيء ينزل من السماء تحمله الأرض، ولا حول ولا قوّة إلّا بالله العلي العظيم! فخرجا من عنده وسارا إلى طرابُلُس ودخلا على أَسَنْدَمُر فقال لهما مثل مقالة قَبْجَق وقَرَاسُنْقُر؛ فخرجا ورَكِبا وسارا نحو الديار المصريّة، ودخلا على الملك المظفر بيبرس وأعلماه بما كان، فضاق صدر المظفّر وأرسل خَلْف الأمير سَلّار النائب وقصّ عليه القِصّة، فقال له سَلّار: هذا أمر هيِّن ونقدر [أن] نُصلح هؤلاء، فقال: وكيف السبيل إلى ذلك؟ قال: تكتب إلى قَرَا سُنْقُر كتاباً وتُرقِّق له في الكلام، وأرسل إليه تقليداً بنيابة حلب وبلادها، وأنّه لا يُحْمَل منه الدِّرهم الفَرْد، وكذا لَقبجَق بحَمَاة، ولأَسَنْدَمُر بطرابلُس والسواحل، فقال بيبرس: إذا فَرّقتُ البلاد عليهم ما يُساوي مُلْكي شيئاً! فقال له سَلّار: وكم [من] يدٍ تُقبّل عن ضرورة وهي تستحقّ القطع! فآسمع منّي وأَرْضِهم في هذا الوقت؛ فإذا قدرت عليهم بعد ذلك

اِفعل بهم ما شئتَ؛ فمال المظفَّر إلى كلامه وأَمَر أن يُكتب بما قاله سَلّار لكلّ واحد على حِدته، فكتب ذلك وأرسله مع بعض خواصّه.

وأما أمرُ الملك الناصر محمد بن قلاوون فإنّ الملك المظفّر لمّا تسلطن وتَمّ أمرُه كَتَب له تقليداً بالكَرَك، وسيَّره له على يد الأمير آل ملك، ومنشوراً بما عيّن له من الإقطاعات[١]. وأمّا أَمْرُ قَرَا سُنْقُر فإنّه جهّز ولده محمداً إلى الملك الناصر محمد بالكَرَك، وعلى يده كتابه وكتاب قَبْجَق نائب حَماه وكتاب أَسَنْدَمُر نائب طرابُلُس. ومضمون كتاب قَرَا سُنْقُر: أنّه يلوم الملك الناصر عن نزوله عن المُلك، وكيف وقَع له ذلك ولم يشاوره في أوّل الأمر، ثمّ وعده برجوع مُلكه إليه عن قريب، وأنّه هو وقَبْجَق وأَسَنْدَمُر ما حلَفوا للمظفر، وأنّهم مقيمون على أيمانهم له. وكذلك كتاب قَبجَق وكتاب أَسَنْدَمُر؛ فأخذ الأمير ناصرالدين محمد بن قَرَا سُنْقُر كُتُبَ الثلاثة وسار مُسرعاً ومعه نَجّاب خبير بتلك الأرض، فلم يزالا سائرين في البرية والمفاوز إلى أن وصلا إلى الكَرَك، وآبنُ قَرَا سنقر عليه زيُّ العرب، فلمّا وقفا على باب الكَرَك سألوهما من أين أنتما؟ فقالا: من مصر، فدخلوا وأعلموا الملك الناصر محمداً بهما وآستأذنوه في إحضارهما، فأَذِن لهما بالدخول؛ فلمّا مَثَلَا بين يديه كشفَ آبن قَرَا سُنْقُر لثامَه عن وجهه فعرَفه السلطان، وقال له: محمد؟ فقال: لَبَّيْكَ يا مولانا السلطان، وقَبّل الأرض وقال: لا بُدّ من خَلْوة، فأَمَر السلطان لمن حوله بالانصراف؛ فعند ذلك حدّث آبنُ قَرَا سُنْقُر السلطان بما جرى من أبيه وقَبْجَق وأَسَنْدَمُر، وأنهم آجتمعوا في حلب وتحالفوا بأنّهم مقيمون على الأيمان التي حلفوها للملك الناصر، ثم دفَع له الكُتُب الثلاثة فقرأها، ثم قال: يا محمد، ما لهم قُدرة على ما آتّفقوا عليه، فإنّ كلّ من في مصر والشام قد آتّفقوا على سلطنة بيبرس؛ فلما سمِع ابنُ قَراسُنْقُر ذلك حَلَف بأنّ كلّ واحد من هؤلاء الثلاثة كفءٌ لأهل مصر والشام، ومولانا السلطان أخبرُ

---

(١) وكان مضمون كتاب المظفر بيبرس إلى الناصر محمد بن قلاوون «بأني أجبت سؤالك فيما آخترته، وقد حكم عليَّ الأمراء فلم تمكن مخالفتهم، وأنا نائبك» وخرج بها ــ أي التقليد والمنشور وكتاب بيبرس ــ الأمير الحاج آل ملك، فلما وصل إلى الناصر أظهر الناصر البشر، وأمر الحرّاس أن يصيحوا باسم الملك المظفر، وخطب له يوم الجمعة أيضاً على منبر الكرك، وأنعم على البريدّي وأعاده. (السلوك: ٤٧/١/٢).

بذلك منّي، فتبّسم السلطان وقال صدقَت يا محمد، ولكن القائل يقول: [الخفيف]

كُنْ جَـرِيّـاً إذا رأيتَ جبـانـاً   وجـبـانـاً إذا رأيـتَ جَـرِيّـا
لا تُقـاتِلْ بـواحدٍ أهـلَ بيتٍ   فـضـعـيـفـان يـغـلبـان قَـوِيـا

وهذه البلاد كلُّها دارت مع بِيبَرْس ولا يَتِمُّ لنا الحال إلّا بحُسن التدبير والمُداراة والصبر على الأمور. ثم إنّه أنزله في موضع وأحسن إليه، وقال له: إسترح اليوم وغداً ثم سافِرْ؛ فأقام يومين ثم طلبه الملك الناصر في صبيحة اليوم الثالث وأعطاه جواب الكُتُب، وقال له: سَلِّم على أبـي (يعني على قَرَا سُنْقُر) وقل له: إصبر؛ ثم خلع عليه خِلْعة سنيّة وأعطاه ألف دينار مصريّة، وخلَع على مَعْن النّجاب الذي أَتَى به أيضاً وأعطاه ألف درهم؛ فخرَج آبنُ قَرَا سُنْقُر والنّجاب معه، وأسرعا في السير إلى أن وصلا إلى حلب، فدخل آبن قَرَاسُنْقُر إلى أبيه ودفع له كتاب الملك الناصر ففتحه فإذا فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: حرس الله تعالى نعمة المَقرّ العالي الأبويّ الشمسيّ ومتّعنا بطول حياته؛ فقد علِمنا ما أشار به وما عَوّل عليه، وقد علمنا قديماً وحديثاً أنّه لم يزل على هذه الصورة؛ وأُريد منك أنّك تطوّل روحك عليّ، فهذا الأمر ما يُنال بالعَجَلة، لأنّك قد علمتَ آنتظام أمراء مصر والشام في سلك واحد ولا سيّما الأفرم[1] ومن معه من اللئام، فهذه عُقْدة لا تنحلّ إلّا بالصبر؛ وإن حضَر إليك أحدٌ من جهة المظفّر وطلَب منك اليمين له، فقدِّم النيّة أنّك مجبورٌ ومغصوب وآحلف. ولا تقطع كُتُبَك عني في كلّ وقت، وعرّفني بجميع ما يجري من الأمور قليلها وكثيرها». وكذلك كَتَب في كتاب قَبْجَق وأُسَنْدَمُر، فعرَف قَرَا سُنْقُر مضمونَ كتابه وسكت.

---

(١) ذكر المقريزي أن الأفرم كان قد تمتع في البداية عن الطاعة والحلف لبيبرس، ثم عاد عن ذلك بناءً على رغبة الناصر محمد بن قلاوون. قال المقريزي: «وقدم البريد من ممالك الشام بالطاعة وحلفهم، ما عدا الأفرم نائب دمشق؛ فإنه لما قدم عليه وزير بغداد بالخبر قال: بئس والله ما فعله الملك الناصر بنفسه، وبئس ما فعله بيبرس! وأنا لا أحلف لبيبرس ــ وقد حلفت للملك الناصر ــ حتى أبعث إلى الناصر. ثم سيّر جماعة إلى الكرك على البريد بكتابه، فأعاد الناصر الجواب بالشكر والثناء، وأنه قد ترك الملك، فليحلف لمن يولونه» (السلوك: ٢/١/٤٧).

ثم بعد قليل وصل إلى قرا سُنْقُر من الملك المظفّر بيبرس تقليدٌ بنيابة حلب وبلادها دَرْبَسْتْ(١) على يد أمير من أمراء مصر. ومن مضمون الكتاب الذي من المظفّر إلى قَرَا سُنْقُر: «أنت خُشْدَاشِي، ولو علمتُ أنّ هذا الأمر يصعُب عليك ما عمِلت شيئاً حتّى أرسلتُ إليك وأعلمتُك به، لأنّ ما في المنصوريّة أحد أكبر منك، غير أنّه لما نزَل آبنُ أستاذنا عن الملك آجتمع الأمراء والقضاة وكافّةُ الناس، وقالوا: ما لنا سلطان إلّا أنت، وأنت تعلم أنّ البلاد لا تكون بلا سلطان، فلو لم أتقدّم أنا كان غيري يتقدّم فآجعلني واحداً منكم ودبِّرني برأيك. وهذه حلب وبلادها دَرْبَسْتْ(١) لك، وكذا لخُشْدَاشِيَتِك: الأمير قَبْجَق والأمير أَسَنْدَمُر». وسيَّر الملك المظفّر لكلّ من هؤلاء الثلاثة خِلْعَةً بألف دينار، وفرشاً قماشه بألف دينار، وعشرة رؤوس من الخيل. فعند ذلك حلَف قَرَا سُنْقُر وقَبْجَق وأَسَنْدَمُر، ورجع الأمير المذكور إلى مصر بنسخة اليمين. فلمّا وقَف عليها الملك المظفّر فَرِح غاية الفَرَح، وقال: الآن تمّ لي المُلك. ثم شرع من يومئذ في كَشْف أمور البلاد وإزالة المظالم والنظر في أحوال الرعيّة.

ثم آستهلّت سنة تسع وسبعمائة وسلطان الديار المصريّة الملك المظفّر ركن الدين بِيبرْس الجَاشْنَكِير المنصوريّ، والخليفة المستكفي بالله أبو الربيع سليمان، ونائب السلطنة بديار مصر الأمير سَلّار، ونائب الشام الأمير آقوش الأفرم الصغير، ونائب حلب الأمير شمس الدين قَرَا سُنْقُر المنصوريّ، ونائب حَماة الأمير سيف الدين قَبْجَق المنصوريّ، ونائب طرابُلُس الأمير سيف الدين أَسَنْدَمُر المنصوريّ.

ثم فَشَا في الناس في السنة المذكورة أمراضٌ حادّة، وعَمّ [الوباء](٢) الخلائق وعَزّ سائرُ ما يحَتاج إليه المَرْضَى. ثم توقفت زيادة النيل إلى أن دخل شهر مسري، وآرتفع سِعْرُ القمح وسائر الغِلال، ومَنَع الأمراءُ البيع من شُوَنهم إلّا الأمير

(١) دَرْبَسْت: والصواب أن يقال «دَرْبَسْتَه» وهو لفظ ديواني معناه. كاملاً: وقد استعمله المقريزي في السلوك: ٨٤٤/٣/١ بصيغة «دربستا» والقلقشندي في صبح الأعشى بصيغة «كربستا» وكلاهما تحريف.
(٢) زيادة عن السلوك.

عِزّ الدين أَيْدَمُر الخَطِيريّ الأُستادار، فإنّه تقدّم إلى مباشريه ألّا يتركوا عنده سوى مؤونة سنة واحدة، وباع ماعداه قليلاً قليلاً. والخَطِيريّ هذا هو صاحب الجامع[١] الذي بخُطّ بولاق. اِنتهى.

وخاف الناس أن يقَع نظيرُ غلاء كَتْبُغا[٢]، وتشاءموا بسلطنة الملك المظفّر بيبرس المذكور. ثمّ إنّ الخطيب نورَ الدِّين عليّ بن محمد بن الحسن بن عليّ القَسْطَلانِيّ خرج بالناس وآستَسْقَى، وكان يوماً مشهوداً، فنُودِيَ من الغَدِ بثلاث أصابع؛ ثم توقّفت الزيادة مدّة، ثم زاد وانتهت زيادة النيل فيه إلى خمس عشرة ذراعاً وسبع عشرة إصبعاً في سابع عشرين توت؛ ثم نقَص في أيّام النسيء، وجاء النَّوروز ولم يُوَفِّ النيل ستَّ عشرةَ ذراعاً، ففُتِح سدُّ[٣] الخليج في يوم الجمعة ثامن توت وهو ثامن عشرين شهر ربيع الأوّل. وذكر بعضهم أنّه لم يُوَفِّ إلى تاسع عشر بابه، وهو يوم الخميس حادي عشر جُمادَى الأُولى، وذلك بعد اليأس منه، وهذا القول هو الأشهر. قال: وآنحطّ مع ذلك بعد الوفاء السِّعْرُ وتشاءم الناس بطَلْعة الملك المظفّر بِيَبْرِس. وغنّت العامّة في المعنى:

سلطاننا رُكين[٤] ونائبنا دُقين[٥] يجينا الماء منين
جيبوا لنا الأعرج[٦] يجيء الماء ويدّحرج

ومن يومئذ وقعَت الوحشة بين المظفّر وبين عامّة مصر، وأخذتْ دولة الملك

(١) جامع الخطيري: تقدم الكلام عليه في الصفحة ١٧٥ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٢) وقع هذا الغلاء في سنة ٦٩٥هـ واستمر إلى سنة ٦٩٦هـ. ــ انظر في ذلك: إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي: ص ٦٧ ــ ٧٦.

(٣) في الأصل: «خليج السدّ». والخليج المعتاد سدّه وفتحه سنوياً هو خليج القاهرة المعروف بالخليج المصري. وأما السدّ الذي كان يقام سنوياً في هذا الخليج ويفتح وقت فيضان النيل فكان قريباً من فم هذا الخليج. ومكانه يقع اليوم في نهاية شارع الخليج المصري من الجهة القبلية في نقطة واقعة جنوبي البقعة المعروفة بعشش الساقية. (محمد رمزي).

(٤) و(٥) و(٦) المقصود بلفظ «ركين» السلطان بيبرس وكان لقبه ركن الدين فسماه العامة ركين. ودقين هو الأمير سلّار النائب، فإنه كان أجرد وليس بلحيته وشاربه سوى شعرات قليلة. وأما الأعرج فهو الناصر محمد بن قلاوون. (انظر بدائع الزهور: ١/١/٤٢٥).

المظفّر بِيبَرْس في آضطراب، وذلك أنه كثر توهُّمه من الملك الناصر محمد بن قلاوون، وقصَد في أيّامه كل واحد من خشداشيته أن يترقّى إلى أعلى منزلة، وآتّهموا الأمير سلّار بمباطنة الملك الناصر محمد وحذَّروا الملك المظفّر منه، وحسنّوا له القبض على سَلّار المذكور، فجُبن بِيبرْس عن ذلك.

ثم ما زالوا حتّى بعث الأميرَ مغُلْطَاي إلى الملك الناصر محمد بن قلاوون بالكَرَك ليأخذ منه الخيل والمماليك التي عنده[١]، وتَغلَّظ في القول، فغَضِب الملك الناصر من ذلك غضباً شديداً وقال له: «أنا خَلَّيتُ مُلك مصر والشام لبِيبرْس، ما يكفيه حتّى ضاقت عينُه على فرس عندي ومملوك لي، ويكرِّر الطلب! اِرجع إليه وقل له: والله لئن لم يترُكْني، وإلاّ دخلتُ بلاد التّتار وأُعلمهم أنّي تركتُ مُلك أبي وأخي ومُلْكي لمملوكي، وهو يُتَابِعُني ويطلب منّي ما أخذتُه». فجافاه مُغْلَطاي وخشّن له في القول بحيث آشتدّ غضبُ الملك الناصر، وصاح به: ويلك وصلتَ إلى هنا! وأَمَر أن يُجرَّ ويُرْمى من سُور القلعة؛ فثار به المماليك، يسبُّونه ويلعنونه وأخرجوه إلى السُّور؛ فلم يزل به أَرْغُون الدَّوَادَار والأمير طُغَاي إلى أن عفا عنه وحبسه ثمّ أخرجه ماشياً. وعظُم ذلك على الملك الناصر وكتب مُلَطّفات[٢] إلى نُوّاب البلاد الشامية بحلب وحَمَاة وطرابُلُس وصَفَد، ثمّ إلى مصر ممّن يَثِق به، وذكر ما كان به من ضِيق اليد وقِلّة الحُرْمة، وأنّه لأجل هذا ترك مُلك مصر وقَنِع بالإقامة بالكَرَك، وأنّ السلطان الملك المظفّر في كلّ وقت يُرسل يطالبه بالمماليك والخيل التي عنده. ثم ذكر لهم في ضِمْن الكتاب: «أنتم مماليكُ أبي وربّيتموني؛ فإمّا أن تَردُّوه عني وإلّا سرتُ إلى بلاد التّتار[٣]»، وتَلَطَّف في مخاطبتهم غايةَ التلطُّف؛ وسيّر

---

(١) ذكر ابن إياس أن بيبرس أرسل مع مغلطاي وقطلوبغا كتاباً إلى الملك الناصر بالكرك مضمونه «إذا أنت لم ترجع عن مكاتبتك للأمراء، وإلا نقلتك من الكرك إلى القسطنطينية كما فعل الملك الأشرف خليل مع أولاد الملك الظاهر بيبرس البندقداري». (بدائع الزهور: ١/١/٤٢٦).

(٢) الملطفات: معناها الرسائل؛ وكانت تكتب عادة إلى الأمراء للترضية والمدح أو التغرير والتأمين تمهيداً لما يزمعه لهم السلطان من عقوبة أو قتل. وكانت الملطفات تكتب بقلم الغبار. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٣٢٧).

(٣) في بدائع الزهور: «فإما أنكم تكفوني أمر هؤلاء الأمراء الذين تعصّبوا عليّ، وإما أني أتوجه إلى بعض ملوك الشرق وألتجىء إليه، قبل أن يرسلوني إلى القسطنطينية) بدائع الزهور: ١/١/٤٢٧).

لهم بالكُتُب على يد العُرْبان فأوصلوها إلى أربابها. وكان قد أرسل الملك المظفّر قبل ذلك يطلب منه المال الذي كان بالكَرَك والخيل والمماليك التي عنده، حسب ما يأتي ذكرُه في ترجمة الملك الناصر محمد، فبعَث إليه الملك الناصر بالمبلغ الذي أخذه من الكَرَك فلم يَقْنَع المظفّر بذلك وأرسل ثانياً؛ وكان الملك الناصر لمّا أقام بالكَرَك صار يخْطب بها للملك المظفّر بِيبرْس بحضرة الملك الناصر، والملك الناصر يتأدّب معه، ويسكُت بحضرة مماليكه وحواشيه. وصار الملك الناصر إذا كاتب الملك المظفّر يكتب إليه: «المَلَكِيّ المظفَّريّ» وقصد بذلك سكونَ الأحوال وإخماد الفِتَن، والمظفَّر يُلِحُّ عليه لأمرٍ يريده الله تعالى حتى كان من أمره ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وأما النُّوّاب بالبلاد الشاميّة فإنّ قَرا سُنْقُر نائب حلب كتب إلى الملك الناصر الجواب: «بأنّي مملوك السلطان في كلّ ما يَرْسُم به»، وسأل أن يبعث إليه بعض المماليك السلطانية، وكذلك نائب حَماة[1] ونائب طرابُلُس وغيرهما ما خلا بَكْتَمُر الجُوكَنْدار [نائب صفد][2] فإنّه طَرد قاصد الملك الناصر ولم يجتمع به. ثم أرسل الملك الناصر مملوكه أَيْتَمش المحمَّديّ إلى الشام وكتَب معه مُلَطّفات إلى الأمير قُطْلُوبَك المنصوريّ وبَكْتَمُر الحُسَامِي الحاجب بدمشق ولغيرهما؛ ووصَل أَيْتَمش إلى دِمَشق خِفْيَةً ونزل عند بعض مماليك قُطْلُوبَك المذكور، ودَفع إليه المُلَطَّف؛ فلمّا أوصله إلى قُطْلُوبَك أنكر عليه وأمره بالاحتفاظ على أَيْتَمش المذكور ليوصِّله إلى الأفرم نائب الشام ويتقرّب إليه بذلك؛ فبلغ أَيْتَمش الخبرُ فترك راحلته التي قَدِم عليها ومَضَى إلى دار الأمير بَهادُر آص في الليل، فآستأذن عليه فأذِن له؛ فدخل إليه أَيْتَمُش وعرَّفه ما كان من قُطْلُوبَك في حقّه، فطيّب بهادُر آص خاطرَه وأنزله عنده، وأركبه من الغد معه إلى المَوْكِب؛ وقد سبق قُطْلُوبَك إلى الأفرم نائب الشام وعرّفه قدوم مملوك الملك الناصر إليه وهُروبَه من عنده ليلاً، فقَلِق الأفرم من ذلك وألزم

---

(١) كان نائب حماة الأمير قبجق المنصوري؛ وقد بعث إلى الملك الناصر الجواب «بأني مع الأمير قرا سنقر نائب حلب». (السلوك: ٢/١/٥٦).

(٢) زيادة عن السلوك.

والي المدينة بتحصيل المملوك المذكور، فقال بَهادُر آص: «هذا المملوك عندي» وأشار إليه، فنزَل عن فرسه وسَلّم على الأفرم وسار معه في المَوْكب إلى دار السعادة، وقال له بحضرة الأمراء: السلطان الملك الناصر يُسَلِّم عليك ويقول: ما منكم أحدٌ إلّا وأكل خبز الملك الشهيد قلاوون، وما منكم إلا من إنعامُه عليه، وأنتم تربية الشهيد والده، وأنه قاصد الدخول إلى دِمَشق والإقامة بها، فإن كان فيكم من يُقاتله ويمنعه العبور فعرِّفوه. فلم يَتِمّ هذا القول حتى صاح الكُوكَنْدي الزرّاق أحدُ أكابر أمراء دمشق: «وا ابنَ أستاذاه!» وبَكى؛ فغَضِب الأفرم نائب الشام عليه وأخرجه، ثم قال الأفرم لأَيْتَمش: قل له (يعني الملك الناصر): كيف يجيء إلى الشام أو إلى غير الشام! كأنّ الشام ومصر الآن تحت حكمك؟ أنا لمّا أرسل إليّ السلطان الملك المظفر أن أَحْلِف له ما حلفتُ حتى سيّرتُ أقول له: كيف يكون ذلك وآبنُ أستاذنا باقٍ! فأرسل يقول: أنا ما تقدّمت عليه حتى خَلَع آبنُ أستاذنا نفسه؛ وكتَب خَطَّه وأشهد عليه بنزوله عن الملك، فعند ذلك حَلَفتُ له. ثم في هذا الوقت تقول: من يردّني عن الشام! ثم أَمر به الأفرم فسُلِّم إلى أستاداره [الطنقش][1]. فلمّا كان اللّيل آستدعاه ودفع له خمسين ديناراً وقال: قل له[2]: «لا تذكُر الخروج من الكَرَك»، وأنا أكتب إلى المظفّر وأَرْجعه عن الطلب[3]؛ ثم أطلقه فعاد أَيْتَمش إلى الكَرَك وأعلم الملك الناصر بما وقَع. فأعاده الملك الناصر على البريد ومعه أَرِكْتَمُر وعثمان الهجّان ليجتمع بالأمير قَرَا سُنْقُر نائب حلب ويُواعدَه على المسير إلى دِمَشق؛ ثم خرج الملك الناصر من الكَرَك وسار إلى بركة زَيْزَاء[4] فنزل بها.

وأمّا الملك المظفّر بِيبَرس صاحب الترجمة فإنّه لمّا بلغه أنّ الملك الناصر حبَس قاصدَه مُغْلَطاي المقدّم ذكرهُ قَلِق من ذلك وآستدعى الأمير سَلّار وعرّفه ذلك، وكانت البُرْجِيّة قد أَغْرَوا المظفّر بيبرس بسَلّار واتّهموه أنّه باطَن الملك الناصر

---

(١) زيادة عن السلوك.

(٢) الضمير عائد على السلطان محمد بن قلاوون.

(٣) أي طلب الخيل والمماليك، كما جاء في السلوك.

(٤) سبق التعريف بها. راجع الجزء السابع، ص ٥٣، حاشية (١).

وحسنّوا له القبض عليه، حسب ما ذكرناه، فجبُن الملك المظفّر من القبض عليه. وبلغ ذلك سلّار فخاف من البُرْجِيّة لكثرتهم وقوّتهم وأخذ في مُداراتهم؛ وكان أشدّهم عليه الأمير بيكور وقد شرق[1] إقطاعه، فبعث إليه سلّار بستة آلاف إرْدَب غلّة وألف دينار، فكَفّ عنه. ثم هادى خواصّ المظفّر وأنعم عليهم. فلمّا حضر سلّار عند المظفّر وتكلّما فيما هم فيه فآقتضى الرأي إرسالَ قاصدٍ إلى الملك الناصر بتهديده ليفرج عن مُغْلَطاي. وبينما هم في ذلك قَدِم البَريد من دِمَشق بأنّ الملك الناصر سار من الكَرَك إلى البُرْج[2] الأبيض ولم يعرِف أحد مَقْصِده؛ فكتب الجوابَ في الحال بحفظ الطُّرُقات عليه.

وآشتهر بالديار المصريّة حركةُ الملك الناصر محمد وخروجُه من الكَرَك، فماجت الناس، وتحرّك الأمير نُوغاي القَبْجاقِيّ، وكان شُجاعاً مِقْدَاماً حادّ المِزاج قَوِيّ النفس، وكان من أُلْزَام الأمير سَلّار النائب، وتواعَد مع جماعة من المماليك السلطانية أن يهجُم بهم على السلطان الملك المظفّر إذا ركب ويقتلَه. فلمّا ركِب المظفّر ونزَل إلى بركة الجُبّ آستجمع نُوغاي بمن وافقه يريدون الفَتك بالمظفّر في عَوْده من البركة؛ وتقرّب نُوغاي من السلطان قليلاً قليلاً، وقد تغيّر وجهُه وظهر فيه أَمارات الشرّ، ففطن به خواصّ المظفر وتحلّقوا حول المظفّر، فلم يجد نُوغاي سبيلاً إلى ما عزَم عليه. وعاد الملك المظفّر إلى القلعة فعرّفه أُلْزَامُه ما فهموه من نُوغاي، وحسنّوا له القبض عليه وتقريرَه على من معه. فاستدعى السلطانُ الأميرَ سلّار وعرّفه الخبر، وكان نُوغاي قد باطَن سلّار بذلك، فحَذّر سلّار الملك المظفّر وخوّفه عاقبة القبض على نُوغاي وأنّ فيه فسادَ قلوب جميع الأمراء، وليس الرأي إلّا الإغضاء فقط. وقام سلار عنه، فأخذ البرجيّةُ بالإغراء بسلّار وأنّه باطَن نُوغاي، ومتى لم يقبض عليه فسَد الحال. وبلَغ نوغاي الحديثُ، فواعد أصحابه على اللحاق بالملك الناصر، وخرَج هو والأمير مُغْلَطَاي القازاني الساقي ونحو ستين مملوكاً وقت المغرب عند غلق باب القلعة في ليلة الخميس خامس عشر جمادى الآخرة من سنة تسع وسبعمائة المذكورة. وقيل في أمر نوغاي وهروبه وجهٌ آخر:

---

(١) أي أصابه الجفاف من قلة الماء. وعبارة المقريزي في السلوك: «وكان قد شكا له من انكسار خراجه».

(٢) البرج الأبيض: موضع من أعمال البلقاء. وهو مركز من مراكز الطريق البريدي بين غزة ودمشق.

قال الأمير بيبَرْس الدَّوادار في تاريخه: تسحَّب من الديار المصريّة إلى الكَرَك المحروس سيف الدين نُوغاي القَفْجَاقِيّ أحدُ المماليك السلطانيّة وسيف الدين تُقْطَاي الساقي وعلاء الدين مُغْلَطَاي القَازَانيّ، وتوجّه معهم من المماليك السلطانية بالقلعة مائةٌ وستة وثلاثون نَفَراً، وخرجوا طُلْباً واحداً بخيلهم وهُجُنِهم وغِلْمانهم وتركوا بيوتهم وأولادهم. اِنتهى.

وقال غيره: لمّا ولي الملك المظفر بيبرس السلطنة بقِي سلّار هو الملك الظاهر بين الناس والملك المظفّر بيبرس من وراء حِجاب؛ فلمّا كان في بعض الأيام دخل على الملك المظفّر أميران: أحدهما يُسمَّى نُوغاي والآخر مُغْلَطَاي، فباسا الأرض بين يديه وشَكَوَا له ضعف أخبازهما، فقال لهما المظفّر: اشْكُوَا إلى سلّار فهو أعلم بحالكما مني، فقالا: خلّد الله مُلك مولانا السلطان، أهو مالك البلاد أم مولانا السلطان! فقال: اذهبا إلى سلّار؛ ولم يزدهما على ذلك. فخرجا من عنده وجاءا إلى سَلّار وأعلماه بقول الملك المظفّر، فقال سلّار: والله يا أصحابي أَبْعدَكُما بهذا الكلام؛ وأنتما تعلمان أنّ النائب ما له كلامٌ مثل السلطان. وكان نُوغاي شُجاعاً وعنده قوّة بأسٍ، فأقسم بالله لئن لم يُغَيِّروا خبزه ليقيمنّ شرّاً تهرق فيه الدماء؛ ثم خرجا من عند سلّار. وفي الحال رِكب سلّار وطلَع إلى عند الملك المظفّر وحدّثه بما جرى من أمر نُوغاي ومُغْلَطَاي، وقال: هذا نُوغاي يصدُق فيما يقول، لأنّه قادر على إثارة الفتنة، فالمصلحة قبضه وحبسه في الحبس؛ فاتّفقوا على قبضه. وكان في ذلك الوقت أميرٌ يقال له أنس، فسمِع الحديث، فلمّا خرج أعلمَ نُوغاي بذلك؛ فلمّا سَمِع نُوغاي الكلام طلب مُغْلَطَاي وجماعةً من مماليك الملك الناصر، وقال لهم: يا جماعة، هذا الرجل قد عوّل على قبضنا؛ وأمّا أنا فلا أُسَلِّم نفسي إلّا بعد حرب تُضْرب فيه الرِّقاب، فقالوا له: على ماذا عوّلتْ؟ فقال: عوّلتُ على أنِّي أَسِير إلى الكَرَك إلى الملك الناصر أستاذِنا، فقالوا له: ونحن معك؛ فحلَف كلٌّ منهم على ذلك، فقال نُوغاي، وكان بيته خارج باب النصر: كونوا عندي وقت الفجر الأوّل راكبين وأنتم لابسون، وتفرّقا؛ فجهّز نُوغاي حاله في تلك الليلة، وركب بعد الثُّلث الأخير مع مماليكه وحاشيته؛ ثم جاءه مُغْلَطَاي القازاني بمماليكه ومعه جماعة

من مماليك السلطان الملك الناصر والكل ملبَسون [على ظهر الخيل][(١)]. ثم إنّ نُوغاي حرّك الطبلخاناه[(٢)] حَرْبِياً، وشقّ من الحسينية، فماجت الناس وركبوا من الحسينية وأعلموا الأمير سَلّار، فركب سلار وطلع إلى القلعة وأعلم السلطان بذلك.

قال ابن كثير: وكان ذلك بمباطنة سَلّار مع نُوغاي. فلمّا بلَغ المظفّر ذلك قال: «على «أيش توجّها؟» فقال سلّار: «على نُباح الجراء في بطون الكلاب»، والله ما ينظر في عواقب الأمور ولا يخاف آثار المقدور؛ فقال المظفر: «أيش المصلحة؟» فاتفقوا على تجريد عسكر خَلْف المُتَسحّبين؛ فجرّد في أثرهم جماعة من الأمراء صحبة الأمير علاء الدين مُغْلَطَاي المسعوديّ، والأمير سيف الدين قُلّي في جماعة من المماليك؛ فساروا سيراً خفيفاً قصداً في عدم إدراكهم وحفظاً لسلطانهم وابن سلطانهم الملك الناصر محمد بن قلاوون فلم يدركوهم، وأقاموا على غَزّة أياماً وعادوا إلى القاهرة.

وقال صاحب نُزْهة الألباب: وجرّد السلطان الملك المظفّر وراءهم خمسة آلاف فارس صحبة الأمير أخي سَلّار، وقال له المظفّر: «لا ترجع إلّا بهم، ولو غاصوا في البحر!» وكان فيهم الأمير شمس الدين دَبَاكُوز وسيف الدين بجاس وجَنْكَلِي بن البابا وكُهُرْدَاش وأيبك البغداديّ وبَلاط وصارُوجا والقَرَماني وأمير آخر، وهؤلاء الأمراء هم خِيَار عسكر مصر، فساروا. وكان نُوغَيْه[(٣)] قد وصَل إلى بلبيس وطلب واليَها وقال له: «إن لم تُحْضِر لي في هذه الساعة خمسة آلاف دينار من مال السلطان وإلّا سلخت جِلْدك من كعبك [إلى أذنك][(٤)]». ففي الساعة أحضر

---

(١) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية.

(٢) أي أمر بقرع الطبول ونفخ الأبواق لتنبيه الجنود وحثهم على الاستعداد للحرب.
والطبلخاناه كلمة فارسية معناها فرقة الموسيقى السلطانية، أو بيت الطبل؛ ويشتمل على الطبول والأبواق والصنوج. والطبلخاناه تكون أيضاً بصحبة السلطان في الأسفار والحروب. (التعريف بمصطلحات صبح الأعشى: ٢٢٨).

(٣) تقدّم رسمه: «نوغاي».

(٤) زيادة من طبعة دار الكتب المصرية عن عقد الجمان.

الذهب؛ وكان نُوغَيْه قد أرصد أُنَاساً يَكْشِفون له الأخبار، فجاؤوا له وذكروا أنّ عسكراً عظيماً قد وصل من القاهرة وهم سائقون؛ فلمّا سَمِع نُوغَيْه ذلك ركب هو وأصحابه وقال لوالي بلبيس: قل للأمراء الجائين خلفي: أنا رائح على مَهَل حتى تلحقوني، وأنا أُقسم بالله العظيم لئن وقعتْ عيني عليهم لأجعَلنّ عليهم يوماً يُذْكَر إلى اليوم القيامة! ولم يبعد نُوغَيْه حتى وصل أخو سَلّار وهو الأمير سُمُك ومعه العساكر، فلاقاهم والي بلبيس وأخبرهم بما جرى له مع نُوغَيْه وقال لهم: ما رِكب إلا من ساعة؛ فلما سمِعوا بذلك ساقوا إلى أن وصلوا إلى مكان بين الخطّارة[1] والسعيدية[2]، فإذا بنُوغاي واقفٌ وقد صَفَّ رجاله ميمنةً وميسرةً وهو واقف في القلب قُدّام الكلّ؛ فلما رآهم سُمُك أرسل إليه فارساً من كبار الحَلْقة؛ وسار إليه الفارس واجتمع بنُوغَيْه وقال له: أرسَلَنِي سُمُك إليك وهو يقول: «السلطان الملك المظفّر يُسَلِّم عليك ويقول لك: سبحان الله! أنت كنت أكبر أصحابه، فما الذي غيّرك عليه؟ فإن كان لأجل الخُبْز فما يأكل الخبزَ أحدٌ أحقّ منك؛ فإن عُدتَ إليه فكلّ ما تشتهي يفعله لك». فلمّا سمع نُوغَيْه هذا الكلام ضحِك وقال: «أيش هذا الكلام الكذب! لمّا أمسِ سألتُه أن يُصلِح خُبْزي بقَرْية واحدة ما أعطاني، وأنا تحت أمره، فكيف يسمح لي اليوم بما أشتهي وأنا صرتُ عدوّه! فخلّ عنك هذا الهَذَيان، وما لكم عندي إلا السيف»، فرجع الرسول وأعلم سُمُك بمقالته؛ ثم إنّ نُوغَيْه دَكَس[3] فرسه وتقدّم إلى سُمُك وأصحابه وقال له: «إن هؤلاء الذين معي أنا الذي أخرجتهم من بيوتهم وأنا المطلوب؛ فمن كان يريدني يبرز لي وهذا المَيْدان!» فنظَرت الأمراء بعضُهم إلى بعض، ثم قال: «يا أمراء، ما أنا عاص على أحد، وما خرجتُ من بيتي إلا غَبْناً، وأنتم أغبنُ مني، ولكن ما تُظهرون ذلك، وها أنتم

(١) الخطّارة: من القرى المصرية التي أنشأها العرب بمصر. وكانت ضمن مراكز البريد بين السعيدية والصالحية. (صبح الأعشى: ١٤/٣٧٧).

(٢) السعيدية: أنشأ هذه القرية الظاهر بيبرس، وقد سماها السعيدية تيمناً باسم ولده السعيد محمد بركة خان. وقد اندثرت هذه القرية؛ ومكانها اليوم عزبة الشيخ مطر حنفي الواقعة على فم ترعة السعيدية بأراضي ناحية العباسة بمركز الزقازيق بمديرية الشرقية. (محمد رمزي).

(٣) كذا. ولعل المراد «ركس» بالراء، أي غمزه برجله ليستحثه على الجري. ويقول العامة أيضاً: لكز ونكز، بنفس المعنى.

سمعتم مني الكلام؛ فمن أراد الخروج إليّ فليخرج، وإلا آحملوا عليّ بأجمعكم»، وكان آخر النهار، فلم يخرج إليه أحد، فرجع إلى أصحابه، ونزل سُمُك في ذلك المكان. فلما أمسى الليل رحل نُوغَيْه بأصحابه وسار مجدّاً ليله ونهاره حتى وصل قَطْيَا(١)، فوجد واليَها قد جَمَع العُرْبان لقتاله، لأنّ البطاقة وردت عليه من مصر بذلك؛ والعُرْبان الذين جمعَهم الوالي نحوُ ثلاثة آلاف فارس؛ فلما رآهم نوغاي قال لأصحابه: اِحملوا عليهم وبادرُوهم حتى لا يأخذَهم الطَّمع فيكم (يعني لقلتهم) وتأتي الخيل التي وراءكم؛ فَحملوا عليهم، وكان مقدّم العرب نَوْفَل البياضي، وفيهم نحو الخمسمائة نَفَر بلبوس(٢)، فحملت الأتراك أصحابُ نُوغاي عليهم وتقاتلا قتالاً عظيماً حتى ولّت العرب، وآنتصر نُوغَيْه عليهم هو وأصحابه، وولّت العرب الأدبار طالبين البَرِّية؛ ولَحِق نُوغَيّه والي قَطْيَا فطعَنه وألقاه عن فرسه وأخذه أسيراً. ثم رجعت الترك من خلف العرب وقد كَسَبُوا منهم شيئاً كثيراً.

وأمّا سُمُك فإنه لم يزل يَتْبَعهم بعساكر مصر منزلةً بعد منزلة حتى وصلوا إلى قطيا فوجدوها خراباً، وسمعوا ما جرى من نُوغَيْه على العرب، فقال الأمراء: الرأي أننا نسير إلى غَزّة ونشاور نائب غَزّة في عمل المصلحة؛ فساروا إلى غزة، فلاقاهم نائب غزّة وأنزلهم على ظاهر غَزّة وخدمهم، فقال له سُمُك: «نحن ما جئنا إلّا لأجل نُوغاي، وأنّه من العريش سار يطلب الكَرَك، فما رأيكُ؟ نسير إلى الكَرَك أو نرجع إلى مصر؟» فقال لهم نائب غزة: «رواحكم إلى الكرك ما هو مصلحة؛ وأنتم من حين خرجتم من مصر سائرون وراءهم ورأيتموهم في الطريق فما قدرتم عليهم، وقد وصلوا إلى الكَرَك وانضموا إلى الملك الناصر، والرأي أنكم ترجعون إلى مصر وتقولون للسلطان ما وقع وتعتذرون له»؛ فرجعوا وأخبروا الملك المظفّر بالحال فكاد يموت غَيْظاً؛ وكتب من وقته كتابا للملك الناصر فيه: «إنه [من] ساعة وقوفك على هذا الكتاب، وقَبْل وضعه من يدك، تُرسل لنا نُوغاي ومُغْلَطَاي ومماليكهما، وتبعث المماليك الذين عندك، ولا تُخلِّ منهم عندك سوى خمسين مملوكاً، فإنك آشتريت

(١) قطيا: قرية مصرية كانت بين القنطرة والعريش. ــ وقد سبق التعليق عليها، فانظر الفهارس.

(٢) اللَّبوس: الثياب والسلاح؛ وهو الدرع أيضاً.

الكلّ من بيت المال؛ وإن لم تسيرهم سرتُ إليك وأخذتُك وأنفُك راغم!» وسيّر الكتاب مع بدويّ إلى الملك الناصر.

وأمّا نُوغَيْه فإنه لما وصَل إلى الكرَك وجد الملك الناصر في الصيد، فقال نُوغَيْه لمُغْلَطاي: «اِنزل أنت ها هنا وأسير أنا للسلطان»؛ وركب هجينا وأخذ معه ثلاثة مماليك وسار إلى ناحية عَقَبة أَيْلة[1]، وإذا بالسلطان نازل في موضع وعنده خَلْقٌ كثير من العَرَب والترك؛ فلما رَأَوْا نُوغَيْه وقد أقبل من صدر البَرِّيّة، أرسلوا إليه خيلاً فكشفوا خَبَره، فلما قربوا منه عَرَفه مماليك السلطان فرجعوا وأعلموا السلطان أنه نُوغَاي، فقال السلطان: «الله أكبر! ما جاء هذا إلّا عن أمر عظيم»؛ فلمّا حضر نزل وباس الأرض بين يدي الملك الناصر ودعا له، فقال له الملك الناصر: «أراك ما جئتَ لي ' ي مثل هذا الوقت إلى هذا المكان إلا لأمرٍ؛ فحدثني حقيقة أمرك»، فأنشأ نُوغَيْه يقول: [الكامل]

أنت المليكُ وهذه أعناقُنا خضعَت لعِزِّ عُلاك يا سُلطانِي
أنت المُرَجَّى يا مليكُ فمن لَنَا أسدٌ سِواك ومالِكُ البُلْدانِ

في أبيات أُخَر؛ ثم حكَى له ما وقَع له منذ خرج الملك الناصر من مصر إلى يوم تاريخه، فركب الملك الناصر وركب معه نُوغَيْه وعادا إلى الكَرَك، وخلَع عليه وعلى رفقته وأنزلهم عنده ووعدَهم بكلّ خير.

ثم إنّ الملك الناصر جمع أمراءه ومماليكه وشاورهم في أمره، فقال نُوغَيْه: «من ذا الذي يُعاندك أو يقِف قُدّامَك والجميع مماليكك! والذي خَلَق الخلق، إذا كنت أنت معي وحدي ألتقي بك كلّ من خرج من مصر والشام!» فقال السلطان: «صدقَت فيما قلتَ، ولكن من لم ينظر في العواقب، ما الدهر له بصاحب». اِنتهى.

وقال ابن كَثِير في تاريخه: وصل المتوجِّهون إلى الكَرَك إلى الملك الناصر في الحادي والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة فقَبِلهم الناصر أحسن قبول؛

(١) عقبة أيلة: هي التي تعرف اليوم باسم العقبة.

وكان حين وصلوا إلى قَطْيَا أخذوا ما بها من المال، ووجدوا أيضاً في طريقهم تَقْدِمَةً لسيف الدين طُوغَان نائب البيرة فأخذوها بكمالها وأحضروا الجميع بين يدي الملك الناصر محمد؛ ولمّا وصلت إليه الأمراء المذكورون أمر الملك الناصر بالخُطبة لنفسه؛ ثم كاتب النوّاب فآجتمعوا وأجابوه بالسمع والطاعة.

ولما عاد الأمراء من غزّة إلى مصر آشتدّ خوفُ السلطان الملك المظفّر وكثُر خيالُه[١] من أكثر عسكر مصر، فقبَض على جماعة تزيد على ثلاثمائة مملوك، وأخرج أخبازَهم وأخبازَ المتوجِّهين مع نُوغَيْه إلى الكَرَك لمماليكه؛ وتحلّقوا عليه البُرْجِيّة وشوّشوا فكره بكثرة تخيلُّه بمخامرة العسكر المصريّ عليه؛ وما زالوا به حتّى أخرج الأمير بَيْنَجار والأمير صارم الدين الجَرْمكيّ في عدّة من الأمراء مجرّدين، وأخرج الأمير آقوش الروميّ بجماعته إلى طريق السُّوَيْس ليمنع من عساه يتوّجه من الأمراء والمماليك إلى الملك الناصر. ثم قبَض الملك المظفّر على أحد عشر مملوكاً وقصد أن يَقبِض على آخرين فآستوحش الأمير بطرا[٢] فهرب، فأدركه الأميرُ جَرْكَتَمُر بن بهادُر رأس نَوْبة فأحضره فحُبس؛ وعند إحضاره طلعَ الأمير أَلْديكْز السِّلاح دار بملطّف من عند الملك الناصر محمد، وهو[٣] جواب الكتاب الذي كان أرسله الملك المظفر للملك الناصر يطلب نُوغَيْه وأصحابه. وقد ذكرنا معناه وما أغلظ فيه وأفحش في الخِطاب للملك الناصر؛ وكان في وقت وصول كتاب المظفّر حضر إلى الملك الناصر الأميرُ أَسَنْدَمُر نائب طرابُلُس، كأنّهما كانا على ميعاد، فأخذ الناصر الكتاب وأَسَنْدَمُر إلى جانبه، وعليه لُبس العُرْبان، وقد ضرَب اللِّثام، فقرأ الناصر الكتاب، ثم ناوله إلى أَسَنْدَمُر فقرأه وفَهِم معناه؛ ثم أمر الملك الناصر الناس بالانصراف وبقِي هو وأَسَنْدَمر، وقال لأَسَنْدَمُر: ما يكون الجواب؟ فقال له أَسَنْدَمُر: المصلحة أن تُخادعه في الكلام وتترقّق له في الخطاب حتى نجهّز أمرنا ونستظهر؛ فقال له السلطان: أُكتبْ له الجواب مثل ما تختاره، فكتب أَسَنْدَمُر:

(١) المقصود كثر تخيّله أي توهمه وسوء ظنه بمن حوله.

(٢) في السلوك: «أيطرا».

(٣) في السلوك: . . . طلع الأمير ألدكز بملطّف من الملك الناصر يتضمن استجلابه إليه» أي استجلاب بطرا المذكور. وعبارة المقريزي أكثر وضوحاً في هذا السياق.

«المملوك محمد بن قلاوون يقبل اليد العالية المولوية السلطانيّة المظفَّريّة، أسبغ الله ظِلَّها، ورفع قَدْرها ومحلها، ويُنْهي بعد رفع دعائه، وخالص عبوديته وولائه، أنه وصل إليّ المملوك نُوغَيْه ومُغْلَطَاي وجماعةٌ من المماليك، فلمّا عَلِم المملوك بوصولهم أغلق باب القلعة ولم يُمَكِّن أحداً منهم يعبُر إليه؛ وسيّرت إليهم ألومهم على ما فعلوه؛ وقد دخلوا على المملوك بأن يبعث ويشفع فيهم، فأخذ المملوك في تجهيز تقدمة لمولانا السلطان ويشفع فيهم؛ والذي يُحيط به علم مولانا السلطان أنّ هؤلاء من مماليك السلطان، خلّد الله مُلْكه، وأنّ الذي قيل فيهم غير صحيح، وإنما هربوا خوفاً على أنفسهم؛ وقد ٱستجاروا بالمملوك، والمملوك يستجير بظلّ الدولة المظفّريّة؛ والمأمول ألّا يُخَيِّبَ سؤالَه ولا يَكْسِر قلبه، ولا يردّه فيما قصده. وفي هذه الأيام يجهِّز المملوك تَقدِمةٍ مع المماليك الذين طلَبهم مولانا السلطان، وأنا ما لي حاجةٌ بالمماليك في هذا المكان؛ وإن رسم مولانا مالك الرِّقّ أن يُسَيِّر نائباً له وينزل المملوك بمصر ويلتجىء بالدولة المظفريّة ويَحْلِق رأسه ويقعُد في تربة الملك المنصور. والمملوك قد وطَّن نفسه على مثل هذا؛ وقد قال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب كرم الله وجهه: «ما أقربَ الراحةَ من التعب والبؤسَ من النِّعَم والموت من الحياة». وقال بعضهم: إيّاك وما يُسخِط سلطانك، ويُوحش إخوانك؛ فمن أسخط سلطانَه فقد تعرّض للمنية، ومن أوحش إخوانه فقد تبرّأ عن الحرية. والمملوك يسأل كريم العفو والصفح الجميل! والله تعالى قال في كتابه الكريم وهو أصدق القائلين: ﴿وَٱلْكَاظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾. والمملوك ينتظر الأمان والجواب. أنهى المملوك ذلك».

فلمّا قرأ الملك المظفّر الكتاب خَفَّ ما كان عنده؛ وكان سَلّار حاضراً فقال له سَلّار: ما قلْت لك إنّ الملك الناصر ما بَقِيَت له قُدرة على المعاندة! وقد أصبح مُلْك الشام ومصر طوع يدك، ولكن عندي رأيٌ: وهو أن تُسَيِّر إلى الأفرم بأن يجعل بالَه من الأمراء، فإنّهم ربمّا يهربُون إلى بلاد التّتار، فٱستصوب المظفّر ذلك، وكتَب إلى الأفرم في الحال بالغرض؛ فلمّا وصل الكتاب إلى الأفرم ٱجتهد في ذلك غاية الاجتهاد.

وأخذ الملك الناصر في تدبير أمره؛ وبينما المظفّر في ذلك ورد عليه الخبر من الأفرم بخروج الملك الناصر من الكَرَك، فقَلِق المظفّر من ذلك وزاد توهُّمه؛ ونَفَرت قلوب جماعة من الأمراء والمماليك منه وخَشُوا على أنفسهم؛ وآجتمع كثير من المنصوريّة والأشرفية والأويراتيّة[1] وتواعدوا على الحرب؛ وخرج منهم مائةٌ وعشرون فارساً بالسلاح، وساروا على حَمِيَّة إلى الملك الناصر، فخرج في أثرهم الأمير بَيْنَجار والصارم الجرمكِيّ بمن معهم، وقاتلوا المماليك وجُرِح الجَرْمَكِيّ بسيف في خدّه[2] سقَط منه إلى الأرض؛ ومضى المماليك إلى الكَرَك ولم يستجرىء أحدٌ أن يتعرّض إليهم؛ فعظُم بذلك الخَطْب على الملك المظفّر، وآجتمع عنده البُرْجِيّة وقالوا: هذا الفسادُ كلّه من الأمير سَلّار، ومتى لم تَقْبِض عليه خرَج الأمرُ من يدك؛ فلم يُوافِق على ذلك وجبُن من القبض على سَلّار لشَوْكته ولْاضطراب دولته؛ ثم طَلب الملك المظفّر الأمير سَلّار وغيَره من الأمراء وآستشارهم في أمر الملك الناصر، فآتّفق الرأيُ على خروج تجريدة لقتال الملك الناصر.

وأمّا الملك الناصر فإنّه أرسل الأمير أَيْتَمُش المحمّديّ الناصريّ إلى الأمير قَبْجق نائب حماة، فأحال الأميرُ قبجق الأمَر على الأمير قَرَا سُنْقُر نائب حلب، فآجتمع أَيْتَمُش بقَرا سُنْقُر فأكرمه ووافق على القيام مع الملك الناصر، ودخلَ في طاعته وأعلن بذلك، وهو أكبر المماليك المنصوريّة، وواعد الملكَ الناصرَ على المسير إلى دِمَشْق في أوّل شعبان. ثم كَتب قَرَا سُنْقُر إلى الأفرم نائب الشام يَحُثُّه على طاعة الملك الناصر ويرغبه في ذلك ويحذره مخالفته وأشار قرا سنقر على الملك الناصر أنه يكاتب الأمير بَكْتَمُر الجُوكَنْدار نائب صَفَد، والأمير كَراي المنصوريّ نائب القُدس. ثم عاد أَيْتَمُش إلى أستاذه الملك الناصر وأخبره بكل ما وقَع، فسُرّ الملك الناصر بذلك هو وكلٌّ من عنده غاية السرور، وتحقّق كلّ أحد من حواشي الملك الناصر بإتمام أمره. وكان نُوغَيْه منذ قَدِم على الملك الناصر بالكَرَك لا يَبْرَح يُحرِّضه على المسير إلى دِمَشق حتّى إنّه ثَقُل على الملك الناصر من مخاشنته في المخاطبة

---

(١) الأويراتية: طائفة من التتار هربوا من ظلم غازان وأتوا إلى مصر سنة ٦٩٥هـ طالبين الدخول في الإسلام ـ راجع ص ٥١ من هذا الجزء، والحاشية (٢) من نفس الصفحة.

(٢) في السلوك: «بسيف في فخذه».

بسبب توجُّهه إلى دِمَشق، وغَضِب منه وقال له: «ليس لي بك حاجةٌ، اِرجِع حيث جئتَ»، فترك نُوغايْ الخدمة وآنقطع وحَقَد له الملك الناصر ذلك حتّى قتله بعد عَوْده إلى الملك بمدّة حسب ما يأتي ذكره من كثرة ما وبّخه نُوغَيْه المذكور، وأسمعه من الكلام الخَشِن.

ولمّا قَدِم أَيْتَمُش بالأجوبة على الملك الناصر قَوِي عزمُ الملك الناصر على الحركة؛ ثم إنّ الملك الناصر أيضاً أرسل مملوكه أَيْتَمُش المحمدي المذكور إلى الأمير بَكْتَمُر الجُوكَنْدار نائب صَفَد حسب ما أشار به قَرَا سُنْقُر؛ فسار أَيْتَمُش إليه وآجتمع بالأمير محمد بن بَكْتَمُر الجُوكَنْدار، فجمع محمد المذكور بين أَيْتَمُش وبين أبيه ليلاً في مقابر صفد، فعتبه أَيْتَمُش على ردّه أوّلاً قاصدَ السلطان الملك الناصر فآعتذر له بَكْتَمُر بالخوف من بِيبرس وسَلّار كما كان وقع له مع الناصر أولاً بالديار المصريّة حين آتّفقا على قَبْض بِيبرس وسلّار ولم يَتِمّ لهم ذلك، وأخرج بَكْتَمُر بسبب ذلك من الديار المصريّة، وقد تقدّم ذكر ذلك كلّه. اِنتهى. ثم قال له بَكْتَمُر: ولولا ثِقتي بك ما آجتمعتُ عليك؛ فلمّا عرّفه أَيْتَمُش طاعة الأمير قَرَا سُنْقُر والأمير قَبْجَق والأمير أَسَنْدَمُر أجاب بالسمع والطاعة، وأنّه على ميعاد النوّاب إلى المضي إلى الشام؛ وعاد أَيْتَمُش إلى الملك الناصر بجواب بَكْتَمُر فُسّر به غاية السرور.

وأمّا السلطان الملك المظفّر بِيبرس هذا فإنّه أخذ في تجهيز العساكر إلى قتال الملك الناصر محمد حتّى تَمّ أمرُهم وخرجوا من الديار المصريّة في يوم السبت تاسع شهر رجب وعليهم خمسة أمراء من مَقدَّمي الألوف، وهم: الأمير برلغِي الأشرفيّ، والأمير جمال الدين آقوش الأشرفي نائب الكرك كان، والأمير عزّ الدين أَيْبَك البغداديّ، والأمير سيف الدين طغْرِيل الإيغَانِيّ، والأمير سيف االدين ألدكز[١] السلاح دار، ومعهم نحو ثلاثين أميراً من أمراء الطبلخاناه بعد ما أنفق فيهم الملك المظفّر: فأعطى بُرُلْغِي عشرة آلاف دينار، وأعطى لكل مقدّم أَلفَي دينار، ولكل من الطبلخاناه ألف دينار، ولكلّ واحد من مقدمي الحَلْقة ألف درهم، ولكل واحد من

---

(١) في السلوك: «تناكر».

أجناد الحَلْقة خمسمائة درهم. ونزلوا بمسجد التِّبْن[١] خارج القاهرة ولم يتقدَّموا؛ ثم عادوا بعد أربعة أيّام إلى القاهرة. وكان الباعث على عَوْدهم أن كتب آقوش الأفرم نائب الشام وردت على الملك المظفّر تتضمّن وصول الملك الناصر إلى البُرْج[٢] الأبيض ثم عاد إلى الكَرَك، فاطمأنّ الملك المظفر وأرسل إلى بُرُلْغي ومن معه من المجرَّدين بالعَوْد، فعادوا بعد أربعة أيام.

فلم يكن إلا أيّام وورد الخبر ثانياً بمسير الملك الناصر محمد من الكَرَك إلى نحو دمشق، فتجهّز العسكر المذكور في أربعة آلاف فارس وخرجوا من القاهرة في العشرين من شعبان إلى العَبّاسة. فورد البريد من دِمَشق بقدوم أَيْتَمُش المحمديّ من قِبَل الملك الناصر بمشافهةٍ إلى الأفرم ذكرها للمظفّر. ثم إنّ الأفرم بعد قدوم أَيْتَمُش بعث الأمير علاء الدين أَيْدُغْدِيّ شُقَيْر الحُساميّ والأمير جُوبان لكشف خبرَ الملك الناصر، وأنهما توجها من الشام إلى جهة الكَرَك، فوجدا الملك الناصر يتصيّد وأنّه عوّق أَيْتَمُش عنده، فسُرّ المظفّر بذلك. وكان الأمر بخلاف ذلك، وهو أن أمرهما: أنّه لمّا سيرهما الأفرم لكشف خبر الملك الناصر قَدِما على الملك الناصر، ودخلا تحت طاعته، وعرّفاه أنهما جاءا لكشف خبره، وحَلَفا له على القيام بُنصْرته سِراً، وعادا إلى الأفرم بالجواب المذكور. وكان الناصر هو الذي أَمَرهما بهذا القول، فظنّ الأفرم أنّ أخبارهما على الصدق، فكَتَب به إلى المظفّر. ثم إنّ الأفرم خاف أن يطرُق الملكُ الناصر دمَشق على غَفْلة فجرّد إليه ثمانية أمراء من أمراء دِمَشق، وهم: الأمير سيف الدين قُطْلُوبَك المنصوريّ، والأمير سيف الدين الحاج بهادُر الحلبيّ الحاجب، والأمير جُوبان، والأمير كُجْكُن، والأمير علم الدين سَنْجَر الجاولي وغيرهم ليقيمُوا على الطُّرقات لحفظها على من يخرُج من الشام وغيره إلى الملك الناصر. وكتَب إلى الملك المظفّر يستحِثّه على إخراج عساكر مصر لتجتمع عنده مع عساكر دِمَشق على قتال الملك الناصر، وأنّه قد جدّد اليمين للمظفّر وحلّف أمراء دمشق ألّا يخونوه ولا ينصروا الملك الناصر. فلمّا قرأ المظفّر كتاب الأفرم

(١) راجع ص ١٠٦ من هذا الجزء، حاشية (٢).
(٢) راجع ص ١٩٧ من هذا الجزء، حاشية (٢).

آضطرب وزاد قلقُه. ثم ورد عليه كتاب الأمير بُرُلْغِي من العَبّاسة بأنّ مماليك الأمير آقوش الروميّ تجّمعوا عليه وقتلوه وساروا ومعهم خزائنه إلى الملك الناصر، وأنّه لَحِق بهم بعضُ أمراء الطبلخاناه في جماعة من مماليك الأمراء؛ وقد فَسَد الحال، والرأي أن يخرُج السلطان بنفسه.

فلمّا سَمِع الملك المظفّر ذلك أخرج تجريدةً أخرى فيها عِدّةُ أمراء أكابر، وهم: الأمير بجاس وبَكْتُوت وكثير من البُرجية، ثم بعث إلى بُرُلْغِي بألفي دينار ووعَده بأنه عازم على التّوجه إليه بنفسه.

فلمّا ورد كتاب الملك المظفر بذلك وبقدوم التجريدة إليه عَزَم على الرحيل إلى جهة الكَرَك؛ فلمّا كان الليل رَحَل كثير ممّن كان معه يريدون الملك الناصر، فثَنَى عزمَه عن الرحيل ثانياً، وكتب إلى المظفّر يقول بأنّ نصف العسكر سار إلى الملك الناصر وخرج عن طاعة الملك المظفّر، ثم حرَّض الملكَ المظفّر على الخروج بنفسه. وقبل أن يطلُع الفجر من اليوم المذكور وصل إلى القاهرة الأمير بهادُرجُك بكتاب الأمير بُرُلْغِي المذكور وطلَع إلى السلطان؛ فلمّا قضَى الملك المظفّر صلاة الصبح تقدّم إليه بهادُرجُك وعرّفه بوصول أكثر العسكر إلى الملك الناصر وناوله الكتاب، فلمّا قرأه بِيبرس تبسّم وقال: «سَلِّم على الأمير بُرُلْغي، وقل له: لا تخش من شيء، فإنّ الخليفة أمير المؤمنين قد عَقَد لنا بَيْعةً ثانية وجدّد لنا عهداً، وقد قُرِىء على المنابر، وجدّدنا اليمين على الأمراء، وما بقي أحد يجسُر أن يخالف ما كَتَب به أمير المؤمنين!» ثم دفع إليه العهد الخليفتي وقال: «امضِ به إليه حتى يقرأه على الأمراء والجند ثم يرسله إليّ، فإذا فَرَغ من قراءته يرحل بالعساكر إلى الشام» وجهَّزَ له بألفي دينار أخرى؛ وكتب جوابه بنظير المشافهة؛ فعاد بهادُر جُك إلى بُرُلْغِي، فلمّا قَرأ عليه الكتابَ وآنتهى إلى قوله: «وأنّ أمير المؤمنين ولاني توليةً جديدة وكَتب لي عهداً وجدد لي بَيْعةً ثانية» وفَتح العهدَ فإذا أوّلهُ: ﴿إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ ٱللهِ ٱلرَّحمنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ فقال بُرُلْغِي: ولسليمان الريح! ثم آلتفت إلى بهادُرجُك وقال له: «قل له: يا بارد الذقن! والله ما بقي أحد يلتفت إلى الخليفة» ثم قام وهو مُغْضَب.

وكان سبب تجديد العهد للملك المظفّر هذا أنّ الأفرم نائب الشام لمّا ورد كتابُه على المظفّر أنه حلّف الأمراء بدمشق ثانياً، وبَعث بالشيخ صدر الدين محمد ابن عمر [بن مَكّي بن عبد الصمد الشهير بآبن][١] المُرَحِّل إلى الملك المظفّر في الرسليّة، صار صدر الدين يجتمع به هو وآبن عدلان[٢]، وصار الملك المظفّر يشغَل وقته بهما، فأشارا عليه بتجديد العهد والبَيْعة وتحليف الأمراء، وأنّ ذلك يثبّت به قواعد مُلْكه، ففعل الملك المظفّر ذلك، وحَلَف الأمراء بحضور الخليفة؛ وكتِب له عهدٌ جديدٌ عن الخليفة أبي الربيع سليمان العباسيّ. . . ونسخة العهد:

« إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وإِنَّهُ بِسم آللهِ آلرَّحْمنِ آلرَّحِيمِ » من عبد الله وخليفة رسول الله صلّى الله عليه وسلم أبي الربيع سليمان بن أحمد العبّاسيّ لأمراء المسلمين وجيوشها. ﴿يا أيُّها آلَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا آللهَ وأَطِيعُوا آلرَّسُولَ وَأولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ وإني رضِيتُ لكم بعبد الله تعالى الملك المظفّر ركن الدين نائباً عني لملك الديار المصرية والبلاد الشاميّة، وأقمتُه مُقام نفسي لدِينه وكفاءته وأهليّته، ورَضِيتُه للمؤمنين، وعزلتُ من كان قبله بعد علمي بنزوله عن المُلك، ورأيت ذلك متعيّناً عليّ، وحكَمْت بذلك الحُكّام الأربعة؛ وآعلموا، رحِمكم الله، أنّ الملك عقيم[٣] ليس بالوراثة لأحدٍ خالفٍ عن سالفٍ ولا كابِر عن كابرٍ؛ وقد آستخرتُ الله تعالى وولّيتُ عليكم الملك المظفّر؛ فمن أطاعه فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني، ومن عصاني فقد عَصَى أبا القاسم آبن عمي صلّى الله عليه وسلّم. وبلغني أنّ الملك الناصر آبن السلطان الملك المنصور شَقَّ العَصَا على المسلمين وفرَّق كلمتهم وشتت

---

(١) زيادة عما سيأتي ذكره في وفيات سنة ٧١٦هـ.

(٢) هو الفقيه الشافعي محمد بن أحمد بن عثمان بن إبراهيم بن عدلان المتوفى سنة ٧٤٩هـ. (الشذرات).

(٣) اتفقت كتب اللغة على أنه قيل «الملك العقيم» لقطع صلة الرحم بالتزاحم عليه، أو لعدم نفع النسب فيه لأنه يقتل في طلبه الأب والأخ والعم والولد. (انظر لسان العرب، وتاج العروس، والكلّيات). والتفسير المشار إليه في المتن هنا أي أنّ الملك لا يورَّث ــ هو تفسير رائد في مجاله، قلّ أن انتبه إليه اللغويون والفقهاء. وعلى كل حال فإن هذا المنحى في التفسير يتفق مع الموقف المملوكي العام من مسألة السلطة، إذ كانت النشأة الحربية والاعتماد على القوة وكثرة الأنصار هي العامل الحاسم في تأكيد أهلية السلطان ووصوله إلى سدّة الحكم؛ هذا بالرغم من جنوح بعض السلاطين إلى توريث أبنائهم، ومنهم المنصور قلاوون.

شملَهم وأطمع عدوَّهم فيهم، وعَرَّض البلاد الشاميّة والمصريّة إلى سَبْي الحريم والأولاد وسَفْك الدماء، فتلك دماء قد صانها الله تعالى من ذلك. وأنا خارج إليه ومحاربُه إن آستمرّ على ذلك، وأدافع عن حريم المسلمين وأنفسهم وأولادهم لهذا الأمر العظيم، وأقاتله حتّى يفيء إلى أمر الله تعالى؛ وقد أوجبتُ عليكم يا معاشرَ المسلمين كافةً الخروجَ تحت لوائي اللّواء الشريف، فقد أجمعت الحُكّام على وجوب دَفْعه وقتاله إن آستمرّ على ذلك، وأنا مستصحب معي الملك المظفّر فجهِّزوا أرواحكم والسلام».

وقُرِىء هذا العهدُ على منابر الجوامع بالقاهرة، فلمّا بلغ القارىء إلى ذكر الملك الناصر صاحت العوام: نَصره الله نصره الله! وكررت ذلك. وقَرأ، فلمّا وصَل إلى ذكر الملك المظفّر صاحوا: لا، ما نريده! ووَقع في القاهرة ضجّة وحركةٌ بسبب ذلك. اِنتهى.

ثم قَدِم على الملك المظفّر من الشام على البريد الأميرُ بهادرُ آص يَحُثُّ الملك المظفر على الخروج إلى الشام بنفسه، فإن النوّاب قد مالوا كلُّهم إلى الملك الناصر، فأجاب أنه لا يخرج، وآحتجّ بكراهيته للفتنة وسَفْك الدماء، وأنّ الخليفة قد كَتَب بولايته وعَزَل الملك الناصر، فإنّ قَبِلوا وإلاّ تَرَك المُلك. ثم قَدِم أيضاً الأميرُ بلاط بكتاب الأمير بُرُلْغِي، وفيه أن جميع من خرج معه من أمراء الطبلخاناه لَحِقُوا بالملك الناصر وتَبِعهم خَلْقٌ كثير، ولم يتأخر غيرُ بُرُلْغِي وآقوش نائب الكَرَك وأَيْبَك البغداديّ، وألدِكْز والفتّاح، وذلك لأنّهم خواصّ الملك المظفّر.

وأمّا الملك الناصر فإنّه سار من الكَرَك بمن معه في أوّل شعبان يريد دمشق بعد أمور وقعت له، نذكرها في أوائل ترجمته الثالثة. فلمّا سار دخل في طاعته الأمير قُطْلُوبك المنصوريّ والحاج بهادرُ وبَكتَمُر الحُسَامِيّ حاجب حُجّاب دمشق وعَلَم الدين سَنْجَر الجاولي. وصار الملك الناصر يتأنّى في مَسِيره من غير سُرْعة حتّى يتبيّن ما عند أمراء دمشق الذين أخرجهم الأفرم لحفظ الطرقات قبل ذلك؛ فكتبوا أمراءُ دمشق المذكورون إلى الأفرم أنّه لا سبيل لهم إلى محاربة الملك الناصر؛ وأرادوا بذلك إمّا أن يخرج بنفسه فيقبضوه أو يسير عن دمشق إلى جهة

أخرى فيأتيهم بقيّة الجيش وكان كذلك. فإنّه لَمَا قَدِم كتابُهم عليه بدمَشق شاع بين الناس مجيء الملك الناصر من الكَرَك فثارت العوّام وصاحوا: «نصر الله الملك الناصر!» وتسلّل عسكره من دمشق طائفةً بعد طائفة إلى الملك الناصر، وآنفرط الأمر من الأفرم. وآتّفق الأمير بِيبرس العَلائِيّ والأمير بِيبرس المجنون بمن معهما على الوثوب على الأفرم والقبض عليه، فلم يثبت عندما بلغه ذلك؛ وآستدعى علاء الدين [عليّ][1] بن صبيح، وكان من خواصّه، وخرج ليلاً وتوجّه إلى جهة الشَّقِيف[2]؛ فركِب قُطْلُوبَك والحاجّ بهادُر عندما سمعا خبر الأفرم، وتوجها إلى الملك الناصر، وكانا كاتباه بالدخول في طاعته قبل ذلك، فسُرَّ بهما وأنعم على كل واحد منهما بعشرة آلاف درهم؛ وقَدِم على الناصر أيضاً الجاولي وجُوبان وسائر من كان معهم، فسار بهم الملك الناصر حتى نزل الكُسْوة، وخرج إليه بقيّة الأمراء والأجناد. وقد عُمِل له سائر شِعار السلطنة من السناجق الخليفتيّة والسلطانيّة والعصائب والجتْر والغاشية[3]، وحَلَف العساكر.

وسار يوم الثلاثاء ثاني عشر شعبان يريد مدينة دِمَشق، فدخلها من غير مدافع بعدما زُيِّنت له زينة عظيمة؛ وخرَج جميع الناس إلى لقائه على آختلاف طبقاتهم حتى صغار الكُتّاب؛ وبلَغ كِراءُ البيت من البيوت التي بَمْيدان الحصى إلى قلعة دِمَشق للتفرّج على السلطان من خمسمائة درهم إلى مائة درهم؛ وفُرِشت الأرض بِشقاق الحرير الملوّنة، وحَمَل الأمير قُطْلُوبَك المنصوريّ الغاشية، وحَمَل الأميرُ الحاج بهادرُ الجتْر، وترجّل الأمراء والعساكر بأجمعهم ومشَوْا بين يديه حتّى نزل بالقصر [الأبلق][4].

---

(١) زيادة عن السلوك. وفيه أنه «علي بن صبح» وذكر ابن كثير في البداية والنهاية أن ابن صبح هذا كان صاحب شقيف أرنون.

(٢) أي شقيف أرنون، وهي قلعة حصينة تقع اليوم في جنوب لبنان. وقد سبق الكلام عليها، فانظر الفهارس.

(٣) الجتر والغاشية: تقدم الكلام عليهما: راجع ص٥٢ من هذا الجزء، وصفحة ٤ من الجزء السابع.

(٤) زيادة عن السلوك والبداية والنهاية. وكان المؤرخ ابن كثير في جملة الذين شاهدوا دخول الناصر إلى دمشق في اليوم المذكور، وقدّم لنا في «البداية والنهاية» وصفاً لذلك المشهد. (انظر البداية والنهاية: ١٤/٥٤).

وفي وقت نزوله قَدِم مملوك الأمير قَرَا سُنْقُر نائب حلب لكشف الخبر وأنّ قَرَا سُنْقر خرج من حلب، وقَبْجَق خرج من حَمَاة، فخلَع عليه وكتب لهما بسرعة الحضور إليه. ثم كَتب إلى الأفرم أماناً وتوجّه به علم الدين سَنْجَر الجاولي؛ فلم يَثِق بذلك لِما كان وقَع منه في حقّ الناصر لمّا قَدِم عليه تَنْكِز، وطلب يمين السلطان، فحَلف السلطان له وبعث إليه نسخة الحلف.

وكان قبل ذلك بعث الملك الناصر خازِنْدارَه وتَنْكِز مملوكه إلى الأفرم هذا صحبةَ عثمان الركاب يستدعيه إلى طاعته بكلّ ما يمكن، ثم أمَره الملك الناصر إن لم يُطِع يُخَشِّن له في القول، وكذلك كتَب في المطالعة التي على يد تنكز: «أوّلها وعد وآخرها وعيد». فلمّا قرأ الأفرم الكتاب المذكور آسوّد وجهُه من الغضب، ثم آلتفت إلى تَنْكِز وقال: «أنت وأمثالك الذين حَمَّقوا هذا الصبي حتى كتب لي هذا الكتاب، ويلك! من هو الذي وافقه من أمراء دمشق على ذلك» وكان الناصر قد كَتب له في جملة الكلام أنّ غالب أمراء البلاد الشاميّة أطاعوني، وكان الأفرم لما حضر إليه تَنْكِز قبل أن يقرأ الكتاب جمَع أمراء دمشق ثم قرأ الكتاب، فلمّا وصل إلى ذلك، قال الأفرم: «قل لي، من هو الذي أطاعه حتى أَقْبِض عليه وأرسله إلى مصر؟» فنظرَ أمراءُ دمشق بعضهم إلى بعض، وأمعن الأفرم في الكلام؛ فقام الأمير بِيبرس المجنون وقال: «ما هذا الكلام مصلحة، تجاوِب آبنَ آستاذك بهذا الجواب! ولكن لاطفه وقل له: أنت تعلم أنّنا متَّبعون مصر وما يبرُز منها؛ فإن أردتَ الملك فاطلبه من مصر، ولا تبتلش[1] بنا وآرجع عنّا»؛ وذكر له أشياء من هذا النَّمط؛ فقال الأفرم: «أنا ما أقول هذا الكلام؛ وليس له عندي إلّا السيف إن جاءنا!» ثم طلب الأفرم تَنْكِز في خَلْوَة وقال له: «سِرْ إلى أستاذك وقل له: «اِرجع[2]»، وإلّا يسمع الملك المظفّر فيمسكك ويحبسك، فتبقى تتمّنى أن تشْبع الخبز! ولا ينفعك حينئذ أحد؛ فإن كان لك رأي فاقبِض على نُوغَيْه ومن معه وسيِّرهم

---

(١) تقول العامة في بلاد الشام: «بلَّش بالشيء» أي ابتدأ به. وتقول «ابتلش بالشيء» وتقول «ابتلش بالشيء» أي انشغل به. ويقول أحدهم: «ما هذه البَلْشَة؟» أي ما هذا الأمر الذي شغلني واضطرني إلى الاهتمام به والانصراف إليه عن غيره.

(٢) في الأصل: «يرجع».

للملك المظفّر؛ فإنّ فعلتَ ذلك يصلُح حالك، ولا تفعل غير هذا تهلِك». وكتَب له كتاباً بمعنى هذا ودفعه إلى تَنكِز؛ فلم يخرُج تَنْكِز من دمشق إلى أثناء الطريق حتى خرَج في أثره جماعةٌ من أمراء دمشق إلى طاعة الناصر. وكان كلام الأفرم لتَنْكِز أكبرَ الأسباب لخروج الملك الناصر من الكَرَك إلى دِمَشق؛ فلما قَدِم الناصر دمشق وكتَب الأمان للأفرم فتخوّف الأفرم مما كان وقع منه من القول لمّا قَدِم عليه تنكِز وطلب الحَلِف. اِنتهى.

وقال بِيبرس في تاريخه: وأرسل السلطان إلى الأفرم رسلاً بالأمان والأيمان، وهما الأميران عِزّ الدين أَيْدَمُر الزَّردكاش والأمير سيف الدين جُوبان. وقال غيره: بعث إليه السلطان نسخة الحَلِف مع الأمير الحاج أَرْقَطَاي الجَمدَار، فما زال به حتى قَدِم معه هو وآبن صبيح؛ فركب السلطان إلى لقائه حتى قرب منه نزل كلّ منهما عن فرسه، فأعظم الأفرمُ نزولَ السلطان له، وقَبّل الأرض؛ وكان الأفرم قد لَبِس كامليّة[1] وشدّ وسَطَه وتوشح بنصفيّة[2] (يعني أنه حضر بهيئة البطّالين[3] من الأمراء) وكَفَنُه تحت إبطه؛ وعندما شاهدتْه الناس على هذه الحالة صرَخوا بصوت واحد: يا مولانا السلطان، بتربة والدك الملك الشهيد قلاوون لا تُؤْذِه ولا تغيِّر عليه! فبكى سائر من حضر؛ وبالغ السلطان في إكرامه وخلع عليه وأركبه وأقرّه على نيابة دِمشق، فكثُر الدعاء له وسار إلى القصر. فلما كان من الغد أحضر الأفرم خيلاً وجمالاً وثياباً بمائتي ألف درهم تَقْدِمة إلى السلطان الملك الناصر.

وفي يوم الجمعة ثاني عشرين شعبان خُطِب للملك الناصر بدِمشق وآنقطع منها آسم المظفّر، وصُليت الجمعة بالمَيْدان فكان يوماً مشهوداً. وفي ذلك اليوم قَدِم الأمير قَرَا سُنْقُر نائب حلب، والأمير قَبْجَق نائب حَمَاة، والأمير أَسَنْدَمُر كُرجِي نائب

---

(١) الكاملية: ثوب ضيّق الأكمام يلبس فوق القباء، به فتحة من منتصف الظهر حتى أسفل حافة الذيل. (الملابس المملوكية لماير: ص ١٤).

(٢) النصفيّة: وتجمع على نصافي: قماش من نسيج الحرير والكتّان. وهناك النصافي التي تكون من القطن الخشن، ويظهر أن هذا المعنى هو المقصود هنا. (السلوك: ٦٨/١/٢، حاشية: ٢).

(٣) البطّالون من الأمراء والأجناد هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها. ــ راجع الفهارس.

طرابلُس، وتَمُر الساقي نائب حِمْص، فركب السلطان إلى لقائهم، وترجّل إلى قَرَا سُنْقُر وعانقه، وشكَر الأمراء وأثنى عليهم. ثم قَدِم الأمير كَرَاي المنصوريّ نائب القدس والأمير بَكْتَمُر الجُوكَنْدَار نائب صَفَد، ثم قَدَّم كلٌّ من الأمراء والنوّاب تَقْدِمته بقَدْر حاله ما بين ثياب أطلس وحوائص ذهب وكلفتاة[1] زَرْكش وخيول مُسْرَجَة[2]، في عُنُق كل فرس كيسٌ فيه ألف دينار وعليه مملوك، وعِدّة بغال وجمال بخَاتِيّ وغير ذلك. وشرَع الملك الناصر في النفقة على الأمراء والعساكر الواردة عليه مع النوّاب، فلما آنتهت النفقة قدم بين يديه الأمير كَرَاي المنصوريّ على عسكره إلى غَزّة فسار إليها؛ وصار كَرَاي يمدّ في كلّ يوم سِماطاً عظيماً للمقيمين والواردين عليه، فأنفق في ذلك أموالاً جزيلةً من حاصله؛ وآجتمع عليه بغَزّة عالَمٌ كثير، وهو يقوم بكُلَفهم ويَعِدُهم عن السلطان بما يُرضيهم.

وأما الملك المظفّر فإنه قَدِم عليه الخبر في خامس عشرين شعبان باستيلاء الملك الناصر على دِمَشق بغير قتال، فعظُم ذلك على الملك المظفّر وأظهر الذلّة؛ وخرجت عساكر مصر شيئاً بعد شيء تريد الملك الناصر حتى لم يبق عنده بالديار المصرية سوى خواصّه من الأمراء والأجناد.

وأمّا الأمير بُرُلْغِي ومن معه من الأمراء صار عساكرهم تتسلّل واحداً بعد واحد حتى بقي بُرُلْغِي في مماليكه وجماعة من خواصّ الملك المظفّر بيبَرْس، فتشاور بُرُلْغِي مع جماعته حتى آقتضى رأيهُ ورأيُ آقوش نائب الكَرَك اللَّحَاق بالملك الناصر أيضاً، فلم يُوافق على ذلك البُرْجِية، وعاد أَيْبَك البغداديّ وبَكْتُوت الفتّاح وقجقار[3] ببقية البُرْجية إلى القاهرة، وصاروا مع الملك المظفّر بيبرس. وسار بُرُلْغِي وآقوش إلى الملك الناصر فيَمن بقِي من الأمراء والعساكر، فاضطربت القاهرة لذلك.

وكان الملك المظفّر قد أمّر في مستهّل شهر رمضان سبعةً وعشرين أميراً ما بين

---

(١) الكلفتاة أو الكلفتة أو الكلوتة. وقد تقدم الكلام عليها في الجزء السابع. راجع الفهارس.

(٢) هذه الخيول المسرجة (وإلى آخر العبارة) كانت تقدمة الأمير قطلوبك المنصوري، كما جاء في السلوك.

(٣) في السلوك: «وقجمار».

طبلخاناه وعشرات، منهم من مماليكه: صِديق وصنقيجي وطُوغان[١] وقَرمان وإغْزلو وبَهادُر؛ ومن المماليك السلطانية سبعة وهم: قَراجا الحُساميّ وطُرُنْطاي المحمدّي وبَكْتَمُر الساقي وبهادُر قَبْجَاق وأنكبار وطَشْتَمُر أخو بتَخْاص ولاجين؛ وممن عداهم جَرَكْتَمُر بن بهادرُ وحسن بن الردادي، ونزلوا الجميع إلى المدرسة المنصورية لِيَلْبَسوا الخِلَع على جاري العادة؛ وآجتمع لهم النقباء والحجّاب والعامّة بالأسواق ينتظرون طلوعهم القلعة، وكلٌّ منهم بقي لابِسَ الخِلْعة، فاتّفق أن شخصاً من المنجِّمين كان بين يدي النائب سَلّار، فرأى الطالع غيرَ موافق، فقال: «هذا الوقت ركوبهم غير لائق»؛ فلم يلتفت بعضهم ولَبِس وركب في طُلْبه، فآستبردوهم العوامّ وقالوا: «ليس له حلاوة، ولا عليه طلاوة»؛ وصار بعضهم يصيح ويقول: «يا فرحة لا تمّت».

ثم أَخْرَج الملك المظفّر عِدّة من المماليك السلطانية إلى بلاد الصعيد وأخذ أخبازهم، وظنّ الملك المظفّر أنه ينشىء له دولة، فلما بلغه مسير بُرُلْغِي وآقوش نائب الكَرَك إلى الملك الناصر سُقِط في يده وعَلِم زوال مُلْكه؛ فإن بُرُلْغِي كان زوج آبنته وأحد خواصّه وأعيان دولته، بحيث إنّه أنعم عليه في هذه الحركة بنّيف وأربعين ألف دينار مصريّة، وقيل: سبعين ألف دينار. وظهر عليه آختلال الحال، وأخذ خواصّه في تعنيفه على إبقاء سَلّار النائب، وأنّ جميع هذا الفساد منه؛ وكان كذلك: فإنّه لما فاتْته السلطنة، وقام بيبرس فيها، حَسَده على ذلك ودبَّر عليه، وبيبَرْس في غفلة عنه، فإنّه كان سليم الباطن لا يظنّ أنّ سلّار يخونه.

ثم قَبض الملك المظفّر ليلة الجمعة على جماعة من العوّام، وضُرِبوا وشهروا لإعلانهم بِسَبِّ الملك المظفّر بيبرس؛ فما زادهم ذلك إلّا طغياناً! وفي كلّ ذلك تنسب البُرْجِية فساد الأمور لسَلّار. فلمّا أكثر البُرجية الإغراء بسَلّار قال لهم الملك المظفّر: «إن كان في خاطركم شيٌ فدونكم وإياه إذا جاء سَلّار للخدمة؛ وأما أنا فلا أتعرّض له بسوء قطّ». فآجتمعت البرجيّة على قبض سلار إذا حضر الخدمة في يوم الاثنين خامس عشره؛ فبلغ سلّار ذلك، فتأخّر عن حضور الخدمة وآحترس على

---

(١) في السلوك: «وطومان».

نفسه، وأظهر أنّه قد توعّك؛ فبعث الملك المظفّر يُسلِّم عليه ويستدعيه ليأخذ رأيه، فآعتذر بأنه لا يُطيق الحركة لعجزه عنها.

فلمّا كان يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان آستدعى الملك المظفّر الأمراءَ كلَّهم وآستشارهم فيما يفعل، فأشار الأمير بيبرس الدَّوادار المؤرّخ والأمير بهادُر آص بنزوله عن المُلك والإشهاد عليه بذلك كما فعله الملك الناصر، «وتُسَيِّر إلى الملك الناصر بذلك وتستعطفه، وتخرج إلى إطفيح بمن تَثِق به، وتُقيم هناك حتى يرِد جواب الملك الناصر عليك» فأعجبه ذلك، وقام ليجهّز أمره، وبعث بالأمير ركن الدين بِيبَرس الدَّوادار المذكور إلى الملك الناصر محمد يعرّفه بما وقع. وقيل إنّه كتب إلى الملك الناصر يقول مع غير بيبرس الدوادار: «والذي أُعَرِّفك به أنّي قد رجعت أُقلّدك بَغْيَك؛ فإن حبستَني عددتُ ذلك خَلْوة، وإن نَفَيْتَني عددتُ ذلك سياحة، وإن قتلتني كان ذلك لي شهادة»؛ فلمّا سَمِع الملك الناصر ذلك، عيّن له صِهْيَوْن على ما نذكره.

وأمّا ما كتبه المظفّر على يد بِيبَرْس الدوادار يسأله في إحدى ثلاث: إمّا الكَرَك وأعمالها، أو حَمَاة وبلادها، أو صِهْيَوْن ومضافاتها.

ثم آضطربت أحوال المظفّر وتحيّر، وقام ودخل الخزائن، وأخذ من المال والخيل ما أحبّ، وخرَج من يومه من باب الإسطبل في مماليكه وعِدّتُهم سبعمائة مملوك، ومعه من الأمراء: الأمير عِزّ الدين أَيْدَمُر الخَطِيريّ الأستادار، والأمير بَكْتُوت الفتّاح، والأمير سيف الدين قجماس، والأمير سيف الدين تاكز في بقية ألزامه من البُرْجِيّة؛ فكأنّما نُودِي في الناس بأنّه خرج هارباً، فآجتمع العوّام، وعندما بَرَز من باب الإسطبل صاحوا به وتبعوه وهم يَصِيحون عليه بأنواع الكلام، وزادوا في الصياح حتّى خرجوا عن الحدّ، ورماه بعضُهم بالحجارة. فشقّ ذلك على مماليكه وهمّوا بالرجوع إليهم ووَضْع السيف فيهم فمنعهم الملك المظفّر من ذلك، وأمر بنثر المال عليهم ليشتغلوا بجمعه عنه؛ فأخرج كلٌّ من المماليك حَفْنَةً من الذهب ونَثَرها، فلم يلتفت العامّة لذلك وتركوه وأخذوا في العَدْو خلفه وهم يَسُبُّون ويَصيحون، فشهَر المماليكُ حينئذ سيوفَهم ورجعوا إلى العوامّ فآنهزموا منهم. وأصبح الحُرّاس بقلعة

الجبل في يوم الأربعاء سابع عشر شهر رمضان يصيحون باسم الملك الناصر، وأُسْقِط آسم الملك المظفّر بإشارة الأمير سَلّار بذلك؛ فإنّه أقام بالقلعة ومهّد أمورها بعد خروج المظفّر إلى إطفيح. وفي يوم الجمعة تاسع عشره خُطِب على منابر القاهرة ومصر بآسم الملك الناصر، وأُسْقِط آسم الملك المظفّر بيبرس هذا وزال مُلْكه.

وأمّا الملك المظفّر فإنّه لما فارق القلعة أقام بإطفيح يومين؛ ثم آتّفق رأيه ورأيُ أَيْدَمُر الخَطِيريّ وبَكْتُوت الفتّاح إلى المسير إلى بَرْقة، وقيل بل إلى أُسْوان، فأصبح حاله كقول القائل: [البسيط]

موكَّلٌ ببقاعِ الأرضِ يَذْرَعُها ... من خِفّة الرَّوْع لا من خِفَّة الطَّرَبِ

ولمّا بلغ مماليكَ الملك المظفّر هذا الرأيُ عزموا على مفارقته. فلمّا رحَل من إطفيح رجع المماليك عنه شيئاً بعد شيء إلى القاهرة، فما وصل المظفّر إلى إخميم حتّى فارقه أكثرُ من كان معه؛ فعند ذلك آنثنى عزمُه عن التوجّه إلى بَرْقة، وتركه الخَطِيريّ والفتّاح وعادا نحو القاهرة. وبينما هو سائر قَدِم عليه الأميران: بيبَرْس الدوادار وبهادُر آص من عند الملك الناصر ليتوجّه إلى بِيبَرْس الدَّوَادار، فأخذ بيبرس المال وسار به في النيل إلى الملك الناصر وهو بقلعة الجبل؛ وقَدِم بهادُر آص في البّر بالملك المظفّر ومعه كاتبه كَرِيم الدين أكرم؛ وسأل المظفّر في يمين السلطان مع من يَثِق به، فَحلف له الملك الناصر بحضرة الأمراء وبعث إليه بذلك مع أَيْتَمش المحمّدي؛ فلمّا قَدِم عليه أَيْتَمُش بالغ المظفّر في إكرامه وكَتب الجوابَ بالطاعة وأنّه يتوجّه إلى ناحية السُّوَيْس، وأنّ كريم الدين يحضُر بالخزانة والحواصل التي أخذها؛ فلم يُعجب السلطانَ ذلك، وعزم على إخراج تجريدة إلى غَزّة ليردّوه، وأطلع على ذلك بَكْتَمُر الجُوكَنْدار النائب وقَرَا سُنْقُر نائب دِمَشْق والحاج بهادُر وأَسْنَدَمُر نائب طرابُلُس.

فلمّا كان يوم الخميس الذي قَبَض فيه الملك الناصر على الأمراء ــ على ما سيأتي ذكرُه مفصّلاً في أوّل ترجمة الملك الناصر الثالثة إن شاء الله تعالى ــ جلس

بعضُ المماليك الأشرفية خارجَ القلعة، فلمّا خرج الأمراء من الخدمة قال: «وأيّ ذنب لهؤلاء الأمراء الذين قَبض عليهم! وهذا الذي قَتَل أستاذَنا الملكَ الأشرف، ودمه الآن على سيفه، قد صار اليوم حاكم المملكة» (يعني عن قَرَا سُنْقُر)، فقيل هذا لقَرَا سُنقُر، فخاف على نفسه وأخذ في عمل الخلاص من مصر؛ فٱلتزم للسلطان أنّه يتوجّه ويحصِّل الملك المظفَّر بيبرس هو والحاجّ بهادر نائب طرابُلُس من غير إخراج تجريدة، فإن في بعث الأمراء لذلك شناعةً؛ فمشَى ذلك على السلطان ورَسم بسفرهما؛ فخرج قَرَا سُنْقُر ومعه سائر النوّاب إلى ممالكهم، وعوَّق السلطانُ عنده أَسَنْدَمُر كُرْجِي، وقد ٱستقر به في نيابة حَمَاة، وسار البقيّة. ثم جهّز السلطان أَسَنْدَمُر كُرْجِي لإحضار المظفّر مُقَيَّداً. وٱتّفق دخُول قَرَا سُنْقُر والأمراء إلى غَزّة قبل وصول المظفّر إليها؛ فلمّا بلغهم قُرْبُه ركب قَرَا سُنْقُر وسائر النوّاب والأمراء ولَقُوه شرقِيّ غَزّة وقد بقي معه عِدّة من مماليكه وقد تأهّبوا للحرب، فلَبِس الأمراء السلاح ليقاتلوهم، فأنكر المظفّر على مماليكه للقتال وقال: «أنا كنتُ مَلِكاً، وحولي أضعافكُم، ولي عُصبة كبيرةٌ من الأمراء، وما ٱخترت سَفْك الدماء!» وما زال بهم حتّى كفُّوا عن القتال؛ وساق هو بنفسه حتّى بقِي مع الأمراء وسلّم نفسه إليهم؛ فسلّموا عليه وساروا به إلى معسكرهم وأنزلوه بخَيْمة، وأخذوا سلاح مماليكه ووكلّوا بهم من يحفظهم؛ وأصبحوا من الغد عائدين بهم معهم إلى مصر؛ فأدركهم أَسَنْدَمُر كُرْجي بالخَطَّارة[1] فأنزل في الحال المظفَّر عن فرسه وقيّده بقَيْد أحضره معه، فبكى وتحدّرت دموعُه على شَيْبته، فشقّ ذلك على قَرَا سُنْقُر وألقى الكلفتاة عن رأسه إلى الأرض وقال: «لعن الله الدنيا، فيا ليتنا متنا ولا رأينا هذا اليوم! فترجّلت الأمراء وأخذوا كلفتاته ووضعوها على رأسه. هذا مع أنّ قَرَا سُنْقُر كان أكبر الأسباب في زوال دولة المظفّر المذكور! وهو الذي جَسّر الملك الناصر حتّى كان من أمره ما كان.

ثم عاد قرا سنقر والحاج بهادُر إلى محلّ كفالتهما[2]، وأخذ بهادُر يلوم قَرَا سُنْقُر

---

(١) راجع ص ٢٠٠ من هذا الجزء، حاشية (١).

(٢) أي إلى جهة الشام، كما في السلوك.

كيف خالف رأيه؛ فإنّه كان أشار على قَرَا سُنْقُر في اللّيل، بعد القبض على المظفّر، بأنّ يُخلّي عن المظفّر حتّى يصل إلى صِيْهَوْن، ويتوجّه كلّ منهما إلى محلّ ولايته، ويُخيفا الملك الناصر بأنّه متى تغيّر عمّا كان وافق الأمراء عليه بدِمَشق قاموا بنُصْرة المظفّر وإعادته إلى المُلك؛ فلم يُوافق قَرَا سُنْقُر، وظنّ أنّ الملك الناصر لا يستحيل عليه ولا على المظفّر؛ فلمّا رأى ما حلّ بالمظفّر نَدِم على مخالفة بهادُر. وبينما هما في ذلك بعث أَسَنْدَمُر كُرْجي إلى قَرَا سُنْقُر مرسومَ السلطان بأن يحضُر صحبة المظفّر إلى القلعة ــ وكان عزم الناصر أن يَقبض عليه ــ ففطن قَرَا سُنْقُر بذلك وآمتنع من التوجّه إلى مصر، وآعتذر بأنّ العشير[1] قد تَجمّعوا ويخاف على دمشق منهم، وجَدّ في السير، وعرَف أنّه ترك الرأي في مخالفة بهادُر.

وقدم أَسَنْدَمُر بالمظفّر إلى القلعة في ليلة الأربعاء الرابع عشر من ذي القعدة؛ فلمّا مثل المظفّر بين يدي السلطان قَبّل الأرض، فأجلسه وعنّفه بما فَعَل به، وذكّره بما كان منه إليه، وعَدّد ذنوبه، وقال له: «تذكر وقد صِحت عليّ يوم كذا بسبب فلان! ورددت شفاعتي في حقّ فلان! وآستدعيتُ بنفقة في يوم كذا من الخزانة فمنعتَها! وطلبتُ في وقتٍ حَلْوَى بلَوْز وسكّر فمنعَتني؛ ويلك! وزدتَ في أمري حتّى منعتَني شهوةَ نفسي» والمظفّر ساكت. فلما فَرَغ كلامُ السلطان قال له المظفّر: «يا مولانا السلطان! كلّ ما قلتَ فعلتُه، ولم يبقَ إلّا مراحم السلطان؛ وإيش يقول المملوك لأستاذه!» فقال له: «يا ركن! أنا اليوم أستاذك! وأمس تقول لما طلبتُ إوزّاً مشويّاً: إيش يعمل بالإوَزّ! الأكل هو عشرون مرّة في النهار!» ثم أَمَر به إلى مكانٍ، وكان ليلة الخميس، فآستدعى المظفّر بوضوء وقد صلّى العشاء. ثم جاء السلطان الملك الناصر، فخنق [المظفر] بين يديه بوتَر حتي كاد يتلف، ثم سيّبه حتى أفاق، وعنّفه وزاد في شَتمه، ثم خَنَقه ثانياً حتى مات؛ وأُنزِل على جَنَويّة[2] إلى الإسطبل

---

(١) يريد بهم العشائر، أي عرب البادية.

(٢) الجنويّة: هي النقّالة التي تستخدم لنقل الجرحى والموتى. وقد ترجمها كاترمير إلى Civière أي النقالة التي تستخدم للأغراض المذكورة. وترجمها دوزي إلى Palissade أي السياج الذي يعمل من مخازق الخشب، ويسمى الجسيكة أيضاً. (السلوك: ١/٣/٧٥٧، حاشية: ٢)..

السلطانيّ فغُسل ودُفِن خلف قلعة الجبل، وذلك في ليلة الجمعة خامس عشر ذي القعدة سنة تسع وسبعمائة. وكانت أيام المظفّر هذا في سلطنة مصر عشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً لم يتهنّ فيها من الفِتَن والحركة.

وكان لمّا خَرَج المظفر من مصر هارباً قبل دخول الملك الناصر ـ قال بعض الأدباء: [الوافر]

تَثَنّى عِطْفُ مصرٍ حين وافَى قُدوم الناصر الملك الخبيرِ
فذلّ الجَشْنَكِيرُ بلا لقاءٍ وأمسى وهو ذُو جَأْشٍ نَكِيرِ
إذا لم تعضد الأقدار شخصاً فأوّلُ ما يُراع من النَّصيرِ

وقال النُّوَيْرِيُّ في تاريخه: ولمّا وصلوا بالمظفّر بِيبرْس إلى السلطان الناصر أوقفه بين يديه وأمر بدخوله الحَمّام، وخُنِق في بقيّة من يومه، ودُفِن بالقرافة، وعَفّى أَثَر قبره مدّةً؛ ثم أَمَر بآنتقاله إلى تربته بالخانقاه[1] التي أنشأها فنُقِل إليها. وكان بِيبَرِس هذا آبتدأ بعمارة الخانقاه والتربة داخل باب النصر موضع دار الوزارة في سنة ست وسبعمائة، وأوقف عليها أوقافاً جليلة، ولكنّه مات قبل تمامها، فأغلقها الملك الناصر مدّة ثم فتحها. اِنتهى كلام النُّوَيْرِيّ.

وكان الملك المظفّر مَلِكاً ثابتاً كثيرَ السكون والوَقار، جميل الصفات؛ نُدِب إلى المهمّات مراراً عديدة، وتكلّم في أمر الدولة مدّة سنين، وحسنت سِيرتُه، وكان يرجع إلى دِين وخير ومعروف. تولّى السلطنة على كره منه، وله أوقاف على وجوه البِرّ والصدقة؛ وعَمَّر ما هُدِم من الجامع[2] الحاكمي داخل باب النصر، بعد ما شعَّثَتْه الزلازل. وكان من أعيان الأمراء في الدولة المنصوريّة قلاوون أستاذه، ثم في الدولة الأشرفية خليل، والدولة الناصرية محمد بن قلاوون. وكان أبيضَ اللون أشقرَ مستدير اللّحية؛ وهو جارْكَسِيُّ الجنس على ما قيل، ولم يتسلطن أحدٌ من الجراكسة قبله ولا بعده إلى الملك الظاهر برقوق؛ وقيل إنه كان تركيّاً، والأقوى

(١) راجع ص ١٣٩ من هذا الجزء، حاشية (١).
(٢) راجع ص ١١٣ من هذا الجزء، حاشية (٢).

عندي أنه كان جاركسيّاً، لأنه كان بينه وبين آقوش الأفرم نائب الشام مودّة ومحبّة زائدة، وقيل قرابة، وكان الأفرم جاركسيّ الجنس. اِنتهى.

وآستولى السلطان الملك الناصر على جميع تعلّقاته، وآستقدم كاتبه كريم الدين(١) أكرم بن العلم(٢) بن السديد، فقَدِم على الملك الناصر بأموال المظفّر بِيبَرْس وحواصله، فقرّبه السلطان وأثنى عليه ووَعَده بكلّ جميل إن أظهره على ذخائر المظفّر بِيبَرْس. فنزل كريم الدين إلى داره، وتتبّع أموال بِيبَرْس وبذَل جهده في ذلك. ثم آنتمى كريمُ الدين إلى طُغَاي وكُسْتَاي وأرْغُون الدَّوَادار الناصرية، وبذَل لهم مالاً كثيراً حتى صاروا أكبَر أعوانه، وحَمَوْه من أستاذهم الملك الناصر. ثم قَدِم من كان مع المظفّر بيبرس من المماليك [وعدّتهم ثلاثمائة](٣) ومعهم الهُجْن والخيل والسلاح، ومبلغُ مائتي ألف درهم وعشرين ألف دينار، وستون بقجة من أنواع الثياب، فأخذ السلطان جميع ذلك، وفرّق المماليك على الأمراء ما خلا بَكْتمر الساقي لجمال صورته وطُوغان الساقي وقَرَاتَمُر(٤). ثم آستدعى الملك الناصر القضاة وأقام عندهم البينة بأن جميع مماليك المظفّر بِيبَرْس وسلّار، وجميع ما وقفاه من الضِّياع والأملاك آشتُرِي من بيت المال. فلمّا ثَبَت ذلك نَدب السلطان جمال الدين آقوش الأشرفي نائبَ الكَرَك، وكريم الدين أكرم لبَيْع تركة المظفّر بِيبَرْس وإحضار نصف ما يتحصّل، ودَفع النصف الآخر لابنة المظفّر زوجة الأمير بُرُلْغِي الأشرفي، فإنّ المظفّر لم يترك من الأولاد سواها؛ فشدّد كريم الدين الطلب على زوجة المظفّر وآبنته حتى أخذ منهما جواهر عظيمة القَدْر، وذخائر نفيسة؛ ثم تابع موجود المظفّر فوجد له شيئاً كثيراً.

* * *

(١) هو عبد الكريم بن هبة الله بن السديد المصري، كريم الدين، أبو الفضائل. أصبح مدبر دولة الناصر؛ وهو قبطي الأصل. كان اسمه أكرم، وأسلم كهلاً فتسمى عبد الكريم، وقرره الناصر في نظر شؤونه الخاصة. وهو أول من سمّي «ناظر الخاص» وأطلقت يده في جميع أعمال الدولة، فتجاوز حدّه، وانتهى أمره بالنفي إلى أسوان وشنق فيها بعمامته سنة ٧٢٤هـ. (الأعلام: ٤/٥٧ ــ وانظر فوات الوفيات: ٢/٣٧٧، والدرر الكامنة: ١/٤٠١).

(٢) في الأصل: «المعلم». والتصحيح عن المصادر السابقة.

(٣) زيادة عن السلوك.

(٤) في السلوك: «وقباتمر وبلك وآخرين».

السنة التي حكم في أوّلها الملك المظفّر بِيبَرْس الجَاشْنَكِير على مصر إلى شهر رمضان، ثم حكم في باقيها الملك الناصر محمد بن قلاوون

وهي سنة تسع وسبعمائة؛ على أن الملك المظفّر بِيبَرْس حَكَم من السنة الماضية أياماً.

فيها (أعني سنة تسع وسبعمائة) كانت الفتنة بين السلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون وبين الملك المظفّر بِيبَرْس. حسب ما تقدّم ذكرُه مفصَّلاً حتى خُلِع المظفّر وأُعِيد الناصر.

وفيها كانت الفتنة أيضاً بالمدينة النبوية بين الشريف مُقْبِل بن جَمَّاز بن شِيحة وبين أخيه منصور بن جَمّاز؛ وكان مُقْبِل[1] قَدِم القاهرة فولّاه المظفَّر نصف إمْرة المدينة شريكاً لأخيه منصور، فتوجّه إليها فوجد منصوراً بنَجْد وقد ترك آبنه كُبَيْشة بالمدينة، فأخرجه مُقْبِلٌ؛ فحَشَد كُبَيْشةُ وقاتل مُقْبِلاً حتى قتله، وآنفرد منصور بإمرة المدينة.

وفيها كتب السلطان الملك الناصر لقَرَا سُنْقُر نائب الشام بقتال العَشِير.

وفيها أظهر خَرْبَنْدَا مَلِك التّتار الرَّفْضَ في بلاده وأمر الخطباءَ ألّا يذكروا في خُطبهم إلّا عليّ بن أبي طالب وولديه وأهل البيت[2].

---

(١) في الأصل: «منصور». وما أثبتناه عن السلوك وصبح الأعشى: ٣٠٥/٤.

(٢) في عهد أولجايتو (خربندا) ــ راجع ص ١٣٤ من هذا الجزء حاشية (٣) ــ كاد الخلاف بين الحنفية والشافعية يحمل المغول على الردّة. فإن الحنفية شكوا إلى السلطان ــ الذي كان حنفياً ــ تشهير الشافعية بهم. وكان السلطان في ذاك الوقت قد قرَّب إليه أحد أئمة الشافعية النابهين، وولاه منصب قاضي القضاة في جميع أنحاء إيران على أن يأتمر بأمره جميع أنصار المذاهب الأخرى، وهذا القاضي كان يدعى نظام الدين عبد الملك المراغي. وأراد السلطان أن يحسم النزاع بين أهل المذهبين فدعا أئمتهم إلى مناظرة في قصره. ولم يكتف المتناظرون بإبداء آرائهم ولكنهم ــ في تنطع المتعصبين ــ أخذوا في التشنيع بعضهم على بعض، وفقد المجلس وقار الدين، واتّسم بالمهاترة والسباب والتطاول. وأدى هذا إلى نفور أمراء المغول من الإسلام نفسه، فأبدوا أسفهم على ترك دينهم والعدول عن «الياسا» وتمنوا العودة إلى ما كانوا عليه من دين واتباع قانون جنكيزخان. وانتشر هذا بين المغول فرحبوا به، واتضح الميل إلى الردّة والعود =

وفيها حجَّ بالناس من القاهرة الأمير شمس الدين إلْدِكْز السلاح دار، ولم يحجّ أحدٌ من الشام لاضطراب الدولة.

وفيها تُوُفّي الأمير الوزير شمس الدين سنقر الأعسر المنصوريّ بالقاهرة في شهر ربيع الأوّل ودُفِن خارج باب النصر بعد ما آستعفى ولزِم داره مدّة.

وفيها توفي قاضي القضاة شرف الدين أبومحمد عبد الغني بن يحيى [بن محمد بن أبي بكر][1] بن عبد الله بن نصر [بن محمد][1] بن أبي بكر الحَرَّانِيّ

= إلى الوضع قبل إسلام غازان. ولكن السلطان أولجايتو تردد وقال إنه لا يستطيع أن يترك الإسلام دفعة واحدة بعد الذي بذل من جهد على هديه. وكما أنقذ المسلمون الشيعة الإسلام والمسلمين أيام هولاكو كذلك أنقذوه أيام أولجايتو والردّة وشيكة الوقوع. فقد تقدّم أمير مغولي من الشيعة الإمامية ــ وهو الأمير طرمطاز بن بايجو بخشي الذي تربى في بلاط غازان منذ الصغر ونشأ في أوساط الشيعة الإمامية واعتنق مذهبهم ــ تقدم هذا الأمير وشرح مذهبه للسلطان أولجايتو وزيّن له اتباعه وبين له زيف ما يقول به أصحاب الفرق الأخرى وخاصة من الذين اشتركوا في المناظرة وتهاتروا، ونجح الأمير الشيعي في مقصده، واستمسك السلطان بالإسلام وعدل عن الردّة، وانتقل من المذهب السني إلى التشيّع. ولقد أعان الأمير في إقناع السلطان بالاستمساك بالإسلام وبمذهب الشيعة الإمامية شيخان من كبار رجال الدين في ذلك الوقت هما تاج الدين الأوجي وجمال الدين المطهر الحلّي. (الدكتور يحيى الخشاب؛ من مقدمة كتاب: مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني للدكتور فؤاد عبد المعطي الصيّاد). على أن أكثرية الإيرانيين بقيت في ذلك الوقت سنيّة، ولم تصبح إيران شيعية ــ حكاماً ومحكومين ــ إلا في العهد الصفوي. أما في أيام الإيلخانيين فإن أحداً لم يرغم على اعتناق المذهب الشيعي الإمامي؛ فقد استمر التسامح الديني الذي عُرف به المغول منذ أيام جنكيزخان. (مسالك الأبصار في ممالك الأمصار: مقدمة التحقيق لدوروتيا كرافولسكي، ص ١٩). ــ ويرى بعض الباحثين (المصدر السابق، ص ١٧ ــ ٢٠) أن ميل بعض الإيلخانيين إلى التشيّع كان يتوافق مع تحولهم بإيران نحو الدولة القومية التي تستمد جذرها الإيديولوجي والتاريخي من الساسانيين. فبعد اعتناق المغول الإسلام في عهد غازان ٦٩٤ ــ ٧٠٣هـ وجدوا أنفسهم أمام مشكلة أيديولوجية مستعصية تتصل بسند شرعية السلطة الإيلخانية بين مفهوم إيران الدولة القومية، والمفهوم السنّي للدولة القائم على وحدة الأمة ووحدة دار الإسلام. ولما فشل المغول في القضاء على دولة المماليك بمصر، ولما كان المماليك بمصر والشام والحجاز قد تمكنوا من الحصول على شرعية لسلطتهم ودولتهم ضمن النظرية السنيّة التقليدية وأصبح السلطان المملوكي يأخذ تقليده من الخليفة الذي انتقل إلى مصر، بعد هذا وجد المغول حلّاً لمشكلتهم باعتناقهم المذهب الشيعي الإمامي المبني على الفقه الجعفري: فبحسب هذا المذهب يعتبر سلطاناً شرعياً أو عادلاً كل حاكم يؤمن بسلسلة الأئمة الاثني عشر، ويتبع المذهب الفقهي الجعفري، ويكون على استعداد لترك سلطته للإمام الغائب صاحب الزمان عندما يظهر من غيبته.

(١) زيادة عن الدرر الكامنة.

الحنبليّ في ليلة الجمعة الرابع والعشرين من شهر ربيع الأوّل ودُفِن بالقرافة. ومولده بحَرّان في سنة خمس وأربعين وستمائة، وسَمِع الحديث وتفقّه، وقَدِم مصر فباشر نَظَر الخِزانة وتدريس الصالحيّة ثم أضِيف إليه قضاء الحنابلة، فباشره وحُمِدت سِيرتُه.

وفيها تُوُفّي الشيخ نجم الدين محمد بن إدريس بن محمد القَمُولِيّ الشافعيّ بقُوص في جُمادَى الأولى؛ وكان صالحاً عالماً بالتفسير والفقه والحديث.

وفيها تُوُفّي الأمير سيف الدين طُغْرِيل بن عبد الله الإيغانِيّ بالقاهرة في عاشر شهر رمضان؛ وكان من كبار الأمراء وأعيان الديار المصريّة.

وفيها تُوُفّي الأمير عِزّ الدين أَيْبَك الخَازِندار في سابع شهر رمضان بالقاهرة؛ وكان من أعيان أمراء مصر.

وفيها تُوُفّي مُتَملِّك تُونُس من بلاد الغرب الأميرُ أبو عبد الله محمد المعروف بأبي عَصِيدة بن يحيى الواثق بن محمد المستنصر بن يحيى بن عبد الواحد بن أبي حفص في عاشر شهر ربيع الآخر. وكانت مدة مُلْكه أربع عشرة سنة وأربعة أشهر؛ وتَوَلّى بعده الأمير أبو بكر بن أبي يزيد عبد الرحمن بن أبي بكر بن يحيى بن عبد الواحد المدعوّ بالشهيد، لأنّه قُتِل ظُلْماً بعد ستة عشر يوماً من مُلْكه، وبُويع بعده أيضاً أبو البقاء خالد بن يحيى بن إبراهيم.

وفيها تُوُفّي الوزير التاج أبو الفرج بن سعيد الدولة في يوم السبت ثاني شهر رجب؛ وكان عند الملك المظفّر بِيبَرْس بمكانة عظيمة، ولمّا تسلطن بِيبرس قرّره مُشِيراً، فكانت تُحْمَلُ إليه فُوطة العَلامَة فيُمْضِي منها ما يختاره، ويكتُب عليه «عُرِض» فإذا رأى المظفّرُ خَطَّه عَلَّم وإلّا فلا؛ ولم يزل على ذلك حتى بعث إليه الأميرُ آقوش الأفرم نائب الشام يُهدِّده بقطع رأسه فامتنع. وكان الأفرم صار يُدَبِّر غالب أمور الديار المصريّة وهو بدِمَشق، لأنه كان خُشْدَاشَ المظفّر بيبَرْس وخَصِيصاً به والقائم بدولته، والمعاندَ للناصر وغيره من نوّاب البلاد الشاميّة، وقد تقدّم ذكرُ ذلك كلِّه في ترجمة الملك المظفّر بِيبَرْس.

وفيها تُوُفّي الشيخ القُدْوة العارف بالله تعالى تاج الدين أبو الفضل أحمد بن

محمد بن عبد الكريم بن عَطَاء الله السَّكَنْدرِيّ المالِكيّ الصوفيّ الواعظ المذَكِّر المُسَلِّك بالقاهرة في جُمادى الآخرة ودُفِن بالقرافة؛ وقبرُه[١] معروف بها، يُقصد للزيارة. وكان رجلاً صالحاً عالماً يتكلّم على كرسيّ ويحضُر ميعاده خَلْق كثيرٌ؛ وكان لوعظه تأثيرٌ في القلوب، وكان له معرفة تامّة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق؛ وكان له نظمٌ حسن على طريق القوم؛ وكانت جنازته مشهودةً حفِلة إلى الغاية ومن شعره قصيدةٌ أوّلها: [الطويل]

[أ] يا صاحِ إنّ الركبَ قد سار مُسرِعاً ونحن قعودٌ ما الذي أنت صانِعُ
أَتَرْضى بأنْ تبقى المخلَّفَ بعدهم صريعَ الأماني والغرامُ ينازِع
وهذا لسانُ الكون يَنْطِق جهرةً بأنّ جميع الكائنات قواطِعُ

وفيها تُوُفّي القاضي عِزّ الدين عبد العزيز ابن القاضي شرف الدين محمد [ابن فتح الدين عبد الله بن محمد بن أحمد بن خالد][٢] بن القَيْسَرَانِيّ أحدُ كُتّاب الدَّرج ومدرس الفَخْرِيّة[٣] في ثامن صفر بالقاهرة، ودُفِن عند والده بالقرافة. وكان من أعيان الموقِّعين[٤] وهو ووالده وجدُّه، ومات وله دون الأربعين سنة؛ وكان له فضيلة ونظمٌ ونثر. ومن شعره في رَدّ جواب: [الكامل]

جاء الكتابُ ومن سواد مِدادِه مِسْكٌ ومن قِرْطاسه الأنوارُ
فتشرّف الوادي به وتعطّرتْ أرجاؤه وأنارت الأقطارُ

قلت وأين هذا من قول البارع جمال الدين محمد بن نُباتة المصريّ، حيث يقول في هذا المعنى: [الطويل]

---

(١) قبر ابن عطاء الله السكندري، لا يزال موجوداً بجبانة سيدي علي أبي الوفاء تحت جبل المقطم من الجهة الشرقية لجبانة الإمام الليث. (محمد رمزي).

(٢) زيادة عن الدرر الكامنة.

(٣) المدرسة الفخرية: سبق الكلام عليها في الحاشية رقم (٣) ص ١٦٦ من هذا الجزء.

(٤) الموقّع: هو الذي يكتب المكاتبات والولايات في ديوان الإنشاء السلطاني. وكان يعرف باسم كاتب الدرج. (صبح الأعشى: ٤٦٥/٥) على أن القلقشندي نفسه كان قد ذكر في الجزء الأول من الصبح أن لقب الموقّع يجب ألا يطلق على كاتب الدّرج، وإنما ينصرف هذا اللقب إلى كاتب الدست، لما تقدم أن المراد من التوقيع الكتابة على جوانب القصص ونحوها. (صبح الأعشى: ١٣٧/١ وما بعدها).

أفـدِّيـه من مَلْكٍ يُكـاتِب عبـدَه بـأحرفـه اللاتِي حَكَتْهـا الكواكبُ
مَلكتَ بهـا رِقِّي وأنحلني الأَسَى فَهـا أنـذا عبـدٌ رقيق مُـكـاتَبُ

والشيـخ علاء الدين عليّ بن محمد [بن عبد الرحمن][(١)] العُبْيِـيّ رحمه الله: [المجتث]

أَهَّـلْتَـنـي لـجـواب مـا كـان ظَنيِّ أُجـاوبْ
لـكـنَّـنـي عـبـدُ رِقٍّ مُـدَبَّـرٌ ومـكـاتَـبْ

وفيها تُوُفّي القاضي بهاء الدين عبد الله آبن نجم الدين أحمد بن علي آبن المظفّر المعروف بابن الحِلّي ناظر ديوان الجيش المنصور، وآستقرّ عوضَه القاضي فخر الدين صاحب ديوان الجيش.

وفيها تُوُفّي الأديب إبراهيم بن عليّ بن خليل الحَرّاني المعروف بعَيْن بَصَل. كان شيخاً حائكاً أناف على الثمانين، وكان عامِّيّاً مطبوعاً؛ وقصَده آبن خَلِّكان وآستنشده من شعره فقال: أمّا القديم فلا يليق إنشادُه، وأمّا نظم الوقت الحاضر فنعم، وأنشده بديهاً: [الطويل]

وما كلُّ وقتٍ فيه يسمحُ خـاطِري بنَظْم قَريضٍ رائِق اللفظ والمعنى
وهل يقتضي الشرعُ الشريف تَيَمُّماً بتُرْب وهذا البحرُ يا صاحبـي مَعْنَا

فقال له آبن خَلِّكان. أنت عين بَصَر، لا عين بَصَل. اِنتهى.

أمر النيل في هذه السنة:

الماء القديم تأخرّ، وتأخرّت الزيادة إلى أن دخل شهر مِسْرَى ووقـع الغلاء وآستسقى الناس، فنُودِي بزيادة ثلاث أصابـع؛ ثم توقّفت الزيادة ونقص في أيام النَّسيء، ثم زاد حتى بلـغ في سابـع عشرين توت خمس عشرة ذراعاً وست عشرة إصبعاً، وفُتِح خليـج السدّ، بعد ما كان الوفاء في تاسـع عشر بابه، بعد النَّوْرُوز بتسعة وأربعين يوماً. وكان مبلـغ الزيادة في هذه السنة ستّ عشرة ذراعاً وإصبعين. وكان ذلك في أوائل سلطنة المظفّر بِيبَرْس الجَاشْنَكِير. فتشاءم الناسُ بكَعْبه وأبغضتْه العامّة.

---

(١) زيادة عن الدرر الكامنة. والعبيّ: نسبة إلى بيع العبي.

ملحق رقم (١)

وصف شاهد عيان لموقعة عكا بين الصليبيين وجيوش السلطان الملك الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩٠هـ/١٢٩٠م، وهو منقول من السلوك: ١/٣/١٠٠٢، نقلاً عن بيبرس المنصوري في كتابه زبدة الفكرة (ج ٩ ص ١٦٨ ب ـ ١١٧٢، صور شمسية من نسخة المتحف البريطاني بلندن. مكتبة الجامعة المصرية، رقم ٢٤٠٢٨).

سنة تسعين وستمائة: ذكر فتوح مدينة عكا، وجَعْلها بعد العمارة دكّا، في يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة منها.

فيها عزم السلطان على المسير إلى عكا ونزالها، والجدّ في قتالها، متمماً لما عزم والده عليه من أخذها واستئصالها. فتقدم بتجهيز العساكر، وكتب إلى النواب بأقطار الممالك بإنفاذ العساكر الشامية إليها، وحمل المجانيق والآلات لتركّب عليها؛ وأمر بالاستكثار من الحشود، وألا يتأخر أحد من الجنود. وأرسل الأمير سيف الدين طغريل الإيغاني إلى دمشق وحماة وحصن الأكراد، محثاً للنواب الذين بها على سرعة الحضور إلى الجهة المذكورة، وإحضار آلات الحصار المذخورة. فبادروا، وسارعوا وما تأخروا.

وكان حسام الدين لاجين السلحدار (كذا) نائب الشام قد أوجس من السلطان خيفة لما قتل طرنطاي، فتقاعد، ثم لم يجد بداً من التوجه، فتوجه وصحبته أمراء دمشق وعسكرها. وحضر صاحب حماة ومن معه، ونوّاب الممالك ومن معهم.

واجتمعت جيوش الإسلام، وجرّد السلطان صارم الاهتمام، وأرهف حدَّ الاعتزام، وشمّر تشميراً يعجز عنه كل ملك همام.

قال الراوي: وكنت حينئذ بالكرك؛ فلما بلغني أمر هذه الغزاة، ووردت عليَّ مراسم السلطان بتجهيز الزردخانات والآلات، تاقت نفسي إلى الجهاد، وحنّت إليه حنوَّ الأرض الظامئة إلى صوب العهاد؛ فطالعت السلطان بذلك، وسألته أن أصير إلى هنالك، لأساهم في ثواب الغزو وأشارك. فأذن لي في الحضور، وسمح بالدستور، فكنت كمن فاز أمله بنجاحه، وانجلى ليله بصباحه. فجهّزت من الزردخانات (كذا) المانعة، والآلات النافعة، والرجال المجتهدين، والرُّماة والحجارين،

والغزاة والنجارين. وتوجهّت ملاقياً السلطان، فوافيته وقد وصل إلى غزة، فلقيت منه إكراماً وبشراً وابتساماً، وسرت في ركابه إلى عكا.

فلما نزلنا عليها حاق المحاق بأهليها: وكانوا لما بلَغَتهم حركة السلطان لغزوهم، ومسيره إلى نحوهم، قد أرسلوا إلى ملوكهم الكبار، واستدعوا النجد من داخل البحار. واجتمع بها جمع كثير من الديوية والإسبتار، وحصّنوا الأبراج والأسوار؛ وأظهروا المصابرة، وعدم المبالاة بالمحاصرة، فلم يغلقوا للمدينة باباً، ولا أسدلوا دونها حجاباً. فنُصبت عليها المجانيق الإسلامية، وأحدقَت بها العساكر المحمدية، وأرْسلت عليها حجارة كالصواعق الصاعقة، وسهاماً كالبوارق البارقة، وضويقت أشدّ المضايقة؛ وهُمْ مع ذلك يظهرون الجَلَدَ، ولا يغلقون أبواب البلد، ويهاجمون العسكر ليلاً ونهاراً، ويقاتلون قتالاً مدراراً.

واستشهد عليها الأمير علاء الدين كشتغدي الشمسي، والأمير بدر الدين بيليك المسعودي، وشرف الدين قيران السكري. وشدُدِّ القتال، وأسعرت نار النزال، وتوالت سحب النوال بالنبال.

وأنا في ضمن ذلك أتأمّل مكاناً تلوح الفرصة منه فاقصده، واتصفّح جانباً تمكن منه الحيلة فلا أجده؛ وبينما أنا أجيل فكرتي، وأدير بصري وبصيرتي، إذ لمحت برجاً من أبراجها قد أثرت فيه المجانيق، وأمكن أن يتخذ منه طريق، وبينه وبين السور فسحة مكشوفة ظاهرة، لا يمكن السلوك فيها، لأن الجروخ[1] مسلطة عليها، إلا باتخاذ ستارة تطولها وتشملها، وتقي من يدخلها. فعمدْتُ إلى اللبّود فجمعتها جمعاً، ولففت بعضها مع بعض لفقاً، فتَصَوَّرَ منها سحابة كبيرة طولاً وعرضاً؛ ونَصبتُ تجاه البدنة المهدومة من البرج صاريين من كلا (في الأصل كلي) الجانبين، وجعلت على رؤوسهما بكراً كبكرات المراكب وحبالاً؛ ثم جذبت تلك السحابة المتّخذة من اللباد، فقامت كأنها سدّ من الأسداد. وأتقنت ذلك في جُنْح الليل وهم غافلون عنه، فلما أصبحوا ورأوا ذلك الحجاب قصدوه بالمجانيق والنُّشاب، فصارت الحجارة إذا وقعت فيها يرتخي اللبد تحتها فيبطل زخمها، والجروخ إذا رمتها لا تنفذ أسهمها.

فتمكنّا من المرور، ووجدنا سبيلاً إلى العبور، وضُرب بيننا وبين الأعداء بسور؛ وشرعنا في ردْم الخندق الذي بين السورين بمخالي الخيل مملوءة بالتراب، مع ما تيسّر من الأخشاب، فصار طريقاً سالكاً، وكان رأياً مباركاً. وسمع به السلطان فأعجبه، وركب بنفسه وحضر بالكوسات

(١) الجروخ جمع جرخ، وهي آلة حربية تستعمل لرمي السهام والنفوط والحجارة، ويقال لمستخدمها من الجند «جرخي» (une arbalète avec laquelle on lançait,soit des flèches,soit le naphte). انظر (Dozy: Supp. Dict: Ar.؛ محيط المحيط).

والطبلخانات (كذا)، وضُربت عند الصبّاح، ولاحت تباشير الفلاح؛ وحصل الزحف عليهم من ذلك المكان وغيره. وطلعت العساكر بالسناجق السلطانية، وأثخنوا في مقاتلة الفرنجية، وتمكّنوا من المدينة، وبذلوا فيها المناصل، وأعملوا العوامل، وسبوا الولدان والحلائل.

وحقّق الله في الفتح الظنون، وأقرّ به العيون، واستبشر يومئذ المؤمنون. وعلت الفرنجةَ ذلّةٌ وصغَار، وانكسروا كسراً ما له انجبار. وعصت الأبراج الكبار التي فيها الديوية والأمن[1] والإسبتار. هيهات، وقد استبيح حمى حماتهم، وضعفت قوى أقويائهم وكماتهم. فحاصرناهم حول عشرة أيام أخر، فاستأمن منهم ما ينيف عن عشرة ألف نفر، ولم يجدوا مفراً حين راموا المفرَّ، ولا مقراً حين أعوزهم المقرّ؛ فَفُرِّقوا على الأمراء فقتلوهم عن آخرهم؛ وأبقى السلطان جماعةً من أسراهم، وأرسلهم إلى الحصون.

وكان هذا الفتح العظيم في يوم الجمعة المبارك السابع عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة، واستنقذ الله عكا من أيدي الكافرين، على يد الملك الأشرف صلاح الدين [خليل]، كما كان فتوحها أولاً على يد صلاح الدين [الأيوبي]. وأقامت بأيديهم مائة وثلاث سنين، لم ينهض أحد من الملوك الأُيوبية ومن بعدهم من أرباب الدول التركية باسترجاعها، ولا سمَتْ هممهم إلى افتراعِها، وذلك أن الفرنج أخذوها في الأيام الناصريّة في سنة سبع وثمانين وخمسمائة.

ولله الحمد على انتصار المسلمين، واستظهار الموحّدين، وزوال دولة أعداء الدين، وقمع الطُّغاة والملحدين، بهمة أولي الهمم العلية، والعزمات المنصورة المنصورية الأشرفية.

ولا خلاف في أن هذه الطائفة أربت على الأول، ونالت بها الدولة من النّصرة والنّضرة ما لم تنله الدول. ولما أتاحَ الله هذا الفتح وسهَّله، وأباحه وعجّله، قرضه الشعراء، وذكره الفضلاء[2].

---

(١) المقصود الألمان.

(٢) يلي هذا في زبدة الفكرة قصيدة عدة أبياتها ٣٤ بيتاً وهي لبدر الدين محمد بن أحمد بن عمر المنبجي البزاز بالقاهرة.

ملحق رقم (٢)

نص فرمان إيلخان غازان لتأمين أهل دمشق، قبيل دخوله بعساكره إليها، في ربيع الآخر سنة ٦٩٩هـ (يناير سنة ١٣٠٠م) منقول عن السلوك: ١٠١١/٣/١، نقلاً عن النويري (نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ٣٢٥ ب ـــ ١٣٢٦ صور شمسية من نسخة المكتبة الأهلية بباريس. دار الكتب المصرية، معارف عامة، رقم ٥٤٩).

بقوة الله تعالى. ليعلم أمراء التومان[١] والألوف والمائة، وعموم عساكرنا المنصورة من المغول والتازيك[٢] والأرمن والكرج، وغيرهم ممن هو داخل تحت ربقة طاعتنا، أنَّ الله لما نوّر قلوبنا بنور الإسلام، وهدانا إلى ملّة النبي عليه أفضل الصلاة والسلام، «أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربّه. فويلٌ للقاسية قلوبهم من ذكر الله، أولئك في ضلال مبين».

ولما أن سمعنا أنّ حكام مصر والشام خارجون عن طريق الدين، غير متمسّكين بأحكام الإسلام، ناقضون لعهودهم خالفون بالأيمان الفاجرة، ليس لديهم وفاء ولا ذمام، ولا لأمورهم التئام ولا انتظام. وكان أحدهم إذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل، والله لا يحبّ الفساد؛ وشاع من شعارهم الحيف على الرعيّة، ومدُّ الأيدي العادية إلى حريمهم وأموالهم، والتخطّي عن جادة العدل والإنصاف، وارتكابهم الجور والإعساف، حملتنا الحميَّة الدينية، والحفيظة الإسلامية، على أنْ توجهّنا إلى تلك البلاد، لإزالة هذا العدوان، وإماطة هذا الطغيان، مستصحبين الجمّ الغفير من العساكر.

ونذرنا على أنفسنا إنْ وفقنا الله تعالى بفتح تلك البلاد، أزلنا العدوان والفساد، وبسطنا العدل والإحسان في كافّة العباد، ممتثلاً للأمر الإلهي ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلكم تذكّرون﴾ وإجابةً لما ندب إليه الرسول صلى الله عليه وسلم: إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا.

وحيث كانت طويّتنا مشتملة على المقاصد الحميدة، والنذور الأكيدة، منّ الله علينا بتبلّج تباشير النّصر المبين،، والفتح المستبين، وأتمَّ علينا نعمته، وأنزل علينا سكينته. فقهرنا العدوّ

(١) التومان أو الطومان: هو الفرقة من الجيش التي يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل.

(٢) التازيك: هذا اللفظ كان يطلق في الأصل على العرب والمسلمين عامة، ثم استعمله المغول للدلالة على أهل فارس فقط، وهذا المعنى هو المقصود هنا.

الطاغية، والجيوش الباغية، وفرّقناهم أيدي سبا، ومزّقناهم كل ممزّق، حتى جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً؛ فازدادت صدورنا انشراحاً للإسلام، وقويت نفوسنا بحقيقة الأحكام، منخرطين في زمرة من حبَّبَ إليهم الإيمان، وزيَّنه في قلوبهم وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان. أولئك هم الراشدون، فضلاً من الله ونعمة.

فوجب علينا رعاية تلك العهود الموثّقة، والنذور المؤكّدة. فصدرت مراسيمنا العالية ألا يَتَعرَّض أحد من العساكر المذكورة على اختلاف طباقاتها، لدمشق وأعمالها، وسائر البلاد الإسلاميّة الشامية، وأن يكفّوا أظفار التعدِّي عن أنفسهم وأموالهم وحريمهم، ولا يحوموا حول حماهم بوجه من الوجوه؛ حتى يشتغلوا بصدور مشروحة، وآمال مفسوحة بعمارة البلاد وبما هو كلّ واحد بصدده، من تجارة وزراعة وغير ذلك. وكان هذا الهرج العظيم وكثرة العساكر، فتعرَّض بعض نفر يسير من السلاحيَّة وغيرهم إلى نهب بعض الرعايا وأسرهم، فقتلناهم ليعتبر الباقون، ويقطعوا أطماعهم عن النهب والأسر، وغير ذلك من الفساد. وليعلموا أنّا لا نسامح بعد هذا الأمر البليغ البتَّة، وألا يتعرَّضوا لأحد من أهل الأديان على اختلاف أديانهم من اليهود والنصارى والصابئة، فإنهم إنما يبذلون الجزية عنهم من الوظائف الشرعية، لقول علي عليه السلام: إنما يبذلون الجزية لتكون أموالهم كأموالنا ودماؤهم كدمائنا. والسَلاطين مُوَصَّوْن على أهل الذِّمة المطيعين، كما هم مُوَصَّوْن على المسلمين، فإنهم من جملة الرعايا. قال صلى الله عليه وسلم: الإمام الذي على الناس راع عليهم، وكلٌ راع مسؤول عن رعيته.

فسبيل القضاة والخطباء، والمشايخ والعلماء والشرفاء، والأكابر والمشاهير وعامة الرعايا، الاستبشار بهذا النصر الهني، والفتح السني، وأَخْذ الحظ الوافر من السرور، والنصيب الأكبر من البهجة والحبور، مقبلين على الدُّعاء لهذه الدولة القاهرة، والمملكة الظاهرة، آناء الليل وأطراف النهار. وكتب في خامس ربيع الآخرة سنة تسع وتسعين وستمائة.

ملحق رقم (٣)

نص فرمان إيلخان غازان بتقليد الأمير قبجق بلاد الشام كلها، وهو منقول عن السلوك: ١٠١٣/٣/١ نقلاً عن بيبرس المنصوري (زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٢١٤ أ ــ ٢١٥ب. صور شمسية من نسخة المتحف البريطاني بلندن، مكتبة الجامعة المصرية، رقم ٢٨ . ٢٤٠).

ذكر نسخة فرمان الأمير سيف الدين قفجاق. بتقوى الله وميامين الملّة المحمدية. فرمان السلطان محمود غازان.

الحمد الله الذي جرّد لنصر هذه الدولة القاهرة سيفاً ماضيـاً، وانتضى لتأييدها من أوليائها قاضباً قاضياً، وارتضى لها من أصفيائها مَنْ أصبح الملك عنه راضياً. نحمده ونشكره على نعمته التي أورثتنا الممالك، وجمعت لنا ما بين النصر والفتح وما أشبه ذلك. ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تنيل النجاة وترفـع الدرجات، ونشهد أن محمداً نبيُّه المرسل بالهدى والصدق، والمبعوث بدين الحق، صلى الله عليه صلاة تنيله الوسيلة والفضيلة، وعلى اله خير آل وأشرف قبيلة.

وبعد، فإن الله تعالى منَّ علينا بالإيمان، وهدانا إلى أشرف الأديان. حمدناه وشكرناه على أنه أضاف إلى ملكنا للدنيا ملكنا للآخرة، وجلَّل علينا حلل الدين الفاخرة؛ ونذرنا أن نعمَّ الرعية بعدلنا، ونشمل البرية بفضلنا، وألا نسمـع بمظلوم إلا نصرناه، ولا نطلـع على مقهور إلا أنقذناه.

فلما اتصل بنا ما بمصر من المظالم، ومن فيها من غاصب وظالم، هاجرنا لنصر الله تعالى ونصرة الدين، وبادرنا لإنقاذ من فيها من المسلمين، وراسلناهم وأنذرناهم، وكاتبنـاهم وزجرنـاهم، ووعظناهم، فلـم تنفـع فيهم العظة، وأيقظناهم فلم تكن عندهم يقظة. فلقيناهم بقوّة الله تعالى فكسرناهم وقلعنا آثارهم، وملَّكنا الله تعالى أرضهم وديارهم. وتبعناهم إلى الرمل، وحطمناهم كما حطم سليمان وجنوده وادي النمل، فلم ينج منهم إلا الفريد، ولا سلم إلا البريد (كذا).

فلما استقرّ تملّكنا البلاد، وجب علينا حسن النَّظر في [أمور] العباد، فأحصرنا الفكر فيمن نُقلّده الأمور، وأنعمْنا النظر فيمن نفوّض إليه مصالـح الجمهور، فاخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم، ويقيم ما آناد من قوامها القويم: يقول فيُسمـع مقاله، ويفعل فتقتفى أفعاله، يكون أمره من أمرنا، وحكمه من حكمنا، وطاعته من طاعتنا، ومحبّته هي الطريق إلى محبتنا. فرأينا أن الجناب العالي الأوحدي [المؤيدي العضدي النصيري، العالمي العـادلي الذخـري]، الكفيلي [السيّـدي الممهّدي]، المجاهدي الأميري الهمامي، النظامي السيفي [سيف الدين]، ملك الأمراء في العالمين، ظهير الملوك والسلاطين، قفجق، هو المخصوص بهذه الصّفات الجميلة، والمحتوي على هذه المناقب الجليلة، وأنّ له حرمة المهاجرة إلى أبوابنا، ووسيلة القصد إلى ركابنا؛ فعرفنا له هذه الحرمة، وقابلناه بهذه النعمة، ورأينا أنه لهذا المنصب حفيظ قمين، وعلى ما استحفظ قويٌّ أمين، وأنه يبلغنا الغرض من حفظ الرعايا، فأقمناه مقامنا في العدل والقضايا.

فلذلك رسمنا أن نفوِّض إليه نيابة السلطنة الشريفة، بالممالك الدمشقية والبعلبكية والحمصية، والساحلية والجبلية والعجلونية والرحبية، من العريش إلى سلمية، نيابة تامة عامة كاملة شاملة، يـؤتمر فيها بأمره، ويزدجر فيها بزجره، ويطاع في أوامره ونواهيه، ولا يخرج أحد عن حكمه ولا يعصيه، له الأمر التّام والنظر العام، وحسن التدبير وجميل التأثير والإحسان الشامل لأهل البلاد، واستجلاب الغزاة والقوّاد، وتأمين من يطلب الأمان، والطاعة والامتنان، متّفقاً في الاستخدام والتأمين، مـع ملك الأمراء ناصر الدين، فإن اجتماع الآراء بركة، والهمم تؤثّر إذا كانت مشتركة، وكلّ مَنْ أمنّاه، فإنه أمامنا أجريناه على قلمها ولسانها.

وقد أنْعم عليه بالسيف والسنجق الشريف والكوس والبايزة[1] الذهب برأس السبـع.

ورسمنا له بألف فارس من المغـل يركبون لركوبه، وينزلون لنزوله، وليكونوا تحت حكمه، رفعةً لقدره، وتنويهاً باسمه. وسبيل الأمراء والمقدّمين، وأمراء العربان والتركمان والأكراد والدَّواوين، والصُّدور والأعيان والجمهور، أن يتحققوا أنه نائبنا في السلطنة الشريفة، وأنّ له هذه المنزلة المنيفة، وليطيعوه طاعة تُزلفهم لديه، وتقرِّبهم إليه، ويحصل لهم بها رضاه عنهم، وإقباله عليهم، وقربهم منه، وليلزموا عنده الأدب في الخدمة كما يجب، وليكونوا معه في الطاعة والموافقة على ما يجب.

وعلى ملك الأمراء سيف الدين بتقوى الله في أحكامه، وخشيته في نقضه وإبرامه، وتعظيم الشرع وحكامه، وتنفيذ أقضية كل قاض على قول إمامه؛ وليعتمد الجلوس للعدل والإنصاف، وأخذ حقّ المشروف من الأشراف؛ وليُقم الحدود والقصاص على كل من وجبت عليه وليكفّ الكفّ العادية عن كل من يتعدى إليه. وقد تقدّم من الأمر بالآثار الجميلة في الشام المحروس، ما تشوفت إليه الأعين وتاقت إليه النفوس، وقد رده الله سبحانه إليهم رداً جميلاً، فليكن بمصالـح الدولة ومصالـح الرعية كفيلاً، والله تعالى يجعل له إلى الخير سبيلاً، ويوضـح له إلى مراضي الله ومراضينا دليـلاً. بمنه وفضله، [إن شاء الله تعالى. وكتب في جمادى الأول سنة تسع وتسعين وستمائة].

(١) البايزة لفظ مغولي، وهي لوح صغير من ذهب مرسوم على أحد وجهيه رأس سبـع، وكانت تمنح لكبار رجال الدولة عند المغول، وللمكلفين بحمل الرسائل الحكومية. انظر (Dozy: Supp. Dict. Ar.).

ملحق رقم (٤)

نص كتاب إيلخان غازان إلى السُّلطان الناصر محمد بن قلاوون، وجواب السلطان عليه، وهو منقول من السلوك: ١٠١٦/٣/١ نقلاً عن بيبرس المنصوري (زبدة الفكرة، ج ٩، ص٢٢٣ ب، ١٢٢٦ ــ ١٢٣٠ ا). انظر أيضاً النويري (نهاية الأرب، ج ٢٩، ص ١٣٣٠، وما بعدها)، والقلقشندي (صبح الأعشى، ج ٧، ص٣٤٣، وما بعدها).

بسم الله الرحمن الرحيم. بقوة الله تعالى، وميامين الملة المحمدية فرمان السلطان محمود غازان.

ليعلم السلطان المعظم الملك الناصر، أنه في العام الماضي بعض عساكرهم (كذا) المفسدة دخلوا أطراف بلادنا، وأفسدوا فيها لعناد الله وعنادنا، كماردين ونواحيها. وجاهروا الله بالمعاصي فيمن ظفروا به من أهلها، وأقدموا على أمور بديعة (كذا)، وارتكبوا آثاماً شنيعة، من محاربة الله وخَرْق ناموس الشريعة. فأنِفنَا من تهجّمهم، وغرنا من تقحّمهم، وأخذتنا الحميَّة الإسلامية، فحدتنا على دخول بلادهم، ومقاتلتهم على إفسادهم. فركبنا بمن كان لدينا من العساكر، وتوجهنا بمن اتفق منهم أنه حاضر. وقبل وقوع الفعل منا، واشتهار الفتك عنا، سلكنا سنن المرسلين، واقتفينا آثار المتقدّمين، واقتدينا بقول الله: لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل، وأنفذنا صحبة يعقوب السّكرجي جماعةً من القضاة والأئمة الثقات؛ وقلنا هذا نذير من النُّذُر الأولى، أزفت الآزفة، ليس لها من دون الله كاشفة.

فقابلتم ذلك بالإصرار، وحكمتم عليكم وعلى المسلمين بالأضرار، وأهنتموهم وسجنتموهم، وخالفتم سنن الملوك، في حسن السلوك. فصبرنا على تماديكم في غِيّكم، وخلودكم إلى بغْيكم، إلى أن نَصرَنا الله، وأراكم في أنفسكم قضاه. أفأمنوا مكر الله، فلا يأمن مكر الله. . . وظننا أنهم حيث تحققوا كنه المحال، وآل بهم [الأمر] إلى ما آل، أنهم ربما تداركوا الفارط من أمرهم، ورتَقوا ما فتقوا بغدرهم وأوجه إلينا وجه عذرهم، وأنهم ربما سيّروا إلينا حال دخولهم الديار المصريّة، رُسلاً لإصلاح تلك القضية. فبقينا بدمشق غير متحثحثين، وتثَبَّطنا تَثَبُّط المتملّكين المتمكنين؛ فصدّهم عن السعي في صلاح حالهم التواني، وعللوا نفوسَهم عن اليقين بالأماني.

ثم بلغنا، بعد عودنا إلى بلادنا، أنهم ألقوا في قلوب العساكر والعوام، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام، أنهم فيما بعد يلقوننا على حلب أو الفرات، وأن عزمهم مصرٌ على ذلك لا سواه. فجمعنا العساكر وتوجهّنا للقياهم، ووصلنا الفرات مرتقبين ثبوت دعواهم، وقلنا لعلهم وعساهم؛ فما لمع لهم بارق، ولا ذرّ شارق. فتقدّمنا إلى أطراف حلب، وتعجبنا من بطئهم غاية العجب. فبلغَنَا رجوعهم بالعساكر، وتحققنا نكوصهم عن الحرب، وفكرنا أنه تقدّمنا بعساكرنا الباهرة، وجموعنا العظيمة القاهرة، ربما أخرب البلادَ مرورها، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها، وعمّ الضررُ العباد، والخرابُ البلاد. فعدنا بقيـاً عليها، ونظرة لطفٍ من الله إليها.

وها نحن الآن أيضاً مهتمّون بجمع العساكر المنصورة، ومشحذون غرار عزماتنا المشهورة، ومشتغلون بصنع المجانيق وآلات الحرب، وعازمون بعد الإنذار، وما كنا مُعَذبين حتى نبعث رسولاً.

وقد سيّرنا حاملي هذا الفرمان الأمير الكبير ناصر الدين علي خواجا، والإمام العالم ملك القضاة كمال الدين موسى بن يونس؛ وقد حمّلناهما كلاماً يشافهاهم به. فليثقوا بما تقدمنا به إليهما، فإنهما من الأعيان المعتمد عليهما. لنكون كما قال الله تعالى ﴿قُل فَلِلّهِ الحُجّة البَالِغَةُ، فَلَوْ شاء لهداكم أجْمَعِين﴾؛ فتُعدوّا لنا الهدايا والتحف، فما بعد الإنذار من عاذر، وإن لم تتداركوا الأمر فدماء المسلمين وأموالهم مطلولة بتدبيرهم، ومطلوبة منهم عند الله على طول تقصيرهم.

فليمعن السلطان لرعيته النظر في أمره، فقد قال صلى الله عليه وسلم: من ولاه الله أمراً من أمور هذه الأمة، واحتجب دون حاجتهم وخَلّتهم وفقرِهم، احتجب الله دون حاجته وخلّته وفقره. وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذّر، والسلام على من اتبع الهدى.

كتب في العشر الأوسط من شهر رمضان بجبال الأكراد، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المصطفى وآله الطاهرين.

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم. بقوّة الله تعالى وميامين الملة المحمّدية.

أما بعد حمد الله الذي جعلنا من السابقين الأوّلين، الهادين المهتدين، التابعين لسنّة سيِّد المرسَلين، بإحسان إلى يوم الدّين، والصّلاة على سيدنا محمّد، والسلام على آله وصحبه الذين فضّل الله من سبق منهم إلى الإيمان في كتابة المكنُون، فقال سبحانه وتعالى: ﴿والسَّابِقُون السابقون أولئِكَ المُقَرَّبُون﴾.

بإقبال دولة السلطان الملك النّاصر. كلام محمّد بن قلاوون.

فليعلم السّلطان المعظّم محمود غازان أن كتابه وَرَدَ، فقابلناه بما يليق بمثلنا لمثله من الإكرام، ورعينا له حقَّ القصد فتلقيّناهُ منّا بسلام، وتأمّلْنَاه تأمُّلَ المتفهم لدقائقه، المستَكشِف عن حقائقه، فألفيناه قد تضمّن مؤاخذةً بأمورهمْ بالمؤاخذة عليهم أحْرَى، معتذراً في التعدّي بما جعله ذنوباً لبعض طَالَبَ بها الكل، والله تعالى يقول: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرةٌ وِزْرَ أخرى﴾.

أما حديثُ من أغار على ماردين من رجّالة بلادنا المتطرّفة، وما نسبوه إليهم من الإقدام على الأمور البديعة، والآثام الشّنيعة، وقولهم إنهم أنفُوا من تهجُّمهم، وغاروا من تقحّمهم، واقتضت الحَمية ركوبهم في مقابلة ذلك. فقد تلمَّحْنَا هذه الصّورة التي أقاموها عذراً في العدوان، وجعلوها سبباً إلى ما ارتكبوه من طغيان. والجواب عن ذلك أن الغارات من الطّرفين لم يحصل من المهادنة والموادعة ما يكفّ يدها الممتدة، ولا يغير هممها المستعدة. وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما علمتم

من الكفر والنّفاق، وعدم المصافاة للإسلام والوفاق؛ ولم يزل ملك ماردين ورعاياه منفّذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد عنهم، مُتولّين كِبْر مكرهم، والله تعالى يقول: ﴿ومَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فإنهُ مِنهم﴾.

وحيث جعلتم هذا ذنباً موجباً للحميّة الجاهلية، وحاملاً على الانتصار الذي زعمتم أن هممكم به مَليَّة، فقد كان هذا القصد الذي ادَّعيتموه يتم بالانتقام من أهل تلك الأطراف التي أوْجبَ ذلك فعلُها، والاقتصار على أخذ الثأر ممَّن ثار، اتباعاً لقوله تعالى: ﴿وَجزاء سَيئة سيئة مِثْلُها﴾، لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفّقة على اختلاف الأديان، وتطؤوا البقاع الطاهرة بعَبَدة الصُّلبان، وتنتهكوا حُرمة البيت المقدسّ الذي هو ثاني بيت الله الحرم، وشقيقِ مسجد رسول الله عليه الصلاة والسلام. وإن احتججتْم بأنّ زمام تلك الغيَّارة بيدنا، وسببَ تعدّيهم من سببنا، فقد أوضَحنْا الجواب عن ذلك، وإنّ عدم الصّلح والموادعة أوجب سلوك هذه المسالك.

وأما ما ادعوه من سلوك سنن المسلمين، واقتفاء آثار المتقدمين، في إنفاذ الرُّسُل أولاً، فقد تلمَّحنا هذه الصُّورة، وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة. والجواب عن ذلك أنّ هؤلاء الرسل ما وصلوا إلاّ وقد دَنت الخيام من الخيام، وناضَلت السِّهام عن السِّهام، وشارف القومُ القومَ، ولم يبق للّقاء إلاّ يوم أو بعض يوم، وأشرعت الأسنّة من الجانبين، ورأى كلٌّ خصمه رأي العين. وما نحن ممن لاحَت له رغبةٌ راغب فتشاغَل عنها وَلهى، ولا ممن يسالم فيقابل ذلك بجفوة النّفار، والله تعالى يقول: ﴿وإنْ جنَحُوا للسَّلْم فاجنح لَهَا﴾. كيف والكتاب بعنوانه، وأمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه يقول: ما أضْمر الإنسان شيئاً إلا ظهر في صفحات وجهه وفلتات لسانه. ولو كان حضور هؤلاء الرُّسل والسّيوف وادعة في أغمادها، والأسنة مستكنّة في أعْوادها، والسّهام غير مفوّقة، والأعنة غير مُطلقة، لسمعنا خطابهم، وأعدْنا جوابهم.

وأمّا ما أطلقوا به لسان قلمهم، وأبدوه من غليظ كلِمِهم في قولهم، فصبرنا على تماديكم في غيّكم، وإخلادكم إلى بغيكم: فأيّ صبر ممَّن أرسل عنانه إلى المكافحة، قبل إرسال رُسُل المصالحة، وجاس خلال الديّار، قبل ما زعمه من الإنذار والإعذار، وإذا فكّروا في هذه الأسباب، ونظروا فيما صدر عنهم من خطاب، وعلموا العُذْر في تأخير الجواب، وما يتذكّر إلا أولُو الألباب.

وأما ما تَحَجَّجوا به ممّا اعتقدوه من نُصْرة، وظنّوه من أنَّ الله جعل لهم على حزبه الغالب في كلّ كرَة الكرَّة، فلو تأملوا ما ظنّوه ربحاً لوجوده هو الخسران المبين، ولو أنعموا النظر في ذلك لما كانوا به مفتخرين، ولتحققوا أن الذي اتفق لهم كان غُرماً لا غُنماً: وتدبروا معنى قوله تعالى: ﴿إنما نُملي لهم ليزدادوا إثماً﴾ ولم يخف عنهم من أبْلَته السيوف الإسلامية منهم؛ وقد رأوا عزم من حضر من عساكرنا التي لو كانت مجتمعة عند اللقاء لما ظهر خبر عنهم. فإنّا كنا في مفتتح مُلكنا، ومبتدىء أمرنا، حللنا بالشام للنظر في أمور البلاد والعباد، فلما تحققنا خبركم، وقفوْنا أثركم، بادرنا نَقُدُّ أديم الأرض سيراً، وأسرَعنا لندفع عن المسلمين ضرراً وضيراً، ونؤدي من الجهاد السنَّة والفرض، ونعمل بقوله تعالى: ﴿وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السمٰواتُ والأرض﴾ فاتّفق اللقاء بمن حضر من

عساكرنا المنصورة، وثوقاً بقوله تعالى: ﴿كَمْ مِن فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً﴾. وإلا فأكابرُكم يعلمون وقائع الجيوش الإسلامية التي كم وطِئت موطئاً يغيظ الكفار، فكتب لها به عمل صالح، وسارت في سبيل الله، ففتح الله عليها أبواب المناجح. وتعددت أيامُ نصرتها التي لو دققتم الفكر فيها لأزالت ما حصل عندكم من لبس، ولما قدرتم على أن تنكروها وفي تعب من يجحد ضوء الشمس، وما زال الله لها نعم المولى ونعم النصير، وإذا راجعتموهم قصُّوا عليكم نبأ النصرة، ولا ينبئك مثل خبير.

وما زالت تتفق الوقائع بين الملوك والحروب، وتجري المواقف التي هي بتقدير الله فلا فخرَ فيها للغالب ولا عارَ على المغلوب. وكم من ملك استُظهر عليه ثم نُصر، وعاوده التأييد فجبره بعد ما كُسر، خصوصاً ملوك هذا الدين، فإن الله تكفّل لهم بحسن العقبى، فقال سبحانه: ﴿والعاقبة للمتقين﴾.

وأما إقامتهم الحجة علينا، ونسبتهم التفريط إلينا، في كوننا لم نسيّر إليهم رسولاً عند حلولنا بدمشق، فنحن عندما وصلنا إلى الديار المصرية لم نزد على أن اعتددنا وجمعنا جيوشنا من كل مكان، وبذلنا في الاستعداد غاية الجهد والإمكان، وأنفقنا جزيل الأموال في جمع العساكر والجحافل، ووثقنا بحسن الخلف لقوله تعالى: ﴿مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبَّة أنبتَتْ سَبعَ سنابِلَ﴾.

ولما خرجنا من الديار المصرية بلغنا خروج الملك من البلاد، لأمر حال بينه وبين المراد، فتوقفنا عن المسير توقف من أغنى رغبة عن حث الركاب، وتلبثنا تلبث الراسيات، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرُّ مرَّ السحاب. وبعثنا طائفةً من العساكر لمقابلة من أقام بالبلاد، فما لاح لهم منهم بارق ولا ظهر، وتقدّمت فتخطفت من حمله على التأخر الغرر، ووصَلت إلى الفرات فما وقعت للقوم على أثر.

وأما قولهم إننا ألقينا في قلوب العساكر والعوام أنهم فيما بعد يلتقوننا على حلب أو الفرات، وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى الفرات وإلى حلب مرتقبين وصولنا، فالجواب عن ذلك أنه من حين بلغنا حركتهم جزَمنا، وعلى لقائهم عزَمنا، وخرجنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابن عمِّ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، الواجب الطَّاعة على كل مسلم، المفترض المبايعة والمتابعة على كل مُنازع ومُسلّم، طائعين لله ولرسوله في أداء فرض الجهاد باذلين في القيام بما أمرنا الله غاية الاجتهاد، لا يتم أمر دين ولا دنيا إلا بمشايعته، ومن والاه فقد حفظه الله وتولاه، ومن عانده أو عاند من أقامه فقد أذلّه الله. فحين وصلنا إلى البلاد الشامية تقدَّمت عساكرنا تملأ السهل والجبل، وتبلغ بقوة الله في النصر الرجاء والأمل، ووصلت أوائلها إلى أطراف بلاد حماة وتلك النواحي، فلم يُقدم أحد عليها، ولا جسر أن يمدّ حتى ولا الطرف إليها.

فلم نزل مقيمين حتى بلغنَا رجوع الملك إلى البلاد، وإخلافُه موعدَ اللقاء، والله لا يخلف الميعاد. فعدنا لاستعداد جيوشنا التي لم تزل تندفع في طاعة الله تعالى اندفاع السيل، عاملين بقوله تعالى: ﴿وأعدُّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل﴾.

وأما ما جعلوه عذراً في الإقامة بأطراف البلاد وعدم الإقدام عليها، وأنهم لو فعلوا ذلك ودخلوا بجيوشهم ربما أفسد البلادَ مرورُها، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها، فقد فُهم هذا المقصود، ومتى ألفت البلاد والعباد منهم هذا الإشفاق؟ ومتى اتّصفت جيوشهم بهذه الأخلاق؟ وها آثارهم موجودة، ودعاوى خلافها بمشاهدة الحال مردودة؛ وهل هذا اعتماد من رمق شخص الإسلام بإنسانه؟ كيف ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: المسلم من سلم الناس من يده ولسانه؛ وأسارى المسلمين عندهم في أشد وثاق، وفي يد الأرمن والتكفور منهم ما يخالف ما ادَّعوه من إشفاق.

وقد كان المسلمون غزوا عسكر أبغا وقتلوا من قتلوا من التتار، وحصل لهم التمكُّن في البلاد والاستظهار، واستولوا على ملك آل سلجوق وما تعرَّضوا لدار ولا جار، ولا عفّوا أثراً من الآثار، ولا حصل لمسلم منهم ضرر، ولا أوذي في ورد ولا صدر. وكان أحدهم يشتري قوته بدرهمه وديناره، ويأبى أن يمتد إلى أحد من المسلمين يد أضراره. هذه سُنَّةُ أهل الإسلام، وفعل من يريد لملكه الدوام.

وأما ما أرعدوا به وأبرقوا، وأرسلوا فيه عنان قلمهم وأطلقوا، وما أبدوه من الاهتمام بجمع العساكر، وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكروه من التهويل، فالله تعالى يقول: ﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾.

وأما قولهم وإلا فدماء المسلمين مطلولة، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب، وأولاهم بألا يصدر إليهم عن ذلك جواب. ومَنْ قصدهُ الصُّلح والإصلاح، كيف يقول هذا القول الذي عليه فيه من جهة الله تعالى ومن جهة رسوله أي جناح؟ وكيف يضمر هذه النيَّة، وينجح بهذه الطوية، ولم يخف مواقع هذا القول وخلله؟ والنبي صلى الله عليه وسلم يقول: نيّة المرء أبلغ من عمله. وبأي طريق تُهْدَر دماء المسلمين، التي مَنْ تعرّض إليها يكون الله له في الدنيا والآخرة مطالباً وغريماً، ومؤاخذاً بقوله تعالى: ﴿ومَنْ يَقْتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيماً﴾.

وإذا كان الأمر كذلك فالبشرى لأهل الإسلام، بما عليه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد، وجمع العساكر التي تكون لها الملائكة الكرام إن شاء الله تعالى من الأنجاد، والاستكثار من الجيوش الإسلامية المتوفرّة العدَد، المتكاثرة المدد، الموعودة بالنصر الذي يحفّها في الظعن والإقامة، الواثقة بقوله صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على عدوّهم إلى يوم القيامة، المبلغة في نصْرة دين الله آمالاً، المستعدّة لإجابة داعي الله إذ قال: انفروا خفافاً وثقالاً.

وأما رسلهم، وهم فلان وفلان، فقد وصلوا إلينا ووفدوا علينا، وأكرمنا وفادتهم، وغزّرنا لأجل مرسلهم من الإقبال مادتهم، وسمعنا خطابهم، وأعدنا جوابهم. هذا مع كوننا لم يَخْفَ عنّا

انحطاطُ قدرهم، ولا ضعف أمرهم، وأنهم ما دُفعوا لأفواه الخطوب، إلاّ لما ارتكبوه من ذنوب، وما كان ينبغي أن يُرسْل مثل هؤلاء لمثلنا من مثله، ولا يُنْدب لهذا المهم إلا من يُجْمَع على فصل خطابه وفضله.

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف، فلو قدّموا من هداياهم حسنة لعوّضناهم بأحسن منها ولو أتحفونا بتحفة لقابلناهم بأجلّ عوض عنها. وقد كان عمه الملك أحمد[1] راسَل والدنا السلطان الشهيد، وناجاه بالهدايا والتحف من مكان بعيد، وتقرّب إلى قلبه بحسن الخطاب، فأحسن له الجواب، وأتى البيوت من أبوابها بحسن الأدب، وتمسّك من الملاطفة بأي سبب.

والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدّها، وأدْركَتْ الأنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها، فنقول: إذا جنح الملك للسلم جنحنا لها، وإذا دخل في الملة المحمدية ممتثلاً ما أمر الله به مجتنباً ما عنه نهى، وانضم في سلك الإيمان، وتَمسّك بموجباته تمسُّك المتشرف بدخوله فيه لا المنّان، وتجنب التشبه بمن قال الله في حقهم: ﴿قُلْ لا تَمُنُّوا عَليَّ إسْلاَمَكُمْ، بل الله يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أنْ هَدَاكمْ للإيمان﴾ وطابق فعْلُه قوله، ورفض الكفار الذين لا يحلّ له أن يتخذهم حوله، وأرسل إلينا رسولاً من جهته يرتل آيات الصلح ترتيلا، ويروق خطابه وجوابه حتى يتلو كل أحد: يا ليتني كنتُ اتخذْتُ مع الرَّسول سبيلا، صارت حجتنا وحجته المركبّة على من خالف ذلك، وكلمتنا وكلمته قامعةً أهل الشرك في سائر الممالك، ومضافرتنا له تكسب الكافرين هوانا، والمشاهدُ لتصافينا يتلو قوله تعالى: ﴿واذْكُروا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُمْ إذ كنتم أعْدَاءً فألَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُم فأصْبَحْتُم بنِعْمَتِه إخواناً﴾ وينتظم إن شاء الله شملُ الصالح أحسن انتظام، ويحصل التمسُّك من الموادعة والمصافاة بعروةٍ لا انفصال لها ولا انفصام، وتستقرّ قواعد الصلح على ما يُرْضِي الله تعالى ورسوله عليه الصلاة والسلام.

(١) المقصود هنا السلطان أحمد تكدار.

ملحق رقم (٥)

نص فرمان إيلخان غازان إلى الأمير عز الدين ايبك الأفرم نائب الشام يرغبه في الدخول في طاعته سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م)، وهو منقول من السلوك: ١٠٢٤/٣/١ نقلاً عن بيبرس المنصوري (زبدة الفكرة، ج ٩، ص ٢٣٥ ا ــ ٢٣٧ ب. صور شمسية من نسخة المتحف البريطاني بلندن. مكتبة الجامعة المصرية، رقم ٢٤٠٢٨)

ذكر نسخة الفرمان الذي سطّره قازان من رحبة الشام
بسم الله الرحمن الرحيم
فرمان السلطان محمود غازان

ليعلم الأمير أفرم وأكابر الأمراء، وَرِعاءُ العساكر والأجناد، والقضاة والسادات والأئمة والصدور، والأكابر والمشاهير والرؤساء، وعوَامُ الرعايا من أهل دمشق، أنه حَيْثُ خصنا الله تعالى بالعناية الأزلية، والسعادة الأبدية، وشرحَ صدرنا للإسْلام، ونوّر قلبنَا للإيمان، وأورثنا سلطَنَةَ الآباء والأجداد، وأمَدّنا بالنُصرةِ المتواترة الأمداد، تَصدّيْنا لإثابَةِ الشكر على نعمائه بحَسب الإمكان؛ فعاهَدنْا الله تعالى على مُلاَزمَةِ البرِّ والإحسان، ودَفع الرزايا عن الرعايا، وإيصال البرّ إلى البرايا، سيما طوائف المسلمين وطبقات المؤمنين، وألا نَرَخص في القتال ما لم يبدأنا به الجّهال، فكل لبيبٍ يعلم أن الباديَ أظلمُ؛ والذي يحقّق ذلك ما عرفه الدّاني والقاصي، من طريقتنا المسلوكة مع المطيعِ والعاصي، وما ترتّب بيننا وبين أنسابنا الأصاغر والأكابر، وتركنا المقاتلة إلا مع بادٍ مكابر.

وحيث كان أهل مصر والشام، يحبُّون ويودّون قوة الإسلام، كان الواجبُ عليهم إظهار السرور، وإبدَاء الحبور، بإسلام ذراري جنكزخان وعساكرهم التي لا غاية لأواخرِهم، وتُؤمن غلبةُ المتسلطين في تلك البلاد، وإنفاذ الرسل إلينا عن الوداد، وإرسال التحف والهدايا، والشكر لله ولنا على تلك المزايا. فما أبصرنا منهم في عمومِ الأوقاتِ، إلا ما لا يحسن من الحركات، حتى إنهم عمُّوا على ماردين وديار بكر طغياناً، وأقدموا على القتل والنهب فيها عدواناً. فدعتنا الحميَّةُ على الإسلام، إلى الفساد بالانتقام، وهممنا بأن نجُرَّ إليهم العساكر، ونُبيد الباديَ منهم والحاضر، فصادفتهم المراحم العميمة، التي لم تزل لنا خُلقاً وشيمة، فوقفنا مقتدين بقوله تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ فأنفذنا الإيلجيّة[1] مع قضاةٍ ثقات، لعلهم في أمرهم يتفكرون، وإلى الإنابة يهتدون، فأتوهم بصرائح النصائح، وهدوهم إلى جدَدَ المصالح؛ فعصى سلطان مصر عتُواً ونفوراً، وأودعهم السجن تجبراً وغروراً، فأفضت حركاتهم الذميمة إلى أن مال عليهم الجنود، وحلَّ عليهم ما حل بعاد وثمود، ولولا رفقنا المجبول بنا،

(١) الإيلجية: مفردها إيلجي وإلجي، ويقال أيضاً: إلشي؛ وهو السفير أو المبعوث. وهو لفظ تركي الأصل. (انظر دوزي: Supp. Dict. Ar.).

لأضحتْ شام خالية الديّار

وأما ما أصاب من لاحقه بعض العساكر من بعض الرعية، فما كان أحد بذلك مأموراً، وكان أمر الله قدَراً مقدراً.

وجُرمٍ جرَّه سفهاءُ قوم فحلَّ بغير جانيه العقابُ

ولما ثنينا عنان العزيمة، ترحُّماً على البراء من الجريمة: ثنينا لتركيب الحجة الرسالة، لعلهم ينتهون عن التمادي في الجهالة. فما سمعوا من الرسول قيلاً، وحبسوه زماناً طويلاً. وأما في الإعادة، فقد خالفوا الذاهبين في العادة، لأنهم لم يصحبُوه واحداً من رسلهم، ليتداركوا ما فرط مِن زللهم. ويا ليت ما حملوه من الجواب، كان متضمناً لوجه من الصواب، فإن كتابهم دل على فساد آرائهم، وتعمُّقهم في متابعة أهوائهم، فقد ضمَّنوا بهذا المقال مطواهُ، وكتبوا اسم سلطانهم بالألقاب البليغة بالذهب أعلاه، واسم الله تعالى ورسُوله عليه الصّلاة والسلام بالمداد، واسمنا بعد عدة سطور للعنادِ. فحملنا ذلك على عدم معرفتهم بالرسوم والآداب، وقلة ممارستهم مراسيم الخطاب والجواب.

وحيث أردنا ألا يتأذى بذلك المسلمون، تلونا: فاصفح عنهم وقل سلامٌ فسوف يعلمون. وعاودنا إيفاد الإيلجية مع أكابر القضاة، وحملنا إليهم الخلع والموهبات، ليسلكوا مسالك الموافقات، ويتجنبوا جوانب المخالفات، فوصل الخبر عقيب توجُّه الإيلجية إن القوم قصدوا ديار بكر، وحلوا حبى الكيد والمكر، فأمرنا بركوب العساكر، وإهلاك الباغين بالسيوف البواتر. فانتهى خبر ذلك إليهم، وفزعوا من سطوتنا عليهم، فأخذوا عن ديار بكر جانباً، وأصبح صحيح أملهم كاذباً، لكنهم عموا على خرتبرت وملطية وسيس، وخربوا أطرافها وحواليها بالحيلة والتلبيس، ولا شبهة لأحد أن خرتبرت وملطية من ولايتنا، وصاحبَ سيس من الداخلين في شريعة طاعتنا. وقد كانوا أظهروا للإيلجيّة الأليَّة[1]، واستلزم إقدامهم على ذلك كذب القضية؛ وأيضاً كاتبوا الأكراد والروم بخطاب الأخ مراراً، ودعوهم إلى إثارة الشرّ والفتن سراً وجهاراً، وما علموا أن صحارى بلادنا مملوءة من أمثال أولئك، ولا التفات لأحد إلى ذلك؛ وكتبوا أيضاً إلى ملك الكرج نارين[2] داود، وأثبتوا البر والعبودية مع أنه سبى[3] أزواجهم وبناتهم، ونقطع[4] أشجارهم، ونقتل صغارهم وكبارهم، ونحرق مساكنهم وأماكنهم، ونتبع مخامنهم ومكامنهم، ونجعل أطلالهم ممحوّة بالطمس، وأجسادهم كأن لم تغن بالأمس.

وإن لاح لهم الاحتراز فليستدركوا فارطهم، وليرحموا أنفسهم وأزواجهم وأولادهم وأموالهم، وليبادروا إلى ما هو السبب للخلاص، ويدخلوا في طاعتنا عن صدق وإخلاص، وليتحققوا أننا

(١) الأليَّة: الاسم من آلَّ إذا أبطأ.

(٢) اسم هذا الملك في الأصل داود الرابع، وقد لقبه المغول بلقب نارين ومعناه في لغتهم «الماهر».

(٣) و (٤) كذا في الأصل.

لا نريد منهم خزائن ولا أموالاً، فإن الله تعالى قد أتانا من المال ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، وأغنانا بما أعطانا، عما هو في أيدي من سوانا. وفيما منحنا من المملكة العريضة، والسلطنة المستفيضة، والعساكر والجيوش غير المحصورة، والألوية والأعلام المنصورة، متّسع وكفاية، بل يخطبون باسمنا، ويضربون الدينار بسكتنا، حتى نقرر الجمهور على أمورهم، من أميرهم ومأمورهم، زائدين في الإقطاعات والمشاهرات والمرتبات والإقرارات.

ولا يخفى عليهم أن الشام كان في الأعوام الماضية، والأيام الخالية، تارة مع الروم وأخرى مع العراق، وعن مصر لا زال منقطع العلاق، إلى زمان تغلّب طائفة من أهل الخروج والفتن. فكما كانوا يتصورون أن الثغر هو العراق وديار بكر، فليتصوروا بعد اليوم أنه غزة وحدود الرمل. وكما كانوا يستمدون منهم علينا، يستمدون منا عليهم (؟)، ولا يعتمدوا على القلاع، فإنهم بالمحاصرة يعجزون، ومن الاضطرار يُسلمون. ومهما تركوا الوساوس والخيالات، وأطاعونا بصدق النيّات، فهم في أمان الله الملك العلّام، وأمان الرسول عليه السلام، وأماننا في النفس والأهل والمال، ولا تصيبهم من عساكرنا أذية في عموم الأحوال.

ملحق رقم (٦)

نص الكتاب المسمى باسم «الروض الزاهر في غزوة الملك الناصر» تأليف القاضي علاء الدين علي بن عبد الظاهر؛ وقد صَنفَّه في خبر وقعة مَرج الصُفر بين السلطان الناصر محمد وإيلخان غازان، في جمادى الآخرة سنة ٧٠٢هـ (يناير ١٣٠٣)، وهو منقول في السلوك: ١/٣/١٠٢٧ نقلاً عن النويري (نهاية الأرب، ج ٣٠، ص ٣٣٧ ب، وما بعدها. صور شمسية من نسخة المكتبة الأهلية بباريس. دار الكتب المصرية، رقم ٥٤٩ معارف عامة).

ابتدأه بأن قال: الحمد لله الذي أيد الدّين المحمدي بناصره، وحمى حِماه بمن مضى هو وسلفه بأداء فرض الجهاد في أول الزمان وآخره، وجعل من الذرية المنصورية من يجاهد في الله حقَّ جهاده، ويسهر في سبيل الله فيمنع طرف السيف أن يغفى في أغماده، وتقدَّم يوم الوغى والموت من بعوثه للعدى وأجناده، نحمده على ما وهبنا من شعره[1]، ونشكره على نعمه التي خوَّلنا منها بأساً أذاق العدوّ وبال أمره؛ ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادَةً ترفع منار هذا الدّين، وتضاعف أجر المجاهدين، الذين أضحوا في درج المُتقين مرتقين؛ ونشهد أن محمداً عبده ورسوله

(١) الشعر: العلم بدقائق الأمور، ثم غلب على منظوم القول لشرفه بالوزن والقافية، وإن كان كل علم شعراً كما غلّب النجم على الثريا، والعود على المندل. (معجم متن اللغة).

الذي بعثه وضروع الكفر حوافل، وربوع البغي أواهِــل فلم يزل يجرّد الصِّفاح من مقرّها. ويطلّق جياد العزم في مجراها وصعاد الحزم في مَجَرّها(١)، إلى أن أخمد نار الشرك والنفاق، وظهرت معجزاته بإطفاء نار فارس بالعراق؛ صلى الله عليه وعلى آله الذين جرّدوا بين يديه سيوف الحتوف فاستغلقت الأعمار، وهاجروا إليه ونصروه فسُموا المهاجرين والأنصار.

وبعد فإن الوقائع التي عظمت آثارها في الآفاق، وحفُظت بها دماء المسلمين من أن تُراق، وبقي بها الملك والممالك، وأشرف بها سواد الخطب الحالك، وسطرها الله تعالى في صحائف مولانا السلطان الملك الناصر، وآتاه فيها من الملك ما لم يبلغه أحد، فأورثه به ظفراً مخلداً لا يفنى وإن طال المدار والأمد، واشتبه في ثباته ووثباته بها أباه رضي الله عنه والشبل في المَجْر(٢) مثل الأسد، واستقرّ بها الملك في مهاد السكون بعد القلق، وتبدّلت بها الملّة الإسلامية الأمْنَ بعد الفَرَق، وأضحى بها وجه الإسلام سافراً بعد تقطيبه، وطلـع بها بدر السرور كاملاً بعد مغيبه، وعمّت الأيام إحساناً من الملك وحسنى، وعلم المؤمنون بها تحقيق قوله عزّ وجل: ﴿وعَد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً﴾، أن يسطر فيها ما يعمر ربوع السرور ويؤنس معاهده، ويقف عليه الغائب فيكون كمن شاهده، ويذيـع أنباء هذه النصرة في الأقطار، ويتحقّق أهل الإسلام أنّ لهم ملكاً يناضل عن دين الله بالسُّمر الطِّوال والبيض القصار، وسلطاناً ما أغمض سيفَهُ في جفنْه إلا ليستجمّ لأخذ الثأر من ثار.

ولما كانت هذه الغَزاة المبرورة، والحركات التي عدّت حسناتها في صحائف القبول مسطورة، والسّفرة التي أسفرْت بحمد الله عن الغنيمة والسلامة، وأعلمتْ الأمة بركة قوله صلى الله عليه وسلم: لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحقّ لأنصرهم من خذلهم إلى يوم القيامة؛ وكنتُ ممن شملته نفحات الرحمة فيها وهبّتْ عليه رياح النصر التي كانت تزجيها، وشاهدتُ صدق العزائم الملكية الناصرية التي طلعت في سماء النفـع نجوماً وقادة، وشهدتُ في محضر الغزو على إقرار العدى بالعجز، وكيف لا وذاك الموطن محل الشهادة، وما رايتُ كيف أثبتَ السيف لنا الحق لأنه القاضي في ذلك المجال، وكيف نفذتْ السهام لأجل تصميمه في الحكم فلم يمهل حتى أخذت دين الآجال وهو حال.

وقد أحببت أن أذكر من أمرها ملحة تنشرح بها الصدور، وآتي بلمعة تعرب عن ذلك النور، وها أنا أذكر نبأ السفر من افتتاحه، وأشرح حديث هذه الغزاة من وقت صباحه؛ فأقول: —.

---

(١) الراجح أن المجر هنا الجيش العظيم. انظر محيط المحيط.

(٢) لعل المقصود بلفظ المجر هنا ما في بطون الحوامل، من الإبل والغنم وغيرها من أنواع الحيوان. انظر محيط المحيط.

ركب مولانا السلطان الملك الناصر ـ خلد الله ملكه ـ بنية صالحة أخلصها في سبيل ربه، وعزيمة ناجحة ماثلت في المضاء سمر مواليه وبيض قضبه، من قلعة مصر التي هي كنانة الله في أرضه، بجيوشه التي نهضت بسنن الجهاد وفرضه، تقدمها أمراؤه الذين كأنهم ليوث غاب أو غياث سحاب، أو بدور ليال أو عقود لآلىء، معتضداً ببضعة من الرسول، منتصراً بابن عمه الذي لا يسمو أحد من غير أهل بيته لشرفه ولا يطول. ملتمساً بركة هذا البيت الشريف الذي طالما كانت الملائكة من نجده وجنده، مسترسلاً بيمنة الإيمان سحب كرمه، مستدعياً صادق وعده. وسار على اسم الله تعالى بالجاريات الجياد، التي تعدو في سبيل النجاد وتعلو الهضاب، وسرى بقطع المنازل ويطوي المراحل طي السجل للكتاب؛ والجيوش المنصورة قد أرهفت حد سيوفها؛ وأشرعت أسنة حتوفها، وهي تسير كالجبال، وتبعث كالصدى ما يرهب من طيف الخيال.

فبينما الركاب قد استقلت في السرى، ورقمت في البيداء من أعناق جيادها سطور من قرأها استغنى بحسنها عن القرى، إذا بالبشير قد وفد، ونجم المسرة قد وقد، وأخبر بأن جمعاً من التتار قصدوا القريتين للإغارة، وما علموا أن ذلك مبدأ خموهم الذي فتح الله به للإسلام باب الهناء والبشارة؛ وغرتهم الآمال، وساقتهم الحتوف للآجال. فنهض بعض العساكر المؤيدة، فأخذتهم أخذ القرى وهي ظالمة، وأعلمتهم أن السيوف الإسلامية ما تترك لهم بعد هذا العام بقوة الله يداً في الحرب مبسوطة، ولا رجلاً في المواقف حائمة، وأرى الله العدو مصارع بغيه، وعاقبة استحواذه، وتلا لسان الوعد الصادق على حزب الإيمان: وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه.

ووصل مولانا السلطان خلد الله ملكه غزة، والإسلام ـ بحمد الله ـ قد زاد قوة وعزة، ثم رحل بحمد الله بعزم لا يفتر عن المسير، وجيش أقسم النصر أن لا يفارقه وأن يصير معه حيث يصير، إلى أن وصلوا يوم السبت الثاني من شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وسبعمائة، وهو أول أيام السعود، واليوم الذي جمع فيه الناس، وذلك يوم مشهود، إلى مرج الصّفر، الذي هو موطن الظفر ومكان النصر الذي يحدث عنه السمار بأطيب سمر. والسلطان بين عساكره كالبدر بين النجوم، والملائكة الكرام تحمي الجيوش المؤيدة بإذن الله وطيور النصر عليها تحوم، وهو خلد الله ملكه قد بايع الله على نصرة هذه الملة التي لا يحيد عن نصرها ولا يريم، وعاهده على بذل الهمم التي انتظمت في سبيل الله كالمعقد النظيم، وخضع لله في طلب النصر وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم، وقال: رب قد بذلت نفسي في سبيلك فتقبلها بقبول حسن، ونويت المصابرة في نصرة دينك، وأرجو أن أشبع النية بعمل يعدو بيان إنسان في وصفه واللسن، وتلا: ربنا أفرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين، واهزم عدونا فقد بايعناك على المصابرة والله مع الصابرين؛ وابتهل إلى الله في طلب التأييد، وتضرع إليه في ذلك الموقف الذي ما رآه إلا من هو في الأخرى شهيد وفي الدنيا سعيد.

هذا والسيوف قد فارقت الأغماد: وأقسمت أنها لا تقر إلا في الرؤوس، والأسنة قد أشرعت وآلت أنها لا يُروى ظمؤها إلا من دماء النفوس، والسهام قد التزمت أنها لا تتخذ كنانها إلا من

النحور، ولا تتعوّض عن حنايا القسّي إلا بحنايا الأضالـع أو لترَفعها لا تحل إلا في الصدور، والدروع قد لزمت الأبطال قائلة: لا أفارق الأبدان حتى تتلى سورة الفتـح المبين، والجياد حرمت وطء الأرض وقـالت لفرسانها لا أطأ إلا جثث القتلى ورؤوس الملحدين، فلا ترى إلا بحراً من حديد، ولا تشاهد إلا لمـع أسنة أو بروق سيوف تصيد الصيِّد، والسلطان قد أرهف ظباه ليسعر بها في قلوب العدى جمراً، وآلى أنه لا يورد سيوفه الطلا بيضاً إلا ويصدرها حمراً، والإسلام كأنه بنيان مرصوص، ونبأ النصر على مسامـع أهل الإيمان مقصوص، والنفوس قد أرخصت في سبيل الله وإن كانت في الأمن غالية، وأرواح المشركين قد أعدّ لها الدرك الأسفل من النار وأرواح المؤمنين في جنّة عالية.

ولما كان بعد الظهر أقدم العدوّ ــ خـذله الله ــ كالسيوف الحداد، وجاء على قرب من مقدمنا فكان هو والخذلان على موافاة وجئنا نحن والنصر على ميعاد، وأتى كقطـع الليل المظلم بهمم، لا تكاد لولا دفـع الله عن بزُاتها تُحْجم، معتقداً أن الله قد بسط يده في البلاد ويأبى الله إلا أن يَقْبِضها، متخيلاً أن هذه الكرّة مثل تلك ويأبى الله إلا أن يخلف لهذه الأمة بالنصر ويعوّضها، متوهماً أن جيشه الغالب وعزمه القاهر متحققاً أنه منصور وكيف ذاك ومعنا الناصر.

والتقى الفريقان بعزائم لم ييئسها في الحرب نكول ولا تقصير، فكان جمعنا ولله الحمد جمـعَ سلامة وجمعهم جمـع تكسير. وحمى الوطيس وحَمَل في يوم السبت الخميسُ على الخميس، ودارت رحا الحرب الزبون، وغنت السيوف بشرب الكماة كأس المنون؛ والسّلطان قد ثبت في موقف المنايا حتى كأنه في جفن الردى وهو نائم، ورأى الأبطال من أوليائه جرحى في سبيل الله والأعداء مهزومة والوجه منه وضاح والثغر باسم؛ وقابل العدو بصدره، وقاتل حتى أفنى حديد بيضه وسُمره؛ وخاطر بنفسه والموت أقرب إليه من حبل الوريد، ونكب عن ذكر العواقب جانباً ولم يستصحب إلا سيفه المبيد، واشتدّ أزْراً بأمرائه الذين رأوا الحياة في هذا اليوم مغرماً، وعدوا الممات فيه مغنماً وقالوا: لا حياة إلا بنصر الإسلام، ولا استقرار حتى تطأ بين يدي السلطان سنابك الخيول هذا الهام، و[ما] أعددنا العزائم إلا لهذا الموقف، ولا أحْدَدْنا الصوارم وخبأناها إلا لنبذلها في السفك فنسرف ــ وهم بين يدي سلطانهم يحثّون جيوشهم على المصابرة، ويقولون هذا اليوم يصيبنا فيه إحدى الحسنين. فإما سعادة الدنيا وإما جنّة الآخرة، وقالت الملائكة للجيوش المنصورة، «يا خيل الله اركبـي! ويَا يدَ النصر اكتبـي!».

وقامت الحرب على ساق، وَالْتَفّت الساقُ بالساق، إلى ربِّك يومَئذ المسَاق، وأتى العدو جملة واحدة، وحمل حملة أمست بالنّفوس جايدة، ونكب على الميسرة وقصد الميمنة والقلب، وهاله جمـع الإسلام فأراد أن يَخْلُصَ بانحيازه من شدّة ذلك الكرب واستمرت المناضلة تمتد بين الفريقين وتنتشر، والمؤمنون قد وفوا بما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر؛ ومولانا السلطان يردف مواكبه بحملاته، ويقدم فتخشى الأعداء مواقـع مهابته وترجو الأولياء منافـع هباته، ويرى غمرات الموت ثم يزورها، ويمرّ في مجال المنايا فيحلو له مريرها ومزورها، ويقاسم سيوف العدى شرّ قسمة افعَلَى عاتقه غواشيها وفي صدورهم صدورها.

ولّما كان وقت المغرب لجؤوا ــ خذلهم الله ــ إلى هضاب اعتقدوا أن فيها النجاة، وقالوا: نأوي إلى جبل يعصمنا من الموت ونسوا أن لاعاصم اليوم من أمر الله.

رامــوا النجـاة وكيف تنجـو عصبـةٌ   مـطلوبـةٌ بـالله والـسـلطان؟

وحصرتهم العساكر الإسلامية بعزائم كالشهاب أو النار، ودارت عليهم كالسوار والسوار، وصيّرتهم بقدرة الله في ربقة الإسار؛ وقاتلتهم الجيوش المنصورة غير مُحتمِيَة بقرى محصنّة ولا من وراء جدار، تتلظّى كبودهم عطشاً وجوعاً، ويكادون من شدّة الهجير يشربون من سَيْل قتلاهم نجيعاً، ويودّون لو كانوا أولي أجنحة، ويندمون حين رأوا صفقتهم خاسرة وكان ظنهم أنها تكون مربحة، ويأسفون على فوات النجاة ويتحيرون عند مواقعة الجيوش المؤيّدة حيث رأوا ما شملها من نصر، ويتضرّمون بنار الخيبة على حركتهم التي أدبرت لهم مآباً، وينظرون فيما أسلفوه من ذنوب ولسان الانتقام يتلو عليهم: ﴿يَوْمَ يَنْظُرُ المرْء مَا قَدَّمَتْ يَداهُ ويقولُ الكافرِ يا لَيْتَني كُنْتُ تُراباً﴾.

ودَخَلَتْ ليلةُ الأحد وهم في حصرهم، وقد أوقعهم الله في حبائل مكرهم، وأراهم من الحصر والضيق ما لا رأوه مدّة عمرهم، وأيقنوا بالهلاك، وتحقّقوا أن لاخلاص لهم من تلك الأشراك، ولو سمعوا ما سبق من الإنذار لما أتوا للمبارزة مظهرين، ولو علموا سوء صباحهم لفَروا عشاءً ونجوا من قبل أن يُتْلَى في حقّهم: وَساء صَبَاحُ المُنْذَرينَ.

وأصبح الإسلام يوم الأحد من قوته المنيعة، وأرواح العدى في أجسادهم وديعة. ومولانا السلطان يصطبـح من دمائهم كما اغتبق، ويريهم عزماً ينثر عقد اجتماعهم الّذي انتظم واتّسَق، ويفهمهم أنه لا مردٌّ له عن مراد الصوارم، وأنه لا يفارق الخيل حتى يجعل عوَض الحجارة جماجم؛ وأمراؤه ــ أعزّ الله نصرهم ــ بين يديه أولـو هَمٍّ في الحرب وأولـو عزائم، يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، يعدون المصابرة في طاعة الله وطاعة سلطانهم غنيمة جمعت لهم أسباب الفخار، ويمتازون بأن منهم من هاجر إليه ومنهم من نصره، فعُدّوا حقاً لكونهم مـع محمد تابعي المهاجرين والأنصار.

وزحف السّلطان وبين يديه أمراؤه وعساكره المؤيدة فضّيقوا عليهم الخناق، وأحدْقوا بهم إحداق الهدب بالأحداق، وراسلوهم بالسهام وشافهوهم بالكلام لا الكلام، ورفعوا من راياتهم المنصورة ما طاول المنشآت في البحر كالأعلام، وحمل بها الأبطال فكلما رآها العدى تهتزّ بتحريك نسيم النّصر سَكنَوا خوف الحِمام، ثم فرجوا لهم عن فرجة من جانب الجبل ظنوها فَرَجاً، وخيل لهم أنه من سَلك تلك الفرجة سلك طريقاً مستقيماً وما دروا أنه سلك طريقـاً عوجاً، واستترت لهم الجيوش المنصورة إلى الوطاة ليتّمكن سيوفها من سفكهم، وتقرّب مدى هلكهم، وتُسلمهم إلى الحمام الذي لا ينجي منه خيل ولا حيَل، وتملأ الوطاة من دمائهم فتساوي السهل من قتلاهم بالجبل. وحلّ الحِمام بساحتهم، وامتدت الأيدي لاستباحتهم؛ وضاقت عليهم المسالك، وغلبوا هنالك، وأنزل الله نصره على المؤمنين وأيدهم بجنـود لم يروها، واشترى منهم أنفسهم بأن لهم الجنة فياطيب ما شروها،

وفرّت من العدو قوته، وصلت في حالة الحرب عن السيف فأدركهم العزم الماضي الغدار وتلا عليهم لسان الحق[١]. . .

وما انقضى ظهر يوم الأحد إلا والنصر قد خفقت بنوده، والحقّ سبحانه وتعالى قد صدقت وعوده، وطائر الظفر قد رفرف بجناحه وطار باليمن والسرور، ونسيم الريح قد تحمّلت رسالة التأييد فسارت إلى الإسلام بالصبا وإلى العدى بالدَّبُور، والألطاف ولله الحمد قد زادت للإسلام قوة وتمكينا، ولسان النصر يتلو على السلطان: إنَّا فَتَحْنَا لكَ فَتْحاً مبيناً؛ والسيفُ قد طهرٌ ديار الإسلام من تلك الأدناس، ومولانا السلطان يتلو ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس. وأمست الوحوش تحوش أشلاءهم، والحوائم ترد دماءهم؛ والعساكر في أعقابهم تقتل وتأسر، وتبدي في إيصالهم (؟) كل عزيمة وتظهر، وتنظم أسنتها برؤوس القتلى، ، وتعقد لها على عقائل النصر فتزفّ لديها وتُجْلَى، إلى أن ناجتهم بالحيف من مكان قريب، وبسطت فيهم السيف فسأل الأسرُ أن يسمح له بخطّ فأعطى أيسر نصيب. ومُلِئت من قتلاهم القفار، وأمسوا حديثاً في الأمصار، وعبرة لأولي الأبصار.

ثم رحل السلطان يوم الاثنين الرابع من شهر رمضان المعظم إلى منزلة الكسوة من مكان النصر وبقاعُه تثني على معاليه، وتشهد بمضاء قواضيه ونفوذ عواليه، ودمشق قد أخذت زخرفها وازينت، وتبّرجت محاسنها للنواظر وما بانت بل تبيّنت، وكادت جُدرها تسعى للقائه لتؤدي السنة من خدمته والفرض، غير أنها استنابت الأنهار فسعت وقبّلت بينَ يدي جواده الأرض. ثم رحل في يوم الثلاثاء خامس شهر رمضان، ودخلها في هذا اليوم والملائكة تحييه عن ربه بتحية وإكرام، وتتلو عليه وعلى جيوشه: أدْخُلوُها بسَلاَمٍ ، في موكب كأنه نظام الدرر، أو روضة كلها زهر، بل هو حقاً هالة القمر؛ والدنيا قد تاهت به عجباً، والناس يدعون لسلطان قد شغفوا بدولته حباً، ويتعجبُّون من نضارة ملكه الذي سرٌ النواظر، ويرون أولياءه في فَلك إنعامه فيقولون أبدلت الأرض غير الأرض أو صارت سماءً وإلا فما هذا القمر حوله النجوم الزواهر. وعادت المآتم بدمشق أفراحاً أعراساً، وربوع الهناء قد عوّضها أمْنُ مقدمه الوحشة إيناساً، والقلعة بآلات حصارها مزينة، قائلة كيف يستباح حماي وأنا بهذا السلطان محصنة وبسعادته محصنة. هذا والأنهار تساير ركابه، وقد صبغت من دماء العدى بأحمر قاني، والأشجار تميل طرباً بالهناء كما يميل النشوان بين الأغاني، والحمام يطرب بحسن الألحان والتغريد، وقد أقسمت لا تنوح وكيف تنوح وقد خضّبت كفها وطوّقت الجيد، والناس يقولون أيا عجباً في أول رمضان يكون عيد وفي آخره عيد، والعزائم للعدى تردي، وبنصر الله ترتدي وتهز برداً، تقول عند تغريد الحمامة:

يا بَرْد ذاك الذي قالت على كبدي

والأقاليم قد تاهت بسلطانها بهجة وسروراً، وهامُ الجوزاء تود لو كانت منبراً وسريراً،

(١) بقية هذه العبارة واردة بهامش الصفحة في الأصل، غير أن المصور أفسدها بتصوير نصف الهامش فقط، فجاءت العبارة مبتورة كما هنا.

والرعايا تقول هذا الملك الذي حمى الله بعزائمه الديار، وأدار العدى إلى دار البوار، ووقف لا يبتغي إلا وجه ربه، وقابل اليوم بنفسه وبكتابيه وناضل الأمس بكتبه، والله لدعائهم سامع ومجيب، ويكافئهم بكل فتح مبين ونصر قريب.

ووصل [السلطان] الميدان الأخضر وقد أذاق العدو الأزرق الموت الأحمر، في يوم السعد الأبيض بعلم النصر الأصفر، إلى القصر الأبلق، وقد طلع شمساً في سماء الملك أنار بها أفق الآفاق وأشرق، ففخر القصر بحلوله فيه، وقال: هذا اليوم الذي كنت أرتجيه، وهذا الوقت الذي ما برحت تبشرني به نشرات الذكر والأصائل، لا تمر لطيفة فأعلم أن معها منه ـ خلّد الله ملكه ـ رسائل، وهذا الملك الذي أعرفه من الله شمائل؛ فغبطته القلعة المنصورة، وسألت أن لا تبقى بغير الجسد محصورة، وفاخرت القصر بما لها من محاسن، وما شرُفت به من إشراف على أنضر الأماكن، وامتازت به من حصانتها التي ما امتطى سواه ذروتها، ولا علا غيره ـ خلد الله ملكه ـ صهوتها، فأراد أن يعظم لقلعته الشان، فحل بها مرة ثم بتلك أخرى فطاب بحلوله الواديان.

ثم أذهب [السلطان] على أوليائه وجيوشه مشقة التعب ببذل الذهب، وأنسى بمكارمه حاتم طيّ فلو عاش لاستجدى مما وهب؛ وأمر بعود نواب ممالكه إلى أماكنهم المحروسة، وقال قد خلت ربوعكم هذه المدة وحيث حللنا بالبلاد نبتغي أن تكون مأنوسة. فتضاعف الشكر لله على إتمام هذه النعمة، وابتهلت الألسن بالمحامد وكيف لا وقد طلع صبح النصر فجلى ليل تلك الغمة. وشكر الناس منة الله التي أعادت إليهم بالأمن للوسن، وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن.

وأقام [السلطان] بدمشق المحروسة يتبوَّأ منها أحسن الغرفات، ويستقرّ من بقعتها في جنات، فحييت به بعد الممات، وعادت بمقدمه إلى جسدها الروح بعد المفارقة، وتمتعت مقلتها من محاسنه بأبهى من رياضها الرائقة، وهو يحمي حماها، ويحلي مواطن ملكها الزواهر رباها، ويزينها بمواكبه التي ماثلت الكواكب في سنائها وسناها، وتطأ سنابك جياده أرضها فتداني الثريا في الافتخار ثراها، إلى أن قضى شهر صيامه المقبول، وأتاه عيد الفطر مبشراً بإدراك آماله في عزّ مستمرّ ونصر موصول، وأسبغ من عطاياه ما أربى على عدد أمواج البحر، وتعددت لدولته المسرّات في هذا الشهر الميمون فآخره عيد فطر وأوله عيد نحر.

ثم رحل [السلطان] عن دمشق في يوم الثلاثاء ثالث شوّال، ويعزّ عليها أن تفارقه، أو تبعد عن محياه الذي أنار مغارب الملك ومشارقه، أو يسيّر عنها عزمه الذي إن غاب أغنت مهابته أو حضر أرهف على العدو بوارقه، وأغصان رياضها تحشد بنود سناجقه، وأوراق دوحها تودّ لو كانت مكان أعلامه وخوافقه، وزهرها يتمنّى لو كان وشياً لحلك جياده، وأرضها النضرة تكاد تنطوي بين يديه لتكون مراكز السعادة، وقصرها الأبلق يتوسّل إليه من أن يتخذه بدل خيامه وستائره ليصير مسكنه فيه ومقامه. ومصر تبعث إليه مع النسيم رسائل، وتبذل له في تعجيل عوده وسائل، وكرسي سلطنتها يودُّ لو سعى. من شوق إليه، أو شافهه بالهناء بالنعمة التي أتمها الله عليه، فلبى دعوتها، ولم يطل

جفوتها، وسار إليها سير الأقمار إلى منازل الضياء والنور، ووطيء بمواكبه الأرض فظهرت بها من مواطيء جياده أهلة ومن آثار أخفاق مطيّه بدور.

وصل [السلطان] ديار مصر المحروسة، وقد زُفَّت عروساً تُجلى في أبهى الحلل، وجَمَعت أنواع المحاسن فلا يقال لشيء منها كَمَل لو أنَّ ذا كَمَل. وفضح الدجى إشراقها وبهر العيون جمالها، فإلى أقصى حدائق حسنها رنت أحداقها وسبت النفوس منازلها، وكيف لا وهي المنازل التي لم نزل نشتاقها وشغلت القلوب أبياتها، وكيف لا وقد زانها ترصيعها وطباقها، وحوت من البهاء ما لو حوته البدور لما شانها بعد التمام محاقها، وأمست روضة أثمرت اللآليء والدّرر، وفلكاً زهاً بالمشرقات فيه وكيف لا وفي كل ناحية من وجهها قمر.

وحلّ خلد الله ملكه بظاهر القاهرة فكادت تسير لخدمته بأهلها وجدرانها، غير أنه أثقلها الحلي فأخرها لتبدو إليه في أوانها المرد وما أحسن الأشياء في أوانها؛ وهم نيلها أن يجري في طريقه لكنه أخره النقص والتقصير، واستحيى أن يقابله وهو في دون غاية التمام أو يَسير من مواكب أمواجه في عدد يسير، وخشي أن يتخلَّل السبل بين يديه فيحصل في ريّها الخلل، أو يظهر عليه كونه في زمن تَوَخّمه حمرةُ الخجل، وكان عمود مقياسه قد آلى ألا يضع أصابعه في اليم إلا بإذن سلطانه، ولا يلبس ثوب خلوق إلا ما برزه عليه بنيانه، ولا يأتي بزيادة إلا بعد مقدمه وكيف لا ومدده من إحسانه.

وركب [السلطان] سحر يوم الاثنين الثالث والعشرين من شوّال، سنة اثنتين وسبعمائة، من ظاهر القاهرة في موكب حفّ به الظفر، وأضحى حديثاً للأنام وذكرى للبشر، وسيفه المنصور قد أذهب عن الملة الإسلامية نيل الخطب ومحا، والأمة يترقبون طلوع فجر بدره ولسان المسرة يتلو عليهم: مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحشرَ النَّاسُ ضُحى.

ودخل [السلطان] البلد وقد تزايدت بمقدمه سروراً وبشراً وأنشدته:

أنت غيث إذا وردت إلى الشّا ... م ونيل إذا يَمَّمْتُ مصرا
أطلع الشرق من جبينك شمساً ... ليس تَخفَى ومن مُحَياك بدرا
كان أمرُ التتار يستصعب الحا ... ل فصيَّرْت عُسرَ ذلك يسرا

وفتحت له أبواب نصرها التي يُفْضَى منها إلى نعمة ونعيم، وشاهدت عيون أهلها فلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرنَهُ وقَطَّعْنَ أيديَهُنَّ وَقُلْنَ حاش لله ما هذا بشراً إنْ هذا إلامَلك كَريم، والرعايا قد أصبحوا كما أمسوا بالدعاء له مبتهلين، والألسنة تتلو عليه وعلى أمرائه: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين؛ وقد أظلته سماء أديمها الحرير ونجومها الذهب وسحبها تنثر اللؤلؤ المكنون، وحيل بين سنابك خيله وبين الأرض بأثواب من إستبرق تستوقف العيون، وكوفئت عن وطء الأحجار بالأمس في سبيل الله بوطء الديباج في هذا اليوم، وكادت الأيدي تلمس معارفها تبركاً بترب الجهاد الذي حملت إليه أكرم قوم، فرأى فيها جنة أوردت من مناهلها كوثراً، وكان قد أنهى بين يديه حديث رتبتها فوجد خبرها يجاوز خبراً، ولم يجد بها عيباً غير أن صباحها حمدت به الأجفان عاقبة السرى، وتبرّجت عقائلها نزها

للنواظر، وتظهر كل واحدة منهن في وشي أبهى من الزواهر، ولبست جدرانها حلل السرور النضرة، وأبرزت بعولّهن ما في ذخـائرهم ولم يسألوا نظرة إلى ميسرة، وماست أعطافها كما أمست وجوه التهاني بها ضاحكة مستبشرة. ولما مر بسبلها حلا له ذلك النور، ولما سلك بين قصريها تحقق للناس أن أيامه زادت على أيام الخلفاء فإنها أنشأت قصرين ولهذا أنشأ لها قصوراً ما بها من قصور، فمن بُروج تمنت الدور لو كانت لها منازل، ومن قلاع لو تحصن بها جان لما دارت عليه دوائر الدهر الغوائل، ومن قباب علت وليس لها غير الهمم من عمد، وضربت على السياحة والندى فما عدِم مشيدها حسن البناء ولا فقد، ومن عقود عقد لها على عرائس السعود وتمكنت في الصعود، ومن حلي لو ظفر بها الحسن بن سهـل لاتخـذ منها لجهاز ابنته على المأمون ما لا ألف مثله في زمنه ولا عهد، ولو رآه ابن طولون لاعتضد به في إهداء عقيلته للمعتضد، ومن أواوين تزري بإيوان كسرى الذي تعظم بناؤه وتحمد، وتستصغر في عين من رأى إيواناً واحداً من هذه وكيف لا وذاك عدم في زمن محمد صلى الله عليه وسلم وهذا عمر لنصرة محمد، وذاك أهلك بانيه وزُجر، وهذا أيد بانيه ونصر، ومن سواق جوار وجوار سواق، وآلات تبهر عند رؤية حدائقها الأحداق، ومن غروس وأشجار، ورياض نضرة نبهت الأبصار؛ قد أخذت من كل المحاسن بشطر، وحلت مذاقـاً وكيف لا وقد سقيت بالقطر، ومن سفائن ترفعت حتى مرت في الجو من بحر النسيم في لجـج، ومن عجائبَ إذا حدث المرء عنها قيل له حدث عن البحر ولا حرج، ومن شخوص بالألحاظ تغازل، ودمى تسحر العقول بسحر بابل، وصور يخيل للرائي أنها تنطق، وأشكال وضعت صفة للحرب التي أضحت رايتها في الآفاق تخفق، ومن هبة العدى التي أبادتها الأبطال، وأعدمت حقيقتها فلم يبق إلا مثال يبرز في خيال، ومن جتور[1] ظهرت بها آية ملكه لما مرت بنفسها على رأسه الكريم مر السحاب، وسارت بين السماء والأرض فلم تحتـج مـع سعادته إلى عمد ولا إلى أطناب، ومن فرسان خلت الجيوش المنصورة حيث لبست لامة حربها واعتقلت رماحها، وبارزت الأقران فكان النصر من جوئها[2]، ومن أنواع احتفال يعجز عن وصفها البديـع الفطن، ولولا خوف الإطالة لقلت ومن ومن إلى أن تنفد كلمة من، والأمة يبذلون في خدمته الجمل والتفاصيل، ويصيغون له ما يريد من النزه ويعملون ما شاؤوا من تماثيل، والأسارى قد جعلوا بين يديه مقرنين في الأصفاد، يشاهدون مدينة ما ثنت إرم ذات العماد، التي لم يخلق مثلها في البلاد، وهو ــ خلد الله سلطانه ــ يسير الهوينا وينظر بعين خيرة هذا المحفل، ويقبل وأسراؤه بين يديه كالليث أقبل، للفريسة وهم يشكرون حلمه على السلامة من ريب المنون، والأفواه تنطق بشكر الله إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون، وقد بهتوا لما رأوه من نعم الله التي تنوعت له خلد الله ملكه ــ حتى أتت كل نعمة في وقتها، وعظمت في عيونهم آيات الله سبحانه ولسان الأقدار يتلو

---

(١) الجتور: جمع جتر، وهو المظلّة. وهي قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب في أعلاها طائر من فضة، تحمل على رأس السلطان.

(٢) كذا في المرجع الذي أخذنا عنه، واللفظ هنا غير مفهوم. ولعل الصواب أن يقول نحو «وكان النصر وشاحَها».

وما من آية إلا وهي أكبر من أختها. فلما نظروا بالأمن في إنجاد الملائكة العساكر المنصورة آية كبرى، شاهدوا اليوم من سعادة هذا الملك الذي ثبتت له الأقدار بين السماء والأرض مدينة فقالوا هذه آية أخرى، واستقلوا ما مروا به في المدائن والأمصار، وغدوا وعيونهم في جنة وقلوبهم في نار، واستصغروا ملكهم المخذول وملكه، وقالوا عيب عجيب لمن أقدم على هذا الملك أن يبدد جمعه ويفرط سلكه، وتحققوا أنه من أوتي هذا السعد لا يؤخر إن شاء الله إمساك كبيرهم وهلكته، ونوراً (؟) إن شاطروه في السلاسل والقيود، والسيف يقول ليس الأمر لمن يسمى خديعةً محموداً[١] محمود.

ووصل مولانا السلطان تربة والده السلطان الشهيد ــ قدس الله روحه ــ وأمراؤه قد بذلوا في محبته نفائس النفوس وجزيل الأموال وأخاير الذخائر، وركبوا بالأمس للمناضلة عن دولته في سبيل الله وقد بلغت القلوب الحناجر، وترجلوا اليوم في خدمته تعظيماً لشعائر سلطنته وطلعوا في سماء المعالي كالنجوم الزواهر. وصعد ــ خلد الله ملكه ــ تربة والده ــ رضي الله عنه ــ وأنوار النصر على أعطاف مجده لائحة، ودخلها فلولا خرق العوايد لنهض من ضريحه وصافحه، وشكر مساعيه التي اتصلت بها أعماله وكيف لا وهي أعمال صالحة.

وقصّ مولانا السلطان ــ خلّد الله ملكه ــ عند قبره المبارك من غزوته أحسن القصص، وأسْهَمَ له من بركة جهاده أوفر الحِصصَ. فلو استطاع ــ رحمه الله ــ أن ينطق لقال «هذا الولد البارّ، والملكُ الذي خلَفني وزاد في نُصرَة الإسلامِ وكسر التّتار»؛ ولو تمكّن ــ رضي الله عنه ــ لأخبره بما وجده من ثواب الجهاد في جنّات وعيون، وبشرة بما أعدّه الله لمن فُقد من المجاهدين في هذه الغزاة المبرورة بين يديه ــ وتلا عليه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذين قُتِلُوا في سبيلِ الله أمْواتاً بَل أحْيَاءٌ عند رَبِّهِمْ يُرْزَقُون﴾ ولأثنى على أمرائه الذين فعلوا من المصابرة والمحافظة ما أوجبه حسن التهذيب منه ــ رحمه الله ــ وجميل التربية، وشكر عزائمهم التي ما ناداها أهل مملكة لكشف خطب إلا أجابوهم بمواقع التلبية، واعتدّ بطاعتهم للميت والحيّ، وموالاتهم التي ذاعت في كلّ ناد وَحي، والقُرَّاء حول ضريحه يتلون آياتِ الله التي كان ــ رضي الله عنه ــ بها عاملاً، ولم يزل ربْع تقواه بها آهلاً. فشمِل مولانا السلطان ــ خلّد الله ملكه ــ الأنام بالصّدقات المتوفّرة، وسمح من الذهب والفضة بالقناطير المقنطرة، وازدحمت الأماني على سيبه، كما أزحمَت الأعادي على سيفه، فكان كما قيل:

قَـدّاح زنْـدِ المجْـدِ لاتنفَـكّ منْ   نـارِ الـوَغَـى إلا إلى نـارِ القِـرى

وركب من التربة الشريفة والرّعايا يدعون بدوام دولته التي أضحت قواعد الأمْن بها متينة، ويرتعون بالمدينة في لهو ولَعِب وزينة، وسار جوادُه بين حُليٍّ وحلل فاستوقف الأبصار، مسلكٌ حُفَّت به غُرَف من فوقها غُرَفٌ مبنيّة تجري من تحتها الأنهار؛ وعاد إلى قلعته ظافراً عوْد الحلي إلى العاطل،

(١) الإشارة إلى محمود غازان.

وغدت ربوعها الموحشة لبُعده بقُربه أو اهل، وطَلعها في أيمن طالع لا يحتاج معه إلى اختبار أو رصد؛ وجلت شمس ملكه في بُرجها وكيف لا وهو في بُرج الأسد، فالله تعالى يمتّع الدنيا منه بملك حَمَى شاماً ومصرا، وأذاق التّتار بعزائمه مصائب تترى، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولما صنّف المولى علاء الدين هذه الغزاة، وعُرضت على المسامع الشريفة السلطانية شمله الإنعام والتشريف السلطاني، ووفر حظّه من ذلك؛ وقد سمعت هذه الغزوة من لفظه، ونقلتها من خطه، وقد أتى فيها أورده بالواقعة المشاهدة.

المصادر والمراجع

الجزء الثامن

- أخبار مصر لابن ميَّسر. تحقيق أيمن فؤاد سيِّد ـ المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة ١٩٨١.
- الأعلام (معجم تراجم) لخير الدين الزركلي ـ دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦.
- إغاثة الأمة بكشف الغمة للمقريزي ـ مؤسسة ناصر الثقافية، بيروت.
- الانتصار لواسطة عقد الأمصار لابن دقماق ـ دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ـ الجزء الأول ـ تحقيق محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٢.
- البداية والنهاية لابن كثير ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.
- بلدان الخلافة الشرقية لسترانج ـ ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد، بغداد ١٩٥٤.
- تاج العروس للزبيدي ـ الكويت ١٩٦١.
- تاريخ ابن الفرات ـ مجلد ٧، ٨، ٩ تحقيق قسطنطين زريق وغيره. بيروت ١٩٣٦ ـ ١٩٤٢.
- تاريخ الإسلام للذهبي ـ (١ ـ ٦) مطبعة السعادة، مصر ١٣٦٧ ـ ١٣٦٩هـ.
- تاريخ الخلفاء للسيوطي ـ تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٦٩.
- تأصيل ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل لأحمد السعيد سليمان ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٩.
- التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمري ـ تحقيق محمد شمس الدين. دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨.
- التعريف بمصطلحات صبح الأعشى لمحمد قنديل البقلي ـ الهيئة المصرية العامة ١٩٨٤.
- الجوهر الثمين في سير الملوك والسلاطين لابن دقماق ـ تحقيق محمد كمال الدين عز الدين علي، عالم الكتب.
- الحروب الصليبية كما رآها العرب لأمين معلوف ـ ترجمة عفيف دمشقية. دار الفارابي، بيروت ١٩٨٩.
- الحوادث الجامعة والتجارب النافعة لابن الفوطي ـ دار الفكر الحديث، بيروت ١٩٨٧.
- الخطط التوفيقية الجديدة لعلي مبارك ـ الهيئة المصرية العامة ١٩٨٠ ـ ١٩٨٦.
- الخطط المقريزية (المواعظ والاعتبار) للمقريزي ـ دار صادر، بيروت.
- دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) ـ كتاب الشعب، القاهرة.
- الدارس في تاريخ المدارس للنعيمي ـ دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠.
- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ـ تحقيق محمد سيِّد جاد الحق، القاهرة ١٩٦٦.
- دول الإسلام للذهبي ـ مؤسسة الأعلمي، بيروت ١٩٨٥.
- الدولة المملوكية لأنطوان خليل ضومط ـ دار الحداثة، بيروت ١٩٨٠.

- زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك لخليل بن شاهين الظاهري ـ باريس ١٨٩٤.
- السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ـ تحقيق محمد مصطفى زيادة. القاهرة ١٩٥٦ ـ ١٩٧٢.
- شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي ـ دار الكتب العلمية، بيروت.
- صبح الأعشى في صناعة الإنشا للقلقشندي ـ طبعة دار الكتب المصرية ١٩١٨ ـ ١٩٢٢، وطبعة دار الكتب العلمية ١٩٨٧.
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للسخاوي ـ دار مكتبة الحياة، بيروت.
- طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب للسلطان الملك الأشرف عمر بن يوسف بن رسول ـ تحقيق سترستين. دار الكلمة، صنعاء ١٩٨٥.
- العلاقات السياسية بين المماليك والمغول لجوزيف نسيم ـ دار المعارف بمصر ١٩٧٦.
- الفقيه المعذب ابن تيميّة لعبد الرحمن الشرقاوي ـ سلسلة كتاب اليوم، العدد ٢٤٤، القاهرة ١٩٨٥.
- فوات الوفيات لابن شاكر الكتبي ـ تحقيق إحسان عباس. دار صادر، بيروت ١٩٧٣.
- كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون لحاجي خليفة ـ دار الفكر، بيروت ١٩٨٢.
- الكليات للكفوي (معجم مصطلحات) ـ تحقيق عدنان درويش ومحمد المصري. دمشق ١٩٨١.
- لسان العرب لابن منظور ـ دار صادر، بيروت.
- مآثر الإنافة في معالم الخلافة للقلقشندي ـ تحقيق عبد الستار أحمد فراج ـ عالم الكتب، بيروت.
- محيط المحيط لبطرس البستاني ـ مكتبة لبنان ١٩٧٧.
- مسالك الأبصار في ممالك الأمصار لابن فضل الله العمري ـ الجزء الثاني ـ تحقيق دوروتيا كرافولسكي. المركز الإسلامي للبحوث، بيروت ١٩٨٦.
- معجم الأنساب والأسرات الحاكمة للمستشرق زامباور ـ القاهرة ١٩٥١.
- معجم البلدان لياقوت الحموي ـ دار صادر، بيروت ١٩٨٤.
- معجم متن اللغة للشيخ أحمد رضا ـ دار مكتبة الحياة، بيروت ١٩٥٨.
- المعجم الوسيط ـ مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- الملابس المملوكية لماير ـ ترجمة صالح الشيتي، القاهرة.
- المماليك للسيد الباز العريني ـ دار النهضة العربية، بيروت ١٩٦٧.
- المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي ـ الهيئة المصرية العامة.
- مؤرخ المغول الكبير رشيد الدين فضل الله الهمذاني للدكتور فؤاد عبد المعطي الصياد ـ دار الكاتب العربي، القاهرة ١٩٦٧.
- الموسوعة العربية الميسرة ـ بإشراف محمد شفيق غربال ـ دار الشعب القاهرة ١٩٦٥.
- الموسوعة الفلسطينية ـ إصدار هيئة الموسوعة الفلسطينية (أحمد مرعشلي، عبد الهادي هاشم، أنيس صايغ) دمشق ١٩٨٤.
- النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ـ طبعة دار الكتب المصرية.
- النظم الإقطاعية في الشرق الأوسط في العصور الوسطى لإبراهيم علي الطرخان ـ القاهرة ١٩٦٠.
- نظم دولة سلاطين المماليك لعبد المنعم ماجد ـ مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة ١٩٦٥ ـ ١٩٦٧.

فهرس المحتويات